

عبد الله بن عرفة  
خطبتي سر المجرى  
سيرة العشق عند ابن حزم  
رواية



1. 5. 2015



دار الآداب

عبد الإله بن عرفه

طوق سرّ المحبّة  
(سيرة العشق عند ابن حزم)

رواية

دار الآداب - بيروت



طوق سرّ المحبّة

(سيرة العشق عند ابن حزم)

طوق سرّ المحبة (سيرة العشق عند ابن حزم)

عبد الإله بن عرفه / روائي مغربي

الطبعة الأولى عام 2015

ISBN 978-9953-89-479-9

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع



ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123 - 11

بيروت - لبنان

هاتف: (01) 861633 - (03) 861632

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com



/Dar.Al.Adaab



@DarAlAdab



daraladab.com

رسم وجه الغلاف: طوقُ سِرِّ حَمَامَةِ المَحَبَّةِ، بأحرف الفاتحة النورانيَّة «طسم».



## إهداء

إلى طاء، وسين، وميم،

إلى طسم،

إليك، وإليك ثم إليك،

إليك أهدي هذا السُّفْرَ الْمُنَسَّم بِشَذَا المحبّة، تَأْسِيًّا بابنِ حزم،  
وَبِمَنْ سَنَ تَضِيَعُ الحزم تَفْتِيًّا على الأُحباب،

إليك أنتِ أَيْتُهَا الحمامَةُ المَطْوَوَّة بِسِرِّ المحبّة المؤنسة لقلوبِ  
المهَيِّمين، وأرواحِ العاشقين،

إليك أهدي طوقَ سِرِّ مَحَبَّتِي من الطّاق إلى الطّاق، مُنْشِدًا  
لَحْنَ الأُلْفَةِ والتَّلَاقِ.





﴿طسم تلك آيات القرآن وكتاب مبین﴾

\* \* \*

إِنَّ الْمَقَادِيرَ أَوْزَانٌ مُنظَّمَةٌ      تَأْتِي بِهَا ظِلَلٌ مِنْ فَوْقِهَا ظِلَلٌ  
مِنَ الْغَمَامِ وَمِنْ غَيْرِ الْغَمَامِ يُرَى      عِنْدَ التَّنَزُّلِ فِي أَعْجَازِهَا كُلُّ  
تَحْوِي عَلَى كُلِّ مَعْنَى لَيْسَ يُظْهِرُهُ      إِلَّا الْحَطَابَةُ وَالْأَشْعَارُ وَالْمَثَلُ  
فَمِنْهُ مَا هُوَ مَحْمُودٌ فَمُرْتَفِعٌ      وَمِنْهُ مَا هُوَ مَذْمُومٌ فَمُنْسَفِلٌ  
وَمَنْ يُنَازِعُنِي فِيمَا أَفْوَهُ بِهِ      فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا

ابن العربي الحاتمي

(الباب ٣٥٨ من الفتوحات المكية)

المخصص لسورة الشعراء المفتحة بـ «طسم».

\* \* \*



## (طسم) طَوْقُ سِرِّ الْمَحَبَّةِ

وَضَعْتُ بِكَفِّيْهَا يَدِي وَسَأَلْتُهَا      عَلَامَ يَدِي قَدْ أَخْبَرْتِكِ خُطُوْطُهَا  
فَقَالَتْ وَحَالُ الْعُجْبِ يَبْدُو عَلَى فِيهَا      فَوَاللَّهِ إِنْ الْقَلْبَ قَاسِ بِحُرْقَاهَا  
وَقُلْتُ لَهَا هَلْ لِي بِتَوْضِيحِ مَا خَفَى      فَقَالَتْ رَعَاكَ اللهُ يَكْفِيكَ لِأَوَاهَا  
فَقُلْتُ لَهَا إِنْ الْقَلْبَ إِذَا قَسَتْ      فَعَنْ فَقَدْ نَعْمُ<sup>(١)</sup> قَدْ لَيْسَنَ مُسُوْحَهَا  
وَقُلْتُ لَهَا مُنِّي عَلَى مُغْرَمِ بَكِي      بِمَحْضَرِ قَوْمٍ شَاهَدُوا دَمَعَ سُقْيَاهَا<sup>(٢)</sup>

(١) نَعْمُ: اسم حببية ابن حزم التي اُخترتها البَيِّن والموت في سن مبكرة، فبكاها بحرقه شديدة في «طوق الحمامة». وهي إحدى شخصيات هذه الرواية وبطلاتها. والمُسُوْحُ: لباس الرهبان الأسود، كناية عن القسوة والحزن بفراق نَعْمُ.  
(٢) إشارة إلى حال عجيب انتابني أثناء قراءتي شعراً لأحد كبار المحققين في محاضرة ألقيتها في الدورة الثامنة لمهرجان تماوايت الثقافي في مدينة ورزازات في المغرب في أيار / مايو ٢٠١٤، فلم أستطع مواصلة الإلقاء وانتقل الحال إلى الحضور، فساد صمت روحاني عجيب.

فَقَالَتْ شِفَاكَ اللهُ يَا عَاشِقَ القَطَا وَدَاعَا، فَقَدْ طَارَ القَطَا<sup>(١)</sup> عَنَ أَرَاكِهَا  
فَقُلْتُ لِصَاحِبِي هَلْ بِرِيشِ سِوَاكِهَا جَنَاحًا يَطِيرُ بِي إِلَى عِشٍّ مَأْوَاهَا  
فَيَا لَيْتَهَا تَحْنُو عَلَيَّ مُدْنِفٍ أَضْحَى رَهِينًا، يُعَانِي شَوْقَهَا عِنْدَ ذِكْرَاهَا  
فَقَطَّاسِيْنُ مِيسِمٍ فَتُحُّ بَابِ لِأَوْزَانِ مَتَى أَسْمَعْتَنَا مِنْ لَطِيفِ غِنَائِهَا<sup>(٢)</sup>  
وَفِي رَجَبٍ كَانَ اجْتِمَاعُ أَجَبَّةٍ وَمِنْهُ سَرَوْا فِي لَيْلِ عِشْقِي لِطُوبَاهَا  
وَلَمَّا بَدَأَ شُعْبَانُ فِي إِثْرِهِ ضُحَى تَنَاقَلَ نَاسٌ مَا رَوَيْنَا لَهَا عَنْهَا  
كَذَا قَالَ فِي طُوقِ الحَمَامِ ابْنُ حَزْمِهِ فَبَاحَ بِأَسْرَارِ وَلَمْ يَدْرِ صَوْنَهَا  
وَنَحْنُ عَلَيَّ إِثْرِ المَحْبِبِينَ نَقْتَفِي شَرِيعَتَهُمْ فِي الحُبِّ حَتَّى نُؤْفِيهَا  
وَلَمَّا مَضَى لَيْلُ حَزِينٍ بِأُفْقِنَا وَأَضْبَحْتُ فِي حَالِ الجَلَالِ يَبْلُوَاهَا  
سَلَوْتُ بِسُقْمٍ إِذْ تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ مِنَ الوُزُقِ نَاحَتْ فَقَدْ إِفَّ بِمَغْنَاهَا  
وَلَمَّا دَنَا شَهْرُ الصَّيَامِ بِعَرَبِنَا تَرَآى هِلَالُ الشُّكِّ شَمْسًا بِعَلْيَاهَا  
فَأَعْلَنْتُ صَوْمِي عَنَ هَوَاهَا بِعَزْمَةٍ تَذُوبٌ لَهَا أَكْبَادُ قَوْمٍ بِسَلَوَاهَا  
فَمَا إِنْ مَضَتْ أَيَّامُ صَوْمٍ بِهَا حَتَّى تَفْطَرَ قَلْبِي قَبْلَ فِطْرِ غُرُوبِهَا

(١) القطا: نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويطير جماعات. وفيه إشارة إلى أن قَطَاة قد حَلَّقَتْ مع سِرْبِهَا وترَكْتُهُ وَحِيدًا. ومن باب الإشارة العددية، فعدد كلمة «قط» ١٠٩ هو نفسه عدد «طسم» يدل على منتهى الأعداد، فالتسعة منتهى دور الآحاد، والمائة منتهى أدوار الأسماء المحصاة. وكلّ الأعداد منحصرة بين الواحد والتسعة والصفير. ولا بن حزم بطل هذه الرواية علاقة وثيقة بهذا العدد وهذه الفاتحة. ووراء هذه الإشارات بحار عرفانية.

(٢) إشارة إلى فاتحة سورة الشعراء التي هي سورة الأوزان والألحان العلوية كما في قصيدة ابن العربي أعلاه. كما أن أبيات القصيدة ١٩ على عدد (طسم) بالجمل المشرقى الصغير.

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُفِطِرْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْ وَمَا كُلُّ صَوْمٍ عَنْ هَوَاهَا يُجَارِيهَا

د. عبد الإله بن عرفة

\*\*\*

لَمَّا أَنْشَأَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ أَطْلَعْتُ عَلَيْهَا مَعَالِي الدُّكْتُورِ عَبْدِ  
العَزِيزِ التَّوَيْجِرِيِّ، المَدِيرِ العَامِّ لِمُنْتَظَمَةِ الإِسْتِيسْكَو، والشَّخْصِيَّةِ  
الدَّوْلِيَّةِ البَارِزَةِ، يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ ١٨ رَمَضَانَ ١٤٣٥ هـ/ ١٦ - ٠٧ -  
٢٠١٤ م، فَأَنْشَأْتُ قَصِيدَةً عَلَى مَنَوَالِهَا فِي اليَوْمِ نَفْسَهُ وَتَفَضَّلَ  
بِإِرْسَالِهَا إِلَيَّ، حَيْثُ سَبَّكَهَا سَبْكًا رَائِقًا فِي شِعْرِ مَطْبُوعٍ وَأَسْلُوبٍ  
جَزَلٍ مَعَ رَهَافَةٍ شَعُورٍ وَإِجَادَةٍ نَظْمٍ وَصِدْقٍ حَالٍ، ثُمَّ أَضَافَ لَهَا بَيْتًا  
فِي آخِرِهَا. إِنَّ القَصِيدَتَيْنِ مَعًا تَعَكَّسَانِ تَنَاطُوحَ الأَرْوَاحِ فِي غَيْضَةِ  
العُضَا، وَقَدْ جَاءَتْ طَافِحَةً بِالشُّوقِ المُبْرِحِ وَالجَوَى، وَمَنْ طُرِفَ  
الأَشْعَارَ بِأَعَزِّ مَا يُنْشَدُ فِي حَقِّ سِرِّ طُوقِ المَحَبَّةِ وَالهَوَى، صَحَّ بِهِ  
لَهُمَا أَنْ يَدْخُلَا التَّارِيخَ الأَدَبِيَّ مِنْ بَابِهِ الوَاسِعِ، احْتِفَاءً بِصُدُورِ هَذِهِ  
الرَّوَايَةِ فِي الذِّكْرِ الأَلْفِيَّةِ لِابْنِ حَزْمٍ.

فَلِمَعَالِي الأَخِ الدُّكْتُورِ عَبْدِ العَزِيزِ التَّوَيْجِرِيِّ، المَفْكَرِ  
الحَضَارِيِّ الأَصِيلِ، وَالأَدِيبِ الشَّاعِرِ الرِّصِينِ، مَنِّي سَوَابِغُ الشُّكْرِ  
وَسَوَابِغُ المُوَدَّةِ عَلَى أَرِيحِيَّتِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَمُبَادَرَتِهِ لِلْمَكْرَمَاتِ.

وهذا نص قصيدته:

وَضَعْتُ بِكَفِّيْهَا يَدِي وَسَأَلْتُهَا      عَنْ أَيِّ شَيْءٍ أَخْبَرْتِكِ خَطُوطُهَا  
فَقَالَتْ وَحَالَ العُجْبِ يعلو جبينها      قَسَا قَلْبُ مَكْلُومٍ رَمْتُهُ صرُوفُهَا  
فَقُلْتُ لَهَا هَلْ لِي بِتَوْضِيحِ غَامِضٍ      فَقَالَتْ رَعَاكَ اللهُ بَانَثَ رَسُومِهَا

فقلت لها قلبي إذا كان قد قَسَا  
فَجِئْتِي عَلَى صَبِّ شَغُوفٍ إِذَا بَكَى  
فَقَالَتْ شِفَاكَ اللهُ يَا عَاشِقَ الْقَطَا  
فَقُلْتُ فَهَلْ لِي بَرِيشٍ يَطِيرُ بِي  
فِيَا لَيْتَهَا تَحْنُو عَلَى مُدْنَفٍ غَدَا  
فَطَاسِينُ مَيْمٍ فَتُحُّ بَابِ غَنَائِهَا  
وَفِي رَجَبٍ كَانَ اجْتِمَاعُ أَحَبَّةِ  
وَلَمَّا بَدَأَ شَعْبَانُ فِي إِثْرِهِ ضُحَى  
كَذَا قَالَ فِي طُوقِ الْحَمَامِ شَيْخُنَا  
وَنَحْنُ عَلَى دَرَبِ الْمُحِبِّينَ نَقْتَفِي  
وَلَمَّا مَضَى لَيْلُ حَزِينٍ وَغَادَرْتُ  
سَلُوكَ بَنُوحٍ مُفْجِعٍ مِنْ يَمَامَةِ  
وَلَمَّا دَنَا شَهْرُ الصِّيَامِ بَغْرِبْنَا  
نَوَيْتُ صِيَامًا عَنْ هَوَاهَا بَعْزَمَةِ  
وَمَا إِنْ مَضَتْ أَيَّامُ صَوْمٍ تَفْطَرْتُ  
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَفْطِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْ  
كَذَا قَدَّرَ الْمَوْلَى الْأُمُورَ بِحِكْمَةِ

فَمِنْ فَقَدِ نِعْمٍ لِلْقُلُوبِ مُسَوِّحُهَا  
أَمَامَ أَنَاسٍ شَاهِدَتُهُ عِيُونُهَا  
فَإِنَّ الْقَطَا قَدْ وَدَعْتَهُ وَكُورُهَا  
إِلَى دَارِهَا حَتَّى يَحِينَ قَطُوفُهَا  
رَهِينًا لَشَوْقٍ عَذَّبَتْهُ طَيُوفُهَا  
وَالْحَانِهَا وَالتَّالِيَاتُ فَرُوعُهَا  
عَلَى ذِكْرٍ مِنْ قَدْ أَنْجَبَتْهُ طَيُوبُهَا  
تَنَاقُلُ أَحْبَارَ الرِّوَاةِ شَيُوخُهَا  
عَلِيُّ بْنُ حَزْمٍ فَاسْتَبَانَتْ غَيُوبُهَا  
شَرِيعَتَهُمْ فِي الْحَبِّ فَالْصَدَقُ رُوحُهَا  
مَعَ الْفَجْرِ أَطْيَافٌ وَفَاضَتْ دَمُوعُهَا  
تُغْنِي وَقَدْ وَلَّى وَتَاهَ أَلْيَفُهَا  
وَلَجَّ بِعَذْلِي فِي هَوَاهَا عَذُولُهَا  
فَذَابَتْ بِسَاحِ الْقَوْمِ مِنْهَا كِبُودُهَا  
حَنَايَا فَوَادِي وَاسْتَهَلَّ غُرُوبُهَا  
وَمَا كُلُّ صَوْمٍ عَنْ هَوَاهَا يَعْيبُهَا  
وَكَلُّ أُمُورِ الْكُونِ مِنْهُ وَرُودُهَا

## كتاب الطاء

«رأيتُ النبي ﷺ في المنام وقد غَشِيَهُ التَّور، وقد عانقَ  
أبا محمَّد بن حزم المحدث، فغابَ الواحدُ في الآخر،  
حتى كأنهما جسدٌ واحد، فلم نرَ إلَّا واحدًا وهو رسولُ  
الله ﷺ»

كتاب المبشرات،

محيي الدين ابن العربي

\* \* \*

طَسَمَ شهرُ رمضانَ فَهَلَّ الطُّفْلُ صارخًا قبلَ طلوعِ شمسِ يومِ  
الأربعاءِ مُتِمَّ الثلاثينَ عام ٣٨٤ هـ.

كانت قرطبةُ كالطفلةِ اللعوب تستعدُّ للعيد في هذا اليومِ  
المشمس. الناسُ في حركة دائبة، والأسواقُ مكتظة لشراء لوازم  
العيد. ازدادت الجلبة والزحام عند عصرِ هذا اليوم. كانت المدينةُ

مُكْتَظَّةً بالقرويين القادمين من البوادي والأرياف لشراء ما يلزمهم . وفي الباحات الممتدة على طول سور القَصْبَةِ بين باب عبد الجبّار والباب الجديد كان المهرّجون، ويُعرفون عند القرطبيين باسم أهل التَّخْيِيل يرتدون زيَّ القَرَوِيِّين ويستخفون بحركاتهم ولباسهم . وَقَفَ أَحَدُ هؤلاء القرويين يَنْظُرُ إلى صورته المَسِيخَةِ في ذلك المهرج فغاظه هذا الاستخفاف، وزمجر في نفسه حديثاً لكنه أكمل طريقه . كان الناسُ متحلّقين حول أهل التخييل لمشاهدة مهاراتهم وخِفة حركاتهم في تلك الألعاب السّحرية التي يأتون بها .

ثم مرّ زجّالٌ يُنشدُ زجلاً بالمناسبة، فالتفت إليه أحدُ القوم ونقده قطعة معدنية، فتوقف الزّجالُ يُعَايِنُ القِطْعَةَ ثم ابتسم للرجل وأوماً إليه برأسه عرفاناً . رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مَرَّةً أُخْرَى يُوَزِّعُ الكَلَامَ الموزونَ على المتحلّقين .

كانت قرطبةُ مُكْتَظَّةً بالناس الذين جاؤوا من كلِّ جهة ليشاهدوا عروض الرّاقصين والمعتمين والخيّالين الذين يتلاعبون بالخيال أو الظلال فينطقون خيالات الدّمي بحكايات عجيبة . وفي ركنٍ آخر من أركان المدينة العتيقة المعروفة بالقَصْبَةِ غير بعيدٍ عن الباب الجديد بين السوق والقَصْبَةِ، جلس بعض الحاسبين يقرأ الغيوب للعوام والحالمين بالسعادة وبالذي يأتي أو لا يأتي . وفي ركنٍ آخر عند الرصيف، انتصب أحد القصاصين أمام سور المدينة الذي يفصلها عن النهر الكبير، يحكي حكايات طويلة من السيرة النبوية يُدكّر بها القوم، فتراه يزيد وينقص ويؤثث البياضات التي يجهلها من خزانة خياله الكبيرة، فيشدُّ الناسَ إليه . مرّ أحدُ الفقهاء فانهى



إلى سمعه بعض ما يحكيه هذا القصاص، فنظر إليه مُتَبَرِّمًا  
مُحَوِّقًا. لم يتمالك نفسه حتى قال له: هَلَّا تَرَكْتَ يَا هَذَا سَرْدَ  
السيرة للعلماء بدل أن تَخْتَلِقَ الأكاذيب في هذه الليلة المباركة!

فقال له القصاص: يا سيدي، أنا لا أختلق الأكاذيب وإنما  
أروي بالسند المتصل حكاية أخذتها عن ابن إسحاق الراوية شيخ  
القصاصين في الأندلس، وقد رواها مُسلسلةً شيخًا عن شيخ.

تعجَّبَ الفقيه من صفاقة القصاص الذي استهزأ به باستخدام  
مصطلحات المحدثين، وسلك شيخه المزور في عداد رواة السيرة،  
فقال له مُهددًا: سأبلغ المحتسب عن قلة أدبك وتجنُّيك على  
الحُرُمات. والأفضل لك أن تترك ما أنت فيه وتستعِضَ عن ذلك  
بذكر أخبار الصُّعاليك أمثالك. أمَّا السيرة فشأنها عظيم. ثم تأبَّط  
لبُدَّةَ صَلاته وأتَّجَهَ نحو المسجد الجامع الذي ازدهى بعد التوسعة  
الكبيرة التي تمَّت في عهد المنصور بن أبي عامر قبل سبع سنوات  
خَلَّتْ لاستيعاب العَدَدِ الكبير من المصلِّين.

تلقَى أبو عمر أحمد بن سعيد في هذا اليوم خبرَ ولادة  
زوجته مباشرةً بعد سلام الإمام من صلاة صُبحِ يوم الأربعاء مُتَمِّمٌ  
ثلاثين من رمضان، إذ جاءه أحدُ ألفتين الواقفين على الخدمة  
مُسرِّعًا وأعلمه بالنبأ فسرَّ بذلك سُورًا عظيمًا. عاد الكهل الذي  
كان عُمره سبعًا وخمسين عامًا، على عَجَلٍ إلى بيته، وبقي طوال  
اليوم في دُوره الجديدة بالجانب الشرقي في رَبِضِ المغيرة من  
مدينة الزاهرة الذي انتقل إليه بعد بناء المنصور لها. وبعد العصر  
مرَّ ببيته القديم في بلاط مُغيث داخل المدينة القديمة لحاجة له

هناك رُفْقَةً رَجُلَيْنِ من رجاله، وَأَحَبَّ أَنْ يُعَايِنَ جَلْبَةَ قَرْطَبَةَ لَيْلَةَ العيد اسْتِرْوَاخًا من تَعَبِ هذا اليوم الأخير من رمضان. خرج من باب إشبيلية فَزَكَمَ أَنْفَهُ أَفَاوِيَهُ العَطَّارِينَ حتى سُمِّيَ البابُ الذي مَرَّ منه باسمهم. كانت النساءُ أَكْثَرَ رُوَادِ هذا الباب لأنَّ التَّجَّارَ كانوا يَغْرِضُونَ فيه العُطُورَ والزُّبُوتَ والصَّابُونَ والبُخُورَ والتوابل. مَرَّ أحمد بن سعيد مُسرِعًا من باب العطارين المعروف أيضًا بباب إشبيلية باتِّجَاهِ حيِّ الرصيف، وكان سورُ المدينة عن يمينه والمسجدُ الجامع عن يساره، وخَلَفَهُ قصرُ الخلافة. ثم وصل إلى السوق، فرأى بعض بائعي الدَوَامَاتِ والصور، فاقتنى دَوَامَةً لولده أبي بكر، وأخذ معها حَيْطَهَا ثم لَفَّه حولها وأرسلها إلى الأرض فدارت مُدَّةً ثم تَوَقَّفَتْ. تبسَّم قليلاً لأنَّه رغم تقدُّمه في السَّنِّ ومُفَارَقَتِهِ لِسِنَّ الحداثة لم يَفْقِدْ حَذَقَهُ في إرسالها إلى الأرض. ثم استرعاهُ صوتُ شَيْخٍ مُتَسَوِّلٍ فَرَقَّ له قلبُه وأخرجَ مالاً من جَيْبِهِ ودَسَّه في يد الشيخ. كانت الأعيُنُ تترصَّد اليَدَ المتصدِّقَةَ، فَتَكْوَمَ حَشْدٌ من المتسَوِّلِينَ حول أحمد بن سعيد، منهم من يصيح مُدَّعِيًا أَنَّهُ مصاب بوجع الحَصَا، وآخر يتظاهر بالعَرَج، وثالث يُظهِر يديه المتقرَّحَتين. حاول رجالُه أن يدفعوهم، لكنَّه أومأ إليه بإشارة أن يَتْرُكُوهُمْ. ثم أخرجَ من جيبه مالاً وتصدَّقَ به على حَشْدِ المتسَوِّلِينَ الذي أحاطَ به. لم يَبْقَ في جيبه ما يُعْطيه لكنَّهم أَرَعَجُوهُ بكثرة السؤالِ فَردَّهْمُ بِلُطْفٍ، ثم تَمَادَوْا في مَدِّ أَكْفِهِم وتعالَت أصواتُهُم، وبدأ بعضهم يدفَعُ الآخرَ حتى يكونَ بمراى ومَسْمَعٍ من أحمد بن سعيد. حاول أن يُسَكِّتَهُم لكن لا فائدة من

ذلك. وبينما هو يحاول التخلّص منهم رفقةً رجاله إذ سمع وقعَ حَوَافِرِ خَيْلٍ على الأرضِ المُبَلَّطَةِ، وظهر رجالُ الشرطة على خيولهم، فأنفضَّ الحشدُ بسرعة البرقِ عن أبي عمر أحمد بن سعيد في كلِّ اتجاه، وتنفسَ أخيراً الصعداء. أمسكتِ الشرطةُ بأحد المتسولين الذي أخذ يئنحُ ويستعطفُ، لكنهم لم يلتفتوا إلى استغاثته، فتحوّل يستعطفُ أحمد بن سعيد ويستنجدُ به حتى يُطلقوه. رَقَّ أبو عمر للرجل وقال للشرطة بعدما حسَرَ عن وجهِهِ ظَرَفَ عِمَامَتِهِ: هَلَا أَطْلَقْتُمُوهُ يَذْهَبُ لِأَهْلِهِ فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ!

أدرك الخيالة أن الذي يكلمهم هو الوزير، فقال أحدهم: أَمْرُكَ سَيِّدِي، وَأَطْلَقَ فَوْراً الرَّجُلَ.

بعد أن طاف أحمد بن سعيد في المدينة، واسترَوَحَ من طول يومه وجُهدِ الشهر الفضيل، عاد أدراجه إلى بيته في الزاهرة الملاصقِ لقصر المنصور، بعدما اشترى ما يلزُمُ لأهل بيته، وتكفَّلَ رجاله بحمله.

دخل إلى قصره واطمأنَّ على زوجته وهشَّ في وجهها. ثم تلقَّاه ولدهُ أبو بكر الذي كان يبلغُ من العمر خمسَ سنوات فَحَمَلَهُ وَقَبَلَهُ ثم بشره بولادة أخ أصغر له، وقال: هل تُريدُ أن تُلقِي نظرةً على أخيك؟ أو مآً الولدُ الصغيرُ برأسه مُستعجلاً رؤيةً هذا المنافس الجديد.

كان الرضيع يعُظُّ في نومه على مهدٍ رفيع الصنع. تقدَّم أبو عمر من المهد وهو يحيل ولده أبا بكر، واقترب من الرضيع الذي فتح عينيه فجأة. ارتعب أبو بكر من العينين الكبيرتين ونظرتهما

الغريبة رغم صغر سن أخيه، فارتدَّ إلى صدر أبيه يحتمي من قوَّة نظرات أخيه الصغير. أدرك الأب خوف ابنه فربت على ظهره وأبعده من المهد بعدما كان ينوي أن يقبل ابنه الصغير. ثم وضع أبا بكر أرضاً فراح يعدو إلى مربَّيته التي كانت خلف الباب تنتظره. فتحت له ذراعيها فأسلمها نفسه ومخاوفه وارتدى في حضنها هرباً من النظرات التي ظلت تطاردُ مخيلته.

بدأ بردُ المساء ينزلُ وأذن المؤذنُ لصلاة المغرب. جلس أحمد ابن سعيد إلى مائدته رفقة ابنه وأهله وتناول الفطور الرمضاني. استهلَّ بتمرتين وكأسٍ من الحليب معطرٍ بالزعتر. ثم أخذ بيضاً مسلوفاً وحريرةً لذيذة. كانت أطباق الملاوي والمسمن والرائف والبغارير<sup>(١)</sup> مرصوصةً في صحاف كبيرة، فتناول منها بعض القطع. ثم أخذ جنباً طرياً واحتسى شراباً بارداً. وقام بعد ذلك للصلاة. وقف ابنه أبو بكر إلى جانبه يقلدُ حركاته، فلما سجد امتطى ظهره فتلبثت الوالد ريثما ينزل ابنه عن ظهره، فلما لم يفعل أخذه ووضعته إلى جانبه ثم أكمل صلاته. غمرته السعادة ورفع يديه بالدعاء في صمت. وبعد أن مسح على وجهه مؤمناً، قام فلف لبنته<sup>(٢)</sup> الصوفية ووضعها جانباً. ثم عاد إلى مائدة الإفطار فتناول بعض الفواكه. وبينما هو كذلك إذ مرَّ الطبال يقرعُ

(١) أنواع من المخبوزات المعجنات اللذيذة، بعضها دائري الشكل والآخر مربع، وثالث به ثقب صغيرة على وجهه الأعلى، تدهن بالزبد والعسل.

(٢) اللبود المغربية مشهورة من القديم، وهي من الصوف المتلبد، وعادة ما كانت تستعمل للصلاة، أو جلوساً للخيل.

على طَبْلِهِ، ثم صَاحِبُ النْفِيرِ يُجَاوِبُهُ بِآلَةِ النْفُخِ النَحَاسِيَّةِ. أَمَرَ أَبُو  
عمر أَحَدَ الخَدَمِ بِأَنْ يُنَاوِلَ الرَّجُلَيْنِ بَعْضَ المَالِ نَظِيرَ خَدَمَاتِهِمَا  
طوال الشهر، إذ كانا يَتَوَلَّيَانِ إيقَاطَ النَّائِمِينَ لِلسُّحُورِ وَصلاةِ  
الصُّبْحِ. وَبعدَ أَنْ تَسَلَّمَ الرَّجُلَانِ الأَعْطِيَّةَ عَبْرًا عَن بَهجَتِهِمَا بِأَنْ زَادَ  
الطَّبَّالُ فِي قَرْعِ طَبْلِهِ، وَالنَّفَّارُ فِي نَفْخِ نَفِيرِهِ.

\*\*\*

كان المنصورُ بن أبي عامر قد قَطَعَ عهدًا على نفسه أَنْ يُغَيَّرَ  
على المركز الرُّوحي للنصارى في مدينة شانت يا قَب في أقصى  
شمال غربي شبه جزيرة الأندلس.

وفي يوم السبت لِسِتِّ بَقِيَيْنَ من جمادى الآخرة صيف سنة  
٣٨٧ هـ خرج المنصورُ مع رجاله، وخرج برفقته الوزير أبو عمر  
أحمد بن سعيد بن حزم الذي ودَّعَ أهله وَقَبَلَ ولديه الصغيرين أبا  
بكر الذي كان يبلغ وقتها ثمانين سنوًا، والصغير علي الذي كان  
يلعب ثلاثًا.

تحركَ الجيشُ من الفرسان في الوقت الذي تحركَ أيضًا  
الأسطُوطُ الأندلسي من مَرَسَاهُ أَمَامَ قَصْرِ أَبِي دَانِسِ جنوبي مدينة  
أشبونة على الشواطئ الغربية يحمل المشاة والعتاد والذخيرة  
والمؤن. اخترق المنصور بفرسانه الأندلس الغربية يَعْجُرُ الأنهارَ  
وَيَخْتَرِقُ الجِبَالَ الوَعْرَةَ مرورًا بمدينة قُورِيَّة. ثم أَبْعَدَ في تلك البلاد  
شمالاً حتى وصل إلى مدينة قلمرية ثم بازو فاستولى عليهما. ولما  
رأى أمراء الممالك النصرانية الواقعة أراضيهم بين نهر دُوَيْرُهُ ونهر  
مِنِيهِ زَحَفَ المنصور قَدِمًا كَثِيرًا منهم لتقديم الولاء والانضمام

لجيشه، فَسَارُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى نَهْرٍ دُوَيْرُهُ. كَانَ الْأَسْطُولُ الْأَنْدَلِسِيُّ قَدْ دَخَلَ فِي النَّهْرِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي اخْتَارَهُ الْمَنْصُورُ قَرَبَ أَحَدِ الْحُصُونِ لِلْعُبُورِ بِالْجَيْشِ، فَاصْطَلَفَتِ السُّفُنُ بَيْنَ ضِفَّتَيْ النَّهْرِ وَشَكَّلَتْ جِسْرًا عَبْرَ مَنْهُ الْجَيْشِ. أَبْعَدَ الْمَنْصُورُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ يَخْتَرِقُ السَّهْلَ وَالْحَزْنَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَبَلٍ شَامِخٍ شَدِيدِ الْوُعُورَةِ لَا مَسَالِكَ فِيهِ وَلَا طُرُقَ، وَلَمْ يَهْتَدِ الْأَدْلَاءُ لِغَيْرِهِ فَأَمَرَ مَنْ شَقَّ مِنْ رِجَالِهِ مَسْلَكًا بِتَوْسِيعِ الشُّعَابِ فَاجْتَازَ الْجَيْشُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى نَهْرِ مُنْيَةَ، فَعَبَّرَهُ وَصُولًا إِلَى بَسَائِطٍ وَاسِعَةٍ، فَحَلُّوا فِي دَيْرِ قُسْطَانَ مِنْ بِلَادِ جِلْقِيَّةَ عَبْرَ شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ. وَفِي طَرِيقِهِ كَانَ الْمَنْصُورُ يَسْتَوْلِي عَلَى الْحُصُونِ وَالْأَدْيِرَةِ وَيُخَرِّبُهَا وَيَغْنَمُ مَا فِيهَا. كَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّصَارَى قَدْ هَرَبَ أَمَامَ زُخْفِ جَيْشِ الْمَنْصُورِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ قَطَعَ إِلَى الْجُزْرِ الْمُقَابِلَةِ لِإِبْلَادِهِمْ فِي الْبَحْرِ فَسَارَ فِي إِثْرِهِمْ جُنُودُ الْمَنْصُورِ فَأَسْرَوْهُمْ وَغَنِمُوا مَا عِنْدَهُمْ. كَانَ مِنْ بَيْنِ الْهَارِبِينَ قَسَاوِسَةٌ تَخَفُوا فِي زِيٍّ فَلَاحِينَ. فَلَمَّا أَمْسَكُوا بِهِمْ وَجَدُوا فِي ثِيَابِهِمْ بَعْضَ مَا يُتَّهَمُ الْهَارِبُ بِسَبِّهِ. اسْتَعَانَ رِجَالُ الْمَنْصُورِ بِبَعْضِ النَّصَارَى الْمُرَافِقِينَ لَهُمْ فِي الْكُشْفِ عَنِ الْأَسْرَارِ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْقَسَاوِسَةُ، فَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ يَحْمِلُ بَيْضًا فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ وَسَأَلُوهُ عَنِ سَبَبِ حَمَلِهِ لِلْبَيْضِ مَعَ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْجُو بِنَفْسِهِ بَدَلِ أَنْ يُعَيِّقَ هَرَبَهُ بِسَلَةِ الْبَيْضِ الَّتِي كَانَ يَحْمِلُهَا. كَانَ جَوَابُهُ مُبْهَمًا وَتَدَرَّعَ بِأَنَّهُ كَانَ يَقْصِدُ بِذَلِكَ إِعَالََةَ رَعَايَا الْكَنِيسَةِ مِنَ الْفُقَرَاءِ. كَسَرَ أَحَدُ الرِّجَالِ بَيْضَةً لَتَنَاوُلَهَا فَفُوجئوا بِأَنَّ عَلَى جِدَارِ قِشْرَتِهَا الدَّاخِلِي الْأَبْيَضِ كِتَابَةً لَاتِينِيَّةَ غَيْرَ مَفْهُومَةٍ. سَأَلُوهُ عَنِ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ

ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظْمَى، وَأَنَّ هَذِهِ كَرَامَةٌ لَهُ يَتَوَجَّحُ عَلَيْهِمْ بِمُقْتَضَاهَا أَنْ يُعَامِلُوهُ مُعَامِلَةً حَسَنَةً وَيُطْلِقُوا سَرَاحَهُ. تَحَيَّرَ الرَّجَالُ فِي أَمْرِ الْقَسِّ وَاقْتَادُوهُ إِلَى الْمَنْصُورِ. فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَفَرَّسَ فِيهِ الْمَنْصُورُ ثُمَّ أَخَذَ الْبَيْضَةَ الْمَسْلُوقَةَ الَّتِي عُثِرَ فِيهَا عَلَى النَّصِّ الْمَكْتُوبِ، فَأَمَرَ رَجَالَهُ بِإِزَالَةِ قَشْرِ الْبَيْضِ الْمَتَّبَقِيِّ. كَانَتْ مُفَاجَأَتُهُمْ عَظِيمَةً لَمَا وَجَدُوا بِدَاخِلِهِ نُصُوصًا مَكْتُوبَةً. سَأَلَ الْمَنْصُورُ الْقَسَّ مَرَّةً أُخْرَى عَنْ سِرِّ هَذِهِ الْكِتَابَةِ فَكَرَّرَ كَلَامَهُ السَّابِقَ، ثُمَّ رَسَمَ إِشَارَةَ الصَّلِيبِ وَانْكَفَأَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ مُبْتَهَلًا. لَمْ تَنْظِلِ الْحِيلَةُ عَلَى الْمَنْصُورِ الَّذِي أَمَرَ بِإِحْضَارِ أَحَدِ النَّبَلَاءِ الْمَسِيحِيِّينَ الْمُرَافِقِينَ لِلْجَيْشِ وَطَلَبَ مِنْهُ تَرْجَمَةَ النُّصُوصِ الْمَكْتُوبَةِ بِدَاخِلِ الْبَيْضِ. تَرَدَّدَ النَّبِيُّ أَوَّلَ الْأَمْرِ ثُمَّ أَفْصَحَ لِلْمَنْصُورِ بِأَنَّ النَّصَّ يَتَضَمَّنُ تَحْذِيرًا بِوُضُوعِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَطْلُبُ الْعَوْنَ مِنْ حَبْرِ الْكَنِيسَةِ الْأَعْظَمِ. ثُمَّ تَرَجَّمَ لَهُ بَاقِي النُّصُوصِ الَّتِي كَانَتْ تَتَضَمَّنُ الْمَعْنَى نَفْسَهُ وَهِيَ مُوَجَّهَةٌ لَجِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، بَعْضُهَا لِمَلُوكِ جَلِيْقِيَّةِ وَلِيُونِ وَقَشْتَالَةَ وَفَرَنْسَا، وَبَعْضُهَا الْآخَرِ مُوَجَّهَةٌ لِرُؤَسَاءِ الْأَدْبِرَةِ الَّتِي عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى شَانْتِ يَاقُبَ.

التَفَّتَ الْمَنْصُورُ إِلَى الْقَسِّ وَقَالَ لَهُ: مَا قَوْلُكَ فِي هَذِهِ الْكَرَامَةِ الْعَجِيبَةِ أَيُّهَا الْقَسُّ الْكَذَّابُ؟

نَظَرَ الْقَسُّ إِلَى الْمَنْصُورِ وَبَدَهُ الذَّابِلَةَ تَرَجُّفًا. أَخَذَ الْمَنْصُورُ يَدَهُ وَنَظَرَ فِيهَا، ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَلْ كَتَبْتَ هَذِهِ الرِّسَائِلَ السَّرِيَّةَ بِهَذِهِ الْيَدِ الَّتِي سَوَّدَهَا الْمَدَادُ فَسَوَّدَتْ مَصِيرَكَ الْمَحْتَمُومَ؟

فَقَالَ الْقَسُّ: إِنَّ يَدَ الرَّبِّ هِيَ الَّتِي كَتَبَتْ عَلَى الْبَيْضِ.

فَقَالَ الْمَنْصُورُ: سَنَقْطَعُ هَذِهِ الْيَدَ إِذْنًا لِنَرَى إِنْ كَانَتْ يَدُ الرَّبِّ

هي التي كَتَبْتُ كما تَزْعُم.

تَغْيِرَ لَوْنُ الرَّجُلِ ثم عاد إلى رُشْدِهِ وقال: يا سيدي، إنّما أنا حَمَلٌ من قَطِيعِ الرَّبِّ اسْتَعْمَلَهُ لرعاية قَطِيعِهِ وحمايَتِهِ، فلماذا تُريدُ قَطَعَ يدي؟

فقال المنصور: ها قَدِ اعْتَرَفْتَ بأنَّ يَدَكَ هي التي سَوَدَتْ هذا البيض، وقد اقْتَرَفْتَ جُرْمًا عَظِيمًا وضيَعْتَ علينا مَصالِحَ كثيرة وأفسَدْتَ وُصولنا المِفاجِئِ إلى هذه البلاد التي لم نجد فيها إلا قُرَى ومُدُنًا خالية هَجَرها أهلُها. لكن، قل لي كيف استَطَعْتَ أن تَكْتُبَ نَصًّا بداخل هذا البيض من دون أن تَكْسِرَهُ؟

ابتسم القَسُّ ابتسامة خفيّة، وحاول أن يتكتم على سرِّ صنعته، فقال مُظهراً الجهل: إنّ من قام بذلك الأخ العقاقيري في الدير، وهو شديد الكتم لسرِّ صنعته، ولم يطلعني عليه.

فقال المنصور: ما زلت تتعمّد الكذب وتُحِيلُ على مجهول، مع أنّي متيقّن أنّك أنت من كتب ما بداخل البيض.

زمزم القَسُّ بكلام خافِت، ثم تدخّل أحمد بن سعيد وقال للمنصور: يا مولاي، سرُّ الكتابة على البيض معروف لدى علماء المسلمين، ولا شك أنّ هذا القَسَّ قد اطلّغ على ذلك من أحد مخطوطاتنا، أو لعلّ أسيراً مُسليماً علّمهم ذلك. وقد كنتُ صادفتُ الكلامَ على هذه الطريقة في أحد المخطوطات بخزانة كتبي.

تهلّلت أساريبُ المنصور وقال لأبي عمر: هلا أخبرتنا بهذا السرِّ، إذ ربّما سنحتاجُ إلى استعماله في بعض مُراسلاتنا.



فقال الوزيرُ ابن حزم: يَأْخُذُ الكَاتِبُ قَدْرَ أُوقِيَةٍ من حَجَرِ الشَّبِّ ويدقُّه ثم يخلطُه مع مِقْدَارِ مُدٍّ من الحَلِّ، ويكتبُ ما شاء على قِشْرَةِ البيضِ المسلوقِ، فيتشربُ الحِجْرُ السَّرِّيَّ من ظاهرِ القِشْرِ عبرِ المَسَامِ الدَّقِيقَةِ، ثم تَظْهَرُ الكِتَابَةُ فقط بداخلِ قِشْرَةِ البيضِ الداخلي.

تَعَجَّبَ المنصورُ من براعةِ الطريفةِ، وقال لابن حزم الأب: بوركَ فيكَ يا أبا بكر، لقد فُقَّتْنَا دهَاءَ وأطلعتنا على سرِّ عَجِيبٍ نحن في حاجةٍ إليه في مُراسلاتنا السريَّةِ مع ولاةِ الأقاليمِ.

فقال الوزير: إن شئتَ يا مولاي أخبرتكَ بطرقٍ أخرى يمكنُ استعمالها.

فقال المنصور: عندما نعودُ إلى قرطبةَ تخبرني عن ذلك، لكن دعنا الآن نستوضحُ من هذا القَسِّ مرَّةً أخرى، وتوجَّه إلى الرجلِ سائلاً: هل وصل بعضُ بيضِكَ إلى من أرسلته له؟

أدرك القسُّ أن لا فائدة من الإنكار، فقال: لعلَّ بعضه قد وصل فعلاً، وقد حرصتُ أن أحملَ هذه الشحنةَ الأخيرةَ بنفسِي، لكنِّي لم أوفَّق.

أمر المنصورُ بالقسِّ فأسيرَ واقتيدَ مع باقي الأسرى لعلَّهم يستعينون به لاحقاً.

ثم أمعنَ الجيشُ في تقدُّمه حتى أشرف بعد حوالي أربعين يوماً من خروجه من قرطبة على مدينة شانت ياقب، محجَّ النصارى ومزارهم الأعظم. وصلوا إليها يوم الأربعاء / ثالث شعبان سنة ٣٨٧ هـ.

كان المنصور فرحاً جذلاً بوصوله إلى هذا الصقع البعيد الذي لم تصله فتوحات المسلمين من قبل.

أما أبو عمر فقد كان منشغلاً بمراقبة أحد النبلاء المسيحيين الذين رافقوهم في هذه الحركة. اعتزل الرجلُ الجموعَ وتوجّه نحو ذراع مائي. ثم توقّف عند شجرة قريبة من المجرى المائي يحتمي بها فترجّل أحمد بن سعيد عن فرسه وسلّم لجمامه لأحد الجنود المرافقين، ثم تتبّع الرجلَ النصرانيّ دون أن يشعُر به، ووقف خلف شجرة يتابع حركاته. التفت هذا الأخير يمناً ويسرة ثم أخرج بسرعة صليباً وعرّزه في مكان مرتفع قرب الشجرة، ثم جلس على ركبتيه باتّجاه مدينة شنت ياقب. أخذ يزمزم ببعض التعاويذ. وبعد أن أمضى مدّة في تراتيله، خلع ثيابه ودخل الوادي الصغير ثم غطّس بدنه كاملاً في موضع من المجرى. وبينما كان يغتسل في الماء البارد، لمسّت قدمه شيئاً صلباً فغطس في الماء وأخرجه، فإذا هي محارة مستديرة كالصحفّة بخطوط ناتئة وتجاويف على ظهرها العلوي. فرح الرجل بتلك المحارة وقبلها وخرج مسرعاً ثم غير ملابسه التي كانت عليه ولبس ثياباً جديدة ثم علّق المحارة على ثيابه. كان أبو عمر يرقبه ويتعجّب من سروره، فتقدّم نحو النصرانيّ وسلّم عليه. تفاجأ الرجل، لكنّه ردّ التحيّة بثبات. حاول أبو عمر أن يُطمئنّه فقال له: لعلّك كنت تُصليّ؟

فأجاب الرجل فوراً: نعم.

ثم أردف أبو عمر قائلاً: لكنّ الوقت وقتُ حرب.

فقال الرجل: إنّه أعظم أوقات الصلاة.

فقال أحمد بن سعيد: صدقت، ولا ضَيْرَ في ذلك. لكن ما سرّ الصليب الذي غرزته في الأرض، وكذا غطسك في الوادي ولبسك الثياب الجديدة؟

فقال النصرانيّ الذي أدرك أنّ الوزير كان يراقبه: إنّها طقوسُ زيارةِ القديسِ ياقب. فالزائر عليه أن يُعلنَ إيمانه المسيحي ويتطهّرَ من كلّ الرذائلِ الحسيّةِ والمعنويّةِ قبل أن يحظى بزيارة القديس. فسأله الوزير ابن حزم: وما سرُّ سرورك بالمحارة التي التقطت من قاع الوادي؟

تهلّلت أسارى الرجل وقال: يا سيدي، إنّها محارة شنت ياقب. وكلّ الزائرين لا بدّ لهم من هذه المحارة التي يبيعها لهم رجال الدين في المدينة. وهي شارةٌ يعلّقونها على ثيابهم. وقد استبشرتُ خيرًا لأنّي وجدتُ شارةَ القبول تحت قدمي في الوادي، فأدرکت أنّها هديّة لي من القديس.

فقال أبو عمر: وما دلالةُ هذه المحارة؟

فأجاب النصرانيّ: لا أدري على وجه التحديد، إلّا أنّ هذه المحارة أضحت من شعائر زيارة القديس ياقب.

قال أبو عمر: إنّ المحارَ عادة ما يحتوي على اللؤلؤ الكريم، وربّما ذلك يشير إلى الخصب والولادة.

فقال النصرانيّ: صدقت، إنّ الزائر لثنت ياقب يؤلّد من جديد كما يولد الحجر الكريم أو اللؤلؤ داخل المحار.

فقال أبو عمر: لكنّ المحار يشبه القبر الذي يضمّ الرفات،

فربّما كان ذلك يشير إلى الموت.

تعجّب النصرانيّ من نَبَاهة ابن حزم الأب في استخراج المعاني، لكنّه قال: لا أرى علاقة بين الولادة والموت.

فأجابه أبو عمر: على العكس من ذلك، فهناك علاقة بين البعث والموت. ونحن معاشرَ المسلمين لما نَحُجُّ فَإِنَّا نَلْبَسُ ثَوْبَ إِحْرَامِ أَبِيضٍ، وهو مثل الكَفَنِ الذي يُلْفُ عندنا فيه الميت، إشارة إلى أنّ الحاجَّ يجب أن يموتَ عن نفسه ليحيى بربه. فالموتُ مقدّمَةٌ للبعث. والمحارة تشير إلى هذا المعنى، فهي قَبْرٌ يحفظ ما بداخلها حتى يُبْعَثَ لَوْلَا كَرِيمًا.

فقال النصرانيّ: لقد أفدنتني أيّما إفادة، وعلّلت لي ما كنتُ أَجْهَلُهُ عن هذه الشعيرة المسيحيّة في تعليق محارة شانت يعقوب. وأفهم الآن لماذا يجب على الزائر أن يَغْتَسِلَ وَيَلْبَسَ ثِيَابًا جَدِيدَةً، إنّه مثل المحارة التي تفتتح على دُرَّةٍ خَرِيدَةٍ، مثلما تُبْعَثُ الرِّمَمُ من قبورها يوم النُّشُور.

فقال ابن حزم الأب: لعلّ المحارة تُشيرُ إلى شيءٍ آخر عندكم.

فقال النصرانيّ: وما هو هذا الشيء الذي لم أدركه؟

فقال أبو عمر: هل تعلمُ بأنّ المحار حُثْيٌ، فهو كائن بلا هويّة جنسيّة ثابتة، وكيف تَلِدُ الحُثْيُ تَبَعًا لقولك إذن؟  
فقال النصرانيّ: إنّها لا تلد.

فقال ابن حزم: لكنّ المحار حُثْيٌ وهو يلد اللؤلؤ.

فقال النصراني: لا أدري.

فقال أبو عمر: إن المحار يشبه السيِّدة مريم العذراء التي لم يمسهما بشر، لكنهما أنجبت سيدنا عيسى عليه السلام لما نفخ الله فيها من روحه.

فقال النصراني: صدقت مرّة أخرى يا سيدي، فمحادرة شانت يعقوب ترمز قطعاً إلى السيِّدة العذراء عليها السلام.

فقال ابن حزم الأب: أظن أن هذه الدلالة أقرب من غيرها. لكن هل تعلم أنه من الصعوبة فتح المحار الذي انطبق على نفسه.

فقال النصراني: أعلم، لكن هل من طريقة لفتحه؟

فقال أبو عمر: هناك حيوان يأكل قاذورات البحر يتصيّد المحار، وهو نوع من سرطان الماء يهجم بمنقاره على موضع التّام صفحتي المحارة فتفتح فيأكل الشحم الذي بداخلها.

فقال النصراني: وإلى ماذا تريد أن تخلّص؟

فقال أبو عمر: هناك من بني البشر من يشبه هذا السرطان الخسيس بحيث يتعرّض للطاهرات العفيفات، فأخذ على محاربتك منهم واحفظها في الصّون والعفة.

فقال النصراني متعجباً: ماذا تقصد؟

فقال أبو عمر: أعني أن المحارة هي مثل النّفس الطاهرة يجب صونها عن الوسوس الخبيثة والأفكار الخسيسة حتى تتجوهر. وكما أن للمحادرة صفحتين، فكذلك يجب أن يكون السالك محباً بوجهين، وجه إلى الخالق ووجه إلى المخلوق، أي

أَنَّهُ يَصْرَفُ وَجَهَ مَحَبَّتِهِ لِمُخَالَفِهِ فِي خَلْقِهِ. لَكِنْ دَعَانَا الْآنَ نَلْتَحِقُ بِالْجَيْشِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَهُ أَرْبَابُهُ.

فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ: لِيُسَامِحْنِي الرَّبَّ.

ابْتَسَمَ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ، وَأَدْرَكَ سَبَبَ هَذَا الدُّعَاءِ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَشَارِكُ مَعَ جَيْشِ مُسْلِمٍ لِفَتْحِ أَكْبَرِ مَزَارَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ وَأَقْدَسِيهَا عَنْدهُمْ. ثُمَّ نَادَى عَلَى سَائِسِ فَرَسِهِ فَامْتَطَاهُ وَالتَّحَقَّ بِرُكْبِ الْمَنْصُورِ الَّذِي كَانَ يَبْحَثُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تَخَلَّفْتَ يَا ابْنَ حَزْمٍ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا تَحْضُرَ مَعَنَا سَاعَةَ الظُّفْرِ وَالْفَتْحِ.

فَقَالَ أَبُو عَمْرٍ: لَقَدْ تَخَلَّفْتُ لِقِضَاءِ حَاجَةٍ لِي، وَمَا كَانَ لِي أَنْ أَتَخَلَّفَ عَنْ هَذِهِ السَّاعَةِ الْعَظِيمَةِ.

دَخَلَ الْمَنْصُورُ بِجَيْشِهِ إِلَى مَدِينَةِ شَانَتْ يَاقِبٍ، وَكَانَتْ خَالِيَةً مِنْ سَكَّانِهَا الَّذِي قَرُّوا مِنْ زَحْفِ الْمُسْلِمِينَ، فَوَجَدُوا مَدِينَةً مُحَاطَةً بِأَسْوَارٍ عَجِيبَةٍ وَبِهَا بِنَايَاتٌ فَخْمَةٌ عَظِيمَةٌ. ثُمَّ تَقَدَّمُوا نَحْوَ كَاتِدْرَائِيَّتِهَا.

كَانَ النَّبَلَاءُ الْمَسِيحِيُّونَ مَعَ جِيُوشِهِمْ مُتَحَرِّجِينَ مِنَ الدَّخُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَعْضُهُمْ جَثَمَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَرَسَمَ شَارَةَ الصَّلِيبِ. تَنَبَّهَ الْمَنْصُورُ إِلَى حَرَجِهِمْ فَأَعْفَاهُمْ مِنَ التَّقَدُّمِ وَطَلَبَ مِنْهُمْ نَضْبَ مَضَارِبِهِمْ خَارِجَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ.

التَفَّتَ الْمَنْصُورُ إِلَى وَزَرَاتِهِ وَقَوَّادِهِ وَقَالَ لَهُمْ: مَا تَرُونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ؟

فَقَالُوا وَاحِدًا تَلَوَ الْآخِرَ: لَعَلَّكُمْ يَا مُوَلَايَ تَهْدُمُونَهَا حَتَّى

يأسَ النصارى أن يَعْمُرُوا هذه الأرض.

فلَمَّا جاء دور أبي عمر ابن حزم قال: أرى يا سيدي أن لا تفعل إلا ما كان من أسوارها وحصونها، أما كاتدرائيتها التي تَضُمُّ رُقَاتَ القديس يعقوب، فإني أرى أن لا تَعْمَلَ فيها مَعَاوِلَ الهدم، فإنَّ ذلك سِيَكِسِبُ القومَ علينا الضغائنَ والأحقَاد. ولا شكَّ أنَّ الحَبْرَ الأعظم في رومية سينادي في ملوك النصارى ودَهْمَائِهِم بالحرب المقدسة ضدَّ المسلمين. وليس لنا مزيةٌ نَجْنِيها من هدم مكانٍ مُخَصَّصٍ لعبادة أهل الكتاب.

فقال المنصور: أجبنا عن الجهاد في سبيل الله يا ابن حزم، وقد مَكَّنَّا الحقُّ منهم؟

فقال أبو عمر الوزير: أبدًا يا مولاي، ليس جُبنًا ولكنه العقل والرؤية والسماحة والعفو، فلم يتعرَّض رسول الله ﷺ لأماكن العبادة ولا للقساوسة والأخبار في صوامعهم بسوء. وإنَّ النصرَ والفتحَ قد حصل بفتح هذه المدينة، فيكفي أن نَعْنَمَ ما فيها ونُوَظِّدَ أمرها ونستعملَ حاميةً في تثبيت وجودنا هنا. ناهيك يا مولاي أن نَقْضَ الكنيسة سيولُدَ أحقادًا كثيرة لدى النصارى ولن يهدأ لهم بالٌ حتى ينتقموا.

فقال المنصور: لولا علمي بصدقك وغيرتك لكان لي معك كلام آخر، إنَّ هؤلاء القوم من الرهبان والقساوسة هم من يُؤَلَّبُونَ علينا ملوك النصارى لمحاربتنا، ولولا ذلك ل بقي مُعْظَمُهُم راضياً بالولاء لنا ودَفِعَ الجِزْيَةَ إلينا. لكنهم ما أن يُحَسِّسُوا بانشغالنا في أمور ثانية حتى يُعاودوا الكثرة على بلاد المسلمين ويأسروا خلقًا

منهم، بل إنَّ بعضَ طواغيتِ النصارى كان يَعمَدُ إلى أسرى المسلمين فيأتي ببعضهم ويذبحُهُم ويَقطَعُهُم إِرْبًا مِثْلَ الخنازير على مرمى من الأسرى الباقين، ثم يأمر بوضع أشلائهم في النار لتهيئة طعام جنوده. ومن مَكْرِهِ العجيب أَنه كان يأمر بتخفيف الحراسة على باقي الأسرى حتى يَفِرُّوا لينقلوا إلى إخوانهم المسلمين بشاعة ما رَأَوْا وَهَوَّلَ ما شاهدوا. وهذه حرب نفسية كان يمارسها هؤلاء الطغاة حتى لا تُفَكَّرَ في حربهم، لكنَّ الخوفَ اليوم أصبحَ في جِهَتهم. وأنا لا أرضى أن تكونَ لهم الغلبةُ علينا، ولهذا سأُمحي ذِكْرَهُم من هذه الأرضِ وسأهدِمُ هذه الكاتدرائيةَ من على وجه البرية حتى لا يُعبدَ في هذا الصَّعقِ إلا الله الواحد الأحد.

ثم دفع بحصانه ودخل الكاتدرائية راكبًا، فَرَأَتْ الحصانَ فيها وكأنه ينتشي بدوره بتدنيس مَعْبِدِ النصارى، وَيُعَانِقُ قِصِيَّةً انقلتُ إلى البهائم. تقدَّم المنصورُ حتى وصل إلى قبر شانت ياقب فأشار عليه بعض رجاله بهدمه، فتدخل أبو عمر مرّةً أخرى وقال: يا مولاي، أرجوك لا تفعلْ، فليس لنا حاجة في نَقْضِ هذا القبر، وهو لأحد الحواريين الذين صَحَبُوا سَيِّدَنَا عيسى عليه السلام، فلا نَتَعَرَّضُ له بسوء. ولم يكن من عادة المسلمين أن يَنقُضُوا مَعْبِدًا أو قُبورًا لأقوام آخرين، فقد دخل الصحابة بلادَ الشام ومصر وغيرها، وهي تَعجُّ بِمدافنِ وَتُرَاثِ أُمَّمٍ أُخْرَى فلم يَتَعَرَّضُوا لها بسوء.

وبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم من وراء شَاهِدِ القبرِ شيخٌ طاعنٌ في السنِّ كان جاثيًا على ركبته، فقال له المنصور: يا هذا، ما بالك لم تَهْرُبْ مع الهاريين، وما سبَّبَ مُقامك عند هذا القبر؟



فقال الراهبُ العَجوزُ: يا سيدي، لقد هرب القَوْمُ، لكنني بقيتُ أُوايِسُ وَحِشَةً يعقوبُ.

هزّت هذه الكلمةُ كِيانَ المنصورِ واستعظم شجاعةَ العَجوزِ، فانحاش لرأي أبي عمر وقال لهم: فَلْتَهْدَمِ الكاتدرائيّةُ ولا تَمْسُوا القبرَ بسوءٍ، واتركوا هذا الشيخَ حارسًا على قبر الحواري.

توغَّلَ أبو عمر في بعض زوايا الكاتدرائيةِ يستطلعُ عِمَارَتَهَا وَأَسْرَارَهَا قبل أن تُعْفَى معالمُها، فلاح له نورٌ عكسَتْهُ أشعَّةُ الشمسِ المتسلِّلةُ عبر نُقْبٍ في سَقْفِ الكاتدرائيةِ. تَتَبَعَ مَسِيقَ النورِ على أرضيةِ الكاتدرائيةِ فوجد مَسَارًا مَخْطَطًا عليه رُسُومٌ مُتَعَدِّدَةٌ. أدركَ بسرعة أنها رُسُومُ الأبراجِ التنجيميّةِ. لكنّه لم يفهم السِّرَّ من وراء ذلك. تَتَبَعَ المَسَارَ من الشرقِ إلى الغربِ وتوقَّفَ عند آخرِ المَسارِ يُعايِنُ الرُسُوماتِ، فسمع صوتًا خافتًا داخلَ غُرْفَةِ الاعترافاتِ. وضعَ يده على مِقْبَضِ سَيْفِهِ ثم فتح بابَ الغُرْفَةِ فراعَهُ وجودُ سيِّدَةٍ تحْتَضِنُ طفلةً صغيرةً. كانت المرأةُ خائفةً. تقدَّمَ نحوها وأزالَ خِمَارَهَا من فوق رأسها حتى يُعايِنَ وَجْهَهَا، ثم حاول أن يُظْمِنَهَا. أما الصبيّةُ فكانت آيةً من آياتِ الله في الجمالِ، بيضاءَ البشرةِ، شقراءَ الشعرِ، زرقاءَ العينينِ. مسحَ أحمدُ بن سعيدٍ على رأسها وهدأ من رَوْعِهَا ثم قبلَهَا حتى تَكْفَّ عن الخوفِ، ثم أمر السيِّدَةَ أن تأتي معه. قامت تأخذ بيدَ الصغيرةِ خلفَ أحمدِ بن سعيدٍ حتى وقفوا أمامَ المنصورِ، فأخبره بشأنَ المرأةِ والصبيّةِ. أُعْجِبَ المنصورُ بالمرأةِ، وقال لأحمدِ ابن سعيدٍ: سأخذُها جاريةً في قصرِي. ازدردَ أحمدُ بن سعيدٍ ريقه لآلتهِ كان يُمَنِّي النَّفْسَ بالحُصولِ

عليها، لكن فكرة خَطَرَتْ له فقال: هنيئًا لك سيدي، لكنني أستاذٌ منك يا مولاي في الاحتفاظ بالصبيّة حتى أُرَبِّيَهَا في بيتي مع أبنائي.

تَفَكَّرَ المنصور قليلاً ثم قال: نِعْمَ ما قلت يا أبا عمر، هي لك.

فقال أبو عمر: شكرًا سيدي، وسأسميها نِعْمَ تيمُنًا بجوابك لي.

ثم أمر المنصورُ رجاله أن يَحُوزُوا المرأةَ إلى نِساءه.

أما أبو عمر فأخذَ الصبيّةَ وقبّلها مرّةً أخرى ومَسَحَ على رأسها وحاول أن يُظْمِئَهَا بكلمات رقيقة، فاستسلمت له. ثم طلب من المنصور أن يَتْرُكَهَا مع الجارية لحين عودتهم إلى قرطبة نظرًا لصغر سنّها الذي تحتاج معه إلى رعاية دائمة.

أمضى الرجال أسبوعًا في نقض المدينة وهدمها، وبعد أن تركوها أثرًا بعد عَيْنٍ يَمُمُوا صوبَ الحصون المنيعة المتبقية فهدموها، ووزّع المنصور الغنائم على الجيش وحلفائه من نبلاء النصرانية. واقتلع أجراسَ الكاتدرائية وأبوابها الرفيعة وأمر بأن يحمّلها أسارى النصارى على أكتافهم إلى قرطبة.

بعد هذه الصائفة المظفّرة عاد المنصورُ إلى قرطبة مع الجيش فاستقبلَ استقبالَ الأبطال، ودخل أسرى النصارى يحمِلُونَ أجراسَ الكاتدرائية على أكتافهم، والناسُ يُكَبِّرُونَ وَيُهَلِّلُونَ. دخل المنصورُ المسجد الجامع فصلى ركعتين شكرًا لله. ثم أمر بوضع الأجراس تيجانًا للثريات وسط الجامع. كان المسجدُ غاصًا بالناس الذين

حضرُوا من كُلِّ البلاد لتقدِيم التهنئة بالفتح الجديد. دخل المنصور مع رجاله وتقدّم وسط غابة من الأعمدة التي بلغت بعد الزيادة التي زادها المنصور في المسجد ١٤١٧ سارية. كان يرفع نظره إلى الثريات العجيبة التي بلغت ٢٨٠ ثرياً، إضافة إلى مئات الآلاف من الكؤوس ذوات الفتائل المعشقة بالزيت لإسراج كلِّ جنّبات المسجد الجامع. كان المنصور سعيداً بما حقّقه من النصر وتضاعفت سعادته بمعاينة روعة المسجد وضخامته. توقّف أمام المحراب فصلّى ركعتي الشكر، ثم أمر بوضع نواقيس شانت ياقب تيجاناً على بعض الثريات التي عيّنها لعريف الصنّاع.

أما نصارى قرطبة فانجحروا في بيوتهم ولم يشاركوا المسلمين هذه الفرحة العارمة التي اجتاحت المدينة.

أرسل الوزير أبو عمر جارية يثقُ فيها إلى قصر المنصور الملاصق لداره لتأتي بالصبيّة ناعم. ذهبَت إلى هناك إلا أنّ الرومية التي حازها المنصور أصرت على أن تلتقي بالوزير فاستأذنت لمرافقة الصبيّة فأذن لها.

وصلّت إلى بيت الوزير ودخلت عليه في مجلسه، وكان بجانبه ولداه أبو بكر وعليّ. كانت الصبيّة ناعم تصغر عليّاً بحوالى ثلاث سنوات. نظرت إليه ونظر إليها فابتسم لها.

طلب الوزير من الجارية أن تجلسَ ريثما تعتادُ الصبيّة على البيت الجديد. جلست. فتوجّه إليها الوزير بالسؤال: ما اسم هذه الصبيّة ولماذا كنتم تختبئان في غرفة الاعتراف؟

فقلت المرأة: أنا يا سيدي مربية هذه الصبية. وقد ماتت أمها قبل أشهر قليلة بمرض ألمّ بها، فعهد بها إليّ والدّها سيدي الكونت.

وأين هو والدها؟

قالت المرأة: لقد خرج سيدي الكونت منذ مدّة من شانت ياغب رفقة رجاله لمحاربة جيشكم. وقد بلغتنا أخبارُ تقولُ إنّه مات يُدافع عن أحد الحصون.

ولماذا لم تغادري المدينة كباقي أهلها؟

فقلت المرأة: لقد أمرني سيدي أن لا أغادرها مهما كانت الأسباب، وأن أطلب اللجوء والعون من القديس شانت ياغب، وأن أختبئ على طول مسار العبادة في الكاتدرائية. ولهذا بقيت مع الصبية، واسمها مارية، بجوار القبر على طول مسار الأبراج في الموضع الذي يسقط فيه شعاع الشمس مرّة في كلّ سنة من الثقب الذي في سقف الكاتدرائية.

أدرك الوزير سرّ تلك الرسومات، وفهم أنّها مسارٌ سلوكي طوال السنة الشمسية، بحيث إنّ السالك يتعبّد بعبادات وصلوات معيّنة مطابقة لكلّ برج ولللفصل الذي ينزل فيه حتى ينتهي إلى مساقط شعاع الشمس مرّة كلّ سنة في موضع بعينه، بحيث يكون السالك العابد قد قطع سنة شمسية في العبادة فحلّ النور في المقام الذي نزل به. وقد توسّل الكونت بسرّ ذلك المسار وما تُليّ فيه من الصلوات حتى يحافظ على حياة ابنته ومربيّتها من كلّ مكروه عند غزو المدينة.

ثم قال الوزير للمرأة: جيّد، أنت تعلمين أنّك أصبحت من نساء المنصور، وأنّ الصبيّة أصبحت من أهل بيتي، ويمكنك زيارتها متى شئت بشرط أن لا تنكّني جراح طفولتها حينما تكبر قليلاً بهذه الذكريات الأليمة. وإنها ستعيش هنا سعيدة مع أبنائي.

التفت إلى ولديه أبي بكر وعليّ، فهزّ عليّ رأسه بالإيجاب، ثم اقترب من الصبيّة وابتسم لها فابتسمت له. ثم أخذها من يدها فتردّدت في البداية لكنّها تابعتة وخرجًا يلعبان في حديقة المنيّة<sup>(١)</sup>.

التفت الوزير إلى المرأة وقال لها: أرايت؟ إنّها ستعيش هنا سعيدة، ولهذا لا تذكرني هذه السيرة أمامها من جديد.

ثم أذن لها بالعودة إلى قصر المنصور فخرجت.

مرّت سنوات قضاها المنصور في الغزو، وكان يستخلف في بعض الأوقات وزيره ابن حزم على شؤون الدولة، فأدرك من شأنها ما أدرك، ووقف على كيفية اتّصال المنصور بوالدة الخليفة هشام المؤيد، السيّدّة صُبْح البُشْكُنْسِيَّة<sup>(٢)</sup> زوجة الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر، التي مكّنت له وأطلعتة على بعض ما كان يجيش في خاطرها من مشاريع. نى إلى ابن حزم من عُيون غلمانة الذين بثّم للعمل بجانبه خبرُ علاقتهما الغراميّة، وأدرك السبب في كونها فسحت للمنصور دواليب الدولة وخزائنها فاستعمل المال في كسب

---

(١) اسم يُطلق في الأندلس والمغرب على كلّ دار لها حديقة، وهي ما نسميه اليوم بالفيلا.

(٢) البشكنس هم شعب الباسك BASQUE. وتقع منطقة الباسك في الشمال الشرقي من إسبانيا وتمتدّ إلى جنوبي فرنسا.

الرجال، وصار يترقى من منصب لآخر حتى وصل إلى الحجابة.

كان المنصورُ يطمعُ أن يُنهي الخلافة الأمويةَ ويُصبَّ نفسه خليفةً إلا أن الأمر لم يكن سهلاً ولا مقبولاً. وكان الناس يتبرّمون من شدّة المنصور ويَنقمون عليه غدره بكثير من رجالات الأندلس. كما كانوا يَنقمون عليه إيثاره للبربر والصقالبة<sup>(١)</sup> على حساب الأسر الأندلسية العريقة التي بنت هذه البلاد ومكّنت لها في الأرض. وها هم يرون أنه قد استغلَّ علاقةً مشبوهة مع زوجة الخليفة الحَكَم حتى تَمكَّنَ حُبُّه من قلبها فسَهَّلَتْ له كلَّ شيء، ثم انقلبَ عليها وعلى ابنها الخليفة الشرعي فحجر عليه الدخول والخروج.

\* \* \*

أنا عليّ، ووالدي الوزير أبو عمر سعيد ابن حزم، وُلدتُ في قصرنا الملاصق لقصر المنصور بن أبي عامر في مدينة الزاهرة شرقي قرطبة. وتربيّتُ في حُجور جاريات القصر يُعَلِّمَنِي ما أحتاج إليه من قرآن وأدب ولغة وخطّ.

(١) الصقالبة: جمع صقليّ، والكلمة مأخوذة من الإسبانية *Esclavos*، التي تعني العبيد. وكان أهل الأندلس يطلقون الكلمة على الشعوب السلافية التي نزلت من موطنها الأصلي في بلاد قزوين فاشتبكت في حروب طاحنة مع شعوب وسط أوروبا، فلمّا كثر الأسرى بينهم باعوهم كالرقيق. وقد كان اليهود يجلبونهم إلى الأندلس بعدما كانوا يخصّونهم في مراكز معروفة، من أشهرها مدينة فردان *Verdun* في فرنسا، ثم يبيعونهم لأهل الأندلس. وقد اتخذهم الخلفاء والأمراء خدماً في القصور في البداية ثم علّموهم الجندية وركوب البحر. وفي مرحلة لاحقة كانت كلمة الصقالبة تطلق أيضاً على الفتيان الأسرى من كلّ أوروبا.

كانت أمارات النباهة قد بدأت تظهر عليّ منذ صغري في قصر والدي الذي كان يحبُّ أن يُجلِسني معه في مجالس العلم التي كان يَعْقِدُها في قصره، فيَحْضِرُ كبارَ العلماء والأدباء والشعراء من أمثال أبي عمر بن حبرون وخلف بن رضا. كان والدي يكرهُ اللحنَ في العربية ويتعجَّب ممَّن يَلْحَنُ، فنشأتُ على مثاله أتحدِّث بعربيَّة لا تَشُوْبُهَا شائبة وبفصاحة يتعجَّب لدى سماعها منِّي الكبار. كما كنت أحبُّ التباري مع أخي أبي بكر في بعض القضايا التي كان الوالدُ يَحْرِصُ على أن يَشْحَذَ بها هِمَمَنَا. كنتُ رغم صغري أمتاز بحدَّة الذهن وصفائه وأستعملُ لغةً أنيقة، وأؤمنُ أن بناء الفكر الصحيح يحتاجُ إلى لغة رفيعة سليمة. كنت سعيدًا بالعيش في الزاهرة وكنْتُ أخرجُ للنزهة مع أخي على طول النهر الصغير المتفرِّع عن الوادي الكبير. كما كنت أحبُّ أخي أبا بكر، إلَّا أنّي أعترفُ أنّي كنتُ أحيانًا متسلِّطًا معه رغم أنّي أضغَرُهُ بخمس سنوات. وقد أدرك والدَي قُوَّة شخصيتي وعنادي، فعالجه أبي بالحزم في تربيّتي والحرص على عَرسِ احترام الرتّب في نفسي، وعالجتهُ أمِّي بمزيد من الحنان حتى كنتُ أشعرُ باستواء أخلاطي وطبائعي على قانون معتدلٍ في السلوك. لم أكنُ أحبُّ الهزيمة ولا أتقبَّلُها حينما كنتُ أتباري مع أخي أو أقراني. كما كنتُ صريحًا أكثرَ من اللازم، كانت صراحتي تَجْرَحُ كُلَّ من كان حولي من الخدم والجواري، لكنّهم كانوا يغفرون لي سلوكي بسبب صغر سنّي، ويَعُدُّونهُ نوعًا من دلالِ أبناء الكبراء. لكنّي كنتُ أيضًا أدخُلُ السعادة على مَنْ حولي بشدّة تحصيلي وذاكرتي القويّة وفكري النفاذ فتراني أستوعب دروسي بسرعة فائقة. إلَّا أنّ هذه

المزايا كان يعكسها رغبتني في العصيان وعدم الانصياع للنساء المكلفات بتعليمي، إذ كنت أرفض قانون التعليم والمكث أكثر مما ينبغي في مجلس الدرس، إذ يبدو لي الأمر مُملاً بعد فهمي للمسائل، فلم أكن أرغب في تكرارها كما يفعل سائر المعلمين مع تلامذتهم، لكنّ ثقتي المفرطة بنفسني وسرعة استيعابي كانت تدفعني إلى التمرّد والخروج من الدرس والثورة على المربية المكلفة بتعليمي حتى تدعني أذهب للنزهة واللعب. وكانت مربيتني قد أدركت أنّي أحبُّ قصص المردة والسحرة والعمالقة والفتيات فتسج لي منها ما يفتح خيالي وتقاضي بذلك على التعلّم فأقبل على مَضض حتى تسترضيني بحكاية الأسماك حول الأشباح والجنّ. كنت سريع الانفعال، إلّا أنّي لم أكن أظهره لغيري بل كنت أتستر على نفسيّ المتأرجحة المتقلّبة الثائرة بألوان من الدهاء والتصنع. ورغم هذه الخصلة الخفية فإنّي كنت أحبُّ أحياناً أن أكشف عن جوانب من نفسيّتي لغيري وأصوّرّها من دون خجل أو مُواربة.

كنت أدخل الدُور الخاصّة بنساء قصرنا دون مُضايقات، لكن نظرات بعض العجائز كنّ يترصدنني، وأرى فيها مشاعر مزيجة من الاستنكار والعدوانية، لا سيّما من عجوز كانت هي المكلفة برصد الداخلين إلى دُور النساء، فكانت تُلقني نظراتها المستنكرة وتشفّعها بكلمة أو كلمتين تحاول بذلك أن تصرفني عن التردّد إلى دور النساء بكلّ حرّية من دون رقيب ولا حسيب. كانت العجوز تهينني بهذا الصّد المتكرّر حتى تمنعني من الدخول، لكنّي لم أكن مستعداً لقبول إملاءاتها، ومضى الحال على ما ألفتّه مع التنغيص المستمرّ



بالقول والنظر من العجز، واستمر الحال مني بالاستخفاف  
ومجاوزة المنع.

بدأ عُودي يَضْلُبُ وأصبحتُ فتى في مقتبل العمر، وأبي  
يلحظني بالعناية ويستعملني بالكياسة. عشتُ في رَعْدٍ من العيش  
ورخاوة من الحياة. لم نتأثر بما يجري في قرطبة بعد موت  
المنصور ابن أبي عامر سنة ٣٩٢ هـ، بعدما أمضى فترة حكمه في  
الغزوات لعله يُكْفِرُ بذلك عن استحواذه على الحكم ويُقْنِعَ الناس  
بصواب سياسته وسلوكه تجاه الخليفة هشام المؤيد. وإن كان  
الناس قد قبلوا منه شجاعته واستتبابه للأمن إلا أنهم لم يَرْضُوا منه  
الاستيلاء على الدولة والحجر على الخلافة. كانوا يدركون أن  
الخلافة الأموية حَقَّقَتْ لبلاد الأندلس كثيرًا من الرخاء والجاه  
والأمن حتى استَفَرَّه الناس في ألوان المراكب والدُّور والأثاث ممَّا  
لم يكن به عهدٌ لغيرهم. كما أن في قلوبهم حُرْمَةً للخلافة والخليفة  
مهما كانت شخصية القائم بها في الوقت. لكن هذه المشاعر  
المتنازعة المختلطة لم تكن تظهرُ على السطح كثيرًا، لأنَّ المنصور  
استطاع بفضل غزواته التي فاقت الخمسين أن يكسبَ المتحمسين  
من الناس إليه. كان والدي غير مُقْتَنِعٍ بهذه السياسة، وكان ولاؤه  
للبيت الأموي ثابتًا ولا يتورَّع عن إسداء النصح للمنصور في عدم  
هتِكِ حُرْمَةِ الخلافة، رغم أن بعض الفقهاء والوزراء الآخرين كانوا  
قد زينوا للمنصور أمر الاستيلاء عليها وتنصيب نفسه خليفة على  
المسلمين. لكنَّ المنصور أدرك بحسِّه صواب رأي الوالد فانحاش  
إليه، وعلم أن هذا المنصب لن يزيده فخراً على ما وصل إليه من

جاه ونفوذ في الدولة، فما الحاجة إلى فتح باب الفتنة والثورة عليه ممن يتحسّنون الفرصة لذلك، وفيهم من نُبهاء البيت الأموي ورجالاته كثير.

انتقل الأمر بعد وفاة المنصور إلى ابنه عبد الملك، وسار في الحُكم سيرة والده، وأبقى على والدي في الوزارة مقرّبًا. وقد كنتُ أرافق والدي وأخي أبا بكر في المناسبات الكبيرة مثل الانتصارات والأعياد حيث تُقدّم التهاني وتُنشد الأشعار، وإنّي أذكرُ أنّي حضرتُ أوّلَ تهنئةٍ في عيد الفطر من عام ستّ وتسعين وثلاثمائة، وقام أبو العلاء صاعد ينشد بين يديّ عبد الملك قصيدة من الوافر يمدح فيها إحسانه، ما زلتُ أحفظ منها قوله:

حَسِبْتُ الْمُنْعِمِينَ عَلَى الْبَرَائِيَا فَالْفَيْتُ اسْمَهُ صَدَرَ الْحِسَابِ  
وَمَا قَدَّمْتُهُ إِلَّا كَأَنِّي أَقْدُمُ نَالِيَا أُمَّ الْكِتَابِ

منذ هذا الخروج الرسمي، لحقت بحلقات الحديث والفقهاء والجدل التي كانت تقام في جامع قرطبة إلى حدود سنة ٤٠٣ هـ، فسمعت من شيوخ جلة مثل عبد الله بن ربيع بن بنوش التميمي، وأحمد بن محمد الأموي ابن الجسور، ويحيى بن عبد الرحمن بن مسعود، وعبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمداني.

على الرّغم من أنّ أفضال الدولة العامرية كانت بادية علينا إلا أنّ ولاءنا للأمويين كان أمرًا ثابتًا، وقد كنتُ أحسُّ الصراع النفسي الذي كان يعيشه والدي جرّاء ما يحصل. فقد كان وفيًا لهذا البيت الأمويّ، لكنّه عمل مع ابن أبي عامر وتولّى له الوزارة. كان هذا

التناقض أمرًا يزعجني ويحيرني وحاولت وأنا فتى ما بقل وجهي ولا ظرَّ شاربي أن أدرك الصراع الذي يعتجل في نفسيّة والدي، فأغرث عليه في إحدى لحظات انبساطه معي بعد أن أثنى على تحصيلي أحد أساتذتي بما أفخرّ والدي بي، فوجدتها فرصة سانحة فسألته قائلاً: هلاً أخبرتني ببداية أمر المنصور بن أبي عامر رحمه الله؟

نظر الوالد إليّ مستفهماً جوائتيّ ومستنطقاً فضولي، وأحسست بتردده، لكنّه قال لي: يا ولدي، لعلّ سيرة هذا الرجل تُفيدك في بلوغ الإنسان لمراده بجده ومُثابرتة وإرادته، ثم أيضاً لتعرف محدودية هذه المثابرة إذا كان الهدف منها تحقيق مجدٍ شخصي.

فقلت: وكيف ذلك؟

جلس على كرسيّ وثير، وأخذ نفساً طويلاً، وكأّنه يعترزم أن يستحضر سيرة غنيّة، ثم قال: لقد كان المنصور من أسرة عربيّة، وكان والده عبد الله بن أبي عامر زاهداً عفيفاً مُتقللاً من الدنيا. وقد دخل جدّه الأعلى عبد الملك المعافري إلى الأندلس مع طارق بن زياد بداية الفتح، لكنهم لم يؤثّلوا لهم مجدًا. ثم دفعه والده ليتعلّم فتعلّم الفقه حتى صار فقيهاً، وكان ماهراً في الخطّ، ثم إنّه اتّصل بالقاضي محمّد بن إسحاق بن السليم واشتغل معه كاتباً مساعداً يُعينه على تحرير الوثائق بعدما أعجبَ بجمال خطّه وأدركَ فائدة عمله معه. وفي أوقات فراغه كان محمّد بن عبد الله يمضي جُلّ وقته في حفظ الأشعار ومُطالعة كُتب الأنساب التي كانت تزخرُ بها مكتبة القاضي حتى حفظ منها الشيء الكثير،

وميَّزَ أنسابَ العرب وأهلِ الأندلس. واتفقَ أن كان الخليفةُ  
 الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر يبحث عن مُربِّ لولده عبد  
 الرحمن، فسأل حاجبه المصحفيَّ ليجث له عمَّن يصلح لتربية  
 الولد الصغير، فاتَّصل الحاجب بخال ابن أبي عامر الذي كان  
 يعمل في القصر الذي سارع بالاتِّصال بالقاضي ابن السليم وزين  
 له إرسال ابن أخيه الشابَّ محمَّد إلى الحاجب. وهكذا دخل  
 المنصور سنة ٣٥٦ هـ، وهو شابٌّ، إلى قصر الخليفة فأبان عن  
 نبوغه بسرعة. وكان الخليفة يحتاج إلى معرفة مستوى تحصيل ابنه  
 ويطلب تقريرًا بهذا الشأن، فيقوم ابن أبي عامر بكتابة التقرير  
 ويطلع عليه الخليفة فيعجب بجمال خطِّ الشابِّ فيأمر بنقله إلى  
 ديوان الإنشاء. ثم يموت ابن الخليفة وتلد صبح جارية الحَكَم  
 ولدًا ثانيًا هو هشام سنة ٣٥٩ هـ، فيعهد إليه بتربيته مرَّة أخرى.  
 كان أغلب العاملين في قصر الحكم من الصقالبة والبربر فتعلَّم  
 لغاتهم واستطاع التواصل معهم بسهولة، وكان يكتب لهم واثقهم  
 وشكاياتهم ورسائلهم، فأصبح محبوبًا لديهم أثيرًا عندهم لا  
 يكفون عن ذكره أمام أسيادهم. وصلت أصدقاء مواهب ابن أبي  
 عامر إلى الحَكَم فأوكله ناظرًا عليهم. ثم بعد ذلك أصبح خطاطًا  
 في ديوان الإنشاء. كان الخليفة الحَكَم مولعًا بمعرفة الأنساب،  
 واتفق مرَّة أن أخطأ في كتابة أحد الأنساب، فأطلع محمَّد بن  
 عبد الله على الخطأ ونبه الخليفة عليه فأكبر فيه هذا الأمر  
 وأعجب بمعرفته للأنساب فعينه كاتبًا خاصًا به. وتنقَّل بعد ذلك  
 بفضل دهائه في مناصب الدولة، فعُيِّن أمينًا لدار السكَّة، وكُلِّفَ

بالنظر على الخزانة العامّة، ثم أصبح على خطّة الموارث لإِشْبِيلِيَّةَ وَلِبْلَةَ، ثم مديرًا للشرطة الوسطى، ثم وآه الأمانات وبعض المهامّ العسكريّة بالعدوة من بلاد المغرب، وأمر عمّاله وقوّاده هناك ألاّ يقطعوا أمرًا إلاّ بمشورته، فاستمال القوّاد والفرسان بالأموال المخصّصة لرؤساء البربر، ثم عينه الحُكْمُ المستنصر ناظرًا على الحشم. وكان في كلّ مرّة يظهر مواهبه الفذة في التسيير والإدارة على الرّغم من تعقيد العمل واتّساع الدولة ومصالحها. كما تقربّ من السيّدة صبح جارية الحُكْمِ، وكانت لها دالّة كبيرة على الخليفة، فصار يخدمها ويحقّق مطالبها ويهديها الهدايا الرّفيعة التي لم تعهد من قبل، ويدخل عليها باستمرار حتى توثّقت بينهما الصلات وصار من رجالها الثقات المقرّبين الذين لا تقطع أمرًا من دون مشورته.

فقلت: إنّ رجلاً كهذا ليوزن بالذهب، لكن ما هو الهدف من كلّ هذا؟

تنهّد الوالد مرّة أخرى وقال: ستتّضح معالم هذا الأمر بعد وفاة الحُكْمِ المستنصر.

فقلت: وكيف ذلك؟

فأجاب: بعد وفاة الحُكْمِ عام ٣٦٦ هـ، عمّلت الأطراف المتصارعة على تعزيز مواقعها في هَرَمِ الدولة. كان هناك الحاجبُ جعفر المضحفّي وهو من أقوى رجال الدولة، وهناك قائدُ الجيش غالب بن عبد الرحمن الناصري، وهو من خيرة رجالات الأندلس وشجعانهم، وقد حقّق انتصارات كبيرة في المغرب والشّعر الأعلى

في الأندلس. ثم هناك صُبِحَ جارية الحَكَمَ ولها نفوذٌ كبير في القصر ويتبعها أغلبُ الفتيان الصَّقالبة العاملين داخل الزهراء. وهناك ابنُ أبي عامر، وهو مُوالٍ لُصُبِحَ وللمصحفي، وهؤلاء جميعًا عملوا على تولية هشام ابن صبح. كان القائدُ غالب يكره المصحفي ويرى أنه لا يَسْتَحِقُّ أيَّ فضل، لأنه لم يشارك في أيِّ معركة، وكان المغيرة بن عبد الرحمن شقيق الحَكَم من المرشَّحين البارزين لتولِّي الخلافة، فأجهضَ حزبُ المصحفي هذا الترشيحَ واغتال هذا الأميرَ رغم أنه كان يستحقُّ أن يتولَّى الخلافةَ آنذاك، لأنَّ هشامًا كان فتى صغيرًا خاملًا لا يتجاوزُ عُمرَهُ اثنتي عشرة سنة، إلا أن مصالحَ القَوْمِ كانت مع تولية صَبِيٍّ حتى يُحَقِّقَ كلُّ وَاحِدٍ أهدافه.

فقلت: بعد أن تَمَّتْ تَنْجِيَةُ أَكْبَرِ مرشَّحٍ للخلافة، ماذا فعل الآخرون؟

فأجاب: بقي الجميع يترقَّب، إلا أن الإفرنج هاجموا الثغور الإسلامية لعلمهم بعدم الاستقرار السياسي في البلاد الذي صاحبه ارتباكٌ على مستوى تسيير الدولة. لم يكن بإمكان المصحفي أن يقودَ الجيشَ لأنه ليس برجلِ حَرْبٍ؛ أمَّا غالب، فرغم شجاعته إلا أنه بقي مُتَرَدِّدًا ولم يُرِدْ أن يتركَ الفرصةَ لخصومه بإبعاده وتحقيقِ مُرادهم فلزم موقعه في مدينة سالم. لكن ابنُ أبي عامر دبَّرَ مكيدهً فطلب من المصحفي أن يتولَّى الحَاجِبُ قيادةَ الجيش، وهو يَعْلَمُ جُبْنَهُ وَعَدَمَ كِفَايَتِهِ، فرفض المصحفي المقترحَ كما كان يتوقَّع. بعد ذلك فاجأ ابنُ أبي عامر الجميعَ وطلب أن يُسَمَّحَ له بقيادة جيش

الحضرة المرابط في قرطبة، بينما يتولى غالب قيادة جيش الثغور لردّ عدوان الإفرنج. وحتى يضمن موافقة غالب فقد خطب ابنته وتزوجها.

خاض هذا الجيش عدّة معارك وحقّق انتصارات كبيرة ردّعت المعتدين ودفعتهم إلى تقديم الولاء والجزية من جديد، بل إنّ غالباً كان يستخلف ابن أبي عامر على الجيش. بعد هذه الانتصارات لزم غالب الثغر الأعلى مرابطاً، ودخل ابن أبي عامر دخول الأبطال إلى قرطبة فصار أقوى من ذي قبل، وعيّن وزيراً. كما سعى أن يستخرج للقائد غالب منصّب ذي الوزارتين من صُبح وابنها الخليفة هشام، وأذكى ذلك حسد الحاجب المصحفيّ الذي ضَعُفَت مكانته، وحاول الحدّ من سُلطة ابن أبي عامر، إلّا أنّه لم يكن قادراً على إبعاده، فاتَّفَق ابن أبي عامر مع صبح على إزاحة الحاجب المصحفيّ وألزمه داره، ثم حَقَّق معه في الأموال التي اختلَسها وسجّنه مُدَّة طويلة ثم قتلَه في الأخير. واستقرّد بصبح ففتح له خزائن الدولة وصار يُنفِق على الجيش ويشتري ولاءهم لصالحه.

فقلت مرّة أخرى: وكيف استطاع بعد ذلك أن يصل إلى الحُكْم وليس له عصبيّة تدعّمه؟

فقال: بعدما قضى على الصقالبة في القصر استطاع أن يسحب من صُبح قُوَّتها التي تتحكّم بها داخل القصر، وعمل على استقدام جيش خاصّ به من البربر بفضل العلاقات التي نسجها لما انتدب للمهامّ العسكريّة في المغرب في عهد الحُكْم، فاشترى ولاءهم له

بالأموال التي أغدقها عليهم. كما أنه كان يتحدث بلسانهم فكسب  
وُدَّهم. وهكذا دخل الأندلس الآلاف من البربر فنفر منهم  
الأندلسيون لبداوتهم، كما يحدث دومًا بين كل مُقيم ووافد.

ثم سألته: كيف استطاع أن يجلب جيشًا يكرهه سكَّانُ  
الأندلس؟

فأجاب الوالد: كما قلت لك، لم يكن لابن أبي عامر عصبيّة  
تحميه، ورغم المجازفة التي قام بها لاستقدام البربر واستعداد أهل  
الأندلس عليه، فإنه لم يكن بيده خيارٌ آخر. كان يعلم أن كسر  
الجيش الأندلسي هو الطريق إلى التمكين له في الدولة، فعمل على  
الحدّ من وحدة تماسك جيش الأندلس بإدخال جيش البربر بينهم،  
وخلق الشخناء بين عناصر الجيش ممَّا أفقده قوّته السابقة  
وتماسكّه. وهذا أمرٌ سيكون له نتائج سيّئة. ولما تمّ له ذلك، بدأ  
يطارد الأمويين الذين كان يخشى على نفسه منهم، فاضطهدهم  
وقتل كثيرًا من رجالهم.

فقلت: وماذا صنع مع القائد غالب بن عبد الرحمن  
الناصرى، وهو أبرز رجالات الأمويين؟

فأجاب: كان غالب قد أسنّ، لكنّه أدرك المخاطر التي سيّبها  
ابن أبي عامر، وقامت بين الرجلين عداوة رغم مُصاهرتهما.

فقلت: ولمن كانت الغلبة؟

فقال: كان ابن أبي عامر يُزيحُ كلَّ مُنافِسٍ له حتى الذين  
قدّموا له خدمات جليّة ومكّنوا له، كما فعل مع المصحفيّ ومع



صبح. فقد عمل على إزاحة غالب، وخاض الحرب ضده، إلا أن غالباً مات ميتة مفاجئة فخلا الجوّ لابن أبي عامر من دون منافس.

فقلت: وكيف استطاع ابنُ أبي عامر أن يكسبَ قلوبَ الناس وأن يحكمَ جميعَ دواليب الدولة لصالحه؟

فقال: لم يكن أمامه طريقٌ سوى إعلان الجهاد، فكان يقوم بغزوات متتالية ضدّ الإفرنج، لكنّها كانت آتيةً بهدف الغزو وجمع الغنائم، ولهذا لم تستطع هذه الغزوات أن تحُدَّ من نفوذ ممالك النصارى وتُمكنَ للمسلمين بصفة نهائية في الأندلس، إذ لم يقم المنصور بن أبي عامر بتوطين المسلمين في هذه المناطق والتّمكين لهم فيها، وإنما اقتصرَت على غزواتِ الصوائفِ للأسرِ والغنائم.

وبدا لي أن أستفزّ والدي بسؤال مفاجئ، فقلت له: وكيف استطعتَ العملَ معه رغم ما ذكرتَ عنه؟

نظر إليّ بعُمق ثم ابتسم، وقال: تُعجِبُنِي صِراحتُكَ وِبحثُكَ عن الحقيقة مهما كان الثمن.

ثم أردف: إنّ ولائي للبيت الأموي ثابتٌ لا يتزعزع، ولم أكن أرى رجلاً آخرَ يصلحُ لدقّة الحُكم سوى المنصور رغم ما ذكرتُ له، لكنّي عارضتهُ لما أراد أن يستولي على الخلافة ونصّخته أن يُبقي عليها ما دام أنّ جميعَ السلطات في يده، ولا مصلحةَ له في إثارة الناس ضده فانحاش لرأبي، ولعلّي أقول إنّه انحاش إلى مصلحته. يا ولدي، كان المنصور رجلاً ذكياً مقداماً كريماً، لكنّه كان يُحبُّ سَفْكَ دماء أعدائه، كما كان يَغْدِرُ بمن يَفُفُ في طريقه.

وهذا كان أمراً ثقيلاً عليّ، لكنّ مصلحةَ الدولة اقتضتْ أن أبقى في منصبِي وأقول ما أعتقدُ إنّه الحقّ. ثم إنَّ هشامًا كان ضعيفًا غير قادرٍ عليّ الحُكْم رغم أنّه الخليفةُ الشرعي. ثم إنّه كان يشتغلُ بملاحِمِ المنجَمينَ الذين قالوا له إنه سيَمُكُثُ في الخلافة التي ستَنقَرِضُ بالأندلس على يد رجلٍ علويٍّ أوّل اسمه عين. فكان يتوجَّسُ من العلويين الذين استقدمَهُم المنصور وابنه المظفر من المغرب.

فقلت له: يا أبتِ، إنك تعلمُ أنني لا أحبُّ الكذبَ وأكرهُه كُرْهِي لكلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ وخِسَّةٍ بادية أو خافية، بل إنّي أعتبرُ الكذبَ سَنَامَ النذالة، مَاحِيًا لكلِّ فضيلةٍ مهما عَلَتْ، ومُعْفِيًا لكلِّ صفةٍ حسنةٍ مهما عَزَّتْ وغَلَّت. كلُّ الناسِ يمكنهم تحسِينُ أخلاقِهِم إلا الكذّاب فإنّه لا يُقْلَعُ عن كذبه ويبقى مُستهترًا بذلك ولا يرجعُ إلى الحقّ. وإنّي لا أفهم كيف أنك تريدني أن أستفيدَ من تجربة هذا الرجل في تحقيق هدفِي من الحياة، ولا يخفى عليك أن سلوكه وغدره ثم عدمَ تورّعه في سَفْكِ الدماء لم يكن لِيَسْفَعَ له عندي حتى أتخذه مثلاً يُحْتَذَى أو قدوة تُرْتَضَى.

فقال والدي: ليس على هذا دَلَلْتُكَ يا ولدي، وإنما قصدتُ أن تستفيدَ من هذه التجربة لتري دورَ الإرادة القويّة التي تدفعُ بصاحبها إلى بلوغ أهدافه. أما عن كيفية الوصول إلى تلك الأهداف فهذا أمرٌ تتحكّمُ فيه عواملٌ مُتعدّدة، منها ما هو نفسي ومنها ما هو غير ذلك.

\* \* \*

كنتُ أمُضي وقتي في تحصيلِ العِلْمِ والعبِّ من مَبَاهِجِ الحياة. وكنْتُ أجدُ في قصرِ والدي بمدينة الزاهرة ما يَصْرِفُني عن أيِّ شيءٍ آخَرَ. شَبْتُ نُعمَ وفَرِهْتُ فَسَلَبْتُ لُبِّي بحُسْنِها وبهائِها وشُقْرةِ شعرِها وزُرْقةِ عينيها. كانت مقاييسُ الجمالِ عندي تَنحَصِرُ في الشقراوات، وكذلك كان الشَّانُ عند والدي وبنِي مروانِ عامَّة. لم يكن بيني وبينها حِجابٌ إذ كان يَضُمُّنا البيت نفسه. كما كان الدخولُ إلى مَخادعِ النساءِ في قصرِ والدي أمرًا يسيرًا، لا أجدُ حَرَجًا فيه ولم يكن أحدٌ يمنعني منه سوى ما كان من تَرَصُّدِ العَجوزِ بي ومُلاحقتي بنظراتها المستَفْرِزةِ وتَقْرِيعِها المستمرِّ، لكنِّي كنت لا أعبأُ بمُنَاقَرتِها فتزداد في التَّضْيِيقِ عليّ. لقد أدركتُ من النساءِ ما لم يُدرِكهُ غيري، وأظَلَعْتُ على أسرارهنَّ سواء عند العواجزِ أو لدى الشاباتِ أو عند الصبايا. كلَّ صنفٍ له خصائصه وعوالمه. كنت أزهو بتعرُّفي على هذه العوالمِ العجيبة. وقد كان الشَّرْطُ المعمولُ به عندنا للدخولِ على النساءِ بحرِّيَّة هو الرِّضَاعُ منهنَّ حتى تصبِحَ مثلَ علاقةِ المحارمِ.

وخلال ترُدُّدي على مخادعِ النساءِ، كَلِفتُ بواحدةٍ من بنات الجيرانِ نشأتُ في بيتنا تُدعى نُضارَ، دائمةُ القُطوبِ ممتلئةُ الجسمِ، كانت تتمنَّعُ عليّ أشدَّ ما يكون التَّمَنُّعُ، وسعيت مُدَّةَ عامين وراءها فكانت تُقابلني بالصُّدودِ، ولم أظفرُ منها بشيء. وكانت رغبتي فيها تزدادُ كلما أَمَعَنْتُ في تَمَنُّعِها وإِعراضِها كما يزدانُ غيرها بالبَدَلِ والوَضَلِ، فأحببتها حبًّا مفرطًا. وكانت تأتي دارنا في الزاهرة فكانت أتعَمِّدُ الدخولَ على دُورِ النساءِ في قصرنا للقائِها، ففطنتُ

العجوزُ المترصّدة لمناوراتي فدعتني مرّةً إلى مخدعها مع نُصار، وأخذتُ تلاطفني حتى انشرحَ صدري لها بعد المناقّرات التي كانت بيننا حتى استغربتُ تحوّلها المفاجئ، ثم طلبتُ من نُصار أن تأخذ العودَ وتُنشدنا قليلاً، فامتثلتُ. . فأتتُ بما أسكرني وزاد من توهّي بها. وبعد أن انبسطنا إلْتَفَتَتْ إليّ العجوزُ قائلةً: إنك كثيرُ الدخولِ على النساء، وقد أصبحتُ شاباً مُكتمِلَ الرجولة، ولا يصحُّ منك كثرةُ الدخولِ والخروجِ على نساء القصر دون استئذان.

فقلت: تلك عادةٌ محكّمة عندنا، ولا يرى بها أهلُ بلدنا بأساً.

فقالت: نعم هي كذلك، لكنّ ما كُلُّ مَنْ في القصرِ مِنْ نسائه، بل تأتي إليه نساء الجيران ممّن لا حقّ لك في الخلوة معهنّ.

أدركتُ ما كانت ترمي إليه، فقلت لها، وكيف الصّنيع؟

فقالت: إذا كان لا بُدَّ أن تدخلَ بكلّ حرّيةٍ إلى مخادع النساء، وبعضهنّ محارم، فلا غنى من مُراعاة العوائد الشرعيّة. وإني أذكر أنّ مثل هذا قد وقع لما كنتُ صغيرةً حيث كنتُ أَلْعَبُ دوماً مع أحد الصّبيّة وكبرنا على هذه العادة، فلما بلغنا سنَّ البلوغ حاول أهلنا إبعادَ الشابّ عن الدخولِ والخروجِ إلى مخادع النساء بكلّ حرّية، لكنّ امرأةً من عجائز البيت أرسلتُ رسالةً إلى أحد فقهاء الحضرة تستفتيه في النازلة، فأفتى بأنّ مَنْ بلغ مبلغَ الرجال وكان معتاداً على الدخولِ على النساء أن يُرْضِعنّه حتى يُصبحَ من المحارم الذين يحقُّ لهم الخلوة معهنّ.

ارتفع الدَّمُ في عروقي وأدركتُ ما كانت ترمي إليه العجوز من احترام شعائر الملة. فقلت مبادراً: وهل رَضَعَ الشابُّ منك؟ وهل سمحوا له بالدخول عليك بكلِّ حرّية؟

فقلت: لقد رضي أهلي بما أفتى به الفقيه، ورضع مني الشابُّ فصار يدخل ويخرج بحرّية إلى مخدعي.

هنا تدخّلتُ نضار، وقالت: وهل تظنّين أنه بإمكان عليّ أن يدخل عليّ في دور النساء بعد أن يرَضَعَ مني؟  
فقلت: لا أرى حلاً آخر غير هذا.

ارتبكتُ وأحسستُ بارتباك نضار، لكنّ العجوزَ قالت: إذا أردتُما رؤيةً بعضكما بحرّية، فلا بدُّ أن تُرضعيه يا ابنتي فيجِلُّ لك الخلوةُ معه، لكنك ستُحرّمين من الزواج منه.

طاش عقلي وبقدر ما أغراني هذا الاحتمال بقدر ما أربكني، لأنّ الإرضاع لا يبيحُ سوى اللقاء، بينما يمنَعُ الزّواج، لكنّي استجمعت قوّتي وقلت للعجوز: وهل تعتقدين أن تقرّري نيابة عن أهل نضار في هذا الأمر؟

أحسّت العجوزُ بمشاعري الملتبسة ونظرت إليّ نظرة أعلمتني منها أنّ لها الحقّ في أن تُقرّرَ في مجال صلاحيّاتها بكلِّ حرّية. ثم نظرتُ إلى نضار واستفهمتُ منها بإشارة العينين عن قرارها. كانت نضار لا تُطبق عدمَ اللقاء بي، فأشارتُ برأسها للعجوز تُعلّمها بموافقتها على المقترح الملتبس، وكانت ذاهلةً عن تَسبّب الرّضاع في حرّمة العلاقة الزوجيّة بيننا. لم تُمهلي العجوز لأبيّن لنضار

مَالَاتِ الرضاع فسارَعَتْ تأمُرُهَا أن تكشفَ عن ثديها حتى أَلْقَمَهُ .  
كُنَّا في سُكْرٍ وذهلنا عَمَّا كُنَّا نفعل، ويقدر ما كانت الرغبة جامحةً  
في انتهاك حدِّ بأميرٍ مشروع، بقدر ما كانت الكوابح كثيرة. لم نكن  
ندركُ نتائجَ هذا الفعل، لكنَّ العجزُ أَصْرَتْ على احترام المظاهر  
حتى تسمحَ لنا باللقاء مجدِّداً. كانت صاحبتني في غاية الارتباك.  
لم يكن ممكناً أن نتكلَّم في حضرة العجوز التي كانت تُرْضدُ كلَّ  
حركاتنا وهمساتنا، لكن لغةَ العيونِ أَسْعَفَتْنا في هذا الموقفِ  
العجيب. نَظَرْتُ إلى نُضار فأشارت إليَّ بِلِحْظٍ عَيْنِيهَا تُخبرني عن  
مُوافقتها. ثم نظرتُ إلى قَدِّهَا الرفيع الذي يسمو على كلِّ قَدِّ،  
أستطلعُ منه بعض ما استطلعتُ من عيونها، فأفادني بلغة الجسد  
سِرَّ القبول بحركة رقيقة لا تدركها إلا العين المتمرِّسة على ملاحظة  
الحيب. ثم أعشاني نورٌ وجهها الصبيح لما رأيته قد غَفَلْتُ عنه  
في مُطالعة قَدِّهَا. أطرقتُ بعينيَّ قليلاً أرجو العفو من هذا النور  
المتألئ الذي ملأ المكان. أحسست بهيبة من هذا الجمال الذي  
يدعو للنُّسكِ والتَّبَتُّل. أدركتُ أنني محظوظ لأنِّي ظَفِرْتُ بصحبة هذا  
البهاء. نَظَرْتُ إليَّ مرَّةً أخرى للتأكُّد من مُوافقتي فأشعرتُهَا  
بالموافقة. عمَدتُ نُضار بيدين مرتعشتين تفتحُ طوقَهَا، وكلِّمَا  
صَوَّتِ التَّكَّةَ شهِقَتْ فتبدَّى جينُّهَا كأنه هلالٌ طالعٌ من أفقٍ بهيم  
حتى كَشَفْتُ عن ثدي بَضٍّ يشبه سفرجلَةً ملساء، وبدتُ حَلَمَتُهَا مثل  
زبيبةٍ قد أدركها البردُ فانكَمَشَتْ، ولعلَّ إخراجَ اللحظة قد أصابها  
بهذا الانكماش. سكرتُ سُكْرًا طاشَ له عقلي، لكنني لم أُحِجِّمْ  
عن التَّحديق في الثدي العُذري الرائع الذي كَمَلتُ استدارتُهُ، لكنَّ

العجوزَ أخرجتني من ذهولي وطلبت مني أن أتقدم نحو صاحبتني لألقم نديها. تقدمت فأحسستُ بأنفاسي تتعاطم وقلبي يقصف مُزمجراً. ولما أصبحتُ أمام الفتاة رأيتها تتضاءل وتحمّر كَنَارِ مُسْتَعِرَةٍ حتى كادت تذوب. سمعتُ وجيبَ قلبِ نُضارِ يزارُ في جوف صدرها أكثرَ ممّا كنتُ أسمعُ من ذاتي، وتشكّلَ لحنُ مرَكَّبٍ من وجيبِ القلبين كأنه نعمةٌ مزمومٍ عالية أُشربتُ بنعمةِ حُصارٍ منضغطة. كانت قلوبنا تهديرُ قَصْفًا، لكن كوابح اللحظة كانت تحضرها عن تبليغ نبضاتها إلى غايتها كما يفعلُ لحن الحُصارِ عند إنشاد المنشد له، بحيث يُلجمُه عن تَعَدِّي مساحه النّعمة حتى لا يتحوّل إلى لحن مغاير ويسقط في سوء الأداء المذموم عند أهل الفنّ.

تحلّب ريقِي وصعدَ قلبي إلى حنجرتي فلم أستطع أن أنبس بحرف وتضاءلت رؤيتي وصعد الدم إلى رأسي. لم أعذ أفكرُ في العجوز التي كانت تراقبُ المنظرَ وتضعُ الحدودَ لهذا السلوكِ، بداياته وغاياته. كان المسيرُ نحو الثديي السفرجلي رحلةً آماذٍ بقدر ما كانت أنفاسًا معدودة. دخلتُ في مجال نُضارِ وأنفاسها، وكنتُ أشرفُ عليها مقدارَ شبرٍ، فلم أذرِ ما أصنع، ولم يُخرجني من ذهولي إلا أمرُ العجوز: تقدمْ والقمِ الثديي خمسَ لَقَمَاتٍ.

لم أكنُ قد شرعتُ في واحدةٍ منهم، فإذا بالأمر يتعدّد. كانت الشهوة عارمةً، لكنها كانت ممزوجةً بشيء غريب. لم أكن واعياً بما فيه الكفاية. عن نوع هذا الإحساس رغم أنني بطلٌ في التلاعب بالمشاعر والأحاسيس، وإظهار ما أشاء وإخفاء ما أريد. لكن حدّة

التَوَثُّرُ وَصَلَتْ مِنْتَهَاهَا فَالْتَبَسَ عَلَيَّ الْأَمْرُ جَمَلَةً وَتَفْصِيلاً. تَقَدَّمْتُ  
مَرَّةً أُخْرَى وَأَحْسَسْتُ بِزَفِيرِ نُضَارِ الَّتِي كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْخِلَاصَ مِنْ  
هَذِهِ اللَّحْظَاتِ الْمَحْرِجَةِ تَحْتَ مُرَاقِبَةِ أَغْيُنِ الْعَجُوزِ الَّتِي كَانَتْ  
تَسْتَذْكِرُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ ذَكَرِيَاتِ الشَّابِّ الَّذِي كَانَتْ تَحِبُّهُ، وَالْفِطَامِ  
الَّذِي حَصَلَ بَعْدَهُ. كَانَتْ الْعَجُوزُ سَعِيدَةً بِمَا يَحْصُلُ، لَكِنَّهُ شَعُورُ  
مَزْدُوجٍ فِيهِ سَعَادَةٌ وَأَلَمٌ، سَعَادَةُ الْجَنِيِّ، وَأَلَمُ الْفِطَامِ الَّذِي يَعْقُبُهُ  
طَوَالَ الْحَيَاةِ. لَمْ أَكُنْ قَدْ فَكَّرْتُ فِي هَذَا، وَمَا كَانَ يَسْغُنِي أَنْ أَفَكَّرَ  
فِيهِ لِأَنَّ اللَّحْظَةَ أَسْرَتْ مَدَارِكِي عَنِ تَعَقُّلِ الْحَيَاتِيَّاتِ. تَقَدَّمْتُ، أَوْ  
لَعَلَّ شَفَتَايَ دُفِعَتَا نَحْوَ النَّهْدِ الْمُمَغْنِطِ الَّذِي يَنْتَظِرُ الْقِطَافَ  
وَالِاتِّصَالَ. ثُمَّ وَضَعْتُ يَدًا عَلَى كَتِفِهَا وَطَوَّقْتُهَا إِلَيَّ، ثُمَّ تَسَلَّلْتُ  
بِيَدِي كَأَنَّهَا تَخْتَلِسُ شَيْئًا لَيْسَ لَهَا نَحْوُ ثَنِيهَا فَأَمْسَكَتُهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ  
انطَبَقَ عَلَى كَفِّي بِالتَّمَامِ، لَقَدْ تَحَوَّلَتْ حَرَكَةُ الْإِطْبَاقِ مِنَ الْكَفِّ إِلَى  
النَّهْدِ بِفِعْلِ تَأْثِيرِ الْمَغْنَطَةِ. كَانَ النَّهْدُ لَيْنًا مِثْلَ تِينَةٍ بَاكِرَةٍ، لَكِنَّهُ أَخَذَ  
يَتَصَلَّبُ فِي كَفِّي حَتَّى امْتَلَأَ مِثْلَ السَّفْرَجَلَةِ حَجْمًا وَشَكْلًا. أَسْنَدْتُ  
الْكَفَّ نَحْوَ شَفَتَيْي ثُمَّ أَطْبَقْتُ بِمَجَامِعِهِمَا عَلَى زَيْبِيَةِ حَلْمَتَيْهَا  
فَأَحْسَسْتُ بِنُتُوءَاتِ الْإِنْكَمَاشِ وَمَصْصُتُهَا حَتَّى تَمَدَّدَتْ. لَمْ أَشَأْ أَنْ  
أَقْطَعَ هَذَا الْوِصَالَ، لَكِنْ صَوْتِ الْعَجُوزِ أَوْقَفَ سُكْرِي وَأَمَرْتَنِي بِأَنْ  
أَمْضِي فِي الْمَصَّاتِ الْخَمْسِ بِلَا تَلَبُّثٍ بَيْنَ وَرْدٍ وَصَدْرٍ. كَانَتْ  
الْعَجُوزُ الْمُرَاقِبَةُ تَذَرُّ أَنْتِشَاءَ الشَّهْوَةِ بِالْمَنْعِ وَسُرْعَةَ الْإِنْجَازِ.  
تَجَاهَلْتُ الْأَمْرَ، لَكِنْ نُضَارُ تَأَخَّرَتْ قَلِيلًا إِلَى الْخَلْفِ إِذْ كَادَ قَلْبُهَا  
يَتَوَقَّفُ وَامْتَقَعَ لُونُهَا وَتَبَرَّقَعَتْ بِحَمْرَةٍ وَبِيَاضٍ حَتَّى لَكَأَنَّهَا نِوَارٌ  
أَشْرِبَ بِوَرْدٍ. انْدَفَعْتُ إِلَى الْخَلْفِ، لَكِنِّي لَمْ أَفْلِتْ حَلْمَتَيْهَا إِلَّا



بضعوبة مخافة أن أؤذيها. كان التوتُّر في قَمَّتِهِ، وحينما انفصل  
 الثَّدْيُ عَنِّي خِلْتُ أَنِّي قُطِمْتُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَحْسَسْتُ بِغُرْبَةٍ  
 قَاسِيَةٍ. وَفِي هَذَا الْأَوَانِ فَقَدْتُ كُلَّ قُدْرَةٍ عَلَى التَّرْكِيزِ وَلَمْ أُسْتَطِعْ  
 أَنْ أُنْجِمَعَ عَلَى ذَاتِي، وَكَأَنِّي فِي التَّيِّهِ الَّذِي أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
 فَرَدَّدُوا ذِكْرَهُ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَلَا أَخَالُهُمْ إِلَّا مَاضِينَ فِي  
 تَرَدَّادِهِ إِلَى يَوْمِ الْعَرَضِ. أَحَسَّتِ الْعَجُوزُ بِفَاجِعَةِ الْفُظْمِ، وَأَصَابَتْهَا  
 الشَّفَقَةُ عَلَيْنَا فَأَمْرَتَنِي مَرَّةً أُخْرَى بِإِنْهَاءِ الْمَصَّاتِ. نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً  
 ذَاهِلَةً وَقَلْتُ لَهَا: وَأَيْنَ الْحَلِيبُ؟

صَحِكْتُ مِنِّي وَقَالَتْ: لَا تَرُمُ جِلًّا مِنَ الْحَلِيبِ، فَمَصَّاتُكَ  
 الْحَمْسُ لَنْ تُحِلَّ لَكَ إِلَّا النَّظَرَ وَالْاجْتِمَاعَ، لَكِنَّهَا تُحَرِّمُ عَلَيْكَ  
 الزَّوْجَ وَالْمَعَاشِرَةَ، فَهَلْ أَدْرَكْتَ سِرَّ مَصَّاتِكَ؟

لَمْ أَكُنْ أُسْتَطِيعُ الْجَوَابَ عَنْ هَذِهِ الْأَلْغَازِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنَ  
 الْحِلِّ عَيْنَ الْحَرَمَةِ، فَأَمْضَيْتُ أَطْلُبُ الْحَلْمَةَ النَّائِثَةَ كَالْبُرْعُمِ الشَّرِيدِ  
 عَلَى غُصْنِ شَجَرَةِ يَتِيمَةٍ عَرَّتْهَا الرِّيحُ مِنْ أَوْرَاقِهَا فِي الْبَرِّيَّةِ. كَانَتْ  
 تَتَعَشَّقُ اللَّقَاءَ وَتَفِرُّ مِنْ غُرْبَةِ التَّيِّهِ الَّتِي رَمَانَا فِيهَا الْإِنْفِصَالَ الْأَوَّلَ.  
 كَانَتْ جِرَاتِي فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عَلَى التَّيْقَامِ النَّهْدِ أَكْثَرَ عَزْمًا مِنْ  
 تَرَدُّدِي الْأَوَّلِ، فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ هَذِهِ الْبَاكُورَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَحْسَسْتُ  
 بِحَرَارَتِهَا تَسْرِي إِلَى ذَاتِي كُلِّهَا، وَسَرَى فِيَّ مِنْهَا مَا يَسْرِي فِي  
 الْوَلِيدِ الَّذِي يَصْبُحُ مِنْ فِرَاقِ ثَدْيِ أُمِّهِ فَتَعَمَّدُ إِلَى سِرِّ الْوِصَالِ  
 فَيَسْكُتُ بِلَذَّةِ اللَّقَاءِ. مَا أَعْظَمَ النِّسَاءَ وَمَا أَرَأْفَهُنَّ بِالرِّجَالِ، صِبْغَارًا  
 ثُمَّ كِبَارًا. إِنَّ عَالَمًا مِنْ دُونَ نِسَاءٍ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَاشَرَ وَلَا  
 يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوَجَدَ أَصْلًا، بُورِكَ فِي النِّسَاءِ بَدْءًا وَخِتَامًا، وَسِرًّا

وإعلاتنا. إلتَقَمْتُ بُرْعَمَ البَاكورة فذابت في فمي كأنها حَبَّةُ ثَوْتٍ  
 ناضجة تشتاُق أن تَعْلَقَ باللُّها حتى يَنْفَجِرَ مَدَاقُها في سائر الفم.  
 تعمَّدْتُ أن أَتَشْرَبَ العِلْقَ النَّفيسَ وَلَوِيتُ رَأْسَ لسانِي بمساحة  
 النَّهْدِ أُسافرُ فيها، ثم جَذَبْتُ مَصَّةً لعلِّي أُدِرُّ منه حليباَ ففاض في  
 فمي لِبِأُ طازِجٍ نَفْحَنِي بِطَاقَةٍ عجيبة فأمسيتُ من السُّعداء. ثم  
 انكفأتُ نُصارُ تَفْطِمني والعَجوزُ تمارسُ غَوائِبَها بإصدار المنع تارة  
 والوَصْلُ تارة أخرى، فتَقَلِّبُ لِقائنا وَفوقَ رَغباتها وكأَنَّها هي من  
 يتحكَّمُ في هذه اللعبة، وكأني بها تَسْتَحْضِرُ الذكري الغائِرةَ وألَمَ  
 الفِراقِ الذي تولَّدَ عنها بحرمانها من الشابِّ الذي رَضَعها. كانت  
 تُتَقِنُ سِرَّ الانتقالِ، وكأني بأمزجتها قد تَكَدَّرَتْ واختَلَطَتْ فأمسَتْ  
 تَطْلُبُ اللذَّةَ من الألمِ، والألَمَ مِنَ اللذَّةِ، وتلك حالةٌ غريبة. ثم  
 تَقَدَّمْتُ مرَّةً أخرى أَناضِلُ ضِدَّ الفِطامِ وأستعيدُ الوِصالَ، وأرغَبُ  
 في ارتشافِ لَبِّا المَحَبَّةِ من عَيْنِ الانتهاكِ. تجاسرتُ أَكْثَرَ مِنْ ذِي  
 قَبْلِ ولم أَقْنَعُ من نُصارِ بنهدها بل سَعَتْ يَدِي في اكتناهِ صُلْبِها  
 وتمدَّدتُ أصابعي حتى أَشرفْتُ على أَرْدافِها، وكانت من الامتلاءِ  
 بحيث كانت تُشْعِلُ في ذاتي جِمرًا حارقًا يُذِيبُ شَحْمَ ذاتي من  
 أصلي إلى فرعي. كانت نُصارُ عِبْهَرِيَّةَ الذاتِ جوهريَّةَ الصفاتِ،  
 وما إن أَحَسَّتْ بانتهاكِ حِرْزِها حتى أَبْعَدَتْ يَدِي عن تلك  
 المَواطِنِ، فالتَقَمْتُ الثَّدْيَ المُهْدَى القِقامًا تَسوِّفُهُ رغبةٌ لا يَعْدِلُها  
 قوَّةٌ إلا مَصيرُ المنعِ المُنْتَظَرِ. كنتُ مقهورًا في حركاتي ومشاعري،  
 وَتَفَجَّرَ اللَّبُّ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ فزاد مَدَدَ الطَّاقةِ في ذاتي، وأشْحَبَ  
 نُصارَ رِغمِ نُصارَتِها. ثم تَنَزَّلَتْ كلماتُ العَجوزِ مرَّةً أخرى تَفْصِلُ

المتصل وتفتق رتق ما انجم. كانت أنفاسي تتسارع كأنها جيش في ساحة المعركة وقد تداخلت أنفاس النار والحديد بأنفاس البشر والبهايم. ثم استعجلت القضة الرابعة وانقضت أمسك نضار بكامل ذاتي حتى اتصلنا بالذوات كما اتصلت شفاهي بحلمة نهدها، وأحسست بأن مقاومتها قد خارت وأنها قد استسلمت، فسارعت العجوز إلى إيقاف الاتصال واستعجلتنا بإنهاء المصبة الخامسة وإنهاء هذه اللعبة المحيرة. تمغنطت ذاتي متمددة إلى ذاتها وأبت الانفصال، وتذكرت كيف كان يعلمني أبي الخطط الحربية لما كان يضع حفنة من تراب على صفحة ورقية ويأخذ حجر المغناطيس فيضعه تحت الورقة، ثم يبدأ في تحريك الحجر، فتأخذ كل ذرات الحديد الممتزجة بحفنة التراب في الامتثال لحركة الحجر وتتنصب قائمة كأنها جيش يستعد لملاقاة العدو. كان أبي يحرص على توزيع الحفنة على الورقة إلى خمس حفات صغيرة تمثل عناصر الجيش الخميس: ميمنة وميسرة ومقدمة وقلبا وساقا. كنت مثل هذا الجيش موزعا إلى خمسة أجزاء بين خمس مصات؛ كل جزء يطلب نضار قبل غيره، لكن موقعه في ساحة المعركة لم يكن يتيح له أن يلقاها قبل غيره، فترى الساق مني يتحسر على الوصول ليتلقف مقدمة خميس نضار، لكنه محجوز عن الوصول إليها بغيره. وترى الجناح مني يطير ليعانق قلب خميسها، فتقعه الأوامر الحربية في الجهات حتى يحين اللقاء بين الجيشين. كنت موزعا في هذه الخطة الحربية خمسة أوزاع، لا أدري بأي قسم منها ألقى نضار التي

كان تَذِيُّهَا هو الوِرْدُ الذي ينبغي أن يصبو إليه جيشٌ ذاتي ليستسقي منه ويَرَوِي فُحُولَهُ العِطَاش. كانت كُلُّ مَصَّةٍ تمضي كَجُزءٍ يَنْهَزِمُ من هذا الجيش الخماسي. وبينما أنا في هذا الأسر، اسْتَجْمَعَتْ نُضَار قَوَّتَهَا وتراجعت واستدارت تبحث عن كرسي تُلْقِي عليه ذاتها المتهالكة من تَعَبِ هذه اللحظات، فبدت لي من خلف أثوابها ممتلئة فزادت شهوتي فيها، ثم قصدتها ولَفَقْتُهَا من حَصْرِهَا فانهارت بين أحضاني، ثم لَقَمْتُ نَدِيهَا مرّة أخيرة فلم يُدِرْ بشيء، وأحسستُ أنّ قواها خارت فأسلمت جسدَها المتهالك إلى الكرسي الذي تلقف امتلاءها، وتنهّدت تنهيدةً كادت تفيض لها روحها.

وأخيراً، نطقت العجوز التي كانت مُنتَشِيةً باستعادة ذكرياتها عبر هذه اللحظات الملتبسة بمنطوق حُكْمِهَا: الآن يُمكنكما الجلوسُ لبعضكما، لكنّ يحرمُ عليكما الزواجُ وما يكون بين الأزواج. ولقد تساهلتُ فيما حصل بينكما الآن، لكنكما ستكونان تحت مُراقبتي، فأني أحذركما من انتهاك الحدود.

ثم وجّهت إليّ الكلام: إنها لن تجلّ لك أبداً. وإنّ لك سُلوّة في نَعْم التي قد يجلّ لك منها ما يجلّ للرجل مع أهله إذا أصبحت ملكاً يمينك.

بدت العجوزُ ظافرةً بعد أن أصدرت حكمها وعظمت كل إمكانيّة للوصال مع نُضَار. كان في نظرتها مزيجٌ من انتقام وظفر في الآن ذاته، ولم أدرك سراً هذا الشعور الملتبس، وما علاقته بنا سوى أنّه نوعٌ من التنفيس عن عقْدٍ تولّدت من انفصالها عن الشاب

الذي أَحَبَّهُ، ولا زالت جروحُ تلك الذكريات حيَّةً في وجدانها. كيف استساعَتْ رغم طول هذه المدَّة أن تُكرِّر التجربة المريرة نفسها على صبيَّة وفتى في سنِّ التَّوَقُّدِ والطَّرَاوَةِ؟ إنَّ صدمةَ تلك العُقْدَةَ لم تَنَحَلْ رغم كلِّ هذه السنوات الطويلة، وقد عاينتُ في بريقِ نظراتها استعادةَ التجربة الأليمة مرَّةً أخرى. لم تكن تُفكِّرُ فينا بقدر ما كانت تُفكِّرُ في نفسها. لكنِّي لم أفهَمُ في البداية لماذا علَّنتني بالهُبُوبِ إلى نُعم، إلَّا أنَّني أدركتُ سريعاً السبب. كانت العجوز طفلةً لما أُسِرَتْ مع بعض أهاليها في إحدى المصائف في جليقية، وكانت تَعْطِفُ على نُعم، ولعلَّها حين ورَّطتني مع نُصار بالرِّضاع تحت ذريعة إباحة الخُلوة والاجتماع، إنَّما كانت تَفْعَلُ ذلك لفائدة بنتِ بلديها نُعم لمنع الزواج بِنُصار، والتخلُّص من مُنافِسَتِها القويَّة على قلبي. لقد غَفَلْتُ عن هذه الحقيقة وقادني الفضولُ والرغبة في قَطْفِ الثَّمرة قبل الإثمار، ولم أَتَبَيَّنْ أنَّني كنتُ أَقْفِلُ البابَ على زوجي نهائياً من نُصار. إنَّها غِرَّةُ الصَّبِيِّ وتَدْفُقُ الشهوة من غيرِ إِعْمَالِ عَقْلِ. لقد ورَّطتُنَا العجوزُ الحاقِدة في أمرٍ كُنَّا في غِنَى عنه، لأنَّه كان بالإمكان الجَمْعُ بين نُعم ونُصار. نظرتُ إليها نظرة احتقار، لكنِّي لم أَلَمْ إلَّا نفسي التي زَيَّنَتْ لي ما كنت أرغبُ فيه دوماً من صاحبتِي المتمنِّعة، التي زالت في هذه اللحظات كلُّ أسبابِ تَمَنُّعِهَا كأنَّما سُحِرَتْ فجأة.

ثم نظرتُ إليَّ نُصار نظرةً ملؤها الحَسْرَةُ والأسَى، فقد ضِعَتْ منها كما ضاعتُ مِنِّي في عَيْنِ انتهاكِنا لِقُدسيَّةِ أجسادنا العَضَّة. لقد أَرَقَنِي أن تَنشَأَ الجِرمَةَ من أصلِ الجِلِّ.

أما العجوزُ فخرجتْ تَنْشُرُ الخبرَ في أرجاء القصر حتى يعلمَ  
به القاصي والداني، وتُشهدُ بذلك على حِرْمَةِ إمكانيّة الزواج بيني  
وبين نُصار.

\*\*\*

بعد موت المنصور ارتفعتْ وتيرةُ زيارات جاريتِه عُجب إلى  
قصرنا لملاقاة نُعم والتحدُّث إليها، بل كانت تحرص على مرافقتها  
في نزهة أيام الأحد إلى سوق المدينة. ولم يكن والدي يجد  
عَضاةً في ذلك، إذ كان يعلمُ أنّ الجارية كانت مُربيّةً لُنعم وهي  
كلّ ما تبقي لها من أهل. كنت أحبُّ نُعم وكنا نقضي أغلب  
الوقت معاً، حتى كنت لا أقبل أن تحرمني مرّيتها الجارية من  
الجلوس معها حينما تدعوها لزيارة السوق. وقد بلغها ما حصل  
لي مع نُصار، ولاحظتُ أنّها لم تكن مستاءة بل ربّما كانت مرتاحة  
للأمر لأنّ ذلك سدّ الطريق على منافستها القويّة. طلبتُ من نُعم  
أن أرافقها في إحدى المرّات إلّا أنّها امتنعتْ فساءني قولها،  
وكنت أظنُّ أنّ شدّة ارتباطنا تشفع لي في مرافقتها، فلمّا صدّني  
كثرتْ وساوسي وتناسلتْ شكوكي وتعاطمتْ غيرتي فقررتُ  
رصدّهما من بعيد وتتبعهُما عن كُتب. حرّصتُ نُعم على ارتداء  
ثوب أسود في جولتها مع الجارية، زاد هذا من شكوكي رغم أنّها  
كانت تنذرُ بأنّها تفعل ذلك حتى لا تثير انتباه الناس إلى حُسنها.

خرجتِ المرأتان من الزاهرة واتّجهتا جنوباً صوب رِبضِ  
الرملة، ثم دخلتا من باب الحديد واستمرّتا في المشي حتى وصلتا  
إلى حيّ الرّصيف على طول النهر الكبير، ثم مرّتا قرب المسجد

الجامع ثم قصر الإمارة حتى وصلنا إلى باب إشبيلية فتوقفتنا عند عَظَارٍ واشترتَا منه شمعًا وصابونًا وبِخُورًا. وبعد ذلك سلكْنَا الطريقَ المارَّ على طول سور القَصْبَةِ<sup>(١)</sup> وُصولًا إلى باب الجَوْز ودخلنا في حيِّ اليهود. كنت أرقبُهُما من بعيد حتى لا تغيِّبَا عني. ثم دخلنا في المدينة العتيقة المعروفة عندنا بالقَصْبَةِ ومرَّتا في الطريق المُفْضِي إلى الزجاجة حتى وصلنا إلى باب اليهود. وخلال جولتهما في المدينة كانت الجارية عُجْب تتلَفَّتُ بين الفينة والأخرى كما لو أنها كانت تخشى أن يكونَ سَارَ في إثرِهِمَا أحد. أمَّا نَعْم فكانت تنفَرِّج على بضائع الدكاكين المختلفة، ويبدو عليها الانبساط. استمرَّتِ المرأتان في السير حتى وصلنا باب عبد الجبَّار وسلكنا المحجَّةَ الكبرى حتى وصلنا إلى رَبْضِ البُرْج، وهو أحدُ أرباض قرطبة الشريقيَّة السبعة. كان أغلب سكَان الجِوار من النصارى. تَلَفَّتْ عُجْب لتراقبَ خلفهما ثم دخلنا فجأة إلى كنيسة القديسين الثلاثة. أسقطَ في يدي وتعجبتُ من دخولهما إلى الكنيسة، وقررتُ أن أتبعهما، لكن كان عليَّ أن أتزَيَّ مثلَ النصارى! فتوقفتُ عند بَرَّازٍ يبيعُ ثيابًا قرب الكنيسة واشتريت منه ثوبًا يلبسه النصارى وقلنسوةً وضعتها على رأسي. دخلت الكنيسة فأحسستُ بالبرد فتلفعتُ في ثوبي الجديد حتى أتستَرَّ عن أنظار عُجْب ونعم. ثم رأيتهما تتقدَّمان نحو صهريج ماء فتأخذُ عُجْب من مائه وتُشير به إشارة الصليب، ثم تُشير إلى نَعْم كي تصنعَ صنيعها. تردَّدتِ الفتاة قليلاً

(١) القصة: تطلق على المدينة القديمة المحاطة بأسوار. كما تطلق على القصر وجوف الحصن.

لجهلها بالأمر ثم أشارت بالإشارة نفسها فزاد تعجُّبي. تقدَّمتا داخل الكنيسة فأسرجتُ عُجْبَ بعض الشموع التي اشترتها من قبل، ثم وضعت بعض البخور على مِبْخَرَة وُضِعَتْ لهذا الغرض وتقدَّمتا نحو تمثال السيِّدة العذراء مع ابنها السيِّد المسيح عليهما السلام، فَجَثَّتْ عُجْبَ على ركبتيها وعدَّلتُ من خِمَارها على رأسها، ثم أومأت إلى نُعم كي تُحاكي صَنِيعَها. استغرقتِ المرأتان في صلاة خافتة. كنت جالساً على كرسيّ في زاوية أحدِ أروقة الكنيسة في الجهة المقابلة للمرأتين بحيث كنتُ أراقبُ المشهدَ دون عَناء.

وبعد أن أمضتَا وقتاً في المناجاة شهدتَا قُدَّاساً كان يُقيمه الرهبان. وفي نهاية القُدَّاس تقدَّمتا نحو المذبح باتِّجاه القَسِّ فاستلمت عُجْبَ من يده خُبْزَ الذبيحة، ثم جَرَعَتْ جرعةً من خمر القُدَّاس. بعد ذلك خرج المصلُّون، لكن عُجْبَ ونُعم بقيتا في الكنيسة حتى أتى نحوهُما أُسْقُفُ الكنيسة وتحدَّث إليهما. اقتربتُ أكثر من الموضع الذي كانوا فيه داخل المعبد ولَبَدْتُ خلف سارية أرقُبُ حركاتهم وأتَسَمَّعُ همساتهم إلى أن طرَقَ سمعي قولُ الأبِ الكاهن لهما بأن تَتَّبِعَاهُ إلى مكان منعزل بموازة المذبح. توقَّف الكاهن الأكبر أمام تمثال لثلاثة قديسين وضمَّ راحتيه وانحنى قليلاً، فقلَّدتُهُ المرأتان. ثم تَوَارَوْا خَلْفَ التماثيل داخلَ غرفة صغيرة بها صهريج ماء وكرسيّ وأريكة لشخصين، فجلس الكاهن الأكبر على الكرسيّ وطلب منهما الجلوس على الأريكة. كنتُ أختبئُ في ركن مظلم بين ساريتين عظيمتين، بحيث لا يراني أحدُ بينما كنتُ أستطيع أن أرى وأسمع ما يحدثُ داخل الغرفة.



تكلّم الكاهن الذي كان يَظْهَرُ من فخامة ثيابه أنّه كبيرُ الرتبة،  
وقال: هل هذه الصبيّة من بناتنا؟

فقالَت عُجَب: نعم أيّها الأبُّ الراعي، إنّها بنتُ الكنيسة.

فقال القسّ: وما هي قصّتها؟

فقالَت عُجَب: قبل استيلاء المنصور على شانت ياؤب كان سيدي الكونت ألفونس قد أمرني بالعناية بفلذة كَبِدِهِ إثرَ وفاة والدتها سيدي البَارونة. ثم لما اقترب جيشُ المنصور من شانت ياؤب خرج سيدي الكونت مع رجاله للانضمام إلى باقي الفرسان من أجل تنظيم صفوفهم ومقاومة زحفِ جيشِ المسلمين. وكان سيدي الكونت قد شدّد عليّ في عدم مُغادرة كاتدرائية شانت ياؤب في حال دخول المنصور إليها، فعملتُ بوصيئته وبقيتُ هناك إلى أن وصل المنصور وعثر علينا داخل الكاتدرائية فأخذني ضمن نسائه، وعهدَ بدونا مارية إلى وزيره ابن حزم. والواقع أنّي كنت أزورها دوماً وأحدّثها عن أصول أسرتها ودينها حتى أبقى جذوةَ إيمانها المسيحي حيّة. ولما مات المنصور، كثرت زياراتي لها بعدما لم يعدَ يهتمُّ لأمرِ خلفه، ابنه عبد الملك. والحقّ إنّني كنت لا أُطلِّعُ سيدي الدونا مارية على حقائقِ أصولها إلا بطريقةٍ غير مباشرة، فأجلبُ لها الحلوى في المناسبات المسيحية وأخذها في زيارة المدينة وأحاولُ أن أمرَّ قرب كنائسنا وأديرتنا، فتوقّفت عند بعض التماثيل المقدّسة للسيدة العذراء والسيد المسيح فأحكّي لها حكايات عنهما. فلما شبّتُ كنتُ أفصحُ لها أكثرَ حتى قرّرتُ أن آتي بها اليومَ للقائكم والحديث معكم، وعساكم تقبلون بتعميدها يا نياقة الأب.

كان القس يتابع كلام الجارية ويمرر يده على ذقنه كما لو كان يفكر في طريقة للتعامل مع هذه النازلة الجديدة، ثم قال: باركك الرب يا بنتي، فقد حافظت على هذا الحمل ضمن قطع أمان الكنيسة، لكن يجب الحذر في التعامل مع مثل هذه القضية، فلا يخفى عليك أن الأمر يتعلق بكبار البيوت الحاكمة عند المسلمين، ولا أريد أن أعرض باقي أبنائنا وبناتنا المسيحيين إلى مكروه. لقد سمح لنا المسلمون بالعيش هنا وممارسة شعائرتنا شرط أن لا نسعى في نشر ديننا بين المسلمين. وهذه الفتاة محسوبة اليوم عليهم، فلا بد من توخي الحذر.

أطرقت عجب رأسها إلى الأرض، لكنها أردفت: أيها الأب، إن هذه الصبية سليلة أحد البيوت المسيحية الكبرى التي خدمت أمان الكنيسة المقدسة.

فقال القس: أعرف ذلك يا ابنتي، لكني لا أريد أن أتحمّل وزر تعريض باقي رعيتي السيد المسيح في هذه البلاد للخطر.

فقلت عجب: وما العمل أيها الأب؟

فقال القس: سأعمدها، لكني أريد إخباركما أن السيد الكونت ما زال على قيد الحياة. وهو لم يمّث في حرب جيش المنصور كما كان قد أشيع ساعتئذ، بل استطاع الهرب ووصل إلى رومية واتصل بالحبر الأعظم، وقد بلغني أنه رخص له في الاعتزال بدير أرملاط شمالي قرطبة.

تهللت أسارير عجب وعانقت نعم بمحضر القس الذي رفع

عينيه إلى السماء مُؤمِّئًا بِهِمَا إِيْمَاءَ الرُّضَى . ثم فجأة، أمر نُعم أن تتقدَّم نحوه فغسَلَ رَأْسَهَا وَعَمَدَهَا بِمَاءٍ فِي صَهْرِيحٍ كَانَ دَاخِلَ الْغُرْفَةِ، وَقَالَ: بِاسْمِ الْأَبِ وَالْإِبْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُّسِ . هَا قَدْ وُلِدْتُ مِنْ جَدِيدٍ مُبْرَأَةً مِنَ الْحَطِيئَةِ الْأَصْلِيَّةِ .

ثم التفتَ إلى عُجْبٍ وَقَالَ: إِنَّكَ إِشْبِيئَةُ ابْنَتِنَا .

أَخْرَجَتْ عُجْبٌ كَيْسًا مِنَ الْمَالِ وَقَدَّمَتْهُ لِلْقَسِّ الَّذِي سَارِعَ إِلَى فَتْحِ الْكَيْسِ لِيَتَحَقَّقَ مِنْ مَحْتَوَاهِ، فَبَرَّقَتْ عَيْنَاهُ لَمَّا لَامَسَتْ أَصَابِعُهُ الْقِطْعَ الذَّهَبِيَّةَ، ثُمَّ قَالَ: فليبارِكُكُمَا الرَّبُّ .

ثم أردف: بعدما تنتهي عزلة السيد الكونت في الدير سأرسلُ في طلبه حين تتهيأ الظروف لزيارتنا حتى يلتقي بكما . والآن أريدُ منكما أن تعودا أدراجكما حتى لا تتأخرا في العودة وتُثيرا الشكوك .

ثم توجهَ إلى عُجْبٍ قَائِلًا: لا تُكثري من العودة إلى الكنيسة . ولتعلّمي أنني لا أعرفُكِ ولم يسبق أن التقيتُ بك . كما لا أعرفُ قصَّةَ هذه الصبيَّة . وليكن هذا مفهومًا لديك .

كنت أتعجَّب ممَّا أسمع، لكنني لَبَدْتُ فِي مَكَانِي حَتَّى خَرَجْتُ عُجْبٍ وَنُعمَ مَعَ الْقَسِّ الَّذِي رَافَقَهُمَا إِلَى بَابِ الْكَنِيسَةِ ثُمَّ وَدَّعَهُمَا بِدَعْوَاتٍ . خَرَجْتُ مِنْ مَكْمَنِي وَاتَّجَهْتُ صَوْبَ الْبَابِ فَالْتَقَيْتُ بِالْكَاهِنِ وَأَوْمَأْتُ بِرَأْسِي لِتَحِيَّتِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ مُتَفَرِّسًا، لَكِنِّي أَكْمَلْتُ مَسِيرِي خَارِجَ الْكَنِيسَةِ خَوْفًا مِنْ انْفِصَاحِ أَمْرِي . وَصَلْتُ إِلَى السَّكَّةِ الْعُظْمَى فَرَأَيْتُ الْمَرَاتَيْنِ تَمْشِيَانِ أَمَامِي فَمَشَيْتُ خَلْفَهُمَا عَلَى مَسَافَةٍ

أحاذِرُ كي لا تفظنا إليّ. ثم أخذنا طريقًا باتجاه الجنّوب على طول جدول مائي إلى أن وصلنا إلى الزاهرة. كنت قد نزعْتُ الثوب والقلنسوة حين وصلت إلى قصرنا، فرأيت نُعم تدخل من بابه الكبير. أمّا أنا فدخلت من باب آخر حتى وصلت إلى غرفتي، فوضعت الثوب والقلنسوة في صندوق ثم جلست أتفكّر فيما ينبغي أن أقوم به. كنت أخشى إن أنا صرّحتُ لوالدي بما رأيته وسمعته اليوم أن يُبعد نُعم عن بيتنا أو يقوم بإجراء آخر تتضرّر منه وتتضرّر أنا من بعدها عني، فقرّرتُ أن أفاتحها في الموضوع، وأقف على حقيقة مشاعرها وإيمانها قبل أن أتخذ القرار المناسب، لكنني تركتها في ذلك اليوم تستريح من نُزهتها.

في اليوم الموالي التقيتُ بها في مُنية القصر، فرأيتُ ارتباكها وتغيّر حالها عمّا ألفتُهُ عادةً من حُبورها وحيويّتها، فقلتُ لها مستفزًا احتياطها: يبدو أنّ نُزهتك البارحة قد أتعبتِك.

فقلت بعد ترّدّد: فعلاً، لقد كانت نُزهة مُمتعةً في أحياء المدينة لكنني تعبْتُ من المشي.

فقلت لها: وأين ذهبتِ؟

تردّدتُ مرّةً أخرى، ثم قالت: لقد مررنا بالرصيف وتنزّهنا هناك، ثم أمضينا وقتًا طويلاً في باب إشبيلية لشراء بعض لوازم التجميل.

فقلت لها: يكفي ما أنت عليه من الجمال الطبيعي.

ابتسمتُ لناحيتي وقالت: لكن لا بُدّ للنساء من إبراز زينتهنّ

لمن يُحِبُّنَ بما يلزمُهُنَّ من المستحضرات الطبيعيّة.

ثم أَرَدْتُ إرباكها حتى أَصَلَ إلى الحديث عمّا حصل البارحة،  
فقلت: لقد انتظرتُكِ طويلاً أُمسٍ، ولا شكَّ أنكما لم تقضيا طوالَ  
الوقت في شراء الأعراس فقط، بل لا بدَّ أنكما زرتُما أحداً ما.

أحسستُ بارتباكها ورأيتُ حمرة قد أخرجلتها فأشاحت بوجهها  
عني، ثم تقدّمت نحو غصن شجرة وقطفت زهرةً محاولةً أن تُغيِّرَ  
موضوعَ الحديث! لكنني قلتُ مستدرِكاً: هل مررتِ من رِبض العَجَم  
أو البرج حيث يسكنُ العُلُوجُ والنصارى؟

زادت حمرتها وارتبكتُ، فقلت لها مُفحماً: لعلك تخفين عني  
شيئاً يا عزيزتي.

فقلت بحدّة: لا أخفي عنك شيئاً، ولماذا تُصرُّ على الحديث  
عن نزهة البارحة؟

ثم حَوَلْتُ بسرعة دفاعها إلى هجوم، فقلت: هل لأنني لم  
أسمَح لك بمرافقتنا؟

فوجدتها فرصةً سانحةً وقلت لها: لم أستطِع أن أبقى في  
البيت من دونك فخرجتُ أتجوّلُ في المدينة ومررتُ ببيتنا في بلاط  
مُغيث، وقد رأيْتُكما بالجوار.

فقلت نَعْم بحدّة مضاعفة: ماذا؟

ابتسمتُ وقلت: لقد تبعتكما يا عزيزتي في أحياء قرطبة حتى  
رأيْتُكما تدخلان كنيسةَ القديسين الثلاثة.

خفضتُ نَعْم رأسها وأجهشتُ بالبكاء، ثم تمالكتُ نفسها

وحاولت إخفاء أمرها، فقالت: لقد طلبت مني عُجْب أن أرافقها داخل الكنيسة فتبعتها.

فقلت لها دون مُوَارَبَة: لقد دخلت أيضا وراءكما إلى الكنيسة لأقف على ما تفعلان، وقد رأيتك استجبتي لما طلبت منك بِرِضَى.

أَسَقِطَ في يد نَعْم مرة أخرى فأجَهَشْتُ بالبكاء، فَرَقَّ لها قلبي وأخذتها من يدها وضممتها إلى صدري مُحَقِّقًا مِنْ صَدْمَةِ ما فاتحتها به. كان نَفْسُها يتقطع وقلبها يَنْبُضُ بقوة حتى خَشِيتُ عليها من صدمة الهلاك، قَبَلْتُها على رأسها وهدأت من روعها، وقلت لها بصوت خافت: يجب أن نتصارح يا نَعْم.

استكانت قليلاً وَعَلِمْتُ أن لا مَفَرَّ من مُفاتحتي بسرّها، فقالت: أنت تعلم يا عليّ أن أبي من كبار رجالات جليقية. وقد تُوقِّيت والدتي التي لا أذكرُ عنها إلا ذكريات باهتة جدًا. أما والدي فلا أذكرُ عنه شيئًا إلا لما جاء يودّعني قبل وُصول جيش المنصور إلى شانت ياقب، وعمري صغير جدًا، لكن ذاكرتي علقَت بصورة متلاشية جدًا عنه. وقد ساعدتني مربيتي عُجْب في ترميم هذه الذكريات فَعَلِقْتُ بعض ملامحه في مخيلتي.

فقلت: أعلم أنك من بيتِ جليقي، لكنك أصبحت الآن واحدةً منّا، وأنا أحبُّك ولا أريدُ أن تَعْمَلِي ضِدَّنَا. وقد تبين لي البارحة أن عُجْب كانت تعملُ منذ مُدَّةٍ على تحويلك إلى المسيحية بعدما نشأت على دين الإسلام وحَفِظْتَ بعض السور.

ثم أردفتُ على سبيل التهديد: سيكونُ لي معها شأنٌ آخر.

فقلت: إني أُحِبُّكَ أيضًا يا عليّ، لكن عُجِبَ كانت قد قَطَعَتْ نَدْرًا أمام والدي أن تحافظِ على سلامتي وديانة آبائي. وقد كانت دومًا تفعلُ حينما تزورني. لكنني أُحِبُّكَ وَأُحِبُّ هذا البيت وأهله، وأنا وفتيةٌ له بمثل وفائك، كما أنني سعيدة بإسلامي، وصادقة في إيماني، لكنني من جهة ثانية علمتُ أنّ والدي حيٌّ يُرْزَقُ وأنه لم يَمُتْ كما كنا نظنّ. وأمنيته اليوم أن أراه وألتقي به.

فقلت: إذا كنت مسلمةً كما تقولين، فلماذا تركتِ القَسَّ يعمدك؟

فقلت نعم: لم أكن أملكُ خيارًا أمام إصرار عَجَبِ التي هي آخرُ ما تبقى من أسرتي، و«هي أمِّي بعد أمِّي».

فقلت: لقد استمعتُ إلى ما دار بينكما وبين القَسِّ في الكنيسة، وأجدني حائرًا في أمري بين أن أُمْنَعَكِ من مُعاودة رؤية عَجَبِ والتبليغ عنها أو أسكُتَ عن القضية حتى أتتَبَّتْ من سلامة موقفك.

سارعتُ نعم للقول: أرجوكِ يا عليّ، بِحَقِّ الحُبِّ الذي بيننا لا تُبَلِّغْ عن عَجَبِ، وأعاهدكُ على سلامة الجانب وصدق إيماني بدين الإسلام الذي رأيتُ سماحته وتعظيمه للسيد المسيح وأمه العذراء عليهما السلام، فليست لي رغبة في الانتقال عن شيء أعرفه إلى دين تربطني به ذكريات بعيدة غائرة، إلا أنّ لديّ رغبةً أرجو أن تساعدني في تحقيقها.

فقلت: وما هي رغبتك؟

فقلت نعم: هل يمكنك أن تتصلَ بالدي في دير أرملاط؟

فقلت لها: لقد ذكر لكما القسُّ أنه سيُرسلُ في طلب والدك بعد انتهاء عزلته، فلعلك تنتظرين إلى أن يحين الوقتُ لذلك، ثم إنَّ الديرَ خارجَ قرطبة بحوالى مرحلتين ولا بدَّ أن أستاذن والدي في الأمر.

فقلت نعم: لن أطيق الانتظار إلى أن تنتهي عزلتُهُ التي يمكن أن تستغرقَ سنوات. أمّا عن والدك، فأرجوك لا تخبره بما تعلم من أمري وأمرِ عجب.

فقلت بعد تفكُّر: سأندبُّ الأمر.

كانت زرقهٌ عينيها مثلَ بحيرة ماء صافية، وكنت أغرقُ في تلك العيون الفيروزيّة وأسبحُ في مائها الصافي. كانت مثلَ السماء حين يختلجُ فيها نورُ الشمس أياَمَ الربيع، فتبدو في غاية البهاء. لم أكن أعلمُ أنّ زُرقة العينين ابتسامَةٌ أخرى في هذا الوجه الصبيح حتى هذه اللحظات، وبالمقابل، فحينما تحزنُ نعم أو تغضب تتحوّلُ تلك الزرقة إلى حمرة، فتتحوّل معها الابتسامة إلى شرارة غضب أو كدورة حزن. لقد تعلّمتُ من نعم هذه الحقائق الكبرى عن الألوان. الزُرقة لونُ الانبساط والفرح والسرور، والحمرة لون الانقباض والحزن والغضب. أين كان يمكنني أن أتعلّم هذه الأشياء لولا نعم. لقد كان فضلها عليّ كبيرًا. يا لهذه العيون التي تُعلّمُ بالنظر، كما تُعلّمُ السلاحِفُ صغارها كما قيل بالنظر. إني



أفهم أن تُعلِّمَ السلاحفَ صغارها بالنظر نظراً لِبُطءِ حَرَكتِها، لكن ما السرُّ الذي يجعلُ الأشياخَ يُرَبُّونَ مُريدِيهِمَ بالنظر؟ كما يجعلُ الأحبَّةَ يَعلمونَ بعضَهم بالنظر؟ لا شكَّ أنَّ في العيونِ سِرًّا لا يعرفه إلاَّ أهلُ البَصْرِ بالأشياء، وقد أدركتُ اليومَ أنَّ في عَيْنِي نَعْمَ شيئاً من هذا السرِّ العجيبِ.

أدركتُ نَعْمَ سِرًّا تولَّهي فابتسمتُ لي وعانقتني ثم أمضتُ قُبَلَةً على خَدِّي، فخارتُ مُقاومتي من حسنِها، فلم أملكُ أن فَطَّمْتُ قَبْلَةَ من شَفَتَيْها فذُبْتُ فيهما. أمسكتها من خصرها المُتَأَوِّدِ الرَّفِيعِ كَعُودِ أُنثُوسَةٍ مَلَساءَ أُحاذِرُ أن أَكْسِرَها، وفي الوقتِ نفسه تنازعني رغبة عارمة في أن أعزِمَ على ضَمِّها إلى ذاتي حتى نَتَّحِدَ. لم أتردَّدُ كثيراً بين الإحجام والإقبال، إذ كانت الرغبةُ في الفعل أقوى من أختها فضممتُها بحذر، لكنَّها دفعتني براحتها على صدري، وانتفضتُ تتخلَّصُ مِنِّي ثم قالت: أرجوكَ أن تذهبَ إلى والدي وتبلِّغْه سلامي، ثم سحبتُ عِقْدًا كانت تضعُه في عنقها وقالت لي: حين تلتقي بوالدي لا بدَّ أن تُظهِرَ له هذا العِقْدَ حتى يثِقَ فيك، لأنَّه كان قد سلَّمَهُ لِعُجْبِ آخِرِ مرَّةٍ رأيتُه فيها وأخبرها بأنَّه كان قد أهداه لوالدتي في عِقْدِ قرانِهما، ثم أمرَ عُجْبُ أن تسلِّمَه لي حينما أكْبُرُ في حالِ عدمِ عَوْدَتِهِ من الحرب. أخذتُ العِقْدَ وتفحَّصتُه ثم وضعتهُ في كيسٍ صغيرٍ في جيبي، ووعدتُها بأنِّي سأفعلُ حينما أرتَّبُ أموري.

\*\*\*

كان عليَّ أن أجدَ طريقةً لإقناع والدي بالسَّفرِ إلى أرمِلاط.

وكانت لدينا أراض ذات غلال في تلك الناحية، فاشتغلتُ تلك المدة أهتمُّ بالسؤال عن تلك الأملاك ومعرفة جباياتها ممَّا أهلني لأعرف عنها ما يتوجَّب عليَّ معرفته حتى أقنع والدي بالسفر إلى تلك الجهات.

دخلت على الوالد فوجدته منهمكًا في تحضير نفسه لإحدى الغزوات التي كان ينوي الحاجبُ عبد الملك القيامَ بها، فاستأذنتُ في محادثته فأذنَ لي فقلت له: لقد انتهتِ السنَّة الدراسية، وإني أريدُ أن أخرجَ للاستجمام والصيد مع بعض أصدقائي فأحببت أن تأذنَ لي.

فقال والدي: فكرة جيِّدة، وستمكنك من تقوية عُودك، لكن أخبرني أين تريدُ أن تذهبَ على وجه التحديد؟

فأجبتُه: اتَّفقتُ مع صديقي أبي عامر بن شهيد أن نزورَ منطقةَ أرملاط لاعتدال جوِّها وكثرة الوحيشِ بها.

فقال والدي: إنَّها منطقة تبعد بمرحلتين عن قرطبة وبها غابات وجبال.

فقلت: لهذا السبب نريد أن نزورها وننتجعَ بها بضعةَ أيَّام في ضياعنا هناك. وإنَّها لمناسبةٌ لكي أستوثقَ من مداخل جباياتها.

تفكَّرَ الوالدُ قليلاً ثم قال: لكنِّي أريدك أن تحذَرَ من غارات فرسان النصارى في تلك الناحية، والأفضلُ أن يرافقكُما بعض رجالنا.

فقلت: لا داعي لذلك يا أبتِ، فإنَّ الحملةَ التي ستخرجونُ

إليها كفيلاً بجعل جميع النصارى يَنْجَحِرُونَ في غيرانهم ولن يجرؤوا على أي هجوم. وأنت تعلم أنّ الجيش عادة ما ينزل في أرملاط، فلا خوف علينا من هذه الناحية.

صوّب الوالد قلنسوته ثم قال: فليكن ما تريد، لكن لا تتأخر كثيراً هناك، وخذ ما يلزمك من الزاد والمال، ولا تعتمد على صديقك أبي عامر فإنه فقير، لأنّ والده الوزير رحمه الله كان قد أصبح زاهداً متقللاً عازفاً عن الدنيا في آخر حياته حتى ألزَمَ أهل بيته بذلك، ولم يترك لهم مالاً كثيراً يستعينون به على الحياة. ورغم أنّه كانت بيننا منافسة ممّا يكون بين الوزراء إلاّ أنّه اليوم قد انتقل إلى عفو الله، لكن كيف صادقت ابنه مع ما كان بيني وبين والده من منافرة؟

فقلت: لقد كانت بيني وبين ولد الوزير أيضاً كراهة رغم أنّي لم أره ولم يرني، لكن تنقيلاً كان يُحْمَلُ لي عنه ويُحْمَلُ له عني حتى يسّر الله في الاجتماع به بعد ذهاب سلطانهم وجاههم، فوجدته ودوداً كريمَ النفس مُؤدّباً فتوثقت بيننا الصّلات. وسأخذ ما يلزمنا من المال والزيد.

وفجأة غيرَ والدي الموضوع فقال: كيف تجد جاريتنا نعم؟

تردّدت في الإجابة عن هذا السؤال المباغت، ثم قلت: والله إنّها قد حازت من الفضائل أكرمها.

فقال الوالد: إنّني أرى أنّك قد أصبحت فتى ناضجاً، وتعلم أنّ أخاك أبا بكر قد تزوّج من عاتكة في سنّ الرابعة عشرة، وأنت لم تتزوّج بعد، ويعلمُ الله أنّي أراك تدخل مخادع النساء على

جاري العادة دون رقيبٍ بعد أن رضعتَ ممّن ليستَ لك بمحرّم،  
وأخشى عليك إن تماديتَ من أن يُزيّنَ لك الشيطانُ ما ينهى عنه  
شرع الله، ولهذا قرّرتُ أن تصبحَ نَعْم ملكَ يمينك.

سكت الوالد وساد صمت غريب ممزوج بالرغبة والإحجام  
معاً، لكنني قلت له: فليكن ما تريد يا أبتِ.

فقال: ألا تحبّها؟

فاجأني مرّة أخرى بهذا السؤال، فقلت له بصوت متردّد  
خَفِيضٍ خَجُولٍ: بلى.

فقال مبتسماً: هي لك ويحلُّ لك منها ما يحلُّ للمرء مع  
زوجه. وخَيْرٌ للإنسان أن يُوجَرَ بالحلال على أن يضعَ بُضْعَهُ في  
حرام. وأخوك أبو بكر سعيد مع زوجته عاتكة وأنت تراه لا يطمع  
في غيرها، وقد بان لي أنّك تميل إلى نَعْم ولا تكاد تفارقها.

نادى الوالد على أحد خدمه وطلب منه أن يُحضِرَ عدلين  
لتوثيق عقد ملكِ اليمين. ولما حضرا دونّا في الزمام هذا الإشهادَ  
وحُزْتُ نَعْم شرعاً بملكِ يمين. أمر الوالد خادمه أن يُبلِّغَ جميعَ  
سكّان القصر بهذا الأمر حالاً.

شكرت والدي ثم ودّعته وخرجت، والتقيت في طريقي أخي  
أبا بكر مع زوجته عاتكة بنت قُند يتناقران في الكلام كعادتهما رغم  
كلّفهما ببعضهما، فسلمت عليهما فردّ أخي السلام أولاً ثم ردّت  
بعده عاتكة، وكانت فائقة الجمال لا مثيل لها في الدنيا بأخلاقها  
وكريم خيالها. كانت تحبُّ أخي حبّاً لا مزيد عليه، وكلّما همّ

بالخروج مع الجيش في المغازي كان يَشْفُهَا الضَّنَى وَيُنَحِّلُهَا الْوَجْدَ  
وَيُسْقِمُهَا الْكَلْفَ. أخبرتهما بحياسة نُعم، ثم بعزمي السفر، فهتَّاني  
وتمنَّيا لي سفرًا طيِّبًا ونصحاني بالاحتياط والحذر من غوائل  
الطريق. ثم تركتهما فعادًا للمُناقرة، وكأتهما لا يُحسِنان التعبير عن  
حُبِّهما وبِئْهُما الهوى إلَّا عبرَ تكرارِ تلك المناقرة وتكثير المعاتبة.

اتَّصَلْتُ بصاحبي أبي عامر أحمد بن شهيد. دعوته إلى بيتنا  
وأطلعته على رغبتني في الانتجاع في مَصِيفِ أرملاط، فقال لي  
مبادرًا: بوركَ فيكَ يا عليّ، فأنت تعلمُ قَصَرَ الْيَدِ هذه الأيام بعدما  
ألزَمْنَا الْوَالِدُ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، بِالزُّهْدِ وَالتَّقَشُّفِ حتى لم يتركْ لنا  
إلَّا ما يَسُدُّ الْخَلَّةَ. وقد كُنَّا نعيش سابقًا مُرَقَّهَيْن، فَعَرَضُكَ لي  
مقبول. لكن، لماذا تنوي الذهاب إلى أرملاط بالذات؟

فأجبت: لأنَّ لنا ضياعًا هناك أمرني والدي بتفقدِها.

فقال ابن شهيد: هل هذا هو السبب الوحيد، أم أنك لا تُريد  
أن تخبرني بأسراركَ؟

فقلت: هذا هو السبب الرئيس، لكنني كنت أنوي زيارة دبر  
أرملاط الشهير. وأنت تعلم أنه يستقبلُ المسافرين والتجار  
والضيوف سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين، وأقف على بعض ما  
لهؤلاء القوم من تراتيب.

فقال أبو عامر: وماذا تفيدنا زيارة هؤلاء الرهبان، أما يكفي  
ما عانيته من زهدِ الْوَالِدِ وَتَقَشُّفِهِ؟

فقلت له ضاحكًا: لا عليك، فتكاليفُ السَّفَرِ عليّ، ولا تهتم

بالمال والزاد. لكنني أريد أن أقف على بعض أمورهم.

فقال أبو عامر: كما تريد يا صاحبي، ولعلنا نصادف بعض الروميات المتبتلات هناك فنُغريهنَّ بملذات الحياة.

فقلت له: يبدو لي أنك ما زلتَ على عاداتك العجيبة في التحرُّش بالجاريات!

فقال: وهل من عيب في أن يلتقي الأحرشُ باللين يا ابن حزم؟ إنما الحياة أدبٌ وهو وترّف، ودعنا من سَجَعِ الكُهانِ وزمَمَاتِهِمْ، لكن أنبئني عن ابتهاج الخرائدِ المصونة.

فقلت: سنخرج غدًا بعد الفجر، فلتقضِ هذه الليلة معنا في القصر.

فقال: لا بدّ لي من أخذ بعض أغراضي، لكنني سأمرُّ عليك مع الفجر.

فقلت: اتفقنا.

ثم ودّعني.

اتصلت بنعم وأخبرتها بما تمّ مع والدي بخصوص حيازتها فارتمت في حضني فرحةً جدّلة. انفصلتُ عن جسدها لأنّي كنت أرغب في التملّي برؤيتها، فقد كانت تلبس ثوبًا شفيفًا أظهرَ محاسنها. نظرتُ إليّ تستفهم عن سرِّ انفصالي عن احتضانها، فأرسلتُ إشارة من عينيّ فهمتُ منها أنّي أحببتُ معايتها في عُذرية شفافيتها فابتسمتُ. حدّقتُ في عينيها برقةٍ وحاولتُ الولوجَ إلى ذاتها من هذا المنفذ العجيب. كانت تلك العيون الصافية الزرقاء بحرًا أغطسُ فيه فأخرجُ بما أشاء من مكثونٍ ذاتها. وها قد

أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْعَيُونَ الْيَوْمَ مَدْخَلِي إِلَى اِكْتِنَاهِ جَسْمَهَا . كَانَتْ بَصَّةَ الْجِسْمِ لَيِّنَةً الْإِهَابِ ، نَاعِمَةً الْمَلْمَسِ . أَخَذْتُهَا مَرَّةً أُخْرَى بَيْنَ أَحْضَانِي ، ثُمَّ أَعْلَمْتُهَا بِعِزْمِي السَّفَرَ إِلَى أَرْمِلَاطٍ فَتَهَلَّلْتُ أُسَارِيرُهَا وَاضْطَرَبْتُ حَرَكَاتُهَا وَرَغِبْتُ إِلَيْ فِي مُرَافِقَتِي مِنْ شِدَّةِ شَوْقِهَا لِلِقَاءِ وَالِدِهَا ، فَبَيَّنْتُ لَهَا خَطُورَةَ الْأَمْرِ ، فَقَبِلْتُ عَلَى مَضْضٍ ، لَكِنَّمَا تَوَسَّلْتُ إِلَيْ فِي الْعُودَةِ فَوْرَ انْتِهَاءِ مُهْمَتِي .

وقبل مُوَادَعَتِي ارْتَمَتْ بِذِرَاعَيْهَا تَلْفُنِي وَتَلْتُمُنِي وَتَبْكِي مِنْ فِرَاقِي ، فَأَخَذْتُهَا بِمَجَامِعِي وَاسْتَوْتَقْتُ إِحْكَامَهَا خَوْفًا مِنْ نِفَارِهَا فَزَادَتْ مِنَ التَّحَامِيهَا بِي ، وَصِرْنَا ذَاتًا وَاحِدَةً فَشَمِمْتُهَا وَعَبِقْتُ مَسَامِي مِنْ أَرِيحِهَا الطَّيِّبِ ، وَغَصْتُ فِي بَحْرِ شَمْسٍ سَوَالِفِهَا الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي انْفَكَّتْ لِمُنَاجَزَتِي فَأَضَاءَ لَيْلِي بِشَمْسٍ لَا تَعْرِفُ الْأَفُولَ . كُنْتُ غَارِقًا فِي مَطْلَعِ هَذِهِ الشَّمْسِ الذَّهَبِيَّةِ ، وَكَانَتْ تَحْتَرِقُ لِتَضْيَاءِ لَيْلٍ صَبَابَتِي . نَسِمْتُهَا مَرَارًا وَلَثَمْتُهَا ارْتِشَاقًا لِرَائِقِ شَهْدِهَا وَطِيبِ شَذَاهَا .

لم يسبق لها أن مكنتني من نفسها كما اليوم، وإنما كنتُ أُخْطِفُ الْقُبْلَةَ وَالْقُبْلَتَيْنِ وَالضَّمَّةَ وَالضَّمَّتَيْنِ ثُمَّ تَعْدُو فَارَّةً إِلَى كِنَاسِهَا ، مُسْتَوْقِيَةً بِأَسْرَةٍ مَخَادِعِهَا ، لَكِنَّمَا الْيَوْمَ أَفْضَتْ بِنَفْسِهَا لِي وَبِوَأْتِنِي عَلَى تَاجِ مَمْلَكَتِهَا فَتَسَلْطَنْتُ بِأَبْهَى الْحُلَلِ وَتَسْرَبَلْتُ بِرَدَاءِ الْهُوَى فِي مَحْرَابِ أَنْاتِهَا وَوَجِيبِ فُوَادِهَا . كُنْتُ أَرْتَوِي مِنْ زُلَالِ رُضَابِهَا فَأَجِسُّ بِرُوحِهَا تَزْفِرُ فِي رُوحِي بِأَهَاتِ السَّعَادَةِ وَالشُّوقِ .

وبعد أن حَسَوْتُ مِنْهَا بَحْرَ رِيْقِهَا لَمْ أَرْتَوِ ، وَأَحْسَسْتُ بِعَطَشِ يَزِيدٍ ، إِذْ كَلَّمَا نَاولْتَنِي مِنْ وَصْلِهَا طَلَبْتُ الْمَزِيدَ فَفَهَمْتُ عَتِي ، وَحَاوَلْتُ أَنْ تُسَلِّبَنِي فَدَفَعْتَنِي عَنْهَا دَفْعَةً خِلْتُ أَنَّي أَلْقَيْتُ بِهَا فِي

بحر العدم، وطففتُ أبحثُ عن ملاذٍ، فلم أجدُ بُدًا من أن ألتفتَ  
 حولها التفتاف اللام حول الألف في لَمَّةِ أُلْفَةٍ، وانصاعتُ لي مرّة  
 أخرى فقَبَلْتُها ثم قَبَلْتُها ثم قَبَلْتُني وقَبَلْتُني وعادت فقَبَلْتُني، ومكَّنتني  
 من سَفَرِ جَلِ نَدِيئِها فغاب عني وعيبي وتحققتُ بسرَّ المحبّة. ثم  
 صدّنتني مرّةً أخرى، وفي كلّ مرّة أحسُّ بأنّها تُلقيني في بحر  
 العطش وتَفْطِئُمني عن النوش، فأزدادُ شوقًا وأطلبُ ذوقًا. ثم  
 مكَّنتني مرّةً أخرى من جيدها فجاد لي بِعِرْقِ نابِضٍ يقوم كلّما  
 وَقَعْتُ على مَحَلِّهِ بشفاهي. وزادت حرارتنا وكدت أهْتَبِلُ بها حتى  
 صدّنتني آخِرًا فعلمتُ أن لا مزيد أمام المستزيد، وأنّ هذا حَدُّ  
 الطالبِ والمريد! توسَّلتُ إليها فتأبَّتْ وعلمتُ أنّ في المنعِ سعادةً  
 أخرى لا يدركها إلّا مَنْ ذاقها. استأذنتُ مني لحظاتٍ واندفعتُ  
 تعدو إلى مخدعِها، فبقيتُ مُسَمَّرًا في مكاني وخِلْتُ أنّ الذَّهْرَ قد  
 استطال وأنّه أضحي ليلاً بلا نهار، حتى عاودتُ شمسي الطلوعَ في  
 أفقِ قُرْبِي، وجاءتني تمشي على استحياء فضممتُها مرّةً أخرى شوقًا  
 لها عن غيابها الطارئِ الطَّارِقِ. ابتسمتُ لي وأخرجتُ من بين  
 ثيابها خَصْلَةً من شعرها الذهبي تعبَّقُ برائحة العنبر الذي رُشَّ بماء  
 الورد، وجَمَعَتُ أصلَها بالمُضْطَكِّي وبالسَّمْعِ الأبيض، ولَفَّتْها في  
 نَظَّارِيهِ الوَشِيِّ وَالْحَزِّ، وقالت لي: هذه تذكرتي لك عند البينِ يا  
 حبيبَ القلب والعين. خارَت قواي، وعمدتُ ساعتها إلى مِقْصُرٍ  
 فأخذتُ خصلةً من شعري الأشقر ومكَّنتُها من بعضي عِلَّةُ يقضي  
 بعضًا من حُرْقِ الفراق. أخذت مني خصلة شعري وشممتها بعدما  
 أغمضت عينيها، وكأنّها نسمت منها روعي فشعرتُ بأنّها غابت في



تلك اللحظة عني، وخشيت أن يُغمرى عليها، لكنّها فتحت عينيها فبدت لي زرقتهما الفيروزية من خلف أهدابها المكتحلة، وحسبتها مثل بحيرة ماء وسط أجمّة تحيط بها غابة من الأبنوس الأسود. كانت الأهداب المكتحلة سوادًا مثل قضبان على رتاج جفونها، وتخيلت أنني خلف تلك الأهداب أسبح في ماء تلك البحيرة الفيروزية. أين السجن يا ترى؟ هل أن أكونَ خَلْفَ قُضْبَانِ جفونها مُتَتَعِّمًا في ماءِ زُرْقَةِ عَيْنَيْهَا أَمْ خَارِجَ الْقُضْبَانِ من هذه الجهة في فُسْحَةِ الكَوْنِ وَضَنِكَ البُعْدِ؟ لم أكن محتاجًا لكثير من التدبّر لكي أعلم أن ماء عيونها أوسع من الكون كله. فمن كان في عين التكوين منزهًا، كيف يقبل أن يكون في حجاب الكون حتى ولو كان بالتّرفيه منزهًا؟!

ثم أَلَقْتُ فِي فِيهَا حَبَّةً من المِضْطَكِي ولاكْتَهَا بِرُضَابِ رِيْقَهَا، ثم قَبَلْتَنِي مرّة أخرى ودَسَّتْهَا فِي فَمِي بِرِسُولِ بَرِيدِهَا يَتَقَدَّمُ فَيَشْقُ بين شَفَتَيْ طَرِيقًا كَأَنَّهُ يُفْضِي إِلَى كَوْتَرِ الجَنَّةِ، فسرى لي منها شذاها قبل مائها واستعجلت أن أُفْطِرَ به على الريق كما يستعجل الصائمُ الفِطْرَ على أَحَبِّ شيء. كان لسانها مثل ثعبان يَلْفُ ثعبانها في التواءة أبدية. فَكَّتْ بِصُعُوبَةٍ ثعبانَ لسانها عن ثعباني، فأحسست كأنما تَرَكْتُ جِلْدَهُ على ظَهْرِ لِسَانِي كما تَفْعَلُ الثعابين حينما تُعَيِّرُ جِلْدَهَا.

أعطتني حُفًا زجاجيًا صغيرًا وقالت لي: هذا مسواكي تستعمله كلّمَا شاقَكَ اليبسُ لي، تُخرِجُه من هذا الحَقِّ وتستاكُ به حتى يسري فيك ماء ريقِي فَتَحْيِي به ثم تودِعُهُ إِيَّاهُ بعد قِضَاءِ أَوْدِكَ وإطفاءِ

حرائق شوقك، وتلك قطعة من شعري تَشْتَمُّهَا كَلِّمَا هَزَّكَ الْحَنِينُ  
وأضناك الأنين.

أَيُّ نَعْمٍ، أَنْتِ الدَّاءُ والدَّوَاءُ، أَنْتِ الطَّيِّبُ والصيدلانيُّ، الكَلِّ  
فِيكَ ظَهَرَ، وَمِنْكَ انْتَشَرَ الخَبَرُ. يَا سَعَادَتِي بِكَ وَيَا مَنَائِي بِحَبِّكَ.

غدوتُ من عندها أَطِيرُ كَأَنِّي عَلَى جَنَاحٍ، لَكُنْتِي كُنْتُ مُفَرِّقَ  
المزاج مخلوط المشاعر بعدما نَسِمْتُ من عَبَقِ حُبِّهَا مَا سَمَحَتْ بِهِ  
في هذه الساعة مُؤَمَّلًا مِنْهَا مَزِيدَ وَضَلِّ فِي لِقَاءِ العُودَةِ.

هَيَّأْتُ أُمُورَ سَفَرِي وَاخْتَرْتُ فَرَسِينَ مِنْ أَجُودِ الأَفْرَاسِ الَّتِي  
تَحْمَلُ السَّفَرَ وَالْمَشَقَّةَ، ثُمَّ بَغَلْتَيْنِ حَمَلْتُ عَلَيْهِمَا مَا يَلْزِمُنَا مِنْ  
أَعْرَاضٍ. أَمْضَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مُسَهَّدًا لَمْ يَغْمَضْ لِي جَفْنٌ إِذْ كَانَتْ  
هَذِهِ أَوَّلَ سَفَرَةٍ لِي خَارِجَ قَرْطَبَةِ. كُنْتُ أَدْرِكُ أَنِّي دَخَلْتُ طُورَ  
الرِّجَالِ وَأَنَّ وَالِدِي لَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ لِي بِذَلِكَ، إِلَّا لِأَنَّهُ كَانَ يَرِيدُ أَنْ  
يُكْسِبَنِي مَعْنَى الحَيَاةِ وَشُظْفَهَا وَالاعْتِمَادَ عَلَى النَفْسِ وَالِابْتِعَادَ عَنِ  
مَخَادِعِ النِّسَاءِ الَّتِي أَلْفَتْهَا حَتَّى أَصْبَحْتُ لَيْنًا كَالْحَرِّ. كَانَتْ أَوَّلَ  
سَفَرَةٍ لِي مَعَ حَيَازَتِي لِنُعْمٍ وَكَأَنَّهَا الشَّمْسُ نُورًا وَجَمَالًا. تَأَمَّلْتُ فِي  
أَنَّ إِسْفَارَ مَحَبَّتِي لِنُعْمٍ بَدَأَ بِأَوَّلِ أَسْفَارِي خَارِجَ قَرْطَبَةِ. قَطَعَ عَلَيَّ  
المُؤَدَّنَ أَفْكَارِي الَّتِي مَا كَانَتْ تَنْتَهِي إِلَّا لِتَبْدَأَ مِنْ جَدِيدٍ. قَمْتُ  
فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ الدَّوَابَّ مِنَ الإِضْطَبَلِ بِمُسَاعَدَةِ أَحَدِ  
الرِّجَالِ. كَانَ ضَوْءُ الفَجْرِ الصَّادِقِ لائِحًا فِي الأَفْقِ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ  
أَعْدَلُ سَرَجَ فَرَسِي اسْتَأْذَنَ عَلَيْنَا أَبُو عَامِرٍ فَرَحَّبْتُ بِهِ وَدَعَوْتَهُ إِلَى  
التَّبَلُّغِ فَأَكَلْنَا خَبْزًا وَزَيْتُونًا وَجَبْنًا وَبَيْضًا مَسْلُوقًا، وَشَرَبْنَا لَبَنًا، وَأَكَلْنَا  
بَعْضَ الفَوَاكِهِ. ثُمَّ خَرَجْنَا بِالدَّوَابِّ وَرَكِبَ كُلُّ وَاحِدٍ فَرَسَهُ وَرَبَطْنَا

حبلًا بين البغلتين ثم أعملنا المسير. خرجنا باتجاه ربض الفخارين ثم فحَص السَرَادِق، ومررنا بالقرب من مقبرة أم سلمة، ثم مقبرة اليهود ثم سلكننا الطريق المؤدِّي إلى الشمال الغربي من قرطبة بمحاذاة الوادي الكبير. أمضينا اليومَ كلَّه في المسير وبعد العصر وصلنا إلى إحدى ضيعاتنا قرب مُنْيَة أم هاني فأمضينا الليلَ فيها. وفي الصباح عاينَتُ المحاصيل وتأكَّدتُ من الجَبَايَات واستوفيتُ ما يلزمني معرفتُه. أمَّا أبو عامر فقام من نومه ولبس ثوبًا لم يكن ليلبسه في قرطبة مخافة الزُّرَايَة به، فكان مثلَ أبي بَرَاقش، فلا تدري هل هو زيُّ الملوك أم زيُّ الفُتَّاك لا يَبْتُ على أيِّ منهما!

فقلت له: ما هذا يا أبا عامر؟

فقال: أرجوك لا تُتَادِنِي بهذه الكنية، فقد سئمتُها. إنني اليوم إنسانٌ آخرُ يا صديقي، وخرقتي الزاهية الألوان تخبرك عن حالي بعدما كُنَّا في نعيم، فأنا اليوم مثل المجاذيب الفقراء الذين لا يعطون إلا السخرية من حالهم لغيرهم. وَلَنُغْتَمِ الفرصةَ لِنُظْفَرَ ببعض الروميَّات في هذه الجهات.

فقلت له: إنك أخرق<sup>(١)</sup>، وتبدو مثل المجاذيب الأخلاقيين.

(١) لقد كان الأديب ابن شُهَيْد مثلاً لشخصية الدون جوان. وقد ذكر عنه ابن حزم أنه «كان لا يثبت على زيٍّ واحد كأبي براقش». وهناك شخصية الأزلُكَّان Arlequin الساخرة في الكوميديا دي لازبي التي ظهرت في القرن ١٦ في إيطاليا بلباسه المبرقش الذي يدلُّ على فقره وكثرة وجوه شخصيته. وأصل هذا مأخوذ من الخرقَة التي كان يلبسها مجاذيب المسلمين، ولعلَّ الكلمة اللاتينية مأخوذة من كلمة «أخرق» أو من كلمة «الأخلاقيين» وهم جماعة من الصوفيَّة كانوا يعلمون الحكمة بالسخرية.

لكن لا بأس سنذهب إلى دير أرملاط الآن، ودَعَكَ من الرومِيَّات،  
فعلِيَّ أن أقضي أمرًا هناك.

فقال: إننا لم نكد نصلُ ونستريحُ حتى تريدُ أن تريني وجوهَ  
هؤلاء الرهبان المناجيس. إني أعلمُ أنّ كثيرًا منهم يعمل الفاحشة  
فيما بينهم أو على الغلمان والصبايا، ويُظهرون من الصلاح ما  
يخدعون به الخرفانَ العَريرةَ.

فقلت: فلعلَّكَ تجدُ مرادَكَ هناك إذن، وقد حَبَاكَ الله وجهًا  
صَبِيحًا وصورةً كاملة، وإني أذكرُ كثيرًا من الجواري اللاتي كنَّ  
يتعمَدنَ الخُطورَ جيئةً وذهابًا على باب دارِكُم لا لشيءٍ إلَّا للنظر  
إليك. فَلَكْ حَظٌّ يا أبا عامر مع الجواري أكثرَ ممَّا لنا.

فقال: أمري لله، ماذا بوسعي أن أفعلَ، لكنني مَلولٌ يا  
صديقي. ألا تذكرُ الجارية التي كَلِفْتُ بي حتى فَصَحْتَنِي؟

فقلت: كيف لا أذكرُ، وقرطبةُ كلُّها تذكرُها لأنها لم تكن  
تستطيع إخفاء حُبِّها لك واستهتارِها بك في كلِّ مجلس، حتى  
كانت المسكينة لا تكادُ تُكفُّ عن البكاء ولا يَرَقُّ لها جَفَنٌ. مضيئا  
الليل.

ابتسمَ أبو عامر ابتسامَةً فضَحَّتْ غُرورَه بنفسه، وزهوه بفتنته،  
لكنه كان كريمًا فحاول أن يسترَ عني ما رشح من مشاعره على  
وجهه، فقال: لا تُموِّه يا صديقي عن صولاتي مع الصبايا في  
قرطبة، فإني أعلمُ عن عُلمَتِكَ واهتِبَالِكَ بصيِّتِكَ الشقراء التي فاقت  
بجمالها كلَّ حسناوات قرطبة.

كنت في حيرة من أمري في كيفية الردّ على هذه الإغارة المفاجئة من أبي عامر، أأزهُو على زهوه وأشفُك عليه شفوف من حاز شرقاً لم ينله غيره، وبزّ أقرانه في نَيْلٍ أَعَزُّ ما يُطَلَّب؟ أم احتاظ لجهته لاطلاعِه على مَنْ شَفَنِي هواها وتيمني حبّها؟ لُمْتُ نفسي وعدلتها أن أعطت لابن شهيد منها بعض ما استدلّ به على صابتي، وتوقّدت الغيرة بين جنبي، واصطنعت وجهًا لجهة صاحبي على غير ما كان يعتلج في داخلي من مشاعرٍ لعلمي بأن منافسي شديد المِرَاس قويُّ الشكيمة، وله حُسنٌ يسلبُ كلَّ عذراء مَصونة وكلَّ حسناء خريفة، وزانه أدبٌ ونبلٌ وتوقّد لا مثيل له. أطرقت برأسي محاولاً إخفاء ما بي من نارين، نارِ الاعتراف بما جرى لي مع صاحبتني وفضحها أمام هذا المُرابي، أو نارِ الغيرة حتى أحسن الانتقال من وجه إلى آخر من وجوه نفسيّتي المتقلّبة. خلّت لوهلة أنّ أبا عامر قد لمح هذا الصراع والتقطه في مرآة وجهي بذكائه الوقاد، لكن سُخنة تردّدٍ وحيرة كدّرت عليه إدراك انتقالاتي العجيبة وتخلّصاتي الغريبة، ففَعَرَ فاهُ لَحْظَرَةً، فَعَلِمْتُ أنّي أَرَدَيْتُهُ صَرِيحَ أحوالي، وأنّ الذكاء قد يَغلبُه الدهاء. بعد هذه المصارعة الصامته قلت له مموّها: لا تُعِرْ سمعك لمن ينقلون لك أخباري، فليس ما عندنا بأبهى ممّا عندك، وفرقٌ بين من تخلو شوارعُ قرطبة لتصيّد التملّي بطلعته فتنزّل الأقمارُ في منازلِ سَعْدِهِ، وبين مَنْ أفلأكُه مكسوفةُ الأضواءِ وسماؤه ليلٌ بهيمٌ فترأه يسعى وراء كواكب الصبايا الشقراوات حتى يضيئنَ بشمس سوافِهِنَّ سُدْفَةَ قلبه.

ضحك أبو عامر من تشبيهاتي الملتوية وقال: لا تُموّه عليّ يا

صديقي باصطناع البطالة وادعاء البهالة، فإنني أعلم أنّ الشقراء التي تحاول أن تخفي عني أخبارها هي أبهى صبيّة في قرطبة. ولعلّها هي التي وقّعت بمصّة من شفاهها على خدك المتورّد.

ثم أردف يطمئن تخوفاً من فتكّه، ويسعى في تبيد غيرتي:  
لا تخش على فتاتك مني، فإنّ أشدّ ما يُسيئني هو الخيانة.

لم أكن قد لاحظت أثر مصّة نعم على خدي، فادّعتُ البلاهة من قرصة بعوضة في الليل، ثم موّهت بتغيير الحديث حتى لا ينكشف أمري له أكثر، فقلت له: بل إنني لم أرَ خائناً مثلك في حياتي.

فقال: لعلّ شفاع بعوضتك التي قرصتكَ صارت في حجم صبيّة حتى أحالت قرصتها إلى هذا الحقّ المختوم. كُفّ عن مُبالدتي، فأنا العريفُ الخبيرُ بأثر ارتشاف القُبل على سواقي الخُدود وأغصان الأعناق. أمّا عن الخيانة، فإنك مُخطئٌ يا عليّ، فإنني وإن كنتُ أقرُّ بأنني خائن لجهة واحدة من النساء فإنني مُخلص أولاً في صداقاتي، وهذا تعرفه أكثر من أيّ أحدٍ آخر، ثم إنّ خيانتني المزعومة لجهة كلّ من هامت بي هو وفاءٌ لهنّ جميعاً. فإنني وإن كنتُ خائناً لواحدة بعينها فإنني وفِيّ لهنّ جميعاً.

فقلت له مبتسماً: ما أحسن تخلصك يا أبا عامر. إنني أعلم خياناتك للصبايا، وكم ماتت من حُبك من علقت أوهامها عليك بحيث يتحوّل تصيّدك الأوّل لهنّ، وعدم صبرك على تمنعهنّ، وسعيك في طلبهنّ إلى العكس. فإذا ظفرت بمطلوبك لم تنسب حتى تكون ابنَ ساعتك مع من سقطت في شباكك، والمسكينَةُ

ذاهلةً عن ذلك معتقدةً أنّ ما بذلته من مَسَاقٍ وما عانيتُهُ في طلبها من ارتفاقٍ مُؤذِنٌ بدوامِهِ وتأييدِهِ، وغاب عنها أنّ سعادتك تكمنُ في الطلب. فإذا تمَّ لك ما أردت انتقلتَ لغيرها، وهذا من أعجبِ ما رأيتُ وأغربِ ما سمعتُ. ولولا أنّي أعرفُك لما صدقتُ، فإنّ مثلَ هذا عزيز. ولكنَّ جمالكَ وحسنَ صورتِكَ يشفعان لك في هذا الجورِ على الأنفسِ الزجاجيةِ القابلةِ للكسر، إذ لولا يقينُك بأنك مطلوبٌ لهنّ لما تجرأتَ على تعذيبهنّ بهذا الشكل، أيها الظالمُ الأفاك، اخشَ الله في المحارمِ فإنّك ستلقى بظلمِكَ ظلماتٍ؟

ضحك الأفاك من قولي وأحسَّ بكبريائه ينفخُ في أحشائه بريح المَبَاهَاة، لكنّه لم يذهلَ عمّا كُنا فيه، فقال: وكأني بك تريدُ عقابي حتى تُبعدني عن صبايا قرطبة. فهل تُريدُ علاجي بزيارة هؤلاء الرهبانِ المناحيس؟ لا، وأيُّمُ الله، لا.. لن يمنعي عن تصيّدِ الصبايا والإيقاعِ بهنّ إلا الموت. إنّها طبيعتي يا صاحبي التي جُبِلتُ عليها، فإني من أسرع الخلقِ محبةً وأقلهم صبراً على طلبهنّ، لكن بقدر سرعةٍ وُدِّي إليهنّ يكون ما تُسميه خيانتني لهنّ، لكنني لا أفسرُ انقلابي إلى غيرهنّ إلا بتجددٍ وُدِّي، كما يتجددُ طلبُ اليعسوبِ للزّهرة بعد الزهرة.

فقلت له: أخشى على اليعسوب إن انقضَّ على أميرته أن يجودَ بروحه لها. لكن، اطمئن يا أبا عامر على أنّ صداقتي لك لن تمنعي من محضِ النصح لك، فلا تنتظر مني أن أُعينك على حبيبٍ لشفتي عليه وخوفي من هلاكه بالطمعِ فيك، فلا تُرجُ رجاءَ مني لهذا السعي، فإني لن أدخِرَ وسعاً في نصحٍ من تصبُو إليهنّ

عليك، وقطعَ رَجَائِهِنَّ مِنْكَ، وفضحكَ أمامَهُنَّ بكثرةِ تَلَوْنِكَ،  
 ودأبِكَ استئنافَ سُحنةِ محبَّتِكَ في غَيْرِ مَا حَيِّزٍ، فقد عَدِمْتَ الوفاءَ  
 للحبيب، ولا تَدَّعِ محبَّةً في محبوبٍ، فأنت لستَ بِمُحِبٍّ مهما  
 كابدتَ في سَعْيِكَ لِلظَّفَرِ بِصَبَايَاكَ المَتمنِّعاتِ، إذ صبايبتك لا تعدو  
 أن تكونَ كَمَنْ يُطْفِئُ غُلَّةَ العَطشِ لا كَمَنْ يَشْرَبُ استِمْرَاءً لِطَعْمِ  
 الماءِ، وَيَسْتَطِيبُهُ بدوامِ الاختِساءِ. إنَّ صبايبتك المزعومةَ أشبهُ  
 بِالغُلْمَةِ عند بعضِ البهائم. ولعلَّ بعضها أعلى منك مرتبةً، وأوفى  
 في القَرَارِ على مَحْبُوبِهَا صُحْبَةً. ألا ترى زوجَ الحَمَامِ مثلاً، وكيف  
 أَنَّهُ يَكْلِفُ ببعضِهِ وَيُسْتَهْلِكُ فيه، حتى إذا فارقَ أحدهُما الحياةَ لم  
 يَطِبْ للثاني أن يُبقي فَضْلَةَ رَمَتِهِ بعدَ الحبيب. فإذا كان هذا في  
 الحَمَامِ الذي يُحِبُّ إلى دَرَجَةِ ظَلْبِهِ لِلحَمَامِ، فكيف تَدَّعي وصلاً  
 وأنت مُقيمٌ مُرتحلٌ، مَلولٌ مُنزِعجٌ؟ ليس هذا مذهبي ولن أرضاه  
 لنفسي، وإني أعتذر لك هذا وأحتملُهُ منك مُراعاةً لجانبك ووفاءً  
 بحقِّ صداقتك وإيماناً مِنِّي بأنَّ النفوسَ مجبولةٌ على ما فطرتَ عليه  
 في أصلِ خَلْقَتِهَا، فأنت تحتَ قَهْرٍ ما أنتَ عليه لا تملكُ أن  
 تُغَيِّرَهُ، سَيِّمًا وقد تمحَّلتَ في تجميله وانتصفتَ لنفسك من غيرِكَ  
 بالمحاجةِ عليه والمنافحةِ عليه بقاصِمِ الأدلَّةِ ودَقِيقِ الأقيسةِ.  
 ويعلم الله أَنِّي كرهتُ مثل هذا القياسِ، فلا علمٌ إلَّا بنقلِ صحيحٍ  
 وقد حَضَّ على الوفاءِ، أو عقلٍ صَرِيحٍ وقد دَعَا إلى الولاءِ. وإني  
 أَغْرُو مُصِيبَتَكَ إلى عدمِ قدرَتِكَ على إدراكِ التوحيدِ بجزئياتِ ذاتِكَ  
 وكُلِّيَّتِهَا، فلو أَنك طَعِمْتَ منه رشفةً لكرهتَ حالكَ، وحيثُما أقبَلتَ  
 لم تَرَ إلَّا واحداً يطلُبُ واحداً، فمعبودُكَ رَبٌّ واحدٌ وأنتَ عبدٌ



واحد، وما العَدْدُ إِلَّا تنويعٌ في الواحدِ وتكثيرٌ في المعدود.

ضحك أبو عامر من حُجَجِي، ثم قال: نافح ما استطعت عن مذهبك في المحبّة، لكنني أعلم من أمرك وظاهرِ حالِك أنك لو استطعت أن تستطيبَ مثل ما أستطيبُ من الصبايا لما تمحلّت في حُججِكَ الواهية. والله يا صاحبي لو كَشَفْتُ لك حسناءً عن جَوْهَرِ فَرَادَتِهَا، لأدرُكْتَ أنّ التوحيدَ الحقيقي الذي تدعو إليه وتُنافحُ من أجله غيرُ ما تدّعي وما تَعلم. التوحيدُ الذي أنا عليه مُتمنّعٌ على أمثالك الذين رَضُوا منه بالصورة الواحدة في الآنية الواحدة، وعندِي أنّ التوحيدَ الحقيقي مُتمنّعٌ دومًا، ونحن دومًا في أَوْحَالِهِ عَالِقُونَ، وأنّ أسمى مراتبِ المعرفة هي الحيرةُ في أنّ أسمى ما في الوجودِ هو الطلبُ. والموحّد هو الطالب دومًا الذي لا يَكْفُ عن طلب محبوبه، فيراه في كلّ شيء، يراه في لُبنِي ولِيلِي، ثم يراه في سَعْدِي وَعُلوِي، ثم يراه في سَلْمِي وسُلَيْمِي، ثم تَنفَكُّ عنه كلُّ الأسماء بلا ثَمٍّ، فلا يَغْلُقُ باسم ولا يَتَكَيَّفُ بِرِسْمٍ. دَعْنِي من تخاريفِك حولَ الوفاء والإخلاص، فَمِثْلُكَ لا يعرفُ طَعَمَ المحبّة ولا يعرفُ الحبيب، إنّه عابِدٌ لِشَكْلِ واحد وصورةٍ واحدة. ولو كنتَ على شاكلتي لعلمتَ أنّي في انتقالاتي أسمى منك معرفةً وأرسخُ منك محبّةً، لأنّي أحببتُ المحبوبَ في انتقالاته. أنت تريدُ أن تسيجَ حولَ المحبوب صورةً ساكنةً واحدةً، وأنا أراه في انتقاله من صورة إلى صورة. فأنا أراه في أحوالِ انتقالاته، وأنت تراه في مَحَطِّ مَقَامِهِ.

توقّف أبو عامر عن الكلام، وأحسستُ أنّه صرعني بحججه

مثل ما صرعتني بحاله، فقد كنتُ أشْفُ عليه بكثرة انتقالاتي  
 وصوري التركيبية وأَوْجُهِي المتعدّدة، لكنني أدركت منه الآن أنني  
 كنتُ أبعدَ ما أكون عن حال نفسي في الانتقال ورضيت  
 بالاستيطان. ظننتُ أنني كنتُ أستطيعُ أن أغيّرَ من سلوكه وأظهرَ له  
 ما أشاء حين أشاء، فتعلّمتُ منه أن محبّته أرسخُ مني، وأنها ربّما  
 تكونُ أوفقُ لي ممّا كنتُ عليه، بل ربّما لم أسلكُ سلوكه فيها إلا  
 لأنني مُعوّزٌ لها مُفتقرٌ إليها، راغبٌ فيها طالبٌ لها، ولو أنّ الوهّاب  
 وهبني مثلَ ما له من الحُسنِ لما تورّعْتُ عن سلوك ذلك المذهب.  
 أدركتُ فجأةً أنّ المحبّةَ مَيْلٌ، وأنا كنتُ أمشي بها في اعتِدال.  
 كان أبو عامر طالبًا مطلوبًا، بينما كنتُ أنا طالبًا لها فقط. وشتانَ  
 بين من كان في أحسنِ صورةٍ، مثلَ يوسف الصّدّيقِ مطلوبًا لِنِسوةٍ  
 مِضرٍ بقدر ما أُودِعَ في قلبه مِنْ مَحَبَّةٍ للمحبوب، وبين مَنْ يرى أنّه  
 طالبٌ وأنَّ غيرهَ مطلوبٌ للمحبّة، إذ لم يَخْطُرُ بباله لحظةً أنّه قد  
 يكونُ أيضًا مطلوبًا له. وهذا قِمةُ الإيثار في أن تجودَ بنفسك قُربانًا  
 لمن تُحبّ. لقد فاتني من العِلْمِ بالمحبّة ما أدركته في هذه  
 اللحظات مع أبي عامر، كان حُسنُه ابتلاءً ونعمةً في الآن نفسه،  
 فقد ابتلي به لأنّه قد يكون مطلوبًا لمن لا يرضاه لنفسه، لكنّه مُنِحَ  
 أيضًا حافزَ طَلَبٍ غيره، فتراه يدفع عنه ويطلبُ له، ودومًا ينتقل  
 ولا يستقرّ.

لما أدرك أبو عامر أنّه كسبَ جولةً في هذه المُنازلة، أرادَ أن  
 يُخَفِّفَ عني، فقال لي: دعنا الآن من هذا، ثم نزل عن فرسه  
 ورشَّ بعضَ الماءِ على وجهه من الجَدُولِ الذي كُنّا نمشي بحذائه.

فنزلتُ أيضًا وقد ألهبني أشعةُ الشمس المحرقة، فأنعشتُ وجهي بالماء الجاري سعيًا مني لإزالة حرارة الحَرَج الذي أوقعني فيه بعد انتصاره عليّ في هذه الواقعة. وبينما كنتُ أُحَلِّلُ أطرافي بالماء، رَفَعْتُ وجهي إلى تَلَّةٍ مُقَابِلَةٍ، فلمَحْتُ دِيرَ أرملاط المبنّي بحجارة الوادي حتى لا تكادُ تراه بالعين المجرّدة، إذ يلزُمك تدقيقُ البصر حتى تُمَيِّزَ الدَيْرَ عند السَّيْرِ إلى الجبل الذي رَبَضَ في سَفْحِهِ قُبَالَةَ الوادي. قلت لأبي عامر: ها قد وصلنا إلى دير الرهبان، ولعلك تحظى هناك ببعض المتبيلات.

فقال المشاكس: آمين يا صاحبي، فلعلنا ندرُك عند أولئك القوم ما تَبَلَّغُ به على سفرنا هذا، على حَدِّ قول القائل:

ديننا في السَّماعِ دِينٌ مَدِينِي وفي شُرْبِنَا الشَّرابِ عِرَاقِي  
فقلت: فأنت على مذهب فقه أهل العراق في إجازة الشراب،  
وتَدِينُ بمذهب فقه أهل المدينة في إجازة السَّماع.

ضحكنا، ثم أعملنا المسير نحو الدير. كان بعض الرهبان منهمكين في الحقول القريبة، ولم يُعَيِّرُونَا أيَّ انتباه.

كان الديرُ يترَبَّعُ على سفحٍ مُنْبَسِطٍ أسفلَ الجبل ويجري بين يديه نهر، وكان يحيط به خندق من الماء الذي جُلِبَ بناعورة ترفَعُهُ من الوادي إلى الدير. وكان هذا الخندقُ يمنعُ الوصولَ إلى أسواره التي تحيطُ به وتعزِلُهُ عن بقيَّةِ اليابسة إلا من جهة الجنوب أمام الوادي حيث مدخل الدير.

تقدّمنا نحو باب الدير الذي كان مقفلًا ويحجِرُهُ عَنَّا الماء،

فأطلَّ حارس من ثقب ليستفهم عن سرِّ زيارتنا، فأخبرته بأننا تُجَارُ  
 غرباء نريدُ قضاءَ بعض الأيَّام في الدير قبل أن نغادرَ إلى قرطبة.  
 غاب عنَّا لحظات حتى سمعنا صوتَ جِسْرِ ينفكُّ عن مدخل الدير  
 وينزل حتى استوى على الأرض، وعلى كِلَا طرفي الجسر سلسلتان  
 حديديتان تتمدَّدانِ به حتى يستوي، وترفعانه بعد ذلك حين إغلاق  
 باب الدير. كان هذا النظام شائعًا في وقتنا لانعدام الأمن، بحيث  
 كان الباب الذي يحجز بين الدخول إلى الدير هو نفسه الذي  
 يستوي حتى يَمُرَّ عليه القادم إلى داخل الدير. وقف الراهب في  
 الجهة الثانية من الجسر حتى وصلنا إليه بدوابنا. رَحَّب بنا وطلب  
 منَّا أن نتبعه. بمجرد ما اجتزنا الباب، ارتفعَ الجسرُ مرَّةً أخرى  
 وعُزلنا داخل الدير مع الرهبان. دخلنا تحت رِواق المدخل، فرأيت  
 بابًا حديديًا مُشَبَّكًا في شكل مربعات يُدار من أعلى إلى أسفل أو  
 العكس بإدارة عَجَلَة. كان هذا الباب الثاني للمبالغة في منع  
 الوصول إلى الدير. وما إن جُزنا رواق المدخل حتى سمعنا طَرْقًا  
 متتابعًا على حديد، وحرارة منبعثة من جهة يسار الداخل. التفتُّ  
 إلى الراهب وقلت له: لعلَّ هذا الطَّرْقَ يُسَوِّشُ سَكِينَةَ الدير؟

فقال: إِنَّ الإخوةَ الرهبان منهمكون في فُرْنِ الحِدادَة لإنجاز  
 أجراس كنيستة تهدمت. لكن اطمئننا، فإنَّ الطَّرْقَ لا يُسَمَعُ في  
 داخل الدير لأنَّ المسافةَ بعيدةً بينه وبين باقي بنايات المَجْمَع.  
 انعطفنا يمينًا، بعيدًا من حرارة الفُرْنِ وطَرْقَاتِ حديده، واتَّجهنا  
 صوب الإصطبل فرأينا عمودًا مُتَفَحِّمًا قائمًا فاستبشعْتُ منظره  
 الكَريه، واستفهمتُ بإشارة من عيني أبي عامر، فرفع حاجبيه

جهلاً، فقال لنا الراهب بزّهو: هذه خشبة الصلْب، أو عمود النار المقدّسة التي تلتهم نيران الخطيئة الذي يُصلب عليه المذنبون بعد إصدار المحكمة الكهنوتية لقراراتها النافذة.

امتعضنا من توصيف الراهب، ثم واصلنا السير إلى أن بلغنا الإصطبل فأنزلنا أغراضنا، وجاء راهبان للاعتناء بدوابنا فأزاحا الجِلاسَ والبرْدَعَةَ والسرجَ واللجامَ عن مُتونها المنهكة من الرحلة، ثم قدّما لها علفًا وماء. خرجنا من الإصطبل وسرنا دائماً إلى جهة اليمين باتجاه الشرق، فرأيتُ راهباً مُعَبِّراً السخنة يَهْرُولُ باتجاه بناية أخرى قريبة من الإصطبل، فالتفت الراهب باتجاهنا، وقال: إنّه راهب يعمل في مصهر الحديد الذي حدّثتكم عنه قبل قليل، وقد أصيبَ بِجُرْحٍ في يده وهو يقصد إسبِطَارَ الدِيرِ لعلاج جُرحه. أشرتُ برأسي مُعْجَبًا بحسن نظام الدير. وبعد الإسبطار، زَكَمْتُ أنوفنا رائحةً عَصِيرِ عِنَبٍ مُتَحَمَّر. ابتسم الراهب، وقال مرّة أخرى: هذه مَعْصِرَتُنَا التي نَعَصِرُ فيها الزيتون. كما نعصر فيها عنبًا يُعطي أحدَ أجودِ الخمور الموجودة في عموم البلاد النصرانية. بالفعل كان أمام المعصرة مجموعة من السلال المُتْرَعَةَ بعناقيد العنب الأحمر التي تنتظر الدور لكي تُعَصَّر. أَظَلَلْتُ برأسي من باب المعصرة، فألفيتُ راهبين مترنحين لكتهما كانا منشغلين في عملهما، ورأيتُ برْدُونًا قويًا يدور فيحرك حجراً ضخماً يسير كالعجلة فوق حجر أضخم منه كالإناء الكبير. تبغني ابن شهيد وسرّ بوجود المعصرة، ثم ألقى تحية على الرجلين، وأنشدني للتوّ من شعر والده أبي مروان الوزير:

فَادُعُ بِنَا لِلشُّمُولِ مُضْطَلِيًا      نُغِذُ سَيْرًا إِلَيْكَ إِغْذَاذَا  
وَلَا تُبَالِ أَبَا الْعَلَاءِ زُهًا      بِخَمْرِ قُظْرُبُلٍ وَكُلُوَاذَا  
مَا دَامَ مِنْ أَرْمِلَاطٍ مَشْرُبُنَا      دَعُ دَيْرَ عَمَى وَطَيْرَنَابَاذَا  
فقلت له مبتسمًا: ما قصة هذه الأبيات، وما هذه الأسماء  
الأعجمية الغريبة؟

فقال: لقد كان أبو العلاء صاعد يمدح دائمًا بلدَه العراق  
بمجلس المنصور بن أبي عامر، وكان ذلك يُغَيِّظُ باقي جلساء  
الحاجب، فكتب أبو مروان الوزير إلى المنصور في يوم بَرَدٍ يقول  
هذه الأبيات. واجتمعوا وشربوا وطربوا أيّما طربٍ ذلك اليوم.  
والأسماء المذكورة في الأبيات هي في بلاد العراق التي كان  
يفخر بذكر خمرها صاعد، فذكر أبو مروان خمر أَرْمِلَاطٍ هذه التي  
أَسْتَبِطِي سَاعَةَ احتسَاءِ رُضَابِهَا وَدَمَعِ كَرَمَاتِهَا.

أعجبني استحضار صاحبي رغم أنني لم أكنُ أميلُ إلى الشرب  
مخالفًا عادات بعض أقراني. تابعنا طريقًا خلفَ الراهب الذي  
قادنا إلى بناية منعزلة في الركنِ القَصِيٍّ من المَجْمَعِ قَرِيبَةً من سُورِ  
الركن الشرقي الجنوبي. دخلنا في إثر الراهب الذي صعد على  
أدراج إلى الدور العلويّ، ثم التفت إلينا قائلاً: الدور السفلي به  
مَطْعَمٌ للضيوف وكنيسة خاصّة بالزوّار المسيحيين الذين لا يَحِقُّ لهم  
أن يُزِعِجُوا الرهبانَ داخلَ الدير. ثم فتح أحد الأبواب، وقال لي:  
هذه غرفتك.

تقدّم إلى باب مجاور ففتحه، وقال: وهذه غرفة صاحبك.

كان الراهب يستعدُّ لأن يودَّعنا بعدما أخبرنا بوقت تقديم الطعام، لكنني قلت له: هل الكونت غارسيا غومز موجود في الدير؟

تفرَّس فيَّ الراهب مستغربًا، لكنني أردفت قائلاً: إنَّ لديَّ أمانةً أريدُ تسليمها له.

فقال الراهب: سلَّمني إيَّاهَا وسأسلِّمها لناظِرِ الدير.

ثم بدا له أنه تسرَّع قليلاً لكون عدم نفيه وجودَ الكونت أفصحَ ضمنياً عن معلومة، ربَّما لم يَكُنْ يَجْمُلُ به أن يذكرها لي عن احتمال وجود الكونت في الدير، فأسرع يرمِّمُ كلامه ويُصَلِّحُ عجلته: أنا لا أعلمُ هويَّةَ الرُّوَاد الذين يقصدوننا، لهذا سأكلِّمُ أَسْفُفَ الدير عن طلبك حتى ينظرَ فيه ويُجيبك.

فقلت متجاهلاً تصويباته، وقاطعاً أمامه إمكانيَّة أن يأخذَ رئيسُ الدير الأمانةَ عَوْضاً عن الكونت: لا بدَّ أن أسلِّمَ الأمانةَ يدًا بيدَ إلى السيِّد الكونت، وليس لأحدٍ سواه.

فقال الراهب الذي أخذَ يتتعد منزعجاً: سأكلِّمُ رئيسَ الدير، سأكلِّمه.

وقبل أن يخرجَ، استوقفته وسلَّمته بعض النقودِ نظيرَ إقامتنا بالدير والعناية بنا وبدوابنا. أخذَ الكيسَ وحزَرَ بيديه الخبيرتين ما فيه، ثم ابتسم وخرج.

أخلدنا إلى الراحة ذلك اليوم، وفي المساء سمعنا قرعَ جرسٍ، فجاءنا راهب وأخبرنا أنَّ الجرسَ يُقرَعُ عندَ وقت الوجبة

المسائيّة الوحيدة في الدير، لكنّ الرهبانَ يسمحون للضيوف بتناول وجبة صباحيّة. ثم طلب منا أن ننزلَ لتناول وجبة العشاء، وأنّ علينا أن ننزل فور قَرعِ الجرس، لأنّه لن يأتي لتبئينا مرّة أخرى. خرجنا من غُرْفِنَا الصغيرة التي كانت مُسرّجَة بمصباح صغير ونزلنا الأدراجَ باتجاه المطعم. كان في القاعة ضيوف، منهم رجال ونساء جلسوا إلى موائد كبيرة. كان أغلب الضيوف من التجّار أو السفراء أو النبلاء أو المسافرين. قُدّم إلينا الطعام وكان عبارة عن طبق من الفول بقطع من اللحم لعله لحمُ خنزير. نَحَيْتُ الطبقَ جانبًا لجهة الشبهة، وأقبلتُ على طبقٍ من سمك الزنْجُور النهري المملّح مع زيتون وخبّ وجبن وبيض مسلوق وإجاصٍ وجوز. أمّا الخبز، فقد سلّمَ لكلّ واحدٍ قرصٌ خُبِزٍ بوزن رطل تقريبًا، رُسمَ على صفحته العليا دائرتان، وبين الدائرتين كتابةٌ لعلّها دُعاء. أكلنا وشبعنا وشربنا ماءً زلالاً أروى غُلَّتِنَا. كان الضيوف يتحدّثون مع بعضهم بعضًا بصوت منخفض، ويتطلّعون إلى استكناه هويّة غيرهم من الضيوف. بدأ المطعمُ يَخْفُ من حركة الضيوف الذين رجعوا إلى مخادعهم، بينما انشغل عني أبو عامر في رَضِدِ روميّة كانت مع والدها، وكان يَحْدِبُ عليها ويُقبّلها على رأسها. وبينما كنت أستعدُّ للخروج من المطعم، أتاني راهب جليلُ الهيئة فرحّبَ بي، ثم قال: يبدو أنّك سألتَ عن الكونت غارسيا غومز.

فقلت: نعم، لقد سألتُ عنه لأنّ لديّ أمانةٌ أريدُ تسليمها له.

فقال الراهب: لا يمكنكُ أن تراه.



أَسْقَطَ فِي يَدِي، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ قَدْ غَادَرَ.

أَدْرَكَ الرَّاهِبُ بَدَاهَتَهُ حَيْرَتِي وَامْتِعَاضِي، فَقَالَ: لَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَنْ تُسَلِّمَنِي الْأَمَانَةَ فَسَاحْتَفِظُ بِهَا إِلَى أَنْ أُسَلِّمَهَا إِلَى الْكُونْتِ مَتَى سَنَحَتْ أَوَّلُ فُرْصَةٍ لِلِقَاءِ بِهِ.

زَادَ هَذَا الْجَوَابُ الْغَامِضُ مِنْ حَيْرَتِي، فَقُلْتُ لَهُ: إِذَا مَرَّ السَّيِّدُ الْكُونْتِ بِدِيرِكُمْ، فَأَخْبِرْهُ بِأَنَّ ابْنَتَهُ الدُّوْنَةَ مَارِيَةَ تَسَلَّمُ عَلَيْهِ، وَلَدِيَّ أَمَانَةَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَسَلَّمَهَا مِنِّي فِي قَرْطَبَةَ.

رَأَيْتُ بَرِيقًا عَجِيبًا فِي عَيْنِي الرَّاهِبِ، الَّذِي سَارَعَ بِنَزْعِ غَطَاءِ رَأْسِهِ، فَحَسَرَ عَنِ وَجْهِ حَسَنِ وَهَيْئَةٍ جَلِيلَةٍ هَادِئَةٍ رَغْمَ مُفَاجَأَةِ كَلَامِي عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَهَلِ الدُّوْنَةُ مَارِيَةَ حَيَّةٌ تُرَزَّقُ؟

فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهَا حَيَّةٌ تُرَزَّقُ وَقَدْ رَأَيْتُهَا قَبْلَ يَوْمَيْنِ، بَلْ إِنَّهَا تَعِيشُ فِي الْبَيْتِ نَفْسَهُ الَّذِي أُسْكُنُ فِيهِ.

تَهَلَّلْتُ أَسَارِيرُ الرَّجُلِ، وَقَالَ لِي فَجْأَةً: أَنَا هُوَ الْكُونْتُ غَارِسِيَا غُومَز. لَكِنْ كَيْفَ أَصَدِّقُ أَنَّكَ تَقُولُ الْحَقِيقَةَ؟

بَحِثْتُ بَيْنَ ثِيَابِي وَأَخْرَجْتُ كَيْسًا مَلْفُوفًا بَعْنَايَةِ وَفَتَحْتُهُ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ الْقِلَادَةَ الَّتِي سَلَّمْتَنِي إِيَّاهَا نَعْمَ وَسَلَّمْتُهَا لِلْكَوْنْتِ. لَمَّا وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَيْهَا، بَدَأَ الْمَسْكِينُ يَنْتَجِبُ وَيَرْجُفُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُمَدَّ يَدَيْهِ إِلَيْهَا، فَمَسَكْتُهُمَا وَأَحْسَسْتُ بِخَشُونَتُهُمَا، فَخَمَنْتُ أَنَّ حَيَاةَ الدَّيْرِ كَانَتْ قَاسِيَةً عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَغَطْتُ عَلَيْهِمَا وَوَضَعْتُ الْقِلَادَةَ بِلَطْفٍ فِيهِمَا. أَسْرَعَ بِالْقِلَادَةِ إِلَى فِيهِ فَقَبَّلَهَا وَرَفَعَهَا إِلَى أَنْفِهِ يَشْتُمُّهَا وَيَمْلَأُ رُتْبَتَهُ وَصَدْرَهُ بِعَرَفِهَا، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيَّ.

كان أبو عامر قد رآني مع الراهب، لكنه حَرَصَ على أن يبتعدَ عن ناحيتنا، واقتربَ من الفتاة فسَلَّمَ عليها وعلى والدها، وجلس إلى طاولتهما يَعْرضُ عليهما خَدَمَاتِهِ ويتبادل معهما أطرافَ الحديث كما يفعل الغرباءُ حينما يلتقونَ على مائدة طعام في مكان عامّ يفتح شهيةَ اللُّها كما يفتحُ شهيةَ الكلام.

أشار إليّ الكونت أن أتبعه وقال لي: تعالَ معي، فإنّي أريدُ أن أتحدّثَ إليك.

أشرتُ بيدي إلى أبي عامر فرفع يده لي، وفهّمَ كلّ واحدٍ عن الآخر أنّه منهُمُك في شؤونه التي ارتضاها لنفسه تلك الليلة.

تبعْتُ الكونت الذي سارعَ بالقول: إنك تدخلُ معي الآنَ منطقةً محرّمةً على غير الرهبان.

اتَّجَهْنَا باتّجاه الغرب في الجهة المقابلة التي كُنَّا فيها.

فقلت للكونت: ولماذا هي ممنوعة على غير الرهبان؟

فقال بصوت خافت: لأنّ الديرَ محلُّ عبادة ولا بُدَّ من احترام خُلوّة الرهبان.

فقلت له: لكنني رأيتُ عند مدخل الدير مَصْهَرًا، وتناهى إلى مسامعي طَرَقُ حديد.

فقال: إنّي أشتغل هناك أيضًا، وقد تعلّمتُ هذه المهنة المقدّسة، لكنّ الطَرَقَ لا يكون إلّا في الأوقات التي تكون بين الصلوات، عدا عن كون مساحة الدير كبيرةً بحيث لا يصلُ صَوْتُ طَرَقِ الحديد إلى البنايات الأخرى للدير، ثم إنّ غالبَ عمَلِ

المصهَر هو صناعة الأجراس وصَهَر الحديد وليس طَرَقَه، وغَالِب هذا العَمَل يكونُ تحت أرض المصهرة. ولعلنا نقوم بزيارة هناك. لكن أُمِسِكُ عن الكلام الآن حتى نصل إلى غايتنا.

تبعْتُ الكونت الذي استمرَّ في المشي، وقطعنا المساحة الفارغة التي كانت تفصلنا عن الجهة التي كُنَّا فيها، ومشينا بإزاء بناية مستطيلة ثم دخلنا من الطَرَفِ القَصِيٍّ من البناية وصعدنا في درج حلزوني، ومشينا بعد ذلك في ممرٍ ضيقٍ يُضيئه ضوءٌ خافت منبعثٌ من مصابيح معلقة على طول الممرِّ، ثم انعطفنا يمينًا فَيَسَارًا حتى وصلنا إلى منتهى الممرِّ، فتوقَّفَ أمام باب صغير وأخرج من بين ثيابه مفتاحًا كبيرًا أدخله في ثقب القفل وفتح الباب، ثم طلب مني أن أدخل في إثره. أسرَجَ الكونت مصباحًا فتبدَّى لنا المكان الذي كان غرفةً فسيحةً تفتح على غرفة أخرى داخلية بينهما ممرٌ صغير. لم تكن الغرفةُ فاخرةً بل كان متاعها بسيطًا. صندوقٌ للملابس، ومكتبٌ مع كتب وأدوات للكتابة موضوعة بعناية فائقة، سيفٌ في قرابه وخُوذَةٌ يعلوها صليب، سريرٌ، مِنْضَدَةٌ، صليبٌ معلقٌ فوق السرير، إبريقٌ ماء مع طَسْتِيهِ. كرسيان. طلب مني الكونت أن أجلسَ على أحد الكرسيين فجلست بعدما تفحصتُ الغرفةَ الأولى، ثم جلس قُبالتني وقال لي: والآن أخبرني عن فِلْدَةٍ كبدي الدونة مارية.

فقلت له: إنَّها تُعرف اليوم باسم عربي هو «نُعم».

بدأت عليه سَخَنَةً حزن سريعًا ما انقشَعَتْ، ثم قال: المهمُّ أنَّها حيَّة، والأسماءُ تتغيَّر وتتعدَّد. لكن أخبرني عن أحوالها وصِحَّتِها

وكيف وصلتُ إلى قرطبة منذ تخريبِ مدينةِ شانتِ يا قَب.

فقلت: أنا أدركُ يا سيدي الكونت أنك أبٌ يتحرَّق إلى معرفة أخبار ابنته التي فرَّقت بينه وبينها ابتلاءات الحياة، لكنني أريد أن أعرفَ أيضًا سرَّ وجودك في هذا الدير، وهجرَكَ لمنصبِكَ وامتيازاتِكَ وأراضيكِ وخدمِكَ.

تهدَّ الكونت وقال: تلك قصَّة طويلة يا بني، لكن أرجوك لا تزدُ من عذابي، فإنني متحرِّقٌ لسماع أخبار ابنتي، فهَيِّ كلُّ ما بقي لي من أملٍ في هذه الحياة.

رَقَّ قلبي للكونت، فأخذتُ أحكي له قصَّة نَعْم وكيف عَثَرَ عليها والدي في الكاتدرائية مع مربَّيتها عُجب، ثم كيف وصلتُ إلى قصرنا بينما حاز المنصور الجارية المربَّية. ثم كيف نشأت معنا وأصبحت ملكَ يميني، وأنها تعلَّمت اللغة والأدب والأخلاق وما تحتاج إليه كلَّ امرأة من نساء البيوتات الكبرى. ثم حدَّثته عن اللقاء في كنيسة قرطبة بين الأب الراعي وعُجب ونَعْم، وكيف أنه أخبرها بأنَّ والدها على قيد الحياة يعيش في عزلة داخل دير أرملاط، وكيف أنَّ نَعْم طلبتُ منِّي زيارته في الدير، وحدَّثته عن القِلادة التي سلَّمتني إياها حتى يُصدِّقني، ثم أخرجتها من بين ثيابي فأخذها وقبَّلها، ففاضت عيناه بالدموع وقال: يجب أن تبقى هذه القِلادة مع ابنتي، ولهذا أرجوك أن تُرجعها لها، لكنَّه أزال خاتمًا من أصبعه وقال لي: أرجوك أن تُسلِّم هذا الخاتم لها.

أخذتُ الخاتم، فرأيت شكلاً مثل المحارة، إلا أنه يشبه

شمسًا مشرقة تمتدّ أشعّتها في الاتجاه المقابل لقرص الشمس<sup>(١)</sup>. استغربتُ الشكلَ وسألت الكونت عن سرّ الرسم المنحوت فقال لي: إنه شعارُ أسرتنا، وهو يرمزُ إلى شمس تشرقُ من الغرب، وكما تعلم فإنّ قبرَ القديس شانت ياقب هو في أقصى الشمال الغربي من جليقيّة، وأشعةُ شمسٍ بركته تمتدُّ لترتبطُ بالشرق نحو القدس وبيت لحم حيث يرقد السيّد المسيح عليه السلام.

وضعت الخاتم بسرعة في الكيس وأقفلته، ثم سألت الكونت مرّة أخرى عن سبب وجوده في الدير، فقال: بعد دخول المنصور إلى شانت ياقب، خرج سكّان المدينة، وخرج من كان فيها من الفرسان، إذ لم يكن باستطاعتنا أن نواجه ذلك الجيش الجرّار، وحصل ما حصل وشاع خبرُ وفاتي في إحدى المعارك، لكنني صوّبتُ باتجاه رومية حيث وفدتُ على الحَبيرِ الأعظم، وسمح لي مع مجموعة من الفرسان لا يتعدّون العشرة بتأسيس نظام فرسان سانتياغو ووضع لنا قاعدةً نلتزم بها.

فقلت له: وما هو مضمون هذه القاعدة؟

(١) إنَّ علمَ مجلس أوروبا الأزرق بنجمه الاثنتي عشرة (إشارة خفيّة إلى عدد الحواريين أنصار السيّد المسيح) الصفراء مأخوذ من شكل المحارة التي هي رمز الحجاج المسيحيين القاصدين قبر الحواري شانت ياقب في أقصى غرب إسبانيا، والتي تشبه خطوطها أشعة الشمس المنبعثة من الغرب باتجاه الشرق. وتلك الأشعة تشير أيضًا إلى مختلف الطرق التاريخية التي كان الحجاج يسلكونها نحو قبر هذا القديس، لهذا كانت توضع على طولها هذه المحارة بلونها الأزرق والأصفر لإرشاد المسافرين والحجاج نحو شانت ياقب. إنَّ اختيار هذا العلم لوحده يرمز إلى الرغبة في إبراز هوية أوروبا المسيحية.

فأجاب: إنها عبارة عن مجموعة من القواعد الأخلاقية والسلوكية، منها العزلة والعبادة وحماية المخلفات المقدسة للقديس شانت ياقب، وتأمين زيارة المسافرين إلى قبره.

ثم أردفت: لكن ما الذي جاء بك إلى دير أرملاط؟

فقال: كما قلت لك إن القاعدة التي نَبَّعُهَا تُلزِمنا بالمحافظة على المخلفات المقدسة لشانت ياقب، وكما لا يخفى عليك فإن أجراسَ كاتدرائيتنا قد أخذها المنصور ووضعها في جامع قرطبة، وإن مهمتنا المقدسة هي في استعادتها بالشراء أو بأي وسيلة أخرى نتَّفَق عليها مع المسلمين. وقد استضافنا إخوتنا أتباع القديس بنيدكتوس في ديرهم لنكون قريبين من الأجراس التي سلبها المنصور من كاتدرائية شانت ياقب. وإخواننا في هذا الدير يتبعون قاعدة القديس بنيدكتوس، الشهيرة في عموم البلاد المسيحية.

تفكرت في كلام الكونت، وبدا لي أنه لا مزية للمسلمين في أن يُزيّنوا جوامعهم بآثار خاصة بالمسيحيين، لكنني خمنتُ في أن الكونت ربّما لم يقل لي كل شيء عن مهمته في رومية وعن نظام فرسان سانتياغو.

ثم سألته: وهل لديك رسالة تريدُ مني إبلاغها لابتك؟

فأجاب الكونت: طبعًا أريدك أن تسلّم عليها كثيرًا وتخبرها بأنّي أحبّها، وسوف أحرصُ على رؤيتها بمجرد انتهاء مدة عزلتي في الدير الذي لن أستطيع أن أغادره قبل ذلك.

ثم بدا لي أن أعرف أكثر عن حياة الكونت داخل الدير،

فسأله: وكيف تقضي أوقاتك هنا؟

فأجاب: إنّ وقتي موزّع بين العبادة والعمل في المصهرة أو المكتبة.

استغربتُ كيف يشتغلُ الكونت في المصهرة، لكنّه أضاف: إنّ العملَ في المصهرة شاقٌّ، لأننا نشتغلُ في درجاتِ حرارة مرتفعة ويلزمنّا تحويلُ البرونز وهو مزيجٌ من النحاس والقلز إلى أشكالٍ معيّنة مثل الأجراس أو غيرها. إنّها مهنة مقدّسة ولا يصلح لها إلاّ الأختيار. وغداً يمكنك أن تزورَ معي المصهرة، لكن عليك أن لا تشيرَ الشكوك من حولك، والأخوطة إن كان هذا لا يزعجك أن تلبسَ بُرُوسَ الرهبان وتضعَ الزنار، فهذا مفيد للتقلُّ والعمل بكلِّ حرّية داخل الدير.

استبشعُتُ في البداية أن ألبسَ لباسَ الرهبان، لكنّ الفكرة كانت مثيرة وسُممَكنني من الاطلاع على أسرار هذا الدير من دون أن ينكشفَ أمرِي، وتذكّرتُ أنّ لي تجربةً سابقةً مع هذا الأمر لما دخلتُ الكنيسة في قرطبة. سَكَنَتُ نفسي المتقلّبة إلى الأمر وحرّضتني عليه، فقلت للكونت: لا مانعَ لديّ، لكن كيف أصنعُ إذا كلّمني أحدُ الرهبان وانفضَحَ له أمرِي؟

ابتسم وقال: لا تخشَ شيئاً من هذه الناحية، فأغلبُ رهبان الدير لا يتكلّمون وهم مُلتزمون بِنَدْرِ الصَّمْتِ إلاّ لقليلٍ منهم ممّن هم في خدمة الآخرين، وهؤلاء مُقلّون أيضاً من الكلام إلاّ للضرورة.

زاد هذا من إثارتي، فقلت باقتضاب للكونت: حسنًا.

قام إلى الدولاب وأخرج منه بُرُنْسًا أسود مثل الذي كان يلبسه، وجزامًا ونعالًا جلديةً، ثم طلب منّي أن أقيسها. لبست البرُنْسَ الذي زكمتني رائحةً وذاك الصوف الذي نُسِجَ منه، ووضعتُ الحزام، لكنني أسأتُ الكيفيّة فعدّل لي الكونت وضعه، ثم وضعتُ غطاءَ البرنس على رأسي ولبستُ النعال. لاحظتُ أنّ البرُنْسَ كان قصيرًا، فاستدرك الكونت فضولي قائلاً: إنّ لباسَ الطلبة الرهبان يكون قصيرًا، فهذا مُناسبٌ لك.

ثم أردف: لا بدّ من أن نسمّيكَ بواحد من أسماء الرهبان.

استبشعتُ الأمر، لكنني تذكّرتُ سَحْنَةَ الكونت لما أخبرته باسم ابنته العربي، وركنتُ إلى ما ذكره لي عن تعدّد الأسماء، سيّما وأنّ الأمر لم يكن يزعجني كثيرًا بسبب نفسيّتي المتقلّبة. تذكّرتُ أنّي لم أخبر الكونت باسمي، لكنني قلت: فليكن يعقوب.

فقال الكونت: اختيارٌ موفّق، وسننطقه ياقب لأته اسم شائع منذ سقوط الكاتدرائيّة. عموماً لن يسألَكَ أحد، وحينما تمرُّ بالقرب من أحد الرهبان، تهزُّ رأسك تحييه بإيماءة ثم تكملُ مسيرك مُظرفاً.

استثارني هذا الدور الجديد الذي يناسب نفسيّتي المتأرجحة دوماً في تقمُّصِ شخصيّات متعدّدة، فقلت: جيّد هذا يناسبني، وما العمل الآن؟

فقال الكونت: سأرافقك حتى تعرف الوصول إلى غرفتك،



ثم تأتيني غداً إلى المصهرة في الجهة الأخرى المقابلة لمكان إقامتك.

فقلت له: هذا يناسبني، لكن هل عليّ أن ألبس البرنس وأضع الحزام والتعال؟

كان الكونت يعاملني مثل صهره، فأجاب: بكل تأكيد، وسأقدمك على أنك راهب متعلم من قرابتي، أتيت حديثاً لدخول طريق الرهبنة وتعلم بعض المبادئ لصناعة الأجراس المقدسة. ومن حُسنِ الحظ أن أحد الرهبان العاملين معي في المصهرة قد أصيب بجروح في يده، وسيلزمه عدة أيام حتى يعاود نقاهته، ولا بُد من بديل له، وستكون أنت البديل.

امتعضت قليلاً من هذا الاحتمال، لكنّ فضولي في استكناه ما يجري والوقوف على سيرّ الدير كان يستحّثني لقبول هذا العرض. أردت نزع البرنس، فطلب منّي الكونت أن أحتفظ به عليّ، وقال لي: ألا تريد أن تقوم بجولة صغيرة في مرافق الدير بعد أن كفت الحركة وأخلد الرهبان إلى الراحة أو المطالعة في خلواتهم.

فقلت: بلى، أريد أن أزور باقي البنايات.

خرجنا من الغرفة بعدما أطفأ الكونت السراج، ثم مشينا في الممرّ حتى وصلنا إلى ردهة يقابلها ممرّان، واحد مفتوح إلى اليمين، والثاني مقفلٌ وعليه باب. فقال لي الكونت: على طول هذا الممرّ المفتوح، يسكن كبار الرهبان في العُرف التي أمامنا، أما الممرّ المغلق، فوراءه مسكنُ رئيس الدير، وتحت مباشرة

سَرَبٌ<sup>(١)</sup> الخَمْرُ الذي لا يمكن الوصول إليه إلا من داخل مسكن  
رئيس الدير.

ابتسمت قليلاً، وقلت: لعله يخاف إن تَرَكَ السَرَبَ مفتوحاً أن  
يختلَّ النظام ويكثر المعرِّدون.

فقال الكونت: بعض هذا صحيح، لكن الكاهنَ الأعظمَ  
مسؤول عن إقامة القُدَّاس ونحن نحتاج إلى شراب الذبيحة مع كل  
الطقوس.

فقلت: ألا يحقُّ للرهبان أن يشربوا من الخمر التي يُتَّجونها  
في معصرة الدير؟

فقال: بل إنهم يشربون من دُموع الكَرَمِ سواءً منها الصهباء أو  
الْكُميتاء أو الخمر القَطِيب أثناء الوجبات، لكنّها تكون بمقدار قليل  
كلّ مرّة بحيث لا تُسبِّب سُكْرًا.

بعد ذلك، نزل الكونت من الدرج الذي يلي الرّذّهة، فلمّا  
استوينا في الطابق الأرضي، أشار إليّ أنّ في نهاية الممرّ قاعة  
الرهبان التي يجتمعون فيها لقضاء أغراض متعدّدة. قطعنا القاعة  
التي كان سقفها على شكل منحنيات تمتدّ إلى أقواس تنتهي بأعمدة  
مُتَوَجِّة تحمل سقف القاعة. كان المكان يشتمل على مجموعة من  
الطاولات المصنوعة من خشب سميك، وخلف كلّ جهة من  
الطاولة كُرَاسٍ من الخَشَبِ والسُّمُكِ نفسه. انتهينا إلى باب آخر  
مقابل للباب الذي دخلنا منه، فوصلنا إلى قاعة أخرى، فقال لي

(١) مخزن للخمر والأجبان وغيرها تحت الأرض لحمايتها من الضوء والحرارة.

الكونت: هذا مجلس الرهبان ويُسمى الفَصْل، لأنَّ الرهبان يقرأون فيه فصلاً من فصول القاعدة التي يدور عليها الدير. كُنَّا نَلْفُ مِنْذ دخلنا هذا الجناح حول رِوَاقِ الدير حيث يعيش الرهبان حياةً عُزلة. وهو يدور حول حديقة تتوسّطها أشجار ونباتات. فتح الكونت باباً في الجهة المقابلة للفصل وقال لي: سندخل الآن الكنيسة. دخلت في إثره ومشينا خطوات، ثم التفت إلى جهة اليمين ووقف، ثم ركع على ركبتيه ووضع رأسه على رخامة أمامه وهَمَّهَمَ بكلمات غير مفهومة أمام تمثال ورسوم مختلفة أضاءتها شمعة كانت تُؤنِّسُ ظلمة المكان بضوئها الخافت المُرتَعش. وبعدما أنهى ابتهالاته، التفت إليّ وقال لي: لقد نقلنا بعض المخلفات المقدّسة لشانت ياقب إلى هذا الدير، وهي محفوظة هنا في ذلك الصندوق.

أقتربتُ إلى الحدّ الذي يمكن للزائر أن يتقدّم نحوه داخل ما يشبه رواقاً مُنحنيّاً، تفصله عنّا قضبان حديدية سميكة تمنع الوصول إليه إلّا من بابٍ مغلق. ثم رأيتُ على ضوء الشمعة صندوقاً عليه رسومٌ وصليب.

قال لي الكونت: يوجدُ بهذا الصندوق بعض المخلفات التي كانت للقديس شانت ياقب، وهي محلُّ ضراعةٍ وتبجيلٍ وتقديس.

أشحتُ بنظري عن هذا المكان واستعدتُ بالله. قام الكونت ومشى قليلاً في الاتجاه نفسه، فرأيت رواقاً آخرَ منفصلاً عن الأوّل بمنحنيات وعُقود. أسرج الكونت مصباحاً، فرأيتُ كؤوساً وصلباناً وأدوات عبادة، فقال لي الكونت: هذا موهبُ الكنيسة الذي يضمُّ

جميع ما نحتاج إليه لإقامة الصلاة والقدّاس. كان أغلب ما في هذا الموهف تيجانُ أساقفة، وعكاكيزُ كهّان، ومباخرُ شمَاميسَة، وصلبانُ ذهبية ثمينة، وشمعدانات تحمل شموعًا ضخمة، وألبسةُ رهبان. وبعد ذلك، مشينا خلف مذبح الكنيسة إلى أن وصلنا إلى الجهة الشماليّة، ومشينا على طول الرواق إلى أن وصلنا إلى الباب الغربي الذي هو المدخل الرئيس للكنيسة، الذي ازدان بصومعة غريبة الشكل إذ كان جَامُورُهَا مائلاً بحيث يُخَيَّلُ للناظر أنّه يكاد يَسْقُط. كان هذا الجَامُورُ مخروطياً، وهو أمر يسترعي الانتباه، اقتربنا أكثر، فرأيتُ في شُرُفَاتِ الصومعة أربعة أجراس. سألتُ الكونت عن هذه الصومعة الغريبة، فأخبرني أنّها صُمِّمَتْ على هذا النحو لِسِرٍّ متعلّق بشانت ياغب. لم أطلب استيضاحاً أكثر لأنّ الوقت كان غير مناسب، ثم خرجنا إلى ساحة ثانية في الجهة الأخرى للساحة التي تفصل بين الكنيسة الممتدّة من الغرب إلى الشرق، وبين المدخل الرئيس للدير. لَقَفْنَا لَفَةً كبيرة باتّجاه الشرق ومررنا خلف الجهة الخارجيّة للمذبح، ثم اتّجهنا نحو الجنوب حتى وصلنا إلى بنايات أخرى أخبرني الكونت أنّها المطبخُ والمخزن. ومن هناك أوصلني إلى بناية الضيوف حيث كان مكانُ إقامتي، ثم ودّعني على أن نلتقي في الصباح بعد أن طلبَ منّي تناولَ وجبة الإفطار قبل أن ألتحقَ به في المصهرة.

طرقْتُ على باب غرفة أبي عامر ابن شهيد فلم يُجِبني أحد، فخمّنت أنّه راح يتسكّع في ناحية مخدع الصبيّة الروميّة ليرأودها عن نفسها، أو لعلّها فتحت له بابَ غرفتها. وكيف لا تفعل وقد

حياه الله أدبًا جمًّا وجمالًا آسرًا يغوي العفيفات؟

نمتُ تلك الليلة مُتفكِّرًا فيما مرَّ من هذا اليوم الحافل. لقد كنت ناضجًا بما فيه الكفاية رغم حداثة سني، ولعلَّ هناك سرًّا في نظراتي التي تعطي هذا الانطباع لأول وهلة. وأظنَّ أنّ الكونت لم يخطئ في تقديره، إذ فاتحني بعدة أمور رغم أنني لم ألتقه من قبل، إلا أنّ فلادة ابنته قد أذابت الريبة بيننا. بتُّ على مثل هذه الأفكار أنقلَّب في فراشي بحيث لم يغمض لي جفن. وعند الصبح، قمْتُ للصلاة، فسمعتُ أزيزَ باب يفتح، فعلمتُ أنّ صاحبي قد أمضى ليلته خارجَ غرفته، وقد عاد أدراجه مُتسللاً عند أوّل نسمات الصباح.

ولمّا طلعتِ الشمسُ مقدارَ رُمح في السماء، قمْتُ وتهيأتُ للذهاب إلى المصهرة ولبستُ برنسَ الرهبان وتمنطقتُ بالحزام، لكتبي أحببتُ أن أستوثق من أمر ابن شهيد، فقرعتُ بابه إلا أنه لم يفتح لي لأنّه كان غارقًا في النوم بسبب الإجهاد الذي حصل له في تلك الليلة. ذهبتُ إلى المطعم، فرأيتُ والد الفتاة بمفرده، فتقوى ظني بأنّ الفرّخين أمضيا الليلة كما خمّنت. أخذتُ فطوري وخرجتُ إلى المصهرة. كان الكونت واقفًا ينتظرني عند المدخل فحيّاني وباسطني على غير عادة الرهبان في كثرة الكلام، ثم طلب مني أن أتبعه. دخلنا إلى الداخل فرأيتُ أدوات مختلفة وقنبا وقطع لبنٍ كثيرة، وكومة كبيرة من الرماد، وكومة أخرى مماثلة من الفحم، وكومة ثالثة من الطين، وكومة رابعة من الرمل، وأخرى من شمع العسل، ونحاسًا ممزوجًا بقلز، وسلاّ مملوءة بشعر

بهائم. التفتَ إليّ الكونت مجيبًا عن نظراتي الفضوليّة: نستعمل هذه الموادّ في صناعة الأجراس التي حدّثتكَ عنها. تفضّل إتبعني.

ثم رأيت حُفْرًا كبيرة في أرضيّة المصهرة فاستغربت، فقال لي: اتبعني حتى ننزلَ إلى المستوى الأرضي.

تبعته فنزلنا على سُلّم، فقال لي: هنا تُصنَعُ الأجراس، وهذه الحُفْرُ مُعدّةٌ لهذا الغرض إذ إنها تستقبل الحجمَ الذي نريدُ أن نصنعه لكلِّ جرس.

فقلت له: هلاً تخبرني أولاً بِسِرِّ الصومعة ذات الجامور المائل، قبل أن تُخبرني عن الأجراس التي تُعلّقُ داخلها؟

فقال: صدقتَ يا ابنَ حزم. هكذا اسمُك، أليس كذلك؟

فقلت: نعم، وأظنُّ أنه لم يسبقَ لي أن أخبرتكَ بذلك.

فقال مستدرِكًا: مثلُ اسمِ عائلتك النبيلة لا يُخفى على أحد، فكيف يخفى على نبيلٍ مثلي؟

ثم أردفَ حتى يتخلّصَ إلى موضوعٍ آخر: ذلك الجامورُ مصنوعٌ من حَشب، وهناك أسرارٌ يحتفظ بها الرهبان الذين يُزاولون النجارة في الأخشاب الرفيعة. وبإمكانهم أن يصنعوا جواميرَ مائلة. وقد علمتُ من راهبٍ نجّارٍ أنّ الخشبَ الطريّ عادة ما يحصلُ له اعوجاج من اليسار إلى اليمين، لكن هناك حكايات عجيبة يتناقلها الناس في تفسير هذه الخاصيّة. وقد سمعت من أحد رهبان الدير أنّ جِنّيًا يسكن تلك الصومعة، وهي تميل بثقله.

فقلت مُعقِّبًا: لكن لا بدّ أنّ لذلك الاعوجاج دلالة غير ما

يحكيه هؤلاء وأولئك من الخرافات التي يُرهبون بها القلوب الضعيفة ليعبدوهم عن تلك الصومعة، بل ربّما أنّ هناك شيئًا ما يخفونه فيُلَقِّفُون مثل هذه التّخاريف لإبعاد المتطّقلين.

استوقفَ الكونتَ سرعةُ بديهتي وذكائي، لكنّه قال: قد يكون ذلك صحيحًا، لكن ما أعلم هو أنّ جامورَ الصومعة يميل إلى جهة الشمال الغربي.

فقلت: لم ألاحظ ذلك، لكن هل لهذا دلالة معيّنة؟

فقال: إنّه يميل إلى جهة قبر الحواري شانت ياقيب. لكنّ العجيب هو أنّ الأجراسَ المعلّقة على شرفة الصومعة صامتة.

فسألت الكونت: وما السبب في ذلك؟

فأجاب: إنّ هذه الأجراسَ المعلّقة في شرفة الصومعة نسخة عن الأجراس التي كانت في كاتدرائية شانت ياقيب، وهي صامتة حزنًا بسبب عُربتها عن مكانها الأصلي.

فقلت: لكنّي سمعتُ قرعَ أجراسٍ في الدير.

فقال: نعم هي أجراسُ هذا الدير التي تقرّع لمختلف الأغراض المتعلّقة بالحياة في الدير. وسأخبرك عن مراحل صنع الأجراس.

وبينما كان الكونت يكلمني، أقبل نحونا راهب يشتغل في المصهرة، فقدّمني الكونت على أنّي من أقربائه جئت لِتَعَلُّمِ المهنة، وسأبقى بضعة أيّام ريثما يعود الراهب الثاني الذي يعمل في المصهرة والذي غيَّبهُ الجرح الذي أصابه. ثم ذكر له أنّ اسمي هو

يَأْقِب. ألقى الراهب التحية ولم يَنْبِسْ بكلمة، ومضى لعمله في ناحية بعيدة عنا.

حدّثني الكونت ذلك اليوم عن الأغراض المستعملة في صناعة الأجراس، وتَفَقَّذْتُ جميع المراحل المطلوبة لذلك. لكنّ أمرًا استوقفني عندما شاهدت حفرة كبيرة مُعدَّة لصناعة أحد الأجراس، فسألت الكونت قائلاً: يبدو لي أنّ صناعة جرس بهذا الحجم مهمّة في غاية الصعوبة.

فقال الكونت: نعم هي كذلك، لكن أين ترى هذه الصعوبة؟

فأجبت: الصعوبة تكمن في نقل الجرس أساسًا من الدير إلى الموضع الذي سيعلّق به، وهذا أمر في غاية المشقّة ويتطلّب مهارات ورجالاً ودوابًا وعربات لنقل الجرس.

فقال الكونت: أحسنت، هذا هو أهمّ مشكل نصادفه، لكن عادة ما تصنع الأجراس الكبيرة في الموضع الذي تُعلّق فيه قرب صوامع الكاتدرائيات، فتُحفرُ حفرةً كبيرة ويذهب المهرة من الصنّاع ويصنعون ذلك الجرس في عين المكان. لكن في مرّات أخرى يتعدّر الأمر لأسباب عديدة كانهدام الأمن أو عدم الترخيص بذلك، إذا كانت الكاتدرائية في مدينة بيد المسلمين مثلاً أو غير ذلك من الأسباب. وفي هذه الحالة، نضطرّ إلى صنعه في الدير ثم نحمله على عربة كبيرة تجرّها دوابّ قويّة. وقد نرفعه إلى سفينة تصل به إلى المدن الواقعة على الأنهار أو السواحل البحريّة. وأنت تعلم أنّ هذا الدير قريب من النهر، فالعمل هنا أسهل لنقل الأجراس إلى مختلف الجهات.



كنت سعيدًا بالوقوف على أسرار هذه المهنة، وعلمت أن اللبّن يصلح لبناء قاعدة مستديرة تحمل الجرس في الحفرة. ويُترك ثُقُبٌ في القاعدة لإدخال الفُحْم وتجفيف الأجزاء التي لم تصهرها النار بشكل كافٍ، ولتصحيح انحناءات الجرس والاشتغال عليه بعدما يأخذ شكله الأوّلي. وعلى القاعدة يتم بناء القالب الداخلي للجرس من اللبّن التي تُعْطَى بالطين. وبعد أن يُبنى القالب ويأخذ شكلَ الجرس يُصَبُّ المعدن المذاب فيه من الفُرن الذي في أعلى الحفرة. ثم يُعْطَى الشكل بخليط من الطين والقَبْ والرماد وشَعْرِ البهائم. ثم يستعمل شمع العسل لتزيين الجرس بالكتابات والنصوص المختلفة. ثم تُصَبُّ طبقة أخرى من الطين مع باقي الموادّ الأخرى فوق الشمع حتى يتمّ تثبيت الكتابات على جسم الجرس. وبعد أن يَجِفَّ المعدن المذاب، يُكسَّرُ قالب الطين فيُظهِر الجرس.

طبعًا، هناك عمليّات أخرى كثيرة تعلّمتها خلال المدّة القصيرة التي قضيتها في المصهرة.

ثم علمت أنّ الأجراس على بساطتها تتكوّن من عشرة أجزاء، لكلّ جزء منها اسم خاصّ، فهناك النّير، والعُرْوَتَان، والدماغ، والكتف، والحلّة، والكِرش، والشّفّة السفلى، والمطرقة، وخطّ الحرف.

وفي الأيام التالية أخبرني الكونت عن أسرار أخرى خاصّة بالأجراس وتتعلّق بالأصوات الموسيقية المراد إصدارها، فقال لي: إنّ الصانع الماهر يحدّد أولاً صوتًا موسيقيًا للجرس الذي يريد أن

يصنعه. ثم يبدأ العمل على ذلك بناء على حجم الجرس وسُمكه ومُنحناه. لكن على الرّغم من هذا التحديد الأوّلي، فإنّ الصوت الصادر من الجرس المصنوع يكون مُكْتَنَفًا بعدة أصوات أخرى وليس فيه الصفاء المطلوب، ويصعب على الأذن غير المتمرّسة أن تميّز بين ما يقرب من خمسين صوتًا مختلفًا، فيضطر الصانع الماهر إلى تسوية صوت الجرس بتهديب المنحنيات.

ثم سألت الكونت: لكن لماذا لا يُكْتَفَى بجرس واحد على شرفات الصوامع؟

ابتسم الكونت وقال: لا بدّ أن تعلم أنّ الحدّ الأدنى لعزف لحن من الألحان يتطلّب على الأقلّ أربعة أصوات، ولهذا السبب عادة ما تتضمّن الصوامع أربعة أجراس، فكلّ جرس يصدر صوتًا واحدًا. وكلّما كان الهدف عزف ألحان مركّبة زاد عدد الأجراس إلى ثمانية أو اثني عشر جرسًا.

فقاطعته سائلًا: لكن ما الحاجة إلى عزف مثل هذه الألحان المركّبة في دير عبادة مثلًا؟

ابتسم الكونت ثم قال: حياة العزلة في الأديرة رتيبة وتحتاج إلى تلوينات لكسر الرتابة، وعادة ما يتمّ تحديد لحن لكلّ صلاة. فلحن صلاة الصباح هو غير لحن صلاة المساء، وهو غير لحن وجبة الطعام.. وهكذا. كما أنّ لكلّ مناسبة في السنة لحنًا خاصًا. وحيث إنّ الرهبان يعيشون في عزلة، فإنّهم لا يشعرون بمرور الوقت، ويكونون غارقين في عباداتهم أو أعمالهم الأخرى، فهم يحتاجون إلى التمييز بين الأوقات والمناسبات بواسطة

الألحان، ويتعرفون عليها بسهولة ويسر. إنّ مفهوم الزمن في حياة الخلوة داخل الدير مختلف عنه في الحياة العامّة. إنّ المعتكف هنا لا يشعر إلّا بوعاء زماني يكتنفه ولا يكاد يفتن إلى ما يصنعه الناس بهذا الوعاء من محطات تقطع هذه الرتابة المستمرة.

ثم سألت الكونت: وهل هناك مراسيم معيّنة خاصّة بالأجراس المصنوعة؟

فأجاب: طبعًا، بعد انتهاء كلّ العمليّات اللازمة لصناعة وتزيين الأجراس نُقيم لها قُداسًا لمباركتها ورشّها بماء المعمودية وتلاوة مقاطع من الأناجيل لتحسينها والدعاء لها بالحفظ وطول العمر في أداء مهمّة التذكير المقدّسة.

ثم سألت الكونت: وهل حَظِيَتْ أجراسُ كاتدرائيّة شانت ياقب بالعناية نفسها؟

فأجاب: نعم.

فقلت مرّة أخرى: لكن يبدو أنّ ذلك لم ينفعها بشيء إذ وقعت غنيمة في يد المنصور.

قطّب الكونت حاجبيه وقال: إنّها مُعارة فقط إلى الكنيسة التي كانت قائمة قبل بناء جامع قرطبة، ويجب أن تعلم أنّ تحت أرضيّة الجامع كنيسة قديمة. إنّني متأكد أنّ الأجراس ستعود يومًا ما إلى مكانها الأصلي، وفرسان سانتياغو سيتولّون هذه المهمّة بإذن الربّ. ونحن نسبغُ مِنْ هُنَا أُنَيْهَا وحينها إلى موطنها.

بدا وكأنّ الكونت أفصح عن سرّ خفي، فحاول أن يتدارك

سَبَقَ لسانه فقال: إذا احتاجتِ أجراسُ شانت يا قَب إلى التَّنظيف والصيانة، سأكون ممنونًا لك لو ساعدتني في التوسُّط لدى والدك الوزير حتى يُسَمَّح لي بشرف صيانتها وتنظيفها على الوجه المطلوب، إذ إنَّ ذلك كما ترى يتطلَّب كفاءةً خاصَّة لا أعتقد أنَّ صُنَّاع المسلمين يتقنونها لعدم معرفتهم بهذا الفنِّ. وستكون فرصة لكي يُسَمَّح لي بالخروج من الدير واللقاء بابتي الدُّونة ماريَّة.

فقلت للكونت: سأرى ما يمكنني القيام به عند عودتي إلى قرطبة.

مرَّت عدَّة أيَّام وقفتُ فيها على أسرار أخرى في الدير، أمَّا صاحبي ابن شهيد فقد كان يتعمَّد أن يبقى بعيدًا عني لَمَّا وجد ضالَّتَه في الجارية الروميَّة. لقد استطعتُ أن أقفَ على مختلف مرافق الدير مُدَّة إقامتي. ومن ذلك سجن الدير الذي يُسجن فيه بعض الرهبان ممَّن ارتكب مخالفة، ثم المكتبة التي كان يصعب الوصول إليها إلَّا من باب سرِّي خلف قاعة المؤهف التي توضع فيها أغراض إقامة شعائر القُدَّاس. ثم زرت صومعة الحَمَّام الرَّاجِل المستعمل في المراسلات البريديَّة. كنت أتحرَّك بسهولة لأنِّي كنت ألبس بُرُنْسَ الرهبان فلا يسألني أحد، بل طلبت من الكونت أن يأخذني لحضور قُدَّاس خاصِّ، فجلست في مكان بالخلف وتابعت شعائره بفضول. كان الكونت مصدرَ معرفتي بهذا العالم وأطلعني على أنَّ الدير الذي يتبع قاعدة القُدَّيس بنيدكتوس أو المبارك، وهي أشهر قاعدة معروفة عند المسيحيين منذ القرن السادس الميلادي. وقد صادف وجودي في الدير الاحتفال باليوم

المخصّص له في أيّام السنة، وهو الموافق للحادي عشر من شهر يوليو، فاكتسى الدير حُلّةً بهيّةً ونُشِرت الأعلام وأُسْرِجَت المصابيح وأشِعِلت الشموع. جاء الزوّار من النبلاء وعامة الناس إلى الدير لتقديم الهدايا والأعطيات وحضورِ قُدّاس خاصّ بذلك اليوم. فرَعَت الأجراس قرعًا مختلفًا ومُطوّلًا إلى حدّ أزعجني. أمّا صاحبي ابن شُهيد فكان ذلك اليوم مناسبة له للمزيد من المغامرات العاطفيّة، وأخبرني أنّ رُوميّته كانت تنوي التبتُّل والرهبنة فلمّا اتّصَلتْ به صرَفَها عن ذلك، وأطلعها على ما لم يكن لها به عِلْم، فعَدَلتْ عن رغبتها، وصارت أحرصَ الخَلْقِ في أن تكون أبعدَ الناس عن الانقطاع عن الرجال. سُرَّ بذلك والدها الذي لم يكن موافقًا على دخولها عالم الرهبنة. حدّثني الكونت كثيرًا عن القديس بنيدكتوس الذي يتبع الديرُ قاعدته الشهيرة في العالم المسيحي، فقال: لقد كان من أسرة نبيلة، لكنّه اعتزل الترف والحياة اللبنة، وطلب العلم والعبادة والعزلة عن الناس في المغارات حتى حصلت له عدّة كرامات. سمع به الناس فطلبوه لكنّه هرب منهم. ثم أصبح راعي مجموعة من الرهبان وشدّد على أتباعه فوضعوا له سُمًّا في كأس من الخمر، إلّا أنّه بمجرد ما أشار بإشارة الصليب انكسر الكأس وانفضحت المؤامرة. ترك تلك الجماعة وعاد إلى عزلته، فتبعته مجموعة أخرى من الطلبة وألحوا عليه حتى ترك مغارته. ثم أسّس عدّة أديرة صغيرة لا يتعدّى أعضاؤها اثني عشر راهبًا، حتى يضمن الالتزام الصارم بالتعاليم المسيحيّة، وعدم الوقوع في الفاحشة. كان يحضُّ على التواضع أكثر من حصّه على مجاهدة

النفس بكثرة الرياضات الشاقّة. لكن شهرة بنيدكتوس جرّت عليه أحقاداً أسقّف مدينته، فكاد له بأن أرسل بالقرب من ديره مجموعة من الراقصات الباغيات لتشويه سمعته وسمعة أتباعه واتهامه بمخالطتهنّ. ولمّا لم تنفع هذه التهمة أرسل له الأسقف خبيراً مسموماً، إلّا أنّ غرابَ القديس لمّا قدّم له الخبز زهد في أكله، ففطن مرّة أخرى إلى هذه المكيدة. قرّر مغادرة مدينة سيبياكو الإيطاليّة إلى جبل كاسينو رغم أنّ عدوّه الأسقف نأظَرَ تلك المنطقة توفي إثر هذا الحادث.

ثم أردف: كان جنوب إيطاليا وثنياً، فنشر القديس دعوة الإنجيل هناك وكثر أتباعه وحصلت له كرامات أخرى. وخلال هذه الفترة وضع بنيدكتوس قاعدة الرهبان التي اشتهرت في عموم العالم المسيحي، والتي تنبني على أربعة مبادئ هي: التقليل من الأكل والشرب والمنام، الصمت عن الكلام، التقشّف ورفض الملكية والإلزام، اللين والشفقة على المساكين والإكرام. وقد قسّم حياة الرهبان إلى ثلاثة أقسام، الصلاة، والعمل، والقراءة. خالف القديس الرهبانَ الشرقيين الذين كانوا يلتزمون بقراءة المزامير كلّ يوم، فقام هو بتوزيع قراءته على الأسبوع ممّا حرّر الوقت لتطوير القدّاس وقراءة نصوصه ببطء والتغنّي بفقراته. وهذا من الأسباب التي طوّرت الغناء الغريغوري في الكنائس الغربيّة. وظهر على إثر ذلك ما نُسّميه كُتَب الساعات، أي الصلوات المرّتبة على كلّ ساعة من ساعات الليل أو النهار.

تعلمتُ أشياء كثيرة في الدير، وأخبرني الكونت عمّا يسمّونه

عائلة أو أسرة الرهبان. على رأس هؤلاء رئيس الدير أو الأسقف، ويعتبرونه أبا الجميع. كان الأب مَخُوفًا مُهَابًا أكثرَ منه محبوبًا، أو لعلَّ محبَّته مُزَجَّتْ بهيبة بحيث كان الرهبان يلتزمون بأوامره طَوْعَ اليد والبنان. كان الأب هو الذي يُعَيِّن من يرتضيه لمختلف وظائف الدير. كما كان لا يسمح بإدخال بدعة مُحدَّثة على قاعدة القديس بنيدكتوس دون إذن منه، لكنَّه كان يستشير الرهبان في مجلس الفصل. عادة ما كان اختيار الأب يَتِمُّ من قِبَلِ مجموعة صغيرة من الرهبان لا تتعدَّى اثني عشر راهبًا. وليس هناك طريقة محدَّدة لانتقال السلطات من أبٍ لآخر. هناك أيضًا مجموعة من الأطفال الذين نَذَرَهُمْ ذَوُوهُمْ للدير حتى يَشْبُوا على حياة الرهبنة. كان هؤلاء يتعلَّمون داخل الدير النحوَ والبلاغةَ والجدلَ ويشاركون في الغناءِ وقراءةِ مزامير داوود. كان العديدُ من هؤلاء الأطفال ضحايا بعض الرهبان الذين لا يتورَّعون عن فعلِ الفاحشة بهم، لكن هذا الأمرَ كان مُحاطًا بسريَّة تامَّة. وحينما كان الكونت يخبرني عن بعض ما يقع كان هو نفسه يجهل كثيرًا من التفاصيل، لكنَّه أخبرني أنَّ مُعظَمَ مساجين الدير هم من الرهبان الذين ضُبطوا علانيَّة وهم يفعلون الفاحشة بهؤلاء الصبية. وفي سنِّ الخامسة عشرة يغادر هؤلاء فئة الأطفال ليدخلوا ضمن فئة الرهبان فيَحْلِقُوا رؤوسهم حلاقة غريبة يسمونها تاجِ الراهبِ، حيث يتركون حلقَةً من الشعر في أعلى الرأس ويحلقون ما سواه. لقد رأيت بعض هؤلاء فاستبشعت تلك الحلاقة. ورغم أنَّهم لم يعودوا يخضعون للمرتبة بعدما أصبحوا رهبانًا، إلَّا أنَّ لكلِّ فتى مُتأهِّلٍ وليًّا يراعاه كما هو

الشأن بالنسبة للكونت الذي أخبر زملاءه أنه يرعاني حتى يُجنّبني المضايقات والأسئلة.

ثم هناك مجموعة من الرهبان الأُميين المكلفين ببعض المهام اليدوية على خلاف الرهبان المتعلمين. ولكل هؤلاء مواضع خاصة يجلسون فيها في القُدّاس أو في غيره من الشعائر بحيث لا يحصل تداخلٌ بين الفئات. ثم هناك فئة أخرى من المتردّدين على الدير من سكّان البلدات المجاورة ويُكلّفون بمختلف الأشغال، بل كان لبعض الرهبان من يتبعه من هؤلاء. إلّا أنّ كثيرًا من المشاكل تحدث بسبب حرّية هؤلاء في دخول الدير والعودة إلى بيوتاتهم فينقلون الأخبار، وقد يختلسون بعض مؤنّ الدير.

أمّا الوظائف العينية في الدير فهناك رئيس الدير، ونائبه، والحُرّاس، والمنشدون، وأمين الدير، وخادم الكنيسة، وراهب الضيافة، ووصيف الأب، وخادم غرفة الطعام، والممرّض، والضباط الرهبانيون، وقِيم المكتبة، والأفراني، والخباز، والبريدي، والسجّان، والحَدّاد، والنجّار، والبستاني، والبواب، وغيرهم ممّن تقتضيه الخدمة في الدير.

كنت أحنُّ إلى حبيبتي نُعم، فأخرج الحُقّ الزجاجي الذي أعطني إياه وأنزع العلك الذي منحتني فأدّسه في فمي وأبلّهُ بريقي، فيسري ريقُ نُعم في حليب ريقي ويمتزجان فأشعرُ بنشوة عظيمة، وأحسُّ أنّ ماءها قد اختلط بمائي فيغلبنني الشوق ليلًا فأغالبه بالخروج من غرفتي لاستكشاف الدير، وكان أكثر ما يثير فضولي المناطق المحرّمة على غير الرهبان. استفدت كثيرًا من البرنس في



إخفاء هويّتي. وحدث أن خرجتُ ليلةً كعادتي لتفقدِ المرافقِ المختلفةِ للمُجمَعِ فصادفتُ راهبًا قويَّ البنية متَّجِّهاً جهةَ الكنيسة. تواريتُ خلفَ أحدِ الأعمدةِ حتى رأيتُه يقصدُ الموهفَ، ثم رأيتُه يَدْلِفُ هناك فلم أبتَيِّنْ كيف اختفى. وبينما أنا كذلك إذ رأيتُ راهبًا آخرَ يقومُ بالأمرِ نفسه. اقتربتُ أكثرَ حتى أفهمَ ما يجري، لكن فاني هذه المرّة أيضًا أن أعرفَ كيف اختفى الراهب الثاني كما اختفى الذي قبله. ازداد فضولي وحماسي بقدر ما ازداد خوفي من أن يكشفني أحدُهم. ثم اقتربتُ أكثرَ حتى لم يعدُ يفصلني عن المكان الذي اختفيا فيه إلّا بضْعُ خطوات، وإذا براهبَيْنِ اثنين يقتربان فاستعنْتُ بالعمود العظيم في مقدّمة الكنيسة واختبأتُ وراءه دون أن أفقدَ أثرَ الرجلين. حتى إذا اقتربا من الموهفِ دَفَعَ أحدهما بابًا حديدياً ثم اختفى وراء صندوقِ مخلّفاتِ شانت ياغب التي كنتُ قد رأيتُه في الليلة الأولى حين زيارتي مع الكونت، فازداد فضولي. ولَمَّا دخل الرجلان واختفيا خلف الصندوق، خرجتُ من مخبئي واستجمعتُ شجاعتِي، فتقدّمتُ نحو الباب الحديدي بهدوءٍ ممزوجٍ بخوفٍ فدفعتهُ ودخلتُ إلى حيث الصندوق الذي يحتوي على مخلّفاتِ شانت ياغب كما زَعَمَ الكونت أوّلَ لقائِي به. تَلَقَّتُ يمناً ويسرة فلم أرَ أحداً، ثم تواريتُ خلفَ الصندوق فرأيتُ حجراً كبيراً يبدو أنه أزيحَ عن موضعه ليفتحَ ممراً أرضياً يوصلُ إليه بأدراج. نزلتُ الأدراجَ التي كان عددها اثني عشر درجاً في ممرِّ ضيّقٍ جدًّا لا يَسَعُ إلّا شخصاً واحداً، ثم انعطفتُ يميناً فشمالاً حتى وصلتُ إلى قَبْوٍ تَفَرَّقَ منه ممرّان

أحدهما إلى اليمين والآخر باتجاه اليسار. كان المكان مُسَرَّجًا بإضاءة خافتة جدًا تنبعث من مصابيح مُعلَّقة على الجدار. بلغ قلبي إلى حُنْجرتي من شِدَّةِ الخوف، لكنني استَجَمَعْتُ فُضالَةَ ما بقي من إقدامي بِعِزْمٍ وِسَلَكْتُ مَمَرًا اليمين حتى أَفْضَى بي إلى قاعة بها كُتُب، ثم خَرَجْتُ منها لقاعة أخرى مملوءة أيضًا بِكُتُب. فهِمْتُ حينئذ أنني اكتشفتُ مكتبةَ الدير السريَّة التي حدَّثني عنها الكونت، والذي أخبرني أنه لا يُوصَلُ إليها إلَّا من جهة رئيس الدير، فهِمْتُ أنه كان يَصْرِفُني عن اكتشاف هذا المدخل، وأنَّ ما ادَّعاه حول بقايا شانت ياقب ما هو إلَّا تمويه لِصَرْفِ الْفُضُوليين عن الوصول للمكتبة السريَّة. كانت العُرفُ تَمَدُّ على مسافة كبيرة. اقتربت من أحد الرفوف فرأيت كتبًا مكتوبة باللاتينية والعربية والإغريقية والعبرية. أخذت أحدَ هذه الكتب العربية فكان كتابًا في الطب، ثم أخذتُ آخرَ فوجدته يتحدَّثُ عن الحكمة. رجعتُ أدراجي حتى وصلتُ إلى القبو مرَّةً أخرى وِسَلَكْتُ جهة اليسار هذه المرَّة حتى وصلتُ إلى غرفة يبدو أنها معبَّدٌ صغير. دخلتها ثم خرجتُ من باب ثانٍ ورأيتُ مَعْظَمَةَ مُقَرَّرَةٍ عليها كتاباتٌ باللاتينية وصناديقُ حجريةٌ منحوتٌ على وجهها الأعلى صُورُ مَقْبُورينَ لابسينَ ألبسةً بتيجان وحاملينَ لصلبان، فأدركتُ أنَّ هذه القاعة الطولية ذات الأقباس والأروقة مدفنٌ لكبار النبلاء والكُهان والقساوسة. خرجت من هذه الغرفة الطولية وانتهى إلى سمعي أصواتٌ خافتة. تقدَّمتُ بهدوء كبير حتى وصلتُ إلى قاعةٍ صغيرة في وسطها طاولةٌ مستديرة وحولها اثنا عشرَ راهبًا قد خلَعوا برانسهم وتسربلوا بِجِلْبَابٍ

بيضاء، خِيطَ عليها جهةَ الصدرِ صليبٌ معقوفٌ النهاية، أحمرُ اللون. كان خلفَ القاعة من كلِّ الجهات أقواسٌ مفتوحةٌ تُفضي إلى ممرٍ دائري يحيط بالغرفة. كَمَنْتُ خلفَ أحدِ الأقواس بحيث أرى وأسمع ما يجري دون أن يَنْكشِفَ أمري.

كان الرهبان فرسانًا يضع كلُّ واحد منهم سيفًا عظيمًا أمامه. تمعَّنتُ في سحناتهم، فرأيتُ الكونت ضمنهم يقرأ في كتاب أمامه وهم يستمعون في خشوع. فهمتُ أنَّ هذا مكانُ اجتماعِ فرسانِ شانت ياقب الذي حدَّثني عنه الكونت باقتضاب دون أن يُفصِّحَ لي عن مراميه الحقيقية أو مكان اجتماعه. خِفْتُ إن تباطأتُ أكثرَ في هذا الموضع أن لا أتمكَّنَ من الخروج، فأسرعتُ في العودة من حيثُ أتيتُ قبل أن ينفِضَ جَمْعُ الفرسان. لم يلحظني أحدٌ، وعُدْتُ أدراجي حتى وصلتُ إلى الممرِّ وصعدتُ الأدراج ثم بقيتُ مختبئًا في الجانب المقابل لموضع الخروج. كَمَنْتُ هناك خلف صندوق المخلِّفات المقدَّسة المزعومة. وبعد ساعة خرج الفرسان واحدًا تلو الآخرِ لابسين برانسهم كسائر رهبان الدير. خرجوا منفردين واحدًا في إثرِ آخرٍ بعد مرور برهة من الزمن. فلَمَّا جاء الراهب الثاني عشر تَلَفَّتْ يَمَنَّةٌ وَيَسْرَةٌ ثم كبس بقوة صليبًا كان على الصندوق فتدحرج الحجرُ وأغلق الممرُّ واستوت الأرضُ التي كانت خلفَ الصندوق، بحيث لا يمكنُ أن يَفْطَنَ مَنْ لم يَرِ الممرَّ الأرضي مِنْ قَبْلُ إلى وجوده بعد انسدادِ الحجر على المدخل. بقيتُ كامنًا في مكاني لا بدًّا لبودِ المستوفزِ الحدير حتى ابتعد آخرُ الرهبان واختفى. تردَّدتُ كثيرًا بين إعادة فتح البلاطة الصخرية واكتشاف سِرِّ الفرسان أو العودة إلى مخدعي. بقيت متردِّدًا

بين إقدام وإحجام حتى إذا عزمْتُ أخيراً على أحدهما تلقَّفتني الثاني فأطاح بعزمي الأوّل إلى عزمٍ آخر. لم يُخرجني من تردُّدي إلّا لما قلت ﴿حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ وكرَّرتها سَبْعَ مرّات، فإذا بخاطري يتصفّى وإذا بي أطمئنّ إلى اكتشاف ما يجري. تقدّمت نحو الصليب مستعيذاً من لمسه، فشعرت شعوراً غريباً لما وضعت يدي عليه إذ كانت هذه أوّل مرّة في حياتي ألمسُ فيها صليباً مع ما يستشعره المسلم من شعور إزاء هذا الجسم الغريب. أحسستُ أنّ إمساكي بالصليب مُؤدِّنٌ بانتفاض طهارتي الأصليّة، فاستهوّلتُ الأمرَ واستعدتُ بالله وحوّلتُ مراراً لعلّي أدفعُ هذا الإحساسَ الذي لم يسبق لي أن خبّرتُهُ من قبل. كانت عقيدتي الإيمانيّة تمنعني من ملامسته، بينما كان فضولي للمعرفة يدفعني دفعاً لاكتناه ما خفي وانتهاك دائرة مُحرماتي، فأخذتُ بمجامع قوّتي ودفعت الصليب فسمعتُ دَحْرَجَةَ البلاطة التي انفتحت من جديد. ساعدني انفتاح الممرّ على الخروج من إحراج ملامسة الصليب وحاولتُ التعلّلَ بطلب ما وراء مُباشرة الملامسة. كان المكان مظلماً فأخذتُ شمعةً موقدةً كانت تُقَطَّرُ بدمعها فأوقدتُ مصباحاً على مدخل الممرّ. ونزلتُ الأدراجَ حتى وصلتُ إلى القبو الذي يتفرّق منه الممرّانِ فسلكتُ ممرّ اليَسَارِ حتى وصلتُ إلى القاعة التي كان يجتمعُ فيها الفرسان. كانت السيوفُ ما زالت تَرَبِضُ على المائدة. تجوّلتُ في القاعة وعائنتُ الكتابَ الذي كان يقرأ فيه الكونت وكان مكتوباً باللاتينيّة.

فتحتُ أحد الصناديق في القاعة فوجدتُ عدّة أغراض، ووجدتُ خريطةً لمدينة يخترقها نهر بها بعض الأديرة والكنائس

لم أعر على شيء آخر في الغرفة وشعرتُ بضيقٍ شديدٍ في المكان واختناق، ورغبةٍ في استنشاق هواءٍ نقيٍّ. انتابني شعورٌ قويٌّ بأنَّ حَظْرًا سَيُداهِمُنِي، فَفَرَرْتُ سَرِيعًا العودَةَ أدراجي محاذراً أن أصادفَ أَحَدَ الرُهَبانِ حتى خرجتُ وصَعَدْتُ الأدرج فتَنَفَّسْتُ الصَعْدَاءَ، وإذا بي أَسْمَعُ وَقَعَ خطوات بعيدة على الأرض وضوءًا خافتًا يَشِيعُ من جهة المدخل الرئيس للكنيسة. أسرعْتُ بإطفاء السراج عند مدخل الممرِّ، ثم كَبَسْتُ الصليب مرّةً أخرى فتَدَخَّرَجَتِ البلاطَةُ وعاد الأمرُ كما كان. ثم دَلَقْتُ خلف الصندوق مختبئًا أَرُقُبُ ما يجري، فإذا براهبٍ يقترُبُ ويفتَحُ البابَ الحديدي ثم يقفُ وراءَ الصندوق ويلفُّ خَلْفَهُ. كنت قد وجدتُ مَخْبَأً تحت الصندوق ساعدتني فُتَوَّتِي على الانحِسارِ فيه حتى لا يَكشِفَنِي الراهب الذي يبدو أنه سمع شيئًا أثار شكوكه. لَفَّ عِدَّةَ لَفَّاتٍ حتى اطمأنَّ إلى عدم وجود شخص، ثم أمسك بالصليب مرّةً أخرى وكبسه وأشعل المصباح ونزل الأدرج. بعد دخوله خرجتُ من مَكْمَنِي تحت الصندوق وتنفَّسْتُ نَفْسًا عميقًا بعدما كاد قلبي يَبْلُغُ حنجرتي من شدَّةِ وَجَلِي. سارعت بالخروج، فدفعْتُ البابَ الحديدي وكَمَنْتُ مرّةً أخرى خَلْفَ سارية عظيمة أَرُقُبُ ما يجري وأنتظر. وبعد لحظات عاد الراهبُ، لكنّه كان مُضطربًا فعاد يَبْحَثُ خَلْفَ الصندوق ثم رأيتُه يَجْثُو على ركبتيه ليتأكَّدَ من حُلُوِّ المكان من أَحَدٍ في الموضع الذي انحسرتُ فيه سابقًا، فلمَّا لما يَعُزُّ على أحد، قام فأطفأ المصباحَ وكَبَسَ مرّةً أخرى على الصليب

فَدَخَرَجَتِ البِلاطَةُ التي سَمِعْتُ صوتَهَا الخافت من خلف السارية .  
 كان الراهب يحمل شيئاً بين ثيابه، وقد تبينْتُ أنّ مشيئته تُشبهُ مشيئةَ  
 الكونت، فلَمَّا مرَّ بالقرب من السارية حاولتُ تَبَيِّنَ سَحنِيتهِ من تحت  
 غطاء رأسه فتيقَّنتُ أنّه الكونت بعينه . خرج من الكنيسة وعاد إلى  
 مخدعه فتبعته، فلَمَّا وصل إلى باب سكناه أخرجَ ورقة ملفوفة  
 وأخرج مفتاحاً فتح به الباب ثم دخل .

رجعتُ إلى غرفتي بسرعة ونمت تلك الليلة نومًا متقطعًا .

\* \* \*

كان قد مرَّ على قدمونا عشرة أيّام فأخبرت ابنَ شهيدِ برغبتي  
 في مغادرة الدير، إلّا أنّه كان قد تعلقَ بروميّته فأراد استبطائي  
 بضعة أيّام أخرى ريثما تُقنِعَ والدّها بزيارة مدينة قرطبة بدل العودة  
 إلى بلادهم في الشجر الأعلى . عاتبته على تماديه في استهتاره  
 ومجونهِ، فأجابني شعراً :

وَلرُبَّ حَانٍ قد شَمِمتُ بِدَيْرِهِ      خمرَ الصَّبَا مُزجتُ بِصَرْفِ عَصِيرِهِ  
 في فِتْيَةٍ جَعَلُوا السُّرورَ شِعَارَهُمْ      مُتَصَاغِرِينَ تَحَشُّعًا لِكَبِيرِهِ  
 وَتَرَنَمَ الناقوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ      فَفَتَحْتُ مِنْ عيني لِرَجْعِ هَدِيرِهِ  
 وَالقَسُّ مِمَّا شاءَ طَوولَ مُقامنا      يَدْعُو بِعَوْدِ حَوْلِنَا بِزُبُورِهِ  
 يُهدي لنا بالراحِ كُلَّ مُصَفِّرٍ      كَالخِشْفِ خَفَرَهُ التِّمَاحُ خَفِيرِهِ

تركْتُ ابنَ شهيدِ مشغولاً بتراتيبه واتَّصلتُ بالكونت في  
 المصهرة، فرأيت الورقَ الملفوفَ الذي رأيته من قبل . تقدّمت قليلاً  
 فعابنتُ خريطةَ المدينة التي كانت في صندوق قاعة اجتماع فرسان

شانت ياقب. تساءلتُ عن سببِ إحضارِ الكونت للخريطة إلى المصهرة، فخمَّنتُ أن يكونَ لذلكَ علاقةً بالأجراس، لكنني احتفظتُ بتخميناتي لنفسِي دون أن أُطْلِعَ الكونت عليها، ولكنني أخبرته بعزمي على مغادرة الدير، فاستحسن الأمرَ وأخبرني أنّ جُرحَ مُساعدِه كان قد التأمَ وسيعودُ لمزاولة عمله في المصهرة. حدّثني مرّةً أخرى عن طلبه بالتوسُّط له في تنظيف أجراس شانت ياقب التي في جامع قرطبة، وأوصاني بإبلاغ بنته سلامه الحارّ وبِقُرب اجتماعهما، وذكّرني بتسليم خاتمه إليها.

طمأنته ووعدته خيرًا. كنت قد خلعتُ ثيابَ الراهب وسلّمْتُها له من جديد بعدما ساعدتني في عدم كشف هويّتي، ثم نَقَدْتُ ناظرَ الإصطبل بعض القطع الإضافية لعنايته بدوابنا التي كانت قد تَعَبَتْ من الراحة. فلَمَّا رأَتني هزَّتْ أذَانها وحَرَّكَتْ أذْيالها طربًا لإدراكها الغريزي بقرب الخروج من عُزلة الدير وبِطالته. ابتسمتُ في داخلي ثم ركبْتُ فرسي ورَبَّتُ على جيده فسهل فرحًا بعودة فارسه إليه. طاوعني ابنُ شُهيد في المغادرة بصعوبة فخرجنا من الدير. كان في تشييعنا الكونت والفتاة الرومِيّة التي جاءت ذابلة العينين من فراق حبيبها، كاسرِ القلوب الرقيقة. نظرتُ إلى ابنِ شُهيد نظرةً عتاب وكنت أعلمُ أنّه صادقٌ لحيته، فإذا انقلب إلى حالٍ آخرٍ لَيْسَ حُلَّتُهُ ونسي وعوده التي أعطاها من قبل. كانت المسكينة تنتحب، وكان هو ينتشي في داخله بزهُو غير معهود، لكنّه كان يتظاهر بمُواساتها. رَفَعَ حاجبيه كَمَن. يعتذر عن شيء لا يَمْلِكُ أن يَصْرِفَه عن نفسه. تَدَلَّى الجِسْرُ الخشبي وسمعنا انسحابَ السلاسل ببطء. نظرتُ إلى

ابن شهيد فرأيتُ انسحابَ ذكرياته من وجهه كما لو أنه لم يلتقِ الفتاة يوماً، فتعجبتُ من حاله. جُزنا إلى الجهة الثانية فتبدى لي الدير على شكل مختلف. نظرتُ متمعناً في صومعة الكنيسة وجامورها المائل، وبدا لي بالفعل أنه يميل إلى جهة الشمال الغربي. ظلَّت أجراس الصومعة صامتة، إلا أن قرعَ أجراسٍ أخرى سُمِعَ من داخل المصهرة، فعَلِمْتُ أنَّ الكونت قد أراد أن يُودّعني على طريقته فأوعزَ وقتَ خروجنا إلى مساعده بِقرعِ جرس كان يضبط عليه الأصوات في المصهرة. ابتسمتُ لناحيته فأحنى رأسه وابتسم، رفعتُ له يدي، ثم لَوَيْتُ لجامي في الاتجاه المعاكس وغادرنا.



## كتاب السين

سررنا بالوصول إلى قرطبة بعد غيابنا في أرمِلاط. ولم يكد يمضي فصل الصيف من سنة سبع وتسعين وثلاثمائة حتى عاد جيش الحضرة من غزوة قشتالة منصورًا، وأطلق الخليفة هشام المؤيد لقبَ المظفر على عبد الملك، لأنَّ المسلمين بقيادته هزموا جيوش النصرانية مجتمعة، ودخل من الباب القُبلي جهة القنطرة التي على الوادي الكبير، وعليها تمثال العذراء صاحبة قرطبة الذي وضعه القدماء. كما تُنَى الخليفة لولد عبد الملك بوزارة ثانية فُسِّمِي بذي الوزارتين. بقي والدي وزيرًا لدى المظفر، إلا أنَّ الحُظوة في عهده كانت لوزير آخر هو عيسى بن سعيد الذي كان محلَّ ثقة الحاجب بحيث أسند إليه الأمر وانغمس هو في مَلذَّاته. كان الوزير حازمًا بحيث إنَّه أثار بحزمه غيرة كثير من الناس فسَعَوْا للانتقام منه بشتّى الوسائل. ورغم ما كان يصل إلى الحاجب من أخبار عن وزيره فإنَّه كان محلَّ ثقته، إلى أن نُمِي إليه أنه يسعى

في قتله وإذهاب سلطان العَامِرِيِّين لفائدة المروانيين الذين وَتَرُوا في الخلافة بسبب ضعف هشام المؤيد. قَدَّمَ أعداء الوزير أدلَّةً للمظفر على هذه المزاعم فانتقم من وزيره وقتلَه، وأعدمَ معه أحد المروانيين الذي كان يتشَوَّف إلى استعادة السلطة لفائدة البيت المرواني، وهو هشام بن عبد الجبَّار بن عبد الرحمن الناصر.

كنت قد اتَّصَلْتُ بعد عودتي من أرمِلاط بنعم فكانت في غاية السرور، وبلَّغْتُها سلامَ والدها وأخبرتها بما حصل ثم سلَّمتها خاتمه وأعدتُ لها قِلاَدتها، فما زالت تستحِثُّني على استئناف الحديث عمَّا حصل لي مع والدها في الدير كلَّ مرَّةٍ لتستزيد من الشوق، أو لعلَّها تريد إطفاء نار الفراق، فلا تزيدها إلى استِعَارًا. كنت أسايرها في مُبتغاها وأتفنَّنُ في كلِّ مرَّةٍ في سرِّد تفاصيل جديدة، وأضيف أحيانًا لم أذكرها لها من قبل، ولعلي اخترعتُ بعضها اختراعًا حتى أبدو في نظرها مثل الأبطال. ولَمَّا حدَّثْتُها عن التَّوسُّط لوالدها في صيانة وتنظيف أجراس قرطبة ألحَّت عليَّ في مُفاتحة والدي وضَغَطْتُ عليَّ ليلَ نهار، بل إنَّها كانت تمنعني من الوصال حتى أستجيبَ لطلب والدها. تردَّدتُ كثيرًا في الأمر لشبهتي في ذلك الطلب وخوفي ممَّا قد لا أكونُ قد أدركته، سيِّمًا وقد كنت وفتُّ في دير أرمِلاط على اجتماع سرِّي لبعض الفرسان من غير رهبان الدير، كان الكونت من بينهم، لكنِّي لم أتمكَّنُ من الوقوف على ما كانوا يتحدَّثون به أو يُحطِّطون له. ثم قرَّرتُ مُفاتحة والدي لعلَّه يكون أرجحَ فكرًا مِنِّي في هذا الأمر. دخلت عليه في أحد مجالسه الخاصَّة فكلمتُه عن رحلتي وجبَّايَات ضياعنا

في نواحي أرميلاط، وحكيث له طرفًا مما تعلّمته في الدير هناك. نظر إليّ بارتياب، لكنّه مضى في القول بأنّ مثل هذه التجربة مفيدة للتعرّف على هؤلاء القوم رغم ما قد يكون قد شابَ هذه الزيارة من محاذير لم أدرِكها لحدّثه ستي، لكنّ النية كانت صالحةً. كنت مطمئنًا إلى قول والدي، واغتنمتُ الفرصة فكلّمتُه عن أجراس شانت ياقب، وكيف أنّي إنقيتُ بوالدٍ نعم الذي اعتزلَ حياة النبلاء ونذرَ نفسه للرهبنة، وعن رغبته في السماح له بصيانة وتنظيف تلك الأجراس في جامع قرطبة.

نظر إليّ الوالد مستغربًا هذا الطلب وقال لي: إنّ الأمر مُعقّد، وإنّي وإن كنتُ أتفهّم الشراة الأبوية والإيمانية خلفَ هذا الطلب إلا أنّي مُرتابٌ في الأمر؛ وقد تكون هناك أمور أخرى لا نعرفها ولم يُصرّح لك بها الكونت. ثم يجب أن لا تنسى أنّ هذه الأجراس عنوانٌ على ظفر المسلمين على النصراني، فكيف نسمح لنصرانيّ بالوصول إليها مرّة ثانية؟

فقلت: لعلّي فهمتُ منك يا أبي أنّك لم تكن موافقًا على هذا الأمر منذ البداية، كما أنّه ليس للمسلمين مزيةً في أن يُسرّبوا جامعهم بأجراس عمّدت بالصليب، فماذا نرجو من مثل هذا الصنيع؟

فقال الوالد: صدقت، لقد كنتُ غيرَ موافق على هدم الكاتدرائية ونهب كنوزها وأخذ أجراسها، إذ ليس في ذلك مزية لنا، وإن كان حكمُ العنم في شوعنا ينسخُ معمودية الأجراس، لكنّ المنصور كان يحتاج إلى التغطية على استيلائه السلطة من المروانيين وإضعاف

الخلافة، ولا شك أن مثل هذه الأحداث كانت كفيلاً بتأجيج مشاعر العوام لفائدته. لكن الأمر قد اختلف اليوم، وهذه الأجراس أصبحت غنيمة حرب، وانفكَّت عنها جهة مَعْمُودِيَّتِهَا لآتها من الغنائم التي يحلُّ الاستمتاع بها وتَصْرِيفُهَا في كلِّ أغراض الانتفاع.

فقلت: لعلَّ بها نجاسة؟

فقال الوالد: الأصلُ في الأعيانِ الطهارةُ، والمشركُ نجِسٌ لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمَشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، لكن لو صافحته لم يَجِبْ عليك غَسْلُ يَدِكَ، لأنَّ نجاسته معنويّة فقط وليست حسيّة، أمّا البَوْلُ مثلاً فإنّه نجِسٌ نجاسةً حسيّةً إذ لو أصاب يدك أو ثيابك وجبَ غسلُهما. والخمرُ طاهرةٌ ولو أنّها محرّمة ونجسةٌ، لكن بها نجاسة معنويّة، وإلا لِمَ أراقها المسلمون على أرض المدينة المنورة حينما نزلَ الأمر بتحريمها، إذ لو كانت نجاسةً حسيّةً لوقع أيضاً تحريم إراقها على أرض طاهرة!

فقلت: لكنني أرى أن هناك شبهةً لا ترتفع بتعليقها في جامع قرطبة.

فقال الوالد: إنّ ذلك من أجل إرغام النصارى ورَدِّعِهِمْ.

فقلت: بل إني أرى أن استمرارَ تعليقها وتَقادُم وجودها في جامعها سببٌ من الأسباب الداعية إلى تأجيج مشاعرهم وتَجَدُّدِ عصبيّتهم وجمْعِ كلمتهم وتوحيد صفوفهم، ولن يهدأ لهم بال حتى يَسْعَوْا في استرداد أجراسهم، فتنشأ عن ذلك مفاصد عظيمة على المسلمين.

فقال الوالد: لعلّ رأيك صائب، إلّا أنّي لا أستطيع أن أعِدَكَ بشيء الآن حتى أستوثقَ من قاضي الحضرة، ولعلّه يَسْمَحُ بمجيء الكونت.

مرّت عدّة أيّام، فأعدتُ طلبي على الوالد فأخبرني أنّ القاضي يَبِينُ له أن الأمر غير ممكن، فأسْقِطَ في يدي.

ثم أخبرتُ نَعْمَ بما انتهى إليه الأمر مع والدي فَبَكَتُ بُكَاءَ حارًّا حتى أشفقتُ عليها. كنتُ حزينًا من حالة نَعْمَ، سيّما أنّي لم أَكُنْ أَطِيقُ أن تتحوّلَ رُزْقَةُ عينيها الآسِرتَيْنِ إلى الذبول وتتلوّنَ بحمرة ما سبّبته دُموعُها من حرارة في تلك الجُفون الرفيعة. يا لَشَقَاوَتِي إن تركتُ هذه العيون اللازوردية تتلبّد بتلك السحب العاصفيّة المشرّبة بحمرة شقاء البكاء الحارّ.

مرّت الأيّام بسرعة، وكنتُ أعوّلُ على الزمن لكي يُنسيها هذا الأمر، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان، وهو أنّه في سنة تسعٍ وتسعينٍ وثلاثمائة تُوفّي عبد الملك المظفر مسمومًا بالقرب من دير أرميلاط في غزوة كان قد خرج إليها. وقد شاع أنّ أخاه عبد الرحمن شنجول الطامع في الحِجَابَةِ من بعده هو الذي سَمّه. كان يسري في دماء عبد الرحمن دماءً أراغونيّة إذ كانت أمّه عبدة بنت شنجول غرسيه ملك نبرة، وقد تزوّجها المنصور بن أبي عامر، وكان عبد الرحمن يشبه جدّه الأراغوني شَبهاً كبيرًا، حتى اهتبل به النصارى وأمّلوا فيه خيرًا لأنفسهم على حساب المسلمين، بل إنهم كانوا يدعّمون ولايته للحِجَابَةِ سرًّا. وقد أوعز عبد الرحمن إلى أحد غلمان أخيه من الفتيان النصارى ليُدسَّ له السّمّ لما نزل في

دير أرمِلاط، فاعتلَّ حاله ونُقِلَ في العَمَارِيَّة<sup>(١)</sup> إلى قرطبة فلفظ أنفاسه بالزاهرة، وتولَّى شنجول الحجابة من بعده.

لم تمضِ أيام قلائل حتى جاء الكونت إلى قرطبة، فسأل عتي وأتصل أمره بي واستأذني لرؤية ابنته. أخبرتُ نَعْم بوصول أبيها فكانت في غاية الانسراح، ودعوته إلى قصرنا في الزاهرة فجاء متخفياً بلباس المسلمين. أدخلته إلى القصر وطلبت منه الجلوس في غرفة منعزلة، ثم أرسلت في طلب نَعْم فجاءت بسرعة. ولما دخلت الغرفة لم تكن تعرف كيف تتصرّف، إذ لم تكن تعرف والدها، وذكريات طفولتها قد غاضت كما يَغِيضُ الماء في الحِيَاض. تقدّم الكونت وحسّرَ عن وجهه ثم ابتسم لنَعْم، وفتح ذراعيه لها علّها تُعَانِقُه، لكنّها بَقِيَتْ مُسَمَّرَةً في مكانها حتى قلتُ لها: هذا والدك الكونت سانشو، فتقدّمي للسلام عليه.

نزلتُ كلماتي عليها بردًا وسلامًا وأخرَجَتْها من دُهلها، وبدا لي وكأنّها كانت في غَفْلَةٍ عمّا يجري في الغرفة. تقدّم الكونت مرّة أخرى نحوها وأمسكَ بيدها وقبّلها، فلما سرى سرُّ قُبْلته إليها أحيى فيها رَسْمَ ذكرائه الغائِضَة بفعل السنين فارتَمَتْ خَائِرَةً القوى في أحضانها، وصدّرت عنها كلمات روميّة لم تملك أن تمنعها. كان ذلك كلُّ ما بَقِيَ لها من لغة طفولتها ممّا علّمَتْها مُرَبِّيتها عَجَب. أجبها الكونت بمثلها، فأحسستُ كأنّ التّجَاوَبَ بهذه الكلمات

---

(١) هودج يُنسب إلى دولة العامريين، وما زالت الكلمة مستعملة إلى اليوم في المغرب، وتُطلق على هودج يُحمل عليه العروسان ليلة الزفاف، ويرافق ذلك عزف موسيقي.

الضئيلة قد أعاد ما انفلت من عقد الأيام ومسافة البين بين الأب وابنته. كان سحر تلك الكلمات فوراً أخرج نغم والكونت من حجاب السنين الذي فرق بينهما. لم يكن يُحسِنُ أيُّ واحدٍ منهما الكلامَ في هذه اللحظات، وأقصى ما استطاعا أن يفعلاه هو التواء الصبيّة على والدها وانتحابها. كانت الدموع هي الكلمات التي تُرمّم خصاصَ التواصل بينهما. كان ماؤها يجري فيغسل ما علق بالذاكرة من صدأ، ويُعيد دورة الزمن من حيث توقفت عند آخر لقاء بين صبيّة صغيرة تُركت في يد مُربّيتها، ووالد مُنزِعٍ إلى الحرب. انضغطت الأجساد لتغتصّر تلك الذكريات من جديد وتستردّها من ضباب السنين الذي أفلتها إلى غير نهاية. لكن صدمة اللقاء بعثت ماءها من جديد، وأشعلت من رماد النسيان نار الذكرى. كنت أحاذر أن آتي بحركة حتى لا أدخل زمني في زمنهما، إذ أدركت أنّ عجلة الزمن قد كرت في هذه اللحظات لتحيي ذكرى بددتها السنون. لم أكن أريد أن أشوش على زمنهما بزمني. كان نور الذكرى قد نقلهما إلى مكان آخر وزمان آخر غير ما كُنّا فيه. لقد تحوّلا إلى ذرات من النور تُسافرُ عبر الزمن بحركة الذكرى. لقد استردّا شريط الحياة من حيث توقّف بهما، وسافرا عبر الزمن بسرعة نور الذكرى. بقي الأب يحضن الفتاة وتراقصت ذكرياتهما تسترجع ما انفلت منها في ظروف لم يملكا قهرتتها.

خرجتُ من الغرفة أمشي بهدوء كمن يمشي على بئضٍ يُحاذر تكسيره. بقيتُ متوارياً عن نظرهما مُتَشَوِّفاً إلى ما قد يُشوش على هذا الاستهلاك في الزمن إلى درجة تُكرّ به إلى ماضٍ قد انتهى،

لكنه لم يَنْتَه بَعْدُ بالنسبة لهما. أدركتُ في هذه اللحظة أن أبعاد الزمن نِسْبٌ وليستْ أمورًا مطلقة، فالماضي ماضٍ لمن مضى به زمنه، والمستقبل مستقبلٌ لمن استَقْبَلَ به زَمَنه، وقد لا يكون يومك في مكانٍ كيومك في مكانٍ آخر. عجيبٌ أن يملكَ الإنسانُ هذه القدرةَ على إيقافِ الزمن أو استرجاعه أو الرجوع إليه. كيف يَسِيلُ الزمن؟ وكيف يرتبطُ الزمانُ بالمكان؟ لعلَّ الحركةَ هي التي تخلُقُ الشعورَ بالزمن، كما أنّ المادّةَ هي التي تخلُقُ الشعورَ بالمكان، فلا زمانٌ من دون حركة، ولا مكانٌ من دون مادّة. ليس في المخلوقات من يملك هذه القدرةَ الخارقة على الانفكاك ممّا ليس منه انفكاك، أي ممّا يجعلُ منه مخلوقًا. لعلّ في الأمر وهما، لكنّ القضيةَ أبعدُ من أن تكونَ وهما، إذ كيف تَسِيلُ الآماقُ بمائها لو كان الأمرُ وهما؟ إنّ الزمنَ يهيم على وجهه فتَهْمِي العيونُ بدمعها من أثرِ سفرِها في الأبعادِ الزمنيّةِ بسرعة نور الذكري. كنت أستغربُ هذا الاستهلاكَ في الزمن إلى درجة ينفكُ عنها الإنسان من أسره إلى حيِّزٍ لا زمنَ فيه. كيف يخرجُ الإنسانُ من الزمن إلى حيثُ لا زمن؟ أو لعلّ الأصوبُ أنّه دخولُ زمنٍ على زمنٍ لنفس الدّاتِ المسافرة في الزمن. كانت المشاعرُ الكبرى في الإنسان هي الكفيلةُ بإخراجه من أسره هذه الأواني والأبعاد. أدركتُ في هذه اللحظات أنّ المرءَ عبْدٌ لما سواه من الغيبيّات، لكنه يَكسِبُ حرّيته بكسر قيودها عنه. كان الشوق والمحبّة مراكبَ تَغْبُرُ الزمنَ لتخرجَ من زمنٍ إلى آخر. لقد استطاعت نُغم مع والدها أن يعودا إلى حيث توقّف زمنهما يوم فُرِّقَ بينهما، لكنهما أعادا في لحظات،



واستأنفا في زفراي، الهوة التي كانت تفصلهما عن تلك اللحظة. أدركت أيضا أن أعظم عبودية هي في الخروج عن قبضة كل الغيريات بالمحبة والمعرفة. إن أعظم من قدر المطلق حقه هم العشاق الذين لم يرضوا من محبوبهم الانضغاط في أواني المتماثلات المختلفة من زمان ومكان وأعراض وغيرها، بل فكوا أسرهم من قبضتها، وانطلقوا إلى حيث لا حيث.

لم أدر كم مضى من الوقت، ومثلي كان عبدا للوقت، لكن جهلي بمدّة الوقت كان أثرا من أثر انفكاك نعم والدها عن ربقة الوقت، وقد تعدى إليّ حالهما، لكنني سرعان ما عدت أسيرا للوقت، ومثلي لم يدرك سرّ ذلك الفراق، فكيف يخرج عن ربقة الأكوان والأزمان؟ لا يخرج عن الأكوان إلا من حصل في عين التكوين، وقد كنت في حجاب من هذا الأمر، ولم يحصل لي صدمة من صدمات الوعي الأعلى كما شاهدت في هذا اللقاء بين صبيّة والدها. ليس لي معرفة ذوقية عن هذا الانعتاق من الأكوان، وإنما هي معرفة بواسطة حال ليس لي فيه ذوق، وإنما هو لغيري. وشتان بين من شاهد من ذاته عين الخبر، وبين من شاهد من غيره نقل الخبر.

دخلت الغرفة فوجدتهما مستغرقين في سكون الظاهر وحركات الباطن. كان الباطن متفلتا من ربي الغيريات التي تسجن المرء، فاستعاضا عن هذا السجن بحرية الباطن. جلسا أرقبهما وأحاول أن أفهم ما أرى. أجساد متعانقة لا تتحرك، لكنني كنت أدرك أن حركتها الخفية أسرع مما كنت أتوقع. لقد عادت

سَنَوَاتٍ إِلَى الْمَاضِي فِي بَرَهَةِ زَمْنِيَّةٍ قَصِيرَةٍ. كَيْفَ دَخَلَ الصَّغِيرُ فِي الْكَبِيرِ؟ وَكَيْفَ اتَّسَعَ الضَّيْقُ لِيَسْتَقْبَلَ الْوَاسِعَ؟ وَكَيْفَ اتَّسَعَ الْحَاضِرُ الضَّيْقُ لِيَدْخُلَ فِيهِ الْمَاضِي الْوَاسِعَ؟ لَا بَدَّ لِحَصُولِ هَذَا بَوَاحِدٍ مِنْ أَمْرَيْنِ، إِمَّا بِاتِّسَاعِ الضَّيْقِ أَوْ انْكَمَاشِ الْكَبِيرِ. لَعَلَّ فِي الْكُونَ فِرَاعًا هَائِلًا، وَلَعَلَّ الْأَجْسَامَ تَبَدُّوْا فِي أَحْجَامٍ بِفِعْلِ كُتْلَةٍ الْهَوَاءِ الْكَبِيرِ فِيهَا، فَإِذَا زَالَ الْفِرَاعُ عَنْ ذَرَاتِهَا صَارَتْ جُسَيْمَاتٍ صَغِيرَةً جَدًّا. وَلَعَلَّ الْجَمَلَ الَّذِي نَرَاهُ جَمَلًا مَا هُوَ إِلَّا مِثْلُ شَعْرَةٍ ضَمِيلَةٍ حِينَ يَنْفُكُ عَنْ ذَلِكَ الْفِرَاعِ بَيْنَ ذَرَاتِهِ فَيَسْهَلُ دُخُولُهُ فِي ثُقْبِ الْإِبْرَةِ أَوْ سَمِّ الْخِيَاطِ. وَإِذَا حَصَلَ هَذَا الْأَمْرُ، وَهُوَ احْتِمَالٌ مَنْطِقِيٌّ، انْضَغَطَ الْهَوَاءُ وَزَالَ الْفِرَاعُ بَيْنَ الذَّرَاتِ حَتَّى صَارَ هَذَا الْعَالَمُ الْفَسِيحُ الَّذِي نَرَاهُ وَنَعِيشُ فِيهِ بِحَجْمِ كُرَةِ صَغِيرَةٍ وَتَقَلَّصَتْ الْمَسَافَاتُ، وَهَذَا مِنْ سِرِّ الْخَلْقِ. بَلْ مَا لِي أُفْرِدُ الْعَالَمَ بِهَذِهِ الْكَارِثَةِ وَأَسْتَثْنِي الْإِنْسَانَ مِنْهَا؟ لَسَوْفَ نَتَضَاءَلُ مَعًا إِلَى دَرَجَةِ مُرْعَبَةٍ. تَصَوَّرُوا مَعِي أَنَّنَا أَصْبَحْنَا كَائِنَاتٍ صَغِيرَةً كَالْجُسَيْمَاتِ الْهَبَائِيَّةِ تَتَحَرَّكُ عَلَى سَطْحِ كُرَةٍ، فَهَلْ لَدَيْهَا خُبْرٌ أَوْ خَبْرٌ عَمَّا هُوَ خَارِجٌ عَنِ الْكُرَةِ؟ لَا شَكَّ أَنَّهَا لَا تَدْرِكُ ذَلِكَ، فَإِذَا أُرْسِلَ مُرْسِلٌ بِقَدَمِهِ تِلْكَ الْكُرَةَ إِلَى حَيْثُ آخَرَ لَمْ يَحْضُلْ لَهَا إِدْرَاكٌ بِمَصْدَرِ الْحَرَكَةِ، ثُمَّ إِذَا قَذَفَ قَازِفٌ ثَانِيًا الْكُرَةَ نَفْسَهَا فِي لَعْبَةٍ يَلْعَبَانَهَا، تَحَوَّلَ لَعِبٌ أَوْلَادِكَ الْأَطْفَالِ إِلَى كَارِثَةٍ مُحَقَّقَةٍ لَا تُتَصَوَّرُ وَلَا يُدْرِكُهَا مَنْ كَانَ عَلَى سَطْحِ الْكُرَةِ الْمَسْكِينَةِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ شَعُورٍ ثَقِيلٍ أَنْ تَعِيشَ فِي حَقْلِ جَازِبِيَّةِ الْكُرَةِ الَّتِي تَسْكُنُهَا، ثُمَّ تُحْسُ بِالِاقْتِلَاعِ عَنْهَا بِفِعْلِ قُوَّةِ الْقَذْفِ الَّذِي يَرْمِي بِكَ فِي سَدِيمٍ تَعْدَمُ فِيهِ شَمٌّ

الهواء. وما كان فعلاً بسيطاً من القاذف كان مصيبةً كبيرةً لتلك الكائنات وللكرة المقذوفة. لقد استيقظ في ذاتي هذا الوعي الشقيُّ بغربة الإنسان في الكون الفسيح من مُعاينتي وأنا صبيٌّ صغيرٌ لممالك النمل. كنتُ أتدأكي مع أقراني على هذه الممالك الصغيرة، ونتحدّثُ في شقاء على هذه الكائنات الضئيلة، فنُقيمُ مبارياتَ بؤلٍ جماعيّةٍ نُغرِقُ فيها مساكنَ النمل بفيضانِ بؤلنا، فترى النملَ المسكينَ يَضِجُ مرعوباً في كلِّ مكانٍ لا يلوي على شيءٍ سوى النجاة من هذا الفيضانِ الهائل، الذي لا شكَّ أنّه فعلٌ تافهٌ من صبيّةٍ أشقياء. والعجيب أننا لم نكن نَسْمَعُ استغاثةَ النملِ ولا صراخه من فعلنا القبيح، حين يعمدُ أحدنا إلى تصويبِ فوهةِ أنبويه نحوَ غارِ النمل حتى يملأه ببوله فتطفو جثثُ النملِ سابحةً في هذا الفيضان الكارثي، وتسمعُ قهقهاتنا من هذه الشجاعة الصبانيّة التافهة. لقد طمى سَيْلُ الماءِ (طسم) على النمل، وتَدَكَّرْتُ هذا الفعلَ وأدركتُ أننا مثلُ النملِ تماماً في هذا الكون الفسيح، وأنفُتُ من تصوُّرِ نفسِ الحالة حين تنعكسُ الأدوار فيقذفنا صبيٌّ كبيرٌ ببوله فيُغرِقُ كرتنا في فيضِ سائله، والغريبُ أننا لا نهتمُّ ساعتئذٍ حتى للنجاسة التي لحقتنا وعرَقنا في بؤلِ ذلك الولد الكبير الذي أتصوُّرُ أنّ قهقهاته تملأُ كوننا الصغير، فلا نكاد نسمعها، كما لم يكنِ النملُ يسمع قهقهاتنا الشريرة، لأنَّ قدرتنا على التِقَاطِهَا كانت فوقَ قدرةِ أصماخنا، لحسنِ حِظِّنا، وإلا كانت مثلُ زمجرةِ الرعدِ المخيف، وقصْفِهِ الهادرِ المرعبِ في الليالي العاصفة. إنها أسئلةٌ محيرةٌ تلك التي مرّت بي في هذا

الأوان، والتي أعطتني هذا الوعي الأعلى بأن الإنسان يمكنه أن يتعلّم في لحظة، ما لا يمكنه أن يتعلّمه في عمر بكامله شريطة أن يُزجَّ به في عَيْنِ التكوين، حتى يُصبح حرفًا عاليًا من غير جنس هذه الحروف القصيرة التي نتداولها فيما بيننا فتحصُرنا في أكوانٍ ضيقة. كان لا بد أن أوقظ فتية الكهف من سباتهم، فربّت على كلبهم فأفاق ونظرَ إليّ نظرةً غريبةً كمن استعجِلَ في قيامه من نومه. ثم ربّت على الصبيّة فنظرتَ إليّ نظرةً ملؤها السعادة، وطبعتَ على خديّ قبلةً فانتشيتُ بهذا التماسُّ النوراني الذي محَضني بشيء من عالم السعادة، فرأيت ما لم أرَ مِنْ قَبْلُ، وقطعتُ تلك الحُجبَ في رمسِ قَبْرِ عَيْنِ فانيةٍ إلى رَوْضِ قَلْبِ عَيْنِ باقية. لقد سافرتَ بي تلك القبلةُ إلى زمنٍ غير الزمن الذي كنت فيه، ورأيت تلك الصبيّة تنتحبُ لفراق والدها، ورأيت المنصور يزهو بهدم المدينة، ثم رأيت والدي وقد قطع مشيًا رَسَمَ أبراج كاتدرائيةٍ شانت ياقب في ذلك المسلك المَحَطَّط على أرض الكاتدرائية. ثم رأيت كأنّ كتلةَ الزمن قد خرجتُ من مَحَاذِرَةِ شانت ياقب ثم عادت إليها في لمحة قبلة، فكيف حصل هذا؟ لا أملك الجواب، لقد تخالجتِ القلوب، وتناوحتِ الأرواح في غَيْضَةِ هذا اللقاء، فَسَرَى السَّرُّ منها إليّ، وأدركتُ منهما ما لم أدرك من قبل فكنتُ ثالثَهُما، كلبٌ وصبيّة وفتى. كُنّا نحن الثلاثة قد مَلَكْنَا الزمنَ في قبضتنا، وأفقنا على سعادةٍ بعدما بَثْنَا على حُزْن.

بعد انتهاء هذا البَثّ انطلقنا نتحدّثُ بلسان الأكوان مرّة

أخرى، وتحدّث الأب عن حياته التي قضاها في التّبْتُل والرّهْبنة، وسرَدَتْ نُعم حياتها في قَصْرِ والدي. لم يكن هناك أَسْفٌ وَلَا نَدَمٌ على ما حصل، بل اقتناعٌ بأنّ تصاريْفَ الدهرِ قد حَوَلَتْ وَرَقَ فتيّة الكهف إلى طعام يأكلونه بالليل والنهار.

ناديتُ على فتي كان يقوم بالخدمة في القصر بإحضار الطعام وجلسنا نرتَشِفُ تلك المِلذّات ونقَتِطُفُ من تلك الثمَرَات حتى استقام بنا المجلس واستوى، ثم أخبرني الكونت أنّ دَيْرَ أرمِلاط قد تَوَصَّلَ بطلب من قاضي قرطبة لإرسال عُمال من أجل صيانة أجراس الجامع وتنظيفها بعدما كساها صدأٌ واستحال مَعْدُنُها باهتًا عليه خُضرة مَقِيّة. وقد أوفده رئيس الدير مع معاونين للقيام بهذه المهمة.

ابتهجَتْ نُعم بخروج والدها من عُزلته واللقاء به والسعادة بمُكثه في قرطبة. سعدتُ لهما كما يَسَعُدُ مَرءٌ لسعادة غيره. سألت الكونت عن مكان إقامته، فأخبرني بأنّ أسقفَ كنيسة قرطبة قد وُقِرَ له سَكَنًا مع معاونيه ضمن بنايات الكنيسة المخصّصة للضيوف.

بقي الكونت مع نُعم ذلك اليوم يتحدّثان ويتعرّفان على بعضهما بعضًا، ويُصلحان ما أفسده الفِراق، ثم أرسلتُ في طلب عُجْب فالتقتُ بسَيِّدِها. وبعد ذلك استأذَنَ الكونت فغادر القصرَ على أَمَلِ العودة مجدّدًا كلِّما سَنَحَتِ الفُرصة. سألتُ الكونت قبل أن يغادر: هل ستُنظِّفُ الأجراسَ وأنتِ لابسِ ثيابِ النصرى أم أنّك ستلبسِ لباسَ أهلِ قرطبة؟

أجابني أنّه سيلبسِ لباسَ سَكّانِ قرطبة حتى لا يثيرَ حفيظَةَ

الناس. ثم أخبرني بأنّ القاضي شدّد عليه في أن يُنهي عمله خلال شهر، فسألته عن سرّ هذا الأمر، فأخبرني بأنّ قصرَ الإمارة في قرطبة كان يستعدُّ لتلميع تلك الأجراس قبل حلول مناسبة كانوا يريدون الاحتفال بها.

\*\*\*

كنتُ أأزُمُ جامعَ قرطبة لمتابعة دروس العلم به من فقه وحديث وأصول وكلام ولغة ونحو وأدب وحكمة وعلوم طبيعيّة ورياضيّة وطبيّة. وقد كان والدي قد جعل لي منذ أن فارقْتُ الطفولة مُربيًا هو أبو الحسين عليّ الفارسي يتابع تحصيلي ويوسّع مداركي ويختبر معلوماتي، ويأخذني إلى مجالس العلماء. وقد كان السبب في حرصي على الإقبالِ على العلم أنّي أخطأت مرّة عندما دخلت للجامع بعد العصر فصليت ركعتي تحية المسجد، فجاءني رجل ونهاني عن ذلك وأعلمني بأنّ هذا ليس وقت حِلّ للصلاة، فأسقط في يدي. ثم حدث حادث آخر مماثل في صلاة جنازة، فأخطأت مرّة أخرى وعلمت مقدار جهلي بالفقه، فطلبتُ من والدي أن يجعلَ لي مُربيًا يأخذني إلى مجالس العلم، وبدأتُ أحضُرُ الدروسَ هناك للتعفُّه في مختلف المعارف والعلوم. كنّا نحضُرُ دروسَ المحدث أحمد بن الجسور في الحديث، ودروسَ الهمداني في مسجد القُمرّي من قرطبة. كان المذهبُ السائد في بلدنا هو مذهبُ إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وقد أخذته عن كثير من علماء بلدنا، وقرأتُ كتابَ الموطأ لمالك على الشيخ عبد الله بن دحُون، لكنّ طبيعتي المتأرجحة لم تكن تأنسُ بمذهبٍ واحدٍ يمشي

عليه كلُّ الناس، بل كنت أُشْرِبُ إلى أَخِيذِ المذاهب الأخرى،  
 فَاطَّلَعْتُ على مذهب الشافعي وقرأتُ كتابَ «اختلاف مالك»،  
 وأعجبني قول محمد بن إدريس الشافعي «أحبُّ مالِكًا ولكن محبِّي  
 لِلْحَقِّ أَكْثَرُ من محبِّي لمالك» مُحَاكِيًا بِذَلِكَ نفس ما قاله أرسطو  
 عن أستاذه أفلاطون. كانت نفسي تتبرَّمُ كالعادة من مُمَاشَاةِ الكثرة  
 وَأَحِبُّ أَنْ أُسْتَقِيلَ بِاجْتِهَادِي فيما أراه حقًّا. وقد نفحني ما ذكره  
 الشافعي لِأَسْتَقِيلَ بنفسِي عن تعصُّبِ فقهاء المالكيَّةِ لمذهبهم في  
 بلدنا. أقبلتُ على مذهب الشافعي وراقنتي أصوله وجمعه بين الأثر  
 والاجتهاد. كان الشافعي يجعل الفقه تابعًا للنص، فيما كنت لا  
 أطمئنُ إلى القول بالاستحسان عند الحنفيَّةِ والمصالح المرسلة عند  
 المالكيَّةِ. ثم انتقلتُ بعد ذلك إلى دراسة الفقه الظاهري عند داوود  
 الأصبهاني حاملٍ لواءِ هذا المذهب، فأخذت المذهبَ الظاهري في  
 الأندلس على الشيخ الزاهد مسعود بن سليمان ابن مُفْلِت، وأنسْتُ  
 إلى أصوله التي تُحَكِّمُ النصوص والأثر. وكان اِطِّلاعي على  
 المذهب الظاهري يناسبُ نفسيَّتي التي لا تتقيَّدُ بمذهب ولا تُعْمَلُ  
 إِلَّا النُّصُوصَ والآثار، لكنِّي لم أتديَّنُ الله تعالى بهذا المذهب إلَّا  
 في مرحلةٍ لاحقةٍ من حياتي. كما كنت أدرُسُ على الشيخ عبد  
 الرحمن الأزدي جملةً من العلوم كالحدِيثِ والقرآن والنحو واللغة.  
 وكنت أميلُ إلى تفسير أبي عبد الرحمن بَقِيَّ بن مُخَلَّد، «فهو  
 الكتابُ الذي أَقَطَعُ قطعًا لا أستثني فيه إنَّه لم يُؤَلَّفِ في الإسلام  
 تفسيرٌ مثله، ولا تفسيرُ محمد بن جرير الطبري ولا غيره».

وإلى جانب هذه العلوم، كنت أدرسُ علومًا أخرى كالمنطق

والفلسفة والحكمة والطبيعات والطب وغيرها. ومن شيوخه في الفلسفة ومتعلقاتها أبو عبد الله محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكثاني. أما الطب فقد درسته أيضًا على شيخنا المذحجي، كما أدركت الطبيب أبا القاسم بن خلف بن عباس الزهراوي وأخذت عنه. ثم إني كنت أجتمع مع بعض الكُتبيين، فتعرّفت عندهم على كثير من أهل العلم مسلمين وغير مسلمين. وكانت تجري بيننا مناظرات نتصر فيها لما نراه حقًا. كان من بين هؤلاء نصارى ويهود وأصحاب الفرق الإسلامية المختلفة من معتزلة وأشاعرة وشيعة. كان بعض هؤلاء يشتغلون في حوانيت لهم بالقصبة، أي في المدينة القديمة من قرطبة.

كانت أيامًا رائعة نَتَقِيًّا في ظلال العلوم، فإذا مللنا انقلبنا إلى اللهو الحلال مع فتية قرطبة، ممّن كانوا يَرَوْنَ أنهم في مركز العالم وأنّ مدينتهم لا نظير لها. كم هو عجيب هذا الشعور الذي ينتاب المرء حينما يكون في مركز العالم وقلب الحضارة! إنه شعورٌ غريب بالشفوف والتميّز، تحسُّ أنك مسؤولٌ عن العالم قدر إحساسيك بأنك لست بحاجة لهذا العالم. حينما يخطر المرء في أزقة قرطبة ومَحَجَّاتِها وَسِكِّكِها وأرباضِها، ينتابُه شعورٌ أنه مُفْرَدٌ عَضْرِهٍ وأنّ العالم قد جُمِعَ له في هذه المدينة. فما بالكَ إذا كان هذا المرء له طبيعة تُشعره بالتميّز والفرادة والاستقلال كما هو شأنِي؟ كان أهلُ بلدنا يأنفون من أساليب المَشَارِقة في الشعر والآداب وغيرها، فإذا ما قالوا الشعر لم يرتضوا سُنن شعراء الجاهلية في الوقوف على الأطلال، بل ارتضوا لأنفسهم نُزولَ



الرِّياض الأريضة بين ماءٍ وِنوار. وخَيْرٌ من الوُقوف على الدِّيار  
 وُقوفُ البَنانِ على الأوتار. وإذا وصفوا عينَ المحبوب حَسبِوها  
 نَرَجِسَةً وِاشمأزوا من تشبيهاها بعيون المَهَا والبقر الوحشي، ورَأوا  
 ذلك سِناعَةً لا تَلِيقُ بالحِسان، فخيرٌ للمرء أن يَنعَمَ بأريجِ جارية  
 مثلَ نرجِسَةٍ من أن يُعامِلها كبقرة عجماء تَنبَعثُ مِنْ فِيها روائحُ  
 المعاطن. واختاروا لوصفِ قَدِّ المحبوب قَضيبَ النرجسة ونَفَّروا  
 من قَضيب الأَرَاكِ وأشواكِ البادية. أن تعيشَ في قرطبةَ يعني أن  
 تعيشَ في قُرطُ بهاءٍ وباءٍ (قُرطُ به).

كانت لنا جولات في قرطبة نذرعها جيئةً وذهاباً، وكنت  
 أَفْضَلُ مع صحبي ملازمةً بابِ إشبيلية أو العطارين حيث تَخْطُرُ  
 النِساءُ للتبدُّل والتجمل، فَتَنعَمُ منها بطرفِ خفيٍّ ونورِدُ عليهنَّ كلمةً  
 أو كلمتين، فإن تَأبَّتْ أرسلنا لها البطائقَ الحاملةً للشِّغف، وكُنَّا  
 نَحْذَرُ من العُدَّالِ ومن الواشين، ونستعين بالمُساعدِ من الإخوان  
 والعجائزِ ممَّن رَقَّ قلبُهُنَّ، بل إنَّ منهنَّ مَنْ كانت ترى في التقريب  
 بين المتحابين قُرْبَةً تبتغي بها وجهَ الله فتسعى للجمْعِ بينهما، وعلى  
 العكس من ذلك كان هناك من لا يتنفَّسُ إلا بالوشاية والعُدل، ولا  
 يَزْفِرُ إلا بالنكايه والسعاية في تشتيت شمل الأَحبة، ولا ينفُثُ إلا  
 أَدِيَّةَ الفُرقةِ بين المتحابين.

حَفِظنا المتون من كلِّ فَنٍّ، وتنافس بعضنا في الشفوف على  
 أقرانه، لكن ابنَ شُهَيْدِ كان من أَجَلِّنا أدباً، ولعلَّه ألقى الكلامَ  
 العادي فإذا به جَظْرَةٌ أدبيَّةٌ أو نُكْتَةٌ بلاغيَّة، لقد رُزِقَ الشعرَ  
 والأدبَ سجيَّةً فلا يتكلَّف. وإذا نطقَ بشعرٍ وأدب، وإذا

سكت رام الجميع ما تفتُرُ به شفتاه، لكتّه مُني بِقَصْرِ ذات اليد بعدما زهد والده في الحياة وألزم أهله وذويه تلك الحالة المزريّة، فكنت أُرثي لصاحبي وأرجو بنواله أن يلحظني ببعض مُقتنيّاته. كانت الطرائد تأتينا إلى الزاهرة تَحْطُرُ في حِينَا لِنَتَلَقَى طُلُوعَ بهاءِ ابنِ عامِرِ حفيدِ العامريين. وكان هذا الشابُّ مَضْرِبَ المثل بين فتية قرطبة، حتى كان يُقال فيه «أجملُ من وجه أبي عامر»، لكتّي كنت أتحاشى الخطورَ أمام دُورنا مخافةً أن يعاتبني والدي على بطالتي، أو أن تَقْظَن نَعْم لانقلابي. وأيُّمُ الله، لقد كنتُ أحبُّها. لكن غِرَّةَ الشباب ومصاحبة الأقران كانت دافعةً لمثل هذه الصّعلة، إذ لم يكن الفحلُ عندنا مَنْ يَقْنَعُ بواحدة بل كان عليه أن يُظهِرَ للأقران أنّه مُسْتَنْزِلٌ لأقمارِ الصبايا في دياره، ومَهْوَى أفتدتهنَّ على نِفَارِهِ. ومَنْ أظْهَرَ الزهادة في هذا التَّكَلُّفِ عُدَّ من الأثمين، وهَجَرَ كما يُهَجَرُ القِرْدُ بعد هُزاله في آخر السنين. كان الأقران يتفاضلون في هذه المكتسبات ويحرصون على هذه المغامرات ويصرفون جهدهم ومالهم في تَصِيدِ أبهى الصبيّات. لم يكن منّا من يَشُدُّ عن القاعدة إلّا لمن لم تُسَعِفْهُ الحياة بالمَسَايِدِ، ولم يَجِدْ بُدًّا من اصطناع النِفْرَةِ ممّا فيه رَغْبَةٌ. كُنّا أبناء الوزراء والكتّاب والأعيان في قرطبة، وكان أقصى المراد عند الشباب بعد تحصيل العلم والثروة أن يحصلوا على ما به يَزِدَانُ الفِرَاشُ وتَلِينُ به الحياة. وحتى الشيوخ والعلماء كانوا يَتَصَابَوْنَ في هذه المَرَافِقِ ويحرصون حرصنا على اقتناء تلك المراكب، فترى الشيوخَ والفقهاء يسارعون إلى باب الحاجب بعد

قُفوله من المصائف<sup>(١)</sup>، يستنزلون كرمه بجارية من الروميات تُنْعِشُ  
فحولتهم المتهالكة ويُديمون التباهي بها أمام أقرانهم،  
ويستحرونها للشهوة.

كان جامعُ قرطبة مدينةً من الأعمدة التي تناثرَتْ حِلَقُ الدروس  
فيها بين فقه وحديث وتفسير ونحو ولغة وطب ورياضيات ومنطق  
وطبيعيّات وحكمة. وكان لكلِّ أستاذ حَلَقَةٌ يُؤمُّه فيها الطلبة يلتفون  
حوله لأخذ العلم عنه. وكان في صحن الجامع مدارس تأثّلت عبر  
السنين. وبعد التوسعة ازداد عددُ تلك الحلقات وأمَّها الناس من  
كلِّ ناحية، حتى استقلَّت قرطبةُ بالعلم عن غيرها وصدَّرته في كلِّ  
الأرجاء للعالمين. كنت أمرُّ بين الأروقة وأتلصصُ بين الحين  
والآخر على الكونت في مهمته التي كان يصرف إليها كلَّ جُهدِه  
بعناية فائقة. كنت ألحظه وهو يعالج النواقيس العظيمة يتفاني العابد  
ونساعة الزاهد وضراعة الأمِّ وحذبها على وليدها. كانت كلُّ تلك  
الصفات مجتمعةً في الكونت وهو يمسح الأجراس وينظفُها  
ويحرص على إظهار لَمَاعَتِهَا، ويتفاني في ذلك قربةً للربِّ. وحين  
تخفُّ الحركة كنت أراه ينسخ ما على الجرس من الكتابة. وأحياناً  
كان يطلي الجرس بمادّة سوداء ثم يضع ورقاً رقيقاً فوقها يُلصقه  
تماماً على صفحة الجرس ويضغط عليه ثم يتركه لفترة منضغطاً  
حتى يتلبَّسَ بالجسم الذي عُلِقَ به، وبعد ذلك ينزعه بعناية فائقة  
حتى لا يتمزَّق. ثم يُلَفُّ الورقة التي انطبع على وجهها من المادّة

---

(١) المعارك والغزوات التي كانت تجري في فصل الصيف، وتأتي بالغنائم  
والأسارى.

السوداء ويُعطيها لِمُعاونه فيدسُّها في كيسٍ يحمله. كما كنت أرى قَوْمًا يجلسون دومًا تحت الأجراس. تفرَّستُ في سحناتهم، فبدا لي أنها مألوفة، لكنِّي لم أكن متيقنًا. تأخَّرتُ في المسجد الجامع في أحد الأيام حتى صليتُ العشاء، ثم تلبَّثتُ حتى خرج أولئك القوم المرابطون تحت الأجراس فتتبعتهم متخفيًا. كانوا حريصين على دخول قَصَبَةِ المدينة حيث الدروب الضيقة والانعطافات الكثيرة، والحركة الكثيرة، إلا أنَّ سرعتي وشبابي جعلاني متنبهًا لكلِّ حركاتهم مقتفيًا لهم حشما خَطَرُوا، وتعتبُّتهم حتى وصلوا إلى ربض النصارى قريبًا من الكنيسة العظمى. كان الضوء خافتًا والحركة قليلةً في تلك النواحي، ولا يكاد المرء يرى سوى خيالاتٍ تتراقصُ في الظلام. وكانوا لا يمشون إلا فرادى أو زَوْجَيْن. وفجأة، توقَّف أولُهُم وأخرجَ مفتاحًا أدخله في قُفلِ بابٍ إحدى الدُورِ القريبة من الكنيسة ففتحهُ ودخل بسرعة، ثم رأيتُ القوم يدخلون إثرَهُ الدار نفسها بسرعة متناهية، ثم رأيتُ آخرَ الجماعة يُغلقُ الباب بعد دخولهم. كان واضحًا أنَّ الدار تابعة للكنيسة، إذ إنَّها من توابعها. فرابني أمرٌ هؤالء الذين يسكنون ربض النصارى ويجتمعون تحت أجراس شانتيه في جامع قرطبة. ثم دقَّت نواقيس الكنيسة مُؤدِّنةً بموعد الصلاة الأخيرة من الليل. لم أكن لابسًا ثوبًا يمكنني من التحفِّي في الكنيسة، فعدتُ أدراجي وقرَّرتُ أن أعود في الليلة التالية.

مرَّ اليوم الموالي، وأقبل الليل فخرجتُ متنكرًا في لباس النصارى وترصدتُ الجماعة حتى خرجوا من الجامع، ثم مشيتُ

خلفهم حتى رأيتهم يدخلون الدار التي دخلوها ليلة أمس. ولم تَلْبُثُ أَنْ فَرَعَتْ أَجْرَاسُ الْكَنِيسَةِ فَدَخَلْتُهَا مَعَ الدَّاحِلِينَ الَّذِينَ وَفَدُوا لِلصَّلَاةِ. رَأَيْتُ قِفَافًا مَلِيئَةً بِالتَّرَابِ عِنْدَ مَدْخَلِ الْكَنِيسَةِ، فَتَوَقَّعْتُ أَنْ يَكُونَ الرِّهْبَانُ قَدْ قَامُوا بِبَعْضِ الْأَشْغَالِ. بَعْدَمَا دَخَلْتُ لَبَدْتُ فِي رُكْنٍ يُمَكِّنُنِي مِنْ مِلَاحِظَةِ مَا يَجْرِي مِنْ دُونِ أَنْ يَنْكَشِفَ أَمْرِي. كُنْتُ قَدْ حَفِظْتُ سَحَنَاتِ أَوْلَئِكَ الرِّجَالِ فَرَأَيْتُهُمْ يَدْخُلُونَ إِلَى الْكَنِيسَةِ فِي لِبَاسِ الرِّهْبَانِ فَأَسْقِطُ فِي يَدِي، وَأَدْرِكْتُ فِي هَذِهِ اللَّحِظَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَنَكَّرُونَ فِي لِبَاسٍ غَيْرِ لِبَاسِهِمْ دَاخِلَ الْجَامِعِ، لَكِنْ كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُكْتَشِفَ سِرًّا مِلَازِمَتُهُمْ لِمَوْضِعِهِمْ فِي الْجَامِعِ تَحْتَ الْأَجْرَاسِ. مَرَّ الْقُدَّاسُ وَرَأَيْتُ الْأَبَّ الرَّاعِيَّ يَتَقَدَّمُ نَحْوَ الْمُؤَهِّفِ ثُمَّ يَتَّبِعُهُ بَاقِيَ الرِّهْبَانِ. تَقَدَّمْتُ كَمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَصَلِّيَ أَمَامَ مَعْبَدٍ تَمَثَّلَ شَانَتْ يَاقِبِ، لَكِنِّي كَمَنْتُ فِي مَوْضِعٍ بَيْنَ سَارِيَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ بَحِثَ أَرَى مَا يَجْرِي وَلَا يَرَانِي أَحَدٌ، وَأَسْمَعُ مَا يَدُورُ فِي الْغُرْفَةِ الَّتِي دَخَلَهَا الرِّهْبَانُ وَلَا يَسْمَعُ حَرَكَاتِي أَحَدٌ. تَكَلَّمَ الْأَبُ الرَّاعِيَّ وَرَحَّبَ بِالرِّهْبَانِ وَسَأَلَهُمْ عَنِ تَقَدُّمِ الْأَعْمَالِ، فَأَجَابَهُ أَحَدُهُمْ بِأَنَّ الْكُونْتَ وَمَعَاوِنَتَهُ قَدْ شَارَفَا عَلَى الْإِنْتِهَاءِ، وَأَنَّ الْأَجْرَاسَ قَدْ تَمَّ تَلْمِيْعُهَا وَظَهَرَتْ كِتَابَتُهَا وَقَدْ نَسَخُوا نِصُوصَهَا تَمَامًا. ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا: لَكِنْ يَبْدُو أَنَّهَا مِلْغَزَةٌ، وَسَنَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ لِفَلْكَ ذَلِكَ اللَّغْزِ. وَقَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّهَا فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ فِي كَنِيسَةِ شَانَتْ فَانْسَانَ.

يبدو أنه تسرّع في ذكره لهذه المعلومة، ولم أفهم كلامه الأخير حول كون الأجراس في كنيسة شانت فانسان، مع أنها في جامع قرطبة، وتوقّعت أن تكون لهذه الأجراس نظائر في كنيسة

تحمل هذا الاسم في منطقة جليقية. وفجأة التحق الكونت بالجماعة داخل الموهف. كان يعرفهم واحدًا واحدًا، ورأيتهم مُبَاسِطًا لهم مُبْتَهَجًا بنجاحهم في مهمتهم. ثم قال لجهة الأب الراعي: لقد ساعدنا الكونت سانشو غرسيه الأرغوني جدّ عبد الرحمن شنجول لأُمَّه، ولولا تدخُّله لدى حفيده لما سمح لنا قاضي الحضرة بدخول جامع قرطبة. وإنّ صلوات إخواننا فرسان سانتياغو كانت مفيدةً لنا في إنجاز المهمة التي نذرنا أنفسنا لإقامتها وسط معبد ملّة الكفار. فقد كانت قراءتهم السريّة لنصوص الإنجيل تشرحُ خاطري وتدفعني لإنجاز مُهمّتي بنشاط وجدّ.

غَاظَنِي كَلامُ الكونْتِ عنِ مِلَّةِ الإسلام، ونعته للمسلمين بالكفار، ثم أمعنتُ النَّظْرَ في الرُّهبانِ وبدا لي أنّي التقيتُ بهم من قبل، ثم تذكّرتُ فجأةً أنّي رأيتهم في القُدّاس الذي حضرته سِرًّا مع الكونت في دير أرملاط. كانوا من فئة الفرسان رغم أنّهم كانوا يلبسون ثيابَ الرهبان، وهنا تذكّرتُ كلامَ الكونت على نظام فرسان سانتياغو الذي أُسسَ بعد سقوط شانت ياقب. ولا شكّ أنّهم هم الذين اكتشفتُ مخبأهم واجتماعاتهم السريّة في دير أرملاط. كان الأمرُ واضحًا. لكن ما سرُّ اهتمامهم بتلك الأجراس والنصوص المكتوبة فيها؟ وما هو اللُّغز الذي يبحثون عنه؟

بقيتُ أسئلتِي دون جواب.

تسلّلتُ خارج الكنيسة بعد أن خفّفتُ حركة المصلّين، وخفّفتُ افتضاحَ أمري، وعدتُ إلى الزاهرة فدخلتُ قصرنا متفكرًا في هذا الذي وقفْتُ عليه. كان لا بدّ أن أتخذَ قرارًا، فعزمتُ أن ألتقي

بالكونت وأدعوه لزيارة ابنته حتى أستبينَ منه قصَّةَ الأجراسِ  
والفرسانِ واللغزِ.

كان والدي مُشغلاً بارتقاء عبد الرحمن مَنصِبَ الحِجَابَةِ، ولم  
يكن مرتاحاً لَمَّا تَلَقَّبَ بألقاب الخلفاء لحين اعتلائه السلطة فتسَمَّى  
بالناصر ثم بالمأمون، وكان يُدعى «بالحاجب الأعلى المأمون ناصر  
الدولة»، ممَّا لم يفعلهُ والدُه المنصور من قبله رغمَ كثرةِ مَغَازِيهِ  
وانتصاراته. ثم أخبرني الوالدُ عن عزم عبد الرحمن طَلَبَ ولايةِ  
العهد لنفسه من الخليفة هشام المؤيد، وهي جَرَاءَةٌ لم يُقَدِّمَ عليها  
والدُه المنصور ولا أخوه عبد الملك، بل حافظوا على رسم  
الخليفة في الظاهر رغمَ تصرفهم الكامل بالسلطان.

وفي الأيام التالية ذهبْتُ إلى المسجد الجامع الذي كان  
القيِّمونَ يعملون على تنظيفه وإسراج مصابيحهِ وتغيير فُرُشِهِ وحُصْرِهِ  
بالجديد استعداداً لأمر ما، وبدلاً من حُضور حَلَقَاتِ الدرس التي  
كانت تُقام في صحن المسجد كنتُ أراقِبُ الجماعةَ التي تجلس  
تحت الأجراسِ. كانوا نحوًا من عشرة رجال، يُظهرون الدَّرُوشَةَ  
والصلاح لا يُكَلِّمونَ أحدًا. وكان الكونت وصاحبه يَجِدُّونَ في  
عملِهِم حتى بَدَتِ الأجراسُ تَلْمَعُ من جديد كَأَوَّلِ يومِ صُنِعَتْ فيه.  
أما في المساء حينما تُسْرَجُ المصابيح، فإنها تتوهَّجُ بالنور الذي  
ينعكسُ على صَفْحَتَيْهَا فيزيدُ المسجدَ نورًا فيهتبلُ الناسُ من كثرةِ  
النورِ رغمَ الظلامِ المكتئفِ في الخارجِ. وقفتُ أراقِبُ الحركاتِ  
والسكناتِ حتى خرجَ الرِّجالُ، وجئتُ ناحيةَ الكونت الذي كان  
يذَرَعُ المسافةَ بين الأجراسِ وكأنه يتحقَّقُ من أمرٍ مُعَيَّن، ثم رأيتهُ

يُدَوِّنُ على ورقة قديمة حساباته. سلَّمْتُ عليه مُظهِرًا الغفلة، فَبَشَّ في وجهي، لكنَّه بدا مرتبكا وأخفى بسرعة الرُّقَّ الذي كان يُدَوِّنُ عليه، وكان يشبهُ الخريطةَ التي رأيتها في دير أرملاط، فقلت له بعد التحيَّة: إِنَّ نَعْمَ تريدُ رؤيتك من العَد. .

فقال: مصادفةٌ عجيبة، فقد أنهيتُ عملي في صيانة الأجراس وتنظيفها، وها أنت ترى زيادةَ مادَّة النُّور في المسجدِ عمَّا كان من قبل بفضلِ صَقْلِ المعدنِ وجلاءِ صَفْحَةِ الأجراس، بحيث إنَّها تعكس أقلَّ. وَمُضَّة أو شعاع من النُّور فَتُحوِّلُهُ إلى نورٍ أعظم.

قلت له: صحيح، ولك الفضلُ في هذا، لكن هل يمكنك أن تأتي لزيارتنا غدًا؟

فقال: بكلِّ تأكيد، ولا بُدَّ أن أزورَ ابنتي قبل أن أعودَ إلى دير أرملاط للعزلة والعبادة.

وَدَعْتُهُ وخرجتُ من الجامع. ولَمَّا وصلتُ قصرنا أخبرتُ نَعْمَ بزيارة والدها في عَد، فسعدتُ بذلك، سيِّما وأنها كانت قد طلبتُ مني غير ما مرَّة أن أدعوهُ للقصر حتى تلتقي به مجدداً.

وفي صباح الجمعة، خرج والدي إلى قصر الإمارة لاجتماع عاجل بعدما أخبرني بجريرة عبد الرحمن الذي استطاع أن ينتزع من هشام المؤيد ولاية العهد، وأنهم استدعوا المشايخ والفقهاء والخطباء وأئمة المساجد لتبليغهم الأمر كي يبلغوه للناس من على منابر الجمعة.

لم يلبث أن زارنا الكونت فرحبتُ به ثم جلستُ أتحدِّثُ إليه،



وسألته مرّة أخرى عن سرّ الأجراس فأخبرني بما كان يرَدُّه دائماً لي. ثم فاتحته بشأن الرهبان الذين كانوا يلتزمون الجلوسَ تحت تلك الأجراس وبما رأيتُ في الكنيسة، فارتعَبَ من انكشاف أمرِهِ وأمرِ جماعته، فقال: يا ابن حزم، نحن من مِلَّةٍ مخالفةٍ لكم، وجيشكم جاء بلادنا وهَدَمَ مدينتنا وكنيستنا المقدّسة وعَاثَ فيها فسادًا، وهذا لا يُجيزه دينكم فيما أعلم، فهل تقبلُ لو كنتَ في مثل وضعنا أن تُهانَ مُقدّساتكم؟ إنّ الإخوةَ الرهبان هم من فرسان سانتياغو الذين حدّثتكَ عنهم في دير أرملاط، ومهمّتهم كما ذكرتُ لك هي حِرَاسَةُ المخلّفات المقدّسة في شانت ياقب. إنهم كانوا يقرأون نصوصًا من الإنجيل ويتلون بعضًا من المزامير لمرافقة عملنا حتى يباركهُ الرّبّ، وليس في هذا شَيْنٌ ولا عَيْبٌ.

ثم فاجأته بسؤاله عن قضية النصوص الملعّزة في الأجراس، فقال: نعم، هناك نصوصٌ مكتوبة على الأجراس مُلعّزة لم نستطع فكّها تشير إلى مكان بعض بقايا القديس شانت ياقب في مَعظَمَةِ تحت أرض الكاتدرائيّة المتهدّمة، ومهمّتنا تتلخّص في الوصول إلى فكّ اللغز الذي قام أحد الآباء الرهبان في كاتدرائيّة شانت ياقب بإخفائه في تلك الأجراس عند صناعتها. لقد أخفى ذلك الأبُ بقايا مخلّفات شانت ياقب حتى لا يعرفها إلا من عنده اطلاع على هذه الأسرار، وقام بكتابة لغز يشير إلى مكانها تحت أرض الكاتدرائيّة لمن يستطيع فكّه، وقد قمتُ بنسخ كلّ النصوص بعد تلميع الأجراس وانطبع على ورق وضعناه على الأجراس نصوصٌ أخرى دقيقة النُقش فيها مفتاح اللغز، ولحدّ الآن نحن نشتغل على

فكّه ولم نُفْلِحْ بعد. هذه هي القصة، والآن قد انتهت مهمّتنا وسنعودُ إلى بلادنا ونتركُ مدينتكم بسلام، لا نريد بكم سوءًا ولا شرًا، وإنّما نريد استعادةَ ذاكرتنا التي طُمِسَتْ بتدمير المنصور لمدينتنا.

فقلت له: لكن ما دَخَلُ الفرسان في هذه القضية، وهم مِنْ أَشَدِّ أعداء المسلمين، وهؤلاء الذين انتُدِبُوا لهذه المهمة من الفرسان المحاربين وليسوا من الرهبان المسالمين، أفلا تُخفي عني أمرهم؟

فقال الكونت: أقسمُ بالربِّ إنّي ذكرتُ لك الحقيقة، وتلك المخلفات عندنا من أعظم المقدّسات، وقد نَبَذُ الروح للمحافظة عليها، والرهبان لا يستطيعون حمايتها لأنهم لم يتدرّبوا على فنون الحرب مثل الفرسان. كما أنّ مَنْ أقسمَ على حماية المخلفات هم هؤلاء الفرسان.

كان الكونت يتكلّم بصدق، ولم يكن يهمني من هذا الأمر إلّا أن لا يصيبَ المسلمين ضررًا، وما دام أنّ كلّ هذا التّسوّر كان بدافع عناية هؤلاء بمخلفاتهم، فلم يعد يهمني الأمر ويثير فضولي.

وفجأة غيّر الكونت الحديث فقال: ألا تسمعُ لي برؤية نغم بعد تحريّاتك الأمنيّة؟

لم أجبه عن سؤاله، لكنّي خرجتُ وتركتُه بمفرده، ثم ناديت على نغم وأخبرتها بوجود والدها فهبّت مُسرعةً وارتّمت في أحضانه.

خرجتُ وتركتُ الكونتَ مع ابنته ليودّعها ويخبرها برحيله إلى أرملاط. كنتُ أتجوّل في المنيّة حين جاءني الكونتُ يودّعني فخرجتُ أُشيعّه إلى باب القصر، فلمّا وصلنا الباب قال لي بعينين دامعتين: أوصيكُ بابتني يا ابن حزم، فهي كلُّ ما بقي لي، وإني أرى أنّها تحبُّك، فأنتُ كلُّ أهلها اليوم.

ثم توقّف عن الكلام وحنقتهُ عبرتهُ فتداركتُ الموقفَ وقلتُ له: لا تخشَ شيئاً، فإنّها تربّت في هذا البيت وهي واحدة منّا، وأنت ترى أنّها معزّزة مكرّمة، عدا عن أنّي أباذلها الشعور نفسه.

فقال الكونت: إذا مررتُ بأرملاط فلا تنسَ أن تزورني قبل أن أعودَ إلى جليقيّة.

فقلتُ له: ألا تنوي قضاءَ بقيةِ حياتك في الدير؟

فقال: بعد نهاية عُزلتي ونسخِ لُغزِ الأجراس، سأرجع إلى ديارني للبحث عن رُفاتِ شانتِ ياقب وجمع التبرّعات لإعادة بناء الكاتدرائيّة، ثم إنّ لي أموراً كثيرة أنفقّها أو أصلحها. وقد أوقفْتُ نفسي مع إخواني على المساعدة في جمع الأموال لبناء مجموعة من الأديرة على طول الطريق إلى شانتِ ياقب لاستقبال الحُجاج.

ماشيْتُ الكونت قليلاً ثم ودّعتهُ وذهبتُ إلى جامع قرطبة لأداء صلاة الجمعة. وكما أخبرني والدي، فقد خطبَ الإمام وقرأ على الناس نصّ ولاية العهد: «هذا ما عهدَ به أميرُ المؤمنين هشام المؤيّد بالله أطل الله بقاءه إلى الناس عامّة، وعاهدَ الله عليه من

نفسه خاصة وأعطى به صفةً يمينٍ ببيعةٍ تامةٍ بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة... فلم يجد أحدًا هو أجدرُّ أن يقلِّده الخلافة في فضل نفسه وكرم خيمه وشرف موكبه وعلوُّ منصبه مع تقواه وعفافه وحزمه وثقافته من المأمونِ العيّبِ، الناصِحِ الجيّبِ، النازِحِ عن كلِّ عيبٍ، ناصرِ الدولة، أبي المطرّفِ عبد الرحمنِ ابن المنصورِ أبي عامرِ محمّدِ ابنِ أبي عامرِ وُقِّعَ اللهُ، إذ كان أميرُ المؤمنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره فرآه مُسارعًا للخيراتِ مستوليًا على الغايات... ومن كان المنصورُ أباه، والمظفرُ أخاه، فلا غرّو أن يبلُغَ مِنْ سُبُلِ البرِّ مَدَاهُ... فلَمَّا استولى عنده الاختيار... لم يجد عنه مذهبًا ولا إلى غيره مَعْرَجًا خرج إليه من تدبير الأمر في حياته، وفوَّض إليه النظر في أمور الخلافة بعد وفاته، طائعًا راضيًا مجتهدًا متخيرًا... وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها إن رأى ذلك في بقاء أمير المؤمنين أعزّه الله وبعده. وأمضى أميرُ المؤمنين أعزّه الله عهده هذا وأنفذه وأجازه... وأشهدَ اللهُ على ذلك وملائكته وكفى بالله شهيدًا، وأشهدَ مَنْ أَوْقَعَ اسْمَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ... وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

خرج الناس من الجامع غاضبين مُزْمَجِرِينَ على هذه الفِرْيَةِ التي أتاها عبد الرحمن شنجول، وفهموا أنّ الخليفةَ ضعيفٌ لا حولَ له ولا قوّةَ وأنّ الحاجبَ استبدَّ بالأمر، وتناول على حُرْمَةِ الخلافة ممّا لم يَقُمْ به والده المنصور أو أخوه المظفر، مع أنّ سِجْلَهُمَا حَافِلٌ بِالْجِهَادِ. نَقَمَ النَّاسُ عَلَى هَذَا الْبَدْعِيِّ الَّذِينَ كَانُوا

يكرهونه وينسبونه إلى أمه وأخواله النصارى، ويستشنعون سلوكه وسيرته حيث كان سيكبراً قاسي القلب لوطياً فاسداً مُفسداً لا يتورع عن انتهاك المحرمات، وليس له منقبة تُذكر ولا محمّدة تُشّر.

وفي صحن المسجد سمعتُ رجلاً يُنشدُ صاحبه بيتين محاذراً أن يسمعه أحد، فالتفتُهما منه على احتياط:

إِنَّ ابْنَ ذَكْوَانَ وَابْنَ بُرْدٍ قَدْ نَاقَظَا الدِّينَ عَيْنَ عَهْدِ  
وَعَانَدَا الْحَقَّ إِذْ أَقَامَا حَفِيدَ شَنْجِهٍ وَلِيَّ عَهْدِ

رجعت إلى بيتنا فألقيتُ والذي موعوكا مهموماً، فأخبرني بأنه أرغمَ على التوقيع على تلك الصحيفة السخيفة التي دبّجها الكاتب أبو حفص بن بُردٍ وأمضاها القاضي ابن ذكوان. حاولتُ أن أسري عنه، فقال لي: أرجو الله أن يُيسرَ خلاصي من هذه الوزارة التي نُقلتُ بمثل هذه الأوزار.

فقلت له: لعلّ الله يُحدثُ بعد ذلك أمراً. وإنك لم تُوقّع بمفردك إذ وقّع قاضي الحضرة والفقهاء وكلّ الوزراء ورجالات الخدمة.

فقال: نعم، ولعلّ المصيبة هي أن هؤلاء جميعاً وقّعوا ولا اعتبر الأمر عزاءً. فأولُ الموقعين قاضي الجماعة ابنُ ذكوان، وتسعة وعشرون من الوزراء، ومائة وستة وثمانون من طبقات أهل الخدمة، وخلقتُ من الفقهاء والقوادر وغيرهم.

ثم أضاف: يا بني، لقد كان المنصور يتمني الخلافة بكلّ ما أُوتي من سلطان إلا أنه كان رجلاً عاقلاً. وقد نصحتُه فاستنصح

وبَيَّنَتْ له مخاطرَ الاستيلاء على الخلافة، وجاء ابنه المظفر فسار سيرة والده. حتى طلع علينا هذا الدَّعي، فلم يمكُثْ شهرًا في منصبه حتى أرغَمَ الخليفةَ على أن يوقِّعَ له ولايةَ العهد. وقد دَسَّ له بعضَ خاصَّته فهَدَّوه إن لم يفعل، فاستجاب المسكينُ تحت التهديد.

فَسألته: وكيف تمَّ ذلك؟

فأجاب: لقد استدعى عبد الرحمن شنجول الخليفةَ إلى قصره في الزاهرة في يوم ليلة المولد، وأقام يومين اثنين. وفي اليوم الثالث تحرَّك هشام المؤيد إلى مُنية جعفر المجاورة ورافقه عبد الرحمن واختلى به مُطَوَّلًا، «واستدنى نسبهُ منه بالخُولة إذ كانت أمَّاهما بُشْكُنْسِيَّتَيْنِ فَقَدَّرَهَا عبد الرحمن بجهله قرابةً سَمًا بها إلى ميراث الخلافة».

وخرج هذا الدَّعي من عشيته يزعمُ أمامَ أصحابه أنَّ الخليفةَ ولاءَ عهده، واختاره للخلافة دونَ بني عمِّه المروانيين.

فقلت: لقد رأيتُ كثيرًا من رجالات الدولة والفقهاء ووجوه الناس يتوجَّهون بعد خروجهم من الجامع إلى قصر الحاجب. فلماذا تخلَّفت عنهم؟

فقال الوالد: يا بني، لقد أصابتنِي وعكة واستأذنت في العودة إلى أهلي، فأذِنَ لي. وإنَّ الله قد ابتلاني بهذه الوعكة ليصرفني عن حضور الجلسة التي ستعقد للاحتفال بهذه المناسبة، ولا أستطيع أن أتحمَّل سماعَ نفاق جماهير المهثِّين الذين سيتقاطرون على ذلك

المحفل، وكلّهم كارهٌ لهذا المغرور ساخط عليه ومُبغضٌ له، لكنّهم لا يستطيعون المجاهرةً أمامه بحقيقة سرائرهم.

تنهّد الوالد وأحسَّ بوخز في صدره، فطلب منّي أن أناوله كوزَ ماء فقدّمته له وشرب منه قليلاً، ثم تنهّد وقال: لقد حرص هذا المغرور على دعوة جميع المروانيين، وقرّر أن يجعلهم في مقدّمة المهثّين إمعاناً منه في تَبَكِّيَتِهِمْ وِرْدَعِهِمْ عن المطالبة بحقّهم في الخلافة. وقد بلغني هذا الصباح أنّه سيؤلّي ابنه عبد العزيز، وهو طفلٌ صغيرٌ خُطّة الحِجَابَة.

\*\*\*

مرّت تلك الأيام كالحِجّة مليئة بسخط الناس وازدراثهم لحفيد شانجو. ولما بلغه رفض أهل قرطبة له أراد أن ينتقم من وجهاء الدولة ورجالاتها، فألزمهم لبس العمام بدلًا من قلانسهم الحربية الطويلة التي كانوا يَزْهُونَ بها، وتُمَيِّزُهُمْ بمراتبهم عن سائر الطوائف، وتدلُّ على جهادهم ورفيع مكانتهم. دعا والذي بصاحب له من البربر لِيُساعدَه في كَيْفِيَّةِ كَوْرِ العمامة على رأسه، إذ كان أغلب أهل الأندلس لا يتعمّمون. كره الأكاير هذا الأمر، لكنّهم رَضُّخُوا لرغبات هذا المغرور الذي قرّب البربر والصقالبة الذين استعان بهم المنصور ليستقوي على بني أمية وأهل الأندلس. أمسى هذا الحدث حديث قرطبة، وعظّم النكير على دولة العامريين الغاصبة للخلافة، وعبد الرحمن غارقٌ في غَيْهِ سَادِرٌ في انتهاك المحارم، إذ كان يَزُنِي بمرأى من أصحابه ونُدماءِ السوء، ويُلقِي بعضهم على بعض فَحَقَّتْ عليه لعنةُ الله والناس أجمعين.

ولمّا رأى أنّ السخُط قد عمّ، أشار عليه أحدُ ندماء السوء  
إلْهَاءَ الناس بالغزو، فنادى بالخروج، لكنّ الفتنة كانت قد دبّت إلى  
المجتمع الأندلسي بمختلف فئاته، وانتقلت إلى الجيش الذي كان  
عمادَ الدولة دائماً، فظهرت النعرات العرقية بين أهل الأندلس  
والبربر والصفالبة. لم يعد جيشاً مَوْحِداً تجمعه كلمةٌ واحدة بل  
أضحى فرّقاً متناحرةً.

حاول والدي أن ينصح عبد الرحمن بالعدول عن الخروج إلى  
الغزو في فصل الشتاء لأنها مغامرة قاتلة، إلا أنّ شنجول ركب  
رأسه ولم يستمع لحكماء الدولة واستقلّ برأيه مع ندمائه الفُسّاق،  
فخرج متوجّهاً صوب جليقية إلا أنّه لم يُصب من هذه الغزوة شيئاً  
سوى الخيبة والخسران، إذ تحصّن النصارى في بلادهم، وعانى  
الجيش من البرد والثلوج والأمطار.

وفي أثناء هذه الفترة، كانت الدّلْفاءُ أمّ عبد الملك المظفر  
تتآمر ضدّ عبد الرحمن، لأنها كانت تتهمه بقتل أخيه غير الشقيق،  
فأتصلت ببني أمية فدَلُّوها على ابن لهشام بن عبد الجبار بن عبد  
الرحمن الناصر، الذي كان قد قتله عبد الملك المظفر مع الوزير  
عيسى بن سعيد لتآمرهما على إسقاط دولة العامريين، وأمّدتّه  
بالمال والرجال وحسّنت له الاستيلاء على ملك آبائه وأجداده  
المروانيين. كان محمّد بن هشام شاباً جريئاً مغواراً، إلا أنّه كان  
يخالط الفُتاك والسفلة مختفياً في الكهوف وأحواز قرطبة خوفاً من  
بطش العامريين بعدما قتلوا والده هشاماً. فلما اتّصل به بنو عمّه  
وكلموه في مبايعته سرّاً بالولاية والخلافة وافق لتوّه، ولم يمكنه إلا



أن يفعلَ وهو المؤتورُ المحروم.

نَمَتْ هذه الأخبار إلى والدي فدعاني وأخي أبي بكر وحثرنا من مَغَبَّةِ التَّبَثِ في قرطبة ليلاً، ثم سارع في نقل أهل بيتنا إلى دورنا القديمة في بلاط مغيث داخل أسوار قرطبة، وأمرني بالبقاء مع أخي أبي بكر في دورنا بالزاهرة. سارعنا تلك الأيام في نقل الأهل والأموال إلى دورنا القديمة في بلاط مغيث، ولم نترك في دورنا بالزاهرة إلا ما منه بُدِّمَ لا يُؤَثَّرُ فَقُدِّهِ. ومكثنا هناك مع بعض الخدم والأعوان نرُقُبُ ما يجري ونتوقُّعُ كلَّ شرٍّ. وكنت قد سألت الوالد عن سِرِّ هذا الانتقال الذي كنت أرجوه، إذ كنت أُحِبُّ قرطبةً وأجواءها البديعة وأسواقها الرفيعة، وكان عليَّ أن أطلبَ العلمَ في جامعها كلَّ يوم، وبين دورنا في الزاهرة والجامع مسافة معتبرة تستقطع من وقتي في السَّيرِ منها وإليها. فلما عزم والدي على الأمرِ سُرِرْتُ به واستفهمْتُ منه عن سِرِّ هذه النَّقْلَةِ، فقال لي: يا بني، لقد بلغني من بعض أصحابي المروانيين أن محمَّد بن هشام ينوي مهاجمة الزاهرة مع رجاله. ولا يخفى عليك أنه يعيش عيشة ضنكًا في الكهوف متخفيًا بين أراذل اللصوص وسفلة الفُتَّاك، فلو دخل الزاهرة لهدمها رجاله وانتهبوها، وليس بإمكانه رَدُّعُهُم عن النهب، ولا أحبُّ أن يلحق أهلي وأموالي ضررٌ من ذلك، ولهذا قرَّرتُ استباق الأحداث والنجاة قبل الفوات. لكن سيقى الرجال هنا حتى لا ننتهم بخذلان العامرين في وقت الشدَّة، فقلوبنا مع المروانيين وسيوفنا مع مَنْ غلب إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

تَعَجَّبْتُ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ، لَكِنِّي سَرَعَانَ مَا أَدْرَكْتُ بُعْدَ رُؤْيَةِ  
الْوَالِدِ وَسَعِيَّةُ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى أَهْلِهِ وَذَوِيهِ. وَمَا دَامَ أَنَّهُ فِي دَائِرَةِ  
السُّلْطَانِ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْجَمَاعَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: بَوْرَكَ فِي  
حَرَصِكَ يَا أَبَتِ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ لَوْ حَصَلَتْ، فَإِنَّ الْوَزِيرَ يُؤْخَذُ بِمَا لَا  
يُؤْخَذُ بِهِ الْأَجِيرُ.

فَقَالَ: صَدَقْتَ يَا وَلَدِي، وَإِنِّي أَنْصَحُكَ أَنْ تَلْزِمَ الْجَمَاعَةَ وَمَنْ  
شَدَّ شَدًّا فِي النَّارِ. وَهِيَ نَارُ الْفِتْنَةِ وَالْهَلَاكِ هُنَا قَبْلَ هُنَاكَ. وَإِذَا  
حَلَّتْ الْفِتْنَةُ حَلَّتْ مَعَهَا النِّقْمَةُ وَاخْتَلَطَتِ الْمَرَاتِبُ وَلَمْ يُعْرَفْ قَبِيلٌ  
مِنْ دَبِيرٍ. وَيَعْلَمُ اللَّهُ أَنِّي غَيْرُ رَاضٍ عَنْ تَصَرُّفَاتِ هَذَا الطَّائِفِ  
الْمَغْرُورِ سَنَجُولِ الَّذِي انْتَهَكَ حُرْمَةَ الْخِلَافَةِ وَبَوًّا نَفْسَهُ فِي مَقْعَدِ  
الْأُمَّةِ، وَهُوَ سَافِلٌ مُنْحَطٌّ، مَخْتَلٌ الْمَزَاجِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُرِيحَنِي  
مِنْ وَزْرِ هَذِهِ الْوِزَارَةِ.

\* \* \*

لَمَّا اسْتُوثِقَ الْأَمْرُ لِلثَّائِرِ الْمُرَوَّانِيِّ تَسَلَّلَ إِلَى قَرْطَبَةَ مَعَ جَمْعٍ  
مِنْ رِجَالِهِ الْفُتَّاكِ، وَكَثُرَتِ الْأَرَاجِيفُ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ وَشَاعَ خَبْرُ  
بَيْعَتِهِ وَانْتِهَاءِ دَوْلَةِ الْعَامِرِيِّينَ. اسْتَبَشَرَ أَهْلُ قَرْطَبَةَ بِهَذَا الْأَمْرِ لِكُرْهِهِمْ  
لِسَنَجُولِ فِي غَضَبِ الْخِلَافَةِ مِنْ أَصْحَابِهَا الشَّرْعِيِّينَ. وَانْضَافَ إِلَى  
زُمْرَةِ النَّاقِمِينَ كُلِّ أَصْحَابِ الْبَيْوتَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، الَّذِينَ تَمَّ إِقْصَاؤُهُمْ  
عَنِ الْمَنَاصِبِ الْعُلْيَا مِنْذُ أَنْ اسْتَوْلَى الْعَامِرِيُّونَ عَلَى الْحُكْمِ،  
وَأَخْضَعُوهُمْ لِنَفْوِذِ مَرْتَزَقَتِهِمْ مِنَ الْبَرْبَرِ وَالصَّقَالِبَةِ، فَأَهَانُوهُمْ بَعْدَمَا  
كَانَتْ لَهُمْ الْمَكَانَةُ الْعُلْيَا وَالْمَرْتَبَةُ الْعُلْيَا فِي الدَّوْلَةِ وَسَابِقُ الْفَضْلِ  
فِي الْجِهَادِ.

ولمّا كان جيش عبد الرحمن شنجول قد توغّل في بلاد  
 النصارى بعيداً من قرطبة، وجَدَهَا محمّد بن هشام وأتباعه فرصةً  
 سانحةً للانقضاض على القصر الشتويّ للخليفة هشام المؤيّد،  
 فدخل مع جملة من رجاله الأشرار وفتكوا بابن عمّ أبيه، عبد الله  
 بن أبي عامر الذي استخلفه عبد الرحمن على قرطبة في فترة  
 غيابه. وكان هذا العامري في تلك الأثناء مُتَفَخِّدًا لِقَيْتَيْنِ يُعَاقِرُهُمَا  
 الخمر، فضرب رأسه ورفع على رمح أمام العامة، فهلّلوا وهرعوا  
 إليه ونادوا به زعيماً لهم. ثم فتح سجن قرطبة وأطلق اللصوص  
 والقتلة، ولحق به أبناء عمّه المروانيين فدَعَوْا الناسَ لِنُصْرَتِهِ حتى  
 اجتمع حوله طوائف عديدة، فعَيَّن بعض أبناء عمومته على خُطِّطِ  
 الدولة، وبعث إلى هشام المؤيّد يعاتبه على إثارة العامريين ويدعوه  
 لخلع نفسه.

ذهب والدي في جوف الليل مسرعاً إلى قصر الخلافة، فألّفى  
 المكان غاصّاً بالمروانيين ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة  
 والفقهاء، وأخبرني أنّ هشاماً المؤيّد خلع نفسه عن الخلافة  
 بمحضهم وقَدَّمَ إلى محمّد بن هشام بعضاً من حُلِّهِ الخِلافِيَّةِ  
 الفَاحِرة، فَتَمَّ الخَلْعُ، وتلقّب محمّد بن هشام بـ «المهدي».

وفي اليومين المواليين، دخل جيش المهدي المؤلّف في غالبه  
 من العامة مدينة الزاهرة، فنهبوا قصور العامريين، ودام ذلك النهبُ  
 يوماً ونصف اليوم. اشتكى بعض رجالات الدولة من نهب العامة  
 فكفّ المهدي أمرهم، وفي اليوم الثالث سمح لوجوه الدولة بنقل  
 أهاليهم وما بقي من أموالهم من الزاهرة إلى داخل قرطبة. كنتُ قد

بقيت مع والدي وأخي أبي بكر في دورنا الحديثة في الزاهرة نُدوُ  
عنها عواديّ النهب الذي أتت به الدَّهْماء وما في شاكلتها، لكنّ  
الحقيقة هي أننا لم نترك شيئاً مذكوراً للنهب، إذ كانت الحِيطَةُ التي  
أبان عنها الوالد قد أنجنتنا ممّا وقع لكثير من الناس. ثم غادرنا في  
اليوم الثالث دُورنا في منية المغيرة في الزاهرة إلى دورنا في بلاط  
مُغيث داخل قرطبة.

وبعد أن أُخْلِيت الزاهرة أمرَ المتغلبُ الجديدُ بهدم أسوارها  
وضُروحها. كان المهدي يستعجل الهدم خوفاً من عودة شنجول،  
فأراد توطيدَ حُكمِهِ قبل عودته.

كان قرارُ الوالد الاستباقي حَكِيمًا إذ نجانا ممّا حصل، ولم  
تُحْفَظ حُرْمَةٌ ولا وُقُرَّتْ مَرْتَبَةٌ، بل حتى قصر عبد الملك المظفر  
وبه أمُّه الذلّفاء التي أعانت المهدي أُخِذَ ونُهَبَ. كانت قرطبةُ مدينةً  
مُتكايسةً تفخر بحذاقيتها وحضارتها، وتستهجِنُ بداوةَ الآفريقيين الذين  
مكّن لهم العامريّون في قرطبة ليذلّوها ويتغلبوا عليها ويمرّغوا  
كبرياءها في الأرض، ولم ترَضَ منهم أن ينتهبوا مجدّها ويغنصبوا  
الخلافة. كان أهل قرطبة أصحابَ أمْرِجَةٍ تُحِبُّ الانتقادَ والانقلاب  
على مَنْ يتولّى حكمها، ولا تدينُ لهم إلا بعد مُمانعة، وقد أرخت  
زمامها للعامريين على كُرّه، فلما استدار الزمان لهم، وتولّى أمرهم  
هذا الغرّ السّفيل قاموا يثارون لأنفسهم ولدعواهم في شقوقهم على  
غيرهم. إنّ قرطبةَ مدينةً صعبةُ المراس لا يحكمها إلا أسدٌ حكيم،  
ولا ترضى بالضعفاء، وأهلها سريعو الانقلاب والمشاكسة  
والتشغيب، وبها مللٌ على ولاة أمورها وقلقٌ بمن يحكمها

والإرجاف بما يُتوقَّع لها. وللإشاعة فيها سوقٌ نافقةٌ، وهذا حال كلِّ المدن الحفيلة الشاربة للحضارة إذ إنَّها مملوئة ناكرة، فما بالك إذا قام عليها الأعداء وساسها الوُضَّعاء؟ فإنَّها تنتفض في أعجلِ فرصة طلبًا لعزتها وذودًا عن محارمها واستكبارًا ممَّا لحِقَها. لقد ساسها الخلفاء بالصرامة والكياسة حتى أسلسوا قيادها كما يُسلسُ فرسٌ جُمُوحٌ قيادته لِفَارِسٍ كَرِيمٍ. قرطبةُ إمَّا قُرْطُ زَيْنٍ في شَحْمَةِ أُذُنٍ مَنْ أَحَبَّتْ، أو قُرْطُ شَيْنٍ في خَاصِرَةٍ مَنْ كَرِهَتْ. وهي تتردَّد بين أن تكون قُرْطُ بَاٍ حَلَالٍ يحصلُ به الوَلْدُ وتَتِمُّ به النعمة ويُسْتَحَرْتُ في الموضع، أو قُرْطُ بَاغٍ حَرَامٍ تحصلُ به الفاحشة وتَحُلُّ به النِقْمَةُ ويُسْتَحَرْتُ في غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ. وقد جاء هذا السفيلُ شنجولُ يظنُّ أنَّها استكانت عن ذِلَّةٍ لسلطان العامريين، وغرَّته الدماءُ الشنجوليَّة التي تجري في عروقه عن تَبَيُّنِ أَنْفَةٍ القرطبيين، فأمسوا على ليلٍ وأصبحوا على نهارٍ وقد تغيَّرَ الحال وقامتِ الدنيا، وانتهبتِ الدُّورُ والقُصورُ وصال اللصوص في الطرقات، وجال الفُتَّاك في الحارات. وكانت لي صُويجباتٌ من الجيران أشفقتُ لفراقهنَّ وخفتُ عليهنَّ في هذا الأوان الذي لائتُ به الفِتْن.

\* \* \*

وللتخفيف من كآبة الأحداث كانت تقام في بيتنا بعضُ الولائم الضروريَّة التي لا غنى عنها. وحصل مرَّة أن حضرتُ نُصارٍ مع سيِّدتها وجمع كبير من النساء خلال إحدى هذه الولائم. لم تكن نُعم حاضرةً وقتَ دخول النساء اللاتي كنَّ يتنقلنَّ من موضعٍ لآخر

في دورنا، حتى طلَعْنَ قَصَبَةً كانت تشرفُ على بستان القصر وعلى جميع قرطبة وفُحوصِها، وكانت مُفْتَحَةَ الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشَّرَاجِبِ وأنا بينهنَّ أتقَرَّبُ من نُضار، وكلِّما حَدَوْتُ قُرْبَهَا هَرَبَتْ مِنِّي بلطف لم تُفْظَن له الحاضرات. وكانت قد عَلِمَتْ كَلْفِي بها رغم ما حصل مع العجوز.

كان الحديثُ إليها في هذا المَجْمَعِ مستحيلاً، لكننا كُنَّا نتقن لغةَ العيون، فأشرتُ لها بلحظ العين لأدُلُّ بذلك على القبولِ بلقائها، فردَّتْ عليَّ بإشارة من مؤخَّرِ العين لتنهاني عن الأمر، وكنت أتوقَّع أن تُفْتَرَّ عينيها لما في ذلك من الإعلامِ بالقبول، فسأني تَمَتُّعَهَا فَأَدَمْتُ النَّظَرَ إليها إعلاماً لها بِتَوَجُّعِي وَأَسْفِي، فَكَسَرَتْ نَظَرَهَا إعلاماً بِفَرَحِهَا. كانت حركتها هذه تلذُّذاً بتعديبي فأطبقتُ لها أجفاني أهدِّدُهَا، فَضَحِكَتْ. وفجأةً قَلَبْتُ حَدَقَتَهَا إلى جهةٍ مِنَ البيت، فلم أفهم قصدَها إذ كانت تُنَبِّهني إلى أمر لم أَلحظه. طَوَّقْتُ نظري في البيت بعدما هَرَبَتْ مِنِّي كما يَهْرُبُ النَّاسُ مِنَ الوَبَاءِ، فلم أفهمُ عِلَّةَ إِعْرَاضِهَا مع أنها كانت فيما سَبَقَ تُعْطِي من نفسها ما يجعلني على ثِقَّةٍ من كَلْفِهَا بي، رغم أنه لم يَحْضُلْ بيننا شيءٌ سوى تَوَقُّدِ مَشَاعِرِ. سرت في إثرها ثم انتظرت أن تنظرَ ناحيتي، فأرسلتُ حاجبي لها رسولاً مرَّةً أخرى بإشارة من مؤخَّرِ العينين أستفهِمُ بذلك عن سِرِّ إِعْرَاضِهَا، فرَعَدَتْ حَدَقَتَيْهَا لتنهاني نهياً عاماً عن تَتَبُعِهَا، ثم تَفَقَّدْتُ أَعْيُنَ النسوةِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً حتى لا ينكشفَ أمري، فاصطدمتُ في ورطتي تلكَ بِنُعم وقد كانت تلاحظ ما يجري بيننا، ففهمتُ أنَّ نُضار كانت تُشير

إلى وجود نُعم وانكشاف أمرنا، فلم أُدرِك ذلك لأوّل وهلة رغم لغة العيون التي كانت تنوبُ مَنَابَ الكلام بيننا. كان الأمرُ قد انكشف لِنُعم واطَّلَعَتْ على ما كانَ مِنِّي لِنُصار، وكانت تعلمُ بأنّي رَضَعْتُ منها فيما مضى فصارت لي مَحْرَمًا. صَوَّبَتْ نحوي نيرانَ نظراتها كأنّها مَجَانِيقُ تَقْدُفُنِي بِالْحِمَمِ، فلم أُطِقْ إِدَامَةَ النظر إليها وَخَجَلْتُ من فَعَلَتِي. تحوَّلَتْ زُرْقَةُ عَيْنَيْهَا الفَيروزيّة إلى كُدُورَةٍ مُعْبَرَةٍ، وبدت لي أهدابها الكحيلية رماحًا تتحيّنُ الفُرصةَ حتى ينفِضَ جمعُ النساء ويخلو الميدانُ لِتَوَجُّهَ لي طعناتها في أوّل رمية. يا لَتَعَاسَتِي مِنْكَ يَا نُعم ويا لَطِيْشِي؟ كانت نُصارُ قد رأت نُعم قبلي ولهذا كانت تتحوّط في عدم مُبادلتِي سِرًّا كَلْفِهَا، بينما لم أَكُنْ قد علمتُ بدخول نُعم، فاستمرّ طيْشِي حتى انفضَحَ أمرِي لها حين تلقّت رسائلَ حواجبي وعيوني لِنُصار. أُرْتِجَ عَلَيّ واربتكتُ، لكنّي استفدْتُ من كثرة الجَلَبَةِ لأخفي ارتباكي وأفكرَ في طريقة للخلاص ممّا ينتظرني من نُعم. وبعد ساعة نزلت النساء إلى البستان، ورَغِبَتْ نِساؤُنَا في سماع غناء نُصار، فأمرَتْهَا سَيِّدُهَا فقامت إلى عود وسوَّتهُ بِخَفْرِ، ثم اندفعت تُعَنِّي بأبيات للعبّاس بن الأحنف:

إِنِّي طَرِبْتُ إِلَى شَمْسٍ إِذَا غَرَبَتْ      كَانَتْ مَغَارِبُهَا جَوْفَ الْمَقَاصِيرِ  
شَمْسٌ مَمَثَلَةٌ فِي خُلُقِ جَارِيَةٍ      كَأَنَّ أَعْطَافَهَا طَيُّ الطَّوَامِيرِ  
لَيْسَتْ مِنَ الْإِنْسِ إِلَّا فِي مُنَاسَبَةٍ      وَلَا مِنَ الْجِنِّ إِلَّا فِي التَّصَاوِيرِ  
فَالْوَجْهُ جَوْهَرَةٌ وَالْجِسْمُ عَبْهَرَةٌ      وَالرِّيْحُ عَنَبَرَةٌ وَالْكُلُّ مِنْ نُورِ  
كَأَنَّهَا حِينَ تَخْطُو فِي مَجَاسِدِهَا      تَخْطُو عَلَى الْبَيْضِ أَوْ حَدَّ الْقَوَارِيرِ

ورغم حَرَجِي من انكشاف أمري لنُعم، فقد وقع منِّي هذا الغناء في أشرف مكان لما كان مُناسبًا للحال التي كُنَّا عليها، ولم أنس ذلك اليَوْمَ ما حَيِّتُ، وكان هذا أقصى ما أتاني منها.

أما نُعم، فإنها كانت قد تخلّفت ذلك اليوم قليلاً ثم جاءت واختلطت بجمع النساء، إلّا أنّي لم ألاحظ وجودها، واستمررتُ لعبتي في مغازلة نُصار بينما كانت نُعم ترُصدُني وتتعبُّ كلَّ حركاتي في مكان تراني منه ولا أراها. فلما كشفتُ عن أمري لم تُطق صبراً، فبرزتُ أمام الباب حتى تُفهمني أنّها كشفتُ لعبتي. أما نُصار فإنها كانت قد عَلِمَتْ بوجود نُعم، لكنها لم تستطع إخباري لوقوعها تحت عَيْنِ الرُصد. انفضَّ الجمع والتقيتُ كالعادة بنُعم، فرأيتها معرضةً عني مُقطّبةً حاجبيها مُكفّهرةً كقطّةٍ غاضبة. حاولتُ استلطافها وأمسكتُ بيدها فانتفضتُ وعَرَزتُ أظافرَها في كفي حتى أمتني وجرحتني، فتركتُ يدها من الألم، وقامت مُشيحةً بصرها عني ومُديرةً ظهرها لي. كنت مرتبكاً في كيفية الاعتذار. أُشربُ بياض نُعم بِحُمرةِ العَصَب، وتعجّبتُ كيف أصبحتُ بُحيرةً عينيها الفيروزية بحراً مسجوراً يُلقى بِالِحِمَم. أنكرتُ هذه العيون وهذه النظرات التي لم أعهدّها من قبل، وعَلِمْتُ أنّ النفسَ البشرية أمرٌ بالغ التعقيد، وأنّ في الحبِّ طاقاتٍ لها قدرةٌ هائلة على تحويل الإنسانِ ظاهراً وباطناً، فقلتُ لها: لماذا أنتِ غاضبة؟

فصرختُ في وجهي: ماذا تقول؟

فقلت: لماذا أنتِ غاضبة منِّي؟

نظرتُ إليّ بحنقٍ وقالت: عَجَباً لك، تخونني في واضحة



النهار مع واحدة كنتُ أَظُنُّ أَنها من صديقاتي، وتتعامى عن فَعَلَتِكَ  
باصطناع البراءة.

فقلت: لم أفعل شيئاً، وإنما هو يومُ فرح، ولعلَّه بَدَرَ مِنِّي ما  
يُعْرَبُ عن سعادتي.

فقالت: طبعاً، لقد كنت سعيداً بمغازلة تلك العَبْهَرِيَّة<sup>(١)</sup> وإدامة  
النظر إلى عَجِيزَتِهَا التي أخذت بعقلك وأسرت لُبَّكَ، ولم يمنَعَكَ  
منها حِرْمَتُهَا عليك، بل إنِّي أكادُ أَجْزِمُ أَنَّ التَقَامَكَ لثديها ورضاعَكَ  
منها خمسَ مَصَاتٍ دفعك إلى طلب المزيد منها. ولعلَّ تلك الشَّقِيَّة  
مَكْتَنَتَكَ من نَفْسِهَا لَمَّا رَاوَدَتْهَا بما تُحْسِنُ فِعْلَهُ أَيُّهَا الخائِن.

خَجَلْتُ وَتَغَيَّرَ لوني، وَعَلِمْتُ أَنِّي كَشَفْتُ أمرِي لا طَلاَعُ نَعْمَ  
على موضع هشاشتي وسرِّ اهتبالي بِقَدِّ الفتاة وامتلائها وعبهريتها.

نظرتُ إليَّ نَعْمَ لتستنطقَ باطني وتستخلصَ الاعترافَ بفراستها،  
فلم أَطِقْ مُقاومةَ سِهامِ تحديقها ورماحِ نظراتها التي فارَقَها صفاؤها  
الفيروزي الجميل، وتحوَّلتُ إلى سَائِلٍ كَدِيرٍ مُشْتَعِلٍ. أَطْرَقْتُ بنظري  
إلى الأرض، فقالت: اعترف أَيُّهَا الخائِن الذي لا يتورَّع عن  
الخيانة بمحضري.

رفعتُ بصري وقلت لها: لم أُحْنِكُ في شيء، وإنما هي  
غيرتُكَ التي تُسَوِّغُ لك هذه الاحتمالات.

ضحكتُ ضحكةً شَكُّ أَطاحت بدفاعي، وقالت: لا تَدْعُ بعد  
اليوم أَنك تحبُّني.

(١) عبهر أو عبهرة: امرأة تجمع الحُسن والخُلُقَ وامتلاء الجسم.

انتفضتُ واستويْتُ قائماً وقلت: لا تَخْلِطِي الأمورَ يا نُعم،  
ولا تتماذِي في غيرتك، فليس في الأمر ما يستحقُّ كلَّ هذه  
المؤاخذه.

فقلت: لا تَنْسِبِ الأمرَ إلى الغيرة، وإنما سلوْكُك غير اللائق  
هو السبب.

فقلت: أنا لا أفهم تغيْرَكَ وغيرَكَ، مع أنني لم أقمُ بأيِّ  
سلوْكٍ غير لائق سوى أنني استمتعتُ بغناء نُصار، ولا بدُّ أن تلومي  
نفسك بدل لؤمي، فقد قَسَمَ اللهُ الأرزاقَ بين الناس، ولكلِّ واحدٍ  
نصيبه. فليس ذنبي إن كان صوتُ الفتاة جميلاً بحيث يُمتِعُ السامعَ  
ويُثجِفُ المَسامِعَ، ولا شكٌ عندي أنّ رَدَّةَ فِعْلِكَ غير المتوازنة تعودُ  
إلى شعوركِ بالغيرةِ وعدم الأمان والحزن والقلق والغضب والشعور  
بالحرمان والخوف من فَقْدِ الحبيب!

ضحكْتُ نُعم منِّي ضحكةً ساخرة وهزّت كتفيها، وقالت: فَقَدْ  
حبيب، فَقَدْ حبيب، عن أيِّ حبيبٍ تتحدّث؟ ذاك الذي يغدرُ في  
أوّلِ فرصة. لا تُكلِّفِ حبيبك إلاّ مثلَ ما تبذلُ له من نفسك. يبدو  
لي أنّ كثرةَ مخالطتِكَ للنساء في قصر أبيك قد فتحتُ عيونك..  
ولا بدُّ لك من فِطام، لأنَّ المصّاتِ الحَمْس من نهد تلك العبهريّة  
قد زاد في تحلُّب ريقك أيّها الأفاك. وما تلك النظراتُ الآئمةُ التي  
جرتَ بينكما بمحضر النساء إلاّ صكُّ إدانةٍ مُخَفَّفٍ يُخفي ما هوَ  
أعظم، ويُنبي عن إدانتِكُما.

فقلتُ محاولاً صرْفَ التُّهْمَة عني إليها: أوْتَطَعَيْنِ في مَراسيمِ  
الشرع؟

فَهَقَّهَتْ عَالِيَا وَقَالَتْ: سَبْحَانَ اللَّهِ، أَوْ مِثْلَكَ يَسْتَدْعِي الشَّرْعَ  
وَأَنْتَ مَنْ يَنْتَهِكُ حُدُودَهُ؟

ثم أضافت: إنك لم تَقْطِمْ شَهْوَتَكَ بتلك المصّات، ولا بدّ  
من إقامة الحدّ عليك لانتهاكك للحرمة التي بينك وبين صاحبك.  
ألا يُقال أيها الفقيه العجيب «يُحْرَمُ بِالرِّضَاعِ مَا يُحْرَمُ بِالنَّسَبِ»؟  
ودعني من هذا، فإنّي أشكّ أن يكون إرضاعُ الكبير مشروعًا. إذ  
كيف تُجَنَّبُ الشهوةُ بما يُدْفَعُ إلى إثارتها؟ وكيف لنظام التحريم أن  
يصلَ في تحريمه حدًّا يُبيحُ فيه ما كان يُريدُ تحريمه؟ وكيف  
للشخص الكبير أن يعودَ إلى فترة ما قبل الفطام لكي يعيش فطامًا  
جديدًا؟ إنّي مُتَحَيِّرَةٌ من هذا الأمر، فَلْتُقَنِّني أيها المتفقه؛ فإنّ عقلي  
لا يُدركُ هذا التناقضَ الصارخ!!

عجزتُ عن الجواب وأطرقْتُ أرضًا واستصغرتُ نفسي،  
وَحَجَلْتُ حتى من إيرادِ الدليل، لأنّي لم أكنُ مقتنعًا به، أو على  
الأصحّ لم أكنُ مقتنعًا بالتأويل الذي نُعطيهِ له، إذ كيف يُبيحُ الشرعُ  
الشريف رِضَاعَ الكبير لِيُحَلِّلَ الخُلُوةَ بين الرجل والمرأة ثم يحرمُ  
زواجهما بعد ذلك. لا شكّ أنّ مَنْ ذاق حلاوة نهدٍ أن تستأثرَ به  
الشهوة، ومهما بلغ التحريمُ غايتهُ لا بدّ للطبيعة البشرية أن تنتصر.  
ظهر لي في هذه النازلة الفرقُ بين مَنْ يُحَكِّمُ ظاهرَ النصوص وبين  
مَنْ يُحَكِّمُ مقاصدَ الشرع، وليس هناك حلٌّ لهذه القضية، إذ لكلِّ  
واحدٍ مُسَوِّغَاتِهِ. لقد كانت تجربتي لهذه النازلة في بيتنا مفيدة لي.  
كنتُ أدركُ أنّي تجاوزتُ حدَّ اللياقة مع نُعم وأنها على صواب،  
وأنّه من غير اللائق أن أتركَّها بهذا الانطباع الذي يَقْدَحُ في

نصوص الشرع أو على الأقل في تأويلها، فاعتذرت لها، لكنها لم ترضَ باعتذاري وخرجت مسرعة تكفكف دموعها.

كانت نغم غاضبة مني واستمرت تُقاطعني لأيام ولا تكلمني، وكنت أعود على الزمن حتى تنسى ما حصل. ثم رأيتها قد اجتمعت بعد ذلك بتلك الفتاة على انفراد. ومنذ هذه الحادثة أفلعت نضار عن زيارتنا، فلم أعد أراها. ولا شك أن نغم عاتبته على ما جرى، وانفقتنا على عدم تكرار ما حصل والتزام الحدود.

\* \* \*

كنت أذهب إلى الجامع، وسألت أستاذي أبي الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت عن حقيقة الغيرة الناشئة من المحبة. نظر إلي مبتسمًا، وكان سؤالي فضح أسرار قلبي، فأجابني بأبيات من الشعر، ثم دلني على كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني. كان ابن مفلت يميل إلى القول بالظاهر على قلة من كان يقول به في بلادنا التي كانت خالصة للمذهب المالكي. كما كان قبله القاضي منذر بن سعيد في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر يميل إلى المذهب ذاته، ويحض على اتباع النص والأثر.

لم أكن قد سمعت عن كتاب الزهرة من قبل، فذهبت إلى صاحبي أبي دلف الوراق أسأله عن الكتاب، فوعدني بتحصيله قريبًا وأمهلني قرابة شهر ثم أحضره لي وقال لي مازحًا: إن صاحب الكتاب قد وضع كتابه في فتي كان يهواه.

استغربت الأمر وزاد حرصي على قراءة الكتاب، فقلت

للورّاق: وكيف يسوغ لمن هو في مثله أن يكتب عن هذه العلاقة المشبوهة؟

فقال الورّاق: لقد كَلِّفَ بِفَتَاهُ المسمّى ابن جامع الصيدلاني إلى درجة لم يُطوَّقَ معها دفع مُصابه عنه، فتسلّى بالكتابة عن ذلك، لكنّه بقي عفيفًا في تناوله.

عجبتُ لأمر محمّد بن داود وكنت متشوقًا إلى مطالعة الكتاب ومسرورًا بالوقوف على موضوعه. أجلتُ فيه النّظر وأعملتُ فيه الفكر حتى استوفيتُه وطربتُ لأشعاره، ورأيتُ أنّه غيرُ مُستوفٍ لمرادي ولو أنّه استوفى مرادَ مؤلّفه، لأنّه جارٍ على اصطلاح الأعراب ومنّ شاكلهم من حواضر العراق والشام، وتجربتي في المحبّة وذوقي يمنعني من محاكاة غيري، فوطّنتُ النفس على جمع مادّة حول المحبّة، وسألتُ أبا دلف أن يُمدّني بما يقع بين يديه من كتب الأقدمين حول هذا الموضوع، ثم صرّْتُ أدوّن أخبارَ أصدقائي وما طرّقَ سمعي من حكايات المحبّين في بلدنا، فتجمعتُ لي مادّة كبيرة، وصحّ منّي العزم في الكتابة حول هذا الموضوع بعدما حدّثتُ بعض أصحابي عن موضوعه، فاستحثّوني لذلك ورغبوا إليّ في تحرير مثل هذا السّفْر على اصطلاح أهل بلدنا.

تبدّل إعراضُ نغم عني بعد لقائها ومُصارحتها مع تلك الفتاة، التي أقسمتُ لها بالأيمان المغلّظة أن لا شيء بيننا، وأنّ ما وقع هو من اللّمّ المغتفر الذي لا يخفّر الذمّة ولا يُفضي إلى المُنازعة بين الأحيّة.

ثم ذكرتها أياً ما وليالي حول موضوع المحبة، فأطلعتني على ما كنتُ أجهله من دقائق الهوى عند بنات حواء.

كنت أسألها فتجيبني ثم تسألني فأجيبها، فكانت تعلمني بقدر ما كنتُ أعلمها، بل كنا نتعلم معاً من خلال مطارحة موضوع المحبة وفق تجربتنا وأذواقنا. كان مدخلها إلى الموضوع انطلاقاً ممّا حصل مع الفتاة، فقالت: أريدُ أن أفهم شيئاً عن طبيعة الرجال، وكيف يتحوّلون بسرعة في محبتهم؟

فقلت مُحاذراً أن لا أغضبها بالقدر نفسه الذي أريدُ فيه أن أعترفَ عمّا حصل: قلوبُ المحبين بين أصبعين من أصابع الرحمن يا ناعم، فليس للعقل في الحب مدخل، والمحبة مثلُ فرسٍ جموحٍ عليها راكبٌ لا يملك أن يوجّهها أو يُحكّم قيادها.

فقالت: لعلها تكون كذلك، لكن لكل فرس لجام، ولا شك أن الراكب عليه أن يُحكّم دابته حتى لا تجمخ به وتلقيه في مهاوي الردى.

فقلت: صدقت، لكن قد لا يتأتى دائماً أن يملك كلُّ فارس فرسه. ولعلي أخبرك ببعض من هلك في محبته حتى مع وجود المكابح.

فقالت: الأوفق أن نتحدّث عن تجارب المحبين. فأخبرني عمّا تعرف.

فقلت: إنني أعرف من المحبين من لا يتنقّل من حبّ امرأة إلى أخرى اختياراً بل قهراً.

فقلت: وكيف ذلك؟

فقلت: أنا شخصياً أقدّر قيمة الوفاء وعِزَّة النَّفس وأعتبرهما أرفعَ الخلال، ولا أتهاون في تحصيلهما والتَّحليَّ بهما، لكن يوجد في الناس مِمَّنْ أعرفُ مَنْ لا يُدرِكُ الوفاءَ كما أدركه وأفهمه، بل يرى أنَّ الوفاءَ لواحدةٍ نزولٌ عن مقتضى المحبَّة، وأنَّ المحبَّ الحقيقي قد يكون وفيّاً لمحبوب واحد في الوقت الذي يكون معه، فإذا فارقه أحبَّ غيره بنفس قدرِ محبَّته للسابق دون أن ينقصَ من حُبِّه للأول عن الثاني شيء. فهو يلتزمُ بالوفاء في بساط المحبوب، فإذا تحوَّل البساطُ لغيره وفَّاه ما وفَّى سابقه.

فقلت معترضة: لا شكَّ أن صاحبك هذا يدَّعي وفاءً لمحباته، في حين أنه راغبٌ فقط في معاشرتهنَّ. المحبَّة يا حبيبي أخذٌ وعطاء، بل هي إيثارٌ لمن أحبَّ حقيقةً، ولا شكَّ أنَّ جُملةً من تتحدَّثُ عنهم لا يعرفون معنى الإيثار إلاَّ أنه إيثارٌ لأنفسهم على محبوبهم.

فقلت: لعلك أصبتِ القولَ، وأنا أرى أنَّ الهوى يبدأ طاهراً (ط) ويسري في ذات المحبوب سرّاً (س) ثم يُثمر محبَّة وموتاً في المحبوب (م).

فقلت: صدقت في كلامك، لكني أختلف معك في المسار، وأرى أنَّ الهوى حينما يقع في القلب يكون طاهراً (ط) فتنبتُ به شجرة المحبَّة (م) وتستقر في سرِّ (س) المحبوب فتنطمسُ أنانيته وتتمجَّج. إنَّ طريقَ الهوى طريقُ مَحْوٍ وَطْمَسٍ، وليس كما قلتَ أنتَ من أنَّ آخره محبَّة أو موت، بل المحبَّة واسطة بين الطهارة

والسرّ، ويأتي كنتيجة لذلك الموت أو المحو أو الطمس في المحبوب.

فقلت: إِنَّه طَائِسِيُّ المحبّة يا نَعْم، مثله مثل فاتحة النور وقصّة سيّدنا يوسف عليه السلام في سورة الشعراء، والقصص (طسم). هذه مصادري، فأفصّحي عن مصادرك؟

فقلت: صدقتَ فيما تقول، وهما يلتقيان إلا أنّ معنى الطَّمْس في (طمس) يُوصَلُ إليه بأيسر طريق، بينما يحتاج إلى قلبٍ وكتمٍ أسرار لكي ندركه في (طسم). ولعلّك فيما تذهب إليه على مذهب عمر بن أبي ريعة حينما ينشد:

رَثَّ حَبْلُ الوَضَلِ فأنصَرَمَا مِنْ حَبِيبِ هَاجٍ لِي سَقَمَا  
كَذْتُ أَقْضِي إِذْ رَأَيْتُ لَهُ مَنْزِلًا بِالْحَيْفِ قَدْ طَسَمَا

ابتسمتُ قليلاً، ثم أنهيتُ حديثنا قائلاً: طريقي طريقُ طسمٍ وأسرار، وطريقك طريقُ طمسٍ وغُربة ومحو. فإن كنتُ على مذهب عمر بن أبي ريعة، فأنتِ على مذهب الحلاج لما يقول في ثلاثياته:

سُكُوتٌ ثُمَّ صَمْتُ ثُمَّ خَرَسٌ وَعِلْمٌ ثُمَّ وَجْدٌ ثُمَّ رَمَسٌ  
إلى أن يقول:

وَقَبْضٌ ثُمَّ بَسْطٌ ثُمَّ مَحْوٌ وَفَرْقٌ ثُمَّ جَمْعٌ ثُمَّ طَمْسٌ

فقلت: ربّما أكونُ على مذهب الحلاج كما تقول، لكنّي على الحقيقة لا أتبعُ إلا مذهبي في المحبّة، فتجربتي وشعوري هما ما يُمَلِّيانِ عليّ حقيقةً قولِي واعتقادي في المحبّة. ومهما قلت، فالمحبّة لا تُحدُّ، وإنّما هي أذواق، والأذواق لا تتفاضل، إذ



التَّفَاضُلُ يكون في المتماثلات، وتَنَزَّهَ الحُبُّ أن يَتَمَائَلَ، إِنَّهُ مُفَرَّدٌ  
 أَنِيهِ، وَوَحِيدٌ زَمَانِهِ، إِنَّهُ قِصَّةٌ بِلا تَكَرَّارٍ، وَحِكَايَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ دَوْمًا بِلا  
 رَجوع. الحُبُّ يا عَلِيَّ مَخْصِيٌّ بِلا دُرِّيَّةٍ، مِثْلَ هَوْلَاءِ الصَّقَالِبَةِ،  
 مَجْبُوبٌ عَنِ المَلَلِ وَالسَّامِ. فلا تَذَكَّرُ أخبارَ غيرنا، فيكفي في  
 الحُبِّ ما نَقولُ وَكَيْفَ نَقولُ حتى لا تَبقى أَنِيَّةٌ وَلا كَيْفِيَّةٌ، حتى يَفنى  
 الكَلُّ في الكَلِّ وَحتى أَفنى فيكَ وَتَفنى فيَّ. آنذاك، تَقولُ إن  
 اسْتَطَعْتَ قولاً في المَحَبَّةِ، وَأَنْ تُنشىَ مقالاً في العِشْقِ. أَمَّا قَبْلَ  
 ذلكَ، فَيُخْشى عَلَيْكَ الحِكَايَةَ لِقولِ الآخِرِينَ، وَأَتْهامَ نَفْسِكَ بما لا  
 تُحسِنُ أن تَجِدَهُ من ذاتكَ.

لم يكن لي قدرة على الشُّفوف على هذا الذوق العالي من  
 نُعم، فبين ما قالت وقلتُ فيافي وَقِفارِ يَهْلِكُ دُونَهَا العُشاقُ. كانت  
 تشرب ماءً زُلالاً في ذوقها للمحبة، وكنْتُ أَشربُ ماءً بائِئاً في  
 جِرارِ غيري من العُشاق الذين شربوا منها وتركوا فَضْلَها لمن ليس  
 له ذوقٌ في المَحَبَّةِ عِساها يَسْتذكُر، وَعِساها يَفيقُ من غفلته.

قلت لها: صدقتِ يا حَبَّةَ قَلْبِي، قولُكَ نافذٌ وحالُكَ صادقٌ  
 وأمرُكَ مُطاعٌ، وَإِنِّي قد تَعَلَّمْتُ مِنْكَ، لأنَّ القوَّةَ العِلْمِيَّةَ كانت  
 حجاباً بيني وبين حَقِيقَةِ المَحَبَّةِ. لقد وقفتُ عند حدودِ تلكِ  
 التعاريفِ السابقةِ والتجاربِ السالفةِ، ذَهَلْتُ عن حَقِيقَةِ أن أرى  
 الحُبَّ من مِشكاةِ ذاتي ومن صَمِيمِ أحوالي وَمَواجيدي. الحُبُّ كما  
 قلتِ فَأَوْجَزَتْ يا نُعم، لا يُحَدِّدُ.

ودَّعْتُها على هذا الاعترافِ، وتركتها مع هذا البَثِّ، ولم أترك  
 عندها إلا قَلْبِي.

أما نضار، فلم أعد أسمع عنها شيئاً سوى أنها بقيت بالزاهرة حين حَدَّثتِ الفتنة وانتهتِ عامَّةُ قرطبة تلك الدُّور والقُصور. ولم تَنْتَقِلْ نضارُ منها لِأُمُورٍ استوجِبَتْ ذلك، لِأَنَّهَا كانت في بيتِ أَحَدِ العامريين، فَخِفتُ عليها وحاولتُ تخليصَها، إِلَّا أَنَّهُ لم يكن بالإمكان أن أَصِلَ إليها لِأَنَّهَا كانت محجوبةً عني.

\*\*\*

أخبرني الوالدُ أَنَّ رسالةً وَصَلَتْ من القاضي ابن ذكوان إلى قرطبة، يذُكُرُ فيها كيفَ أَنَّ خِبرَ استيلاءِ المهدي على قرطبة قد وَصَلَ إلى عبد الرحمنِ شنجول، وَأَنَّهُ تنازَلَ عن ولاية العهد وطلبَ من الجيشِ ووجوهِ البربرِ مساعدتهُ في إعلانِ الحربِ ودخولِ قرطبة لتخليصِ الخليفةِ من يد المهدي وجماعته. وقد ذَكَرَتِ الرسالةُ أَنَّ القاضي رفضَ إصدارَ فتوى لعبد الرحمنِ بمهاجمة قرطبة. وقد استنكرَ طلبَ شنجول، وتعلَّلَ بأنَّ فيها عامَّةُ الناسِ والأطفالِ والنساءِ، وتبرَّأ من دعوته وفسَّقه وأشهدَ الناسَ على ذلك. وَأَنَّهُ تركه عائداً إلى قرطبة مع جُمْلَةٍ من الرجال.

قرَّرَ عبد الرحمنِ شنجول العودةَ إلى قرطبة رغم مُناصحةِ رجاله له بالبقاء في طليطلة، إِلَّا أَنَّهُ عانَدَ واستمرَّ في مسيره حتى وصل منزلَ أمِّ هاني، فعسكر بجيشه هناك، لكن جيشَ البربرِ لَمَّا رأى انقلابَ الأمرِ وكانوا يَكْرَهُونَ شنجولَ لسفاهته انفضوا عنه شيئاً فشيئاً تحت جُنْحِ الليلِ وتركوه في خاصَّته، كما انفضَّ عنه الصقالبةُ ووجوهُ الأندلسيين. فلَمَّا أسفَرَ الصُّبْحُ رأى انقراضَ الجيشِ عنه، فأعملَ المسيرَ حتى وصل إلى أرملاط بالقرب من قرطبة وقد

تركه النَّفْرُ القليل الذي بقي معه. فلَمَّا رأى ما حصل أصابه العَمُّ واليَأْسُ، فَالْتَجَأَ ليلاً إلى دير أَرْمِلاط وِلَاظ به مع أحد حلفائه النصرارى لِيُدَبِّرَ أمرَ فراره، لكنَّ المهدي بعث بحاجبه إلى الدَّير فدهَمَهُ ورمَى مَنْ لَاطَ بأرملاط وقبض على عبد الرحمن وابن غومس حليفه، وساق إلى قرطبة نساءه وجواريه، وكُنَّ في حدود السبعين. وفي الطريق حاول شنجول أن يقتل نفسه فمنعه الجنْدُ من ذلك، وتوسَّلَ إلى الحاجب أن يقتله فذبحه رجاله وفصلوا رأسه عن جسده، وقُتِلَ حَلِيفُهُ ابن غومس معه.

وفي ذلك اليوم، خرجتُ مع والدي وأخي أبي بكر إلى قصر الخلافة لتهنئة المهدي. دخلنا وسلّمنا عليه وهنّأناه بالنصر. كان أبيضَ البَشْرَةِ أشقرَ الشعرِ مثله مثلَ سائر المروانيين. وبينما كانت الوُفود تُهنِّئُه، جاءه البشيرُ بقتل عبد الرحمن شنجول، فدعا بالفاَتِكِ فدخل ويده سلَّةٌ يحملها، فقال له المهدي: ما وراءك؟

فقال الرسول: رأسُ الطاغية.

فقال المهدي: اكشِفْها أمام الجميع.

فكشَفَ السلَّةَ ودحرج الرأس على الأرض فكَبَّرَ بعضُ من كان في المجلس، واستولى الوُجُوم على أغلب القوم، وخاف بعضهم على نفسه. التفتَ إليَّ الوالدُ وقال لي همساً: بدايةً غيرُ موفَّقة، والآتي لا يُبَشِّرُ بخير.

حاولتُ أن أنظِمَ كَلِمَاتٍ أُجِيبُ بها فضغط على يدي بامرني بالسكوت حتى لا يفطنَ إلى حديثنا أحد. إنَّها مأساةٌ أن يشرَعَ

حاكِمٌ في ولايته بدخْرَجَةِ الرُّوسِ في القُصورِ. أما كان على المتسلِّطِ الجديد أن يَحُلَّ هذه المشكلة بعيدًا عن أنظار رجال الدولة؟

ثم عيَّن المهدي رجالَ دولته الجديدة، وأقال الوزراء السابقين ومنهم والدي. فتلقَّى الحاضرون الصدمة بتفاؤت. أمَّا والدي، فقد كان مَسرورًا منشرحًا.

خرجنا من القصر فرأينا العامة تمشي في الطرقات وتصرخُ خلفَ بَغْلٍ. تقدَّمتُ بين الجموع أحاولُ أن أجدَ فسحةً لرؤية ما يجري، فرأيتُ جسدَ شنجولٍ يحمله بَغْلٌ نَكِدٌ كَارِهٌ لما استُعْمِلَ له، وكان يُطاف به في أزقة قرطبة تَبْكيتنا للعامريين وإعلامًا بنهاية دولتهم وعودَةِ مُلِكِ المروانيين. كان مَنظرًا بَشعًا مُقزِّزًا. حتى البَغْلُ المسكينُ بَغَوْا عليه، لأنَّه كان رافضًا لسنجولٍ وشُلُوهِ المتناثر دَمًا. ثم صُلِبَ على أحد أبواب المدينة فبقي هناك عِبْرَةً لمن يَعْتَبِر.

حَلَّصْتُ نفسي مِنْ بين تلك الحشود الغاضبة وعُدْتُ إلى حيث كان يقف والدي مع أخي، فأخبرتُهما بما رأيت. حَوَّلَ والدي، وقال: هذه نهاية تعيسة لدولة كان يمكنها أن تعيش تحت ظلال الخِلافة، لكنَّها طَمِعَتْ في السلطان، وجاء هذا الغِرُّ فهدم ما بناه والدُه المنصور وأخوه المظفَّر في أربعة أشهر. وإنَّ أخوف ما أخافُ منه هو الآتي، إذ هذا الذي اعتلى الكرسي اليوم غيرُ قادرٍ على الحكم وليس له دراية بتدبير شؤون الدولة، فقد عاش بين اللُّصوص والفَسَقَةِ، ولا أتوقَّع منه خيرًا.

فقلت للوالد: لماذا أنت متشائم، مع أنَّ السلطة تَوَحَّدت من

جديد في يد شخص واحد بعد أن كانت مُفَرَّقةً مِنْ قَبْلُ بين خِلافةٍ  
صوريّةٍ وحِجَابَةِ هي الحاكمة؟

فأجابني: لستُ مُتَشَائِمًا يا ولدي وإنما هي الحِنْكَةُ وخِبرَةُ  
السنين التي علّمتني أنّ الأَسوأَ قادم. فأنت ترى أنّه في أقلّ من  
أسبوعين فُتِحَتْ قَرْطَبَةُ وَهُدِمَتْ مَدِينَةُ الزَاهِرَةِ، وَخُلِعَ هِشَامُ المُوَيْدِ  
وَنُصِبَ خَلِيفَةُ جَدِيدٍ هُوَ هَذَا المَهْدِيُّ الَّذِي خَرَجَ مِنْ لَا أَيْنَ،  
وَزَالَتْ دَوْلَةُ بَنِي عَامِرٍ وَعَادَتْ دَوْلَةُ المَرْوَانِيِّينَ عَلَى أَقْبَحِ حَالٍ،  
وَقَامَ جَيْشٌ مِنَ العَامَّةِ، وَفُكِّكَ جَيْشُ الدَوْلَةِ، وَنُكِبَ وَزَرَءٌ مِنْ أَجَلِّ  
النَّاسِ وَنُصِبَ أبدالٌ لَهُمْ مِنَ الأَوْبَاشِ تَزْدَرِيهِمُ العَيْنُ وَتَسْتَهْجِنُهُمْ  
الفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ. وَهَذَا عَلَى أَيْدِي بَضْعَةِ عَشْرٍ رَجُلًا مِنْ أَرَاذِلِ  
القَوْمِ، كَانُوا حِجَامِينَ وَخِرَازِينَ وَكِنَافِينَ وَزَبَالِينَ وَهَلُمَّ جَرًّا.

بَقِيَتْ مَشْدُوهاً مِنْ هَذَا الوَصْفِ الَّذِي لَخَّصَ تَارِيخًا كَامِلًا  
لدولة عظيمة في بضع كلمات، لعلّ أنسب عنوان له يكون «حياة  
مملكة في أسبوعين». ما أتعسّ النهايات حينما تُقَارَنُ بالبدايات!  
ثم رجعتُ أسألُ والدي: أَخْبِرْنِي لِمَاذَا كُنْتَ مَنْشَرِحًا مَسْرورًا  
بعد إقالتك من الوزارة؟

فقال وهو يبتسم: لقد نَجَّاني اللهُ مِمَّا سَيَّأَتِي، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا  
يُمْكِنُ لِمَنْ تَقَلَّبَ فِي هَذِهِ المَرْتَبَةِ العَلِيَّةِ أَنْ يَعْملَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى  
جَانِبِ مَنْ ذَكَرْتُ لَكَ مِمَّنْ أَصْبَحَ بِيَدِهِمُ الأَمْرُ اليَوْمَ، فَهؤلاءِ الَّذِينَ  
تَقْتَحِمُهُمُ العَيْنُ وَتَزْدَرِيهِمُ أَصْبَحُوا وَزَرَءٌ فِي هَذَا اليَوْمِ، فَكَيْفَ  
سَتَسَّاسُ الدَوْلَةَ بِمَنْ هُمْ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ؟ وَهَلْ تَرَانِي بَيْنَهُمْ أَحَاوِلُ  
أَنْ أُبَيِّنَ لَهُمْ كَيْفَ تُدَارُ دَوْلَةٌ مِثْلُ دَوْلَتِنَا، وَهَمْ لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا فِيمَا

جُبلُوا عليه ونشأوا عليه من الخَسَاسَاتِ؟ وهل تراني أراجعمهم في أبسط كِيفِيَّاتِ الحُكْمِ وَأَزِمَّةِ الأُمُورِ؟ لا، وألَّفَ لا! لقد أحسنَ اللهُ بي إذ أخرجني سالمًا من هذه الفتنة العمياء يا ولدي، وسترى أنهم سَيَنْقُضُونَ عُرَى هذه الدولة العظيمة في مدَّة قصيرة. لقد كان هذا المسمَّى بالمهدي قادرًا على أن يأمرَ بالنَّهْبِ والتَّخْرِيبِ لكنَّه كان غير قادرٍ على مَنعِهِمَا. ومن قدر على الهدم ولم يقدر على البناء فأَيَّامُهُ معدودة، ولا خيرَ يرُجَى منه، ونحن لا نملكُ اليومَ إلَّا الدُّعاءَ بالنَّجاةِ لنا ولهذه البلاد.

تفكَّرتُ مرَّةً أخرى في كلامه العميق وأدركتُ حِكْمَتَهُ وَحِكْمَتَهُ. لقد كان الوالد مروانيًّا يُجِلُّ الخِلافةَ وَيُقَدِّرُ حُرْمَتَهَا وَيُوَالِي المروانيين، لكنَّه لم يكن يرضى أن يُنسَبَ إلى هذا المِسْخِ الذي ظهر من بينهم.

ثم أردف الوالدُ مُوجَّهًا الكلامَ لي ولأخي أبي بكر: عليكما الآن أن تبتعدا عن هذه الفِتَنِ، وَلِيَلْزَمْ كُلُّ منكما ما يُسرُّ له فيه.

عدنا إلى البيت، فجاءت نساؤنا تلتقطننا عند مدخل دُورنا في بلاط مُغيث. كُنَّ قلقاتٍ ممَّا وصل إليهنَّ من أخبار. دخلتُ مع نُعم إلى دارنا الخاصَّة، فاستفهمتُ مِنِّي عمَّا يجري فأخبرتها بما حصل، فارتمتُ في حضني، وتوسَّلت إليَّ أن أبتعدَ عن الفتنة وألزمَ بيتنا حتى تنجلي الأمور. طمأنتها وقبَّلتها ثم ضممتها إلى صدري، فانهار الدمع من عينيها كقَطراتِ الطَّلِّ المُثَخَّنَةِ بماء الصباح، وقالت لي: يا عليّ، أتوسَّل إليك أن تحافظَ على نفسك وتبتعدَ عن مجالس السُّلطان، فمن أمسى في نعمة لا يَضْمَنُ أن

يُفِيَقَ عَلَى نِقْمَةٍ. ونحن بخير والحمدُ لله لا يَنْقُضُنَا شَيْءٌ، فلا تَجِرْ وراءَ حَتْفِكَ وحتفينا.

قَبَلْتُ نِعْمَ وَقَبَّلْتَنِي، وَفَتَحْتُ عَيْنِي حِينَ كَانَتْ تُقَبِّلُنِي فَأَلْفَيْتُهَا قَدْ أَسَدَلَتْ جَفْنَيْهَا، وَسَأَلْتُهَا فَجَاءَتْ: لِمَ تُغْمِضِينَ عَيْنَيْكَ يَا حَبَّةَ الْقَلْبِ حِينَمَا تُقَبِّلُنِي؟

تَنَهَّدْتُ تَنهِيدَةً لَعَلَّهَا أَفْصَحُ مِمَّا كَانَتْ سَتُجِيبُ بِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أُدْرِي لِمَاذَا أَغْمِضُ عَيْنِي حِينَمَا أَقْبُلُكَ، لَكِنِّي أَشْعُرُ بِرَاحَةٍ أَكْبَرَ وَلَذَّةٍ أَعْظَمَ. أَوْ لَعَلِّي لَا أُرِيدُ أَنْ يُلْهِينِي الْعَالَمُ الْخَارِجِي عَنِ الْإِتِّحَادِ بِكَ.

فَقُلْتُ لَهَا: يَا حَبَّةَ الْقَلْبِ، لِمَاذَا تُغْمِضُ عَيُونَنَا حِينَمَا نَنَامُ وَنَحْلُمُ، وَحِينَمَا نَبْكِي، أَوْ نَشْتُمُ رَائِحَةَ وَرْدَةٍ جَمِيلَةٍ، وَأَيْضًا عِنْدَمَا نَتَعَانَقُ؟

فَقَالَتْ: وَحِينَمَا نُصَلِّي.

فَقُلْتُ: السُّنَّةُ أَنْ يَفْتَحَ الْمُصَلِّيَ عَيْنِيهِ فِي الصَّلَاةِ، وَيُكْرَهُ إِغْمَاضُهُمَا.

فَقَالَتْ: لَعَلَّنَا تُغْمِضُ عَيُونَنَا لَكِي نَفْتَحَ عَيُونَ قُلُوبِنَا. فَكُلُّ الْأَشْيَاءِ الْبَهِيَّةِ فِي هَذَا الْكُونِ لَا تُرَى بِالْعَيْنِ الْحَسِّيَّةِ بَلْ يَمْتَدُّ الشُّعُورُ بِهَا إِلَى عَيْنِ الْقَلْبِ.

فَقُلْتُ: صَدَقَتْ يَا حَبَّةَ الْقَلْبِ، لَكِنِ عَلَى الْمُصَلِّيِ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنِيهِ فِي الصَّلَاةِ، لِأَنَّ الْعَبْدَ يَسْتَوْهَبُ شَهُودَ الْفَتْحِ مِنْ مَوْلَاهُ حَسًّا وَمَعْنَى، فَعَلِيهِ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَ وَجْهِهِ وَعَيْنَ قَلْبِهِ.

فقلت نَعْم: لكنِّي أستجمعُ ذاتي في الصلاة حينما أُغْمِضُ عيني.

فقلت لها: لكِ هذا إن كنت تخشين فوات الخشوع، لكنّ الفتح مع الخشوع أعلى.

ثم طمأنتُ نَعْم مرّةً أخرى ووجدتها بملازمة العلم والابتعاد عن ذوي السلطان.

وبالفعل، فقد كنت أمضي أيامي في جامع قرطبة أُعْبُ من العلم وأخذُ عن الشيوخ في مختلف العلوم، حتى ظهر أمرى وانتشر بين الناس. كنتُ أذهبُ إلى المدينة التي كانت ذاهلةً عمّا يجري من انقلابات، مُنْكَفِئَةً على نفسها تظنُّ أن لا يدَ للزمان عليها. كانت قرطبة تزهو بأنّها في مركز الحضارة فَتَغْتَرُّ وتَذْهَلُ عمّا يَمُوجُ فيها من مآسٍ مستقبلية. كنت ألتقي بالأصحاب في حوانيتهم التي أضحت نَوادي للأدب والفكاهة والمناظرة بعد كَسَادِ دُورِ الإِمَارَةِ من ذلك، وألتقي هناك بجماعة من أهل الأدب ومُحِبِّي الكُتُب. ومن بين هؤلاء تَلِيدُ الخَصِيّ وكان صاحبَ خزانة الحَكَمِ المستنصر، وقد أَسَنَّ وشَاخَ، لكن معرفتُهُ بالكتب لم تَزِدْ إِلَّا اتِّسَاعًا مع تقدُّمه في السن. كان يحبُّ أن يجتمعَ مع الأديباء والشعراء بعدما توقَّف عن الخدمة. وقد كنت سألته عن عدد الكتب في خزانة الحَكَمِ فأخبرني أنّ «عددَ الفهارس التي فيها تسميةُ الكتب أربعٌ وأربعون فهرسةً، وفي كلِّ فهرسةٍ خمسونَ ورقةً، ليس فيها إِلَّا ذكْرُ أسماءِ الدواوين لا غير».

كما كنت أجلسُ عند أبي دلف الوراق في دكانه، وكان



يُحَدِّثُنِي عَنْ أَخْبَارِ الْمُؤَلِّفِينَ وَكُتُبِهِمْ وَأَشْتَرِي مِنْهُ كَثِيرًا. وَقَدْ التَّقِيْتُ فِي دِكَانِهِ بِجَمَلَةٍ مِنَ الْوَارِدِينَ عَلَيْهِ وَتَعَرَّفْتُ عَلَى بَعْضِهِمْ، وَكَانَتْ تَقُومُ بَيْنَنَا مَنَازِرَاتٌ فِي مُخْتَلَفِ مَجَالَاتِ الْمَعْرِفَةِ وَضُرُوبِهَا: وَمِنْ بَيْنِ مَنْ التَّقِيْتُ بِهِمْ شَابٌّ يَهُودِيٌّ فِي مِثْلِ سِنِّي، جَاءَ عَلَى عَجَلٍ إِلَى دِكَانِ أَبِي دَلْفٍ لِيَبِيعَ بَعْضَ كُتُبِهِ. أَخَذَهَا مِنْهُ أَبُو دَلْفٍ وَتَعَلَّلَ بِأَنَّ طَالِبِي كُتُبِ الْمَلَّةِ الْعَبْرِيَّةِ قَلِيلٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ لَهُ إِلَّا مَبْلَغًا زَهِيدًا. كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى شَطَارَةِ أَبِي دَلْفٍ وَهُوَ يَحَاوِلُ أَنْ يَنْتَزِعَ الْكُتُبَ مِنْ صَاحِبِهَا بِدِهَائِهِ الْمَعْتَادِ، فَقُلْتُ لَهُمَا: رَبَّمَا أَشْتَرِيهَا أَنَا مِنَ الرَّجُلِ يَا أَبَا دَلْفٍ إِذَا سَمَحْتَ لِي.

نَظَرْتُ إِلَى أَبِي دَلْفٍ مُسْتَاءً، لَكِنَّهُ كَتَمَ إِسَاءَتَهُ لِأَنِّي مِنْ زِينَائِهِ وَبَيْتُنَا مِنْ أَعْرَاقِ الْبُيُوتِ فِي قَرْطَبَةِ، وَأَيْضًا لَكِي لَا يَكْشِفُ شَطَارَتَهُ. قَطَعَ الشَّابُّ أَيَّ فُرْصَةٍ أَمَامَ أَبِي دَلْفٍ وَقَالَ مُسْرِعًا: وَأَنَا أَبِيعُكَ إِيَّاهَا، فَهِيَ كُتُبٌ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْمَلَّةِ الْيَهُودِيَّةِ، وَلَوْلَا حَاجَتِي لِلْمَالِ لَمَا قَبِلْتُ أَنْ أَفَارِقَهَا. فَإِنِّي أَشْتَغَلُ وَرَاقًا فِي قَوْمِي وَأَعْرِفُ قِيَمَةَ هَذِهِ الْأَسْفَارِ.

أَخَذْتُ الْكُتُبَ وَنَظَرْتُ فِيهَا، فَرَأَيْتُ فِي بَعْضِهَا خَرِيطَةً لِمَدِينَةٍ، وَبِهَا كُنَيْسٌ يَهُودِيٌّ كُتِبَ تَحْتَهُ بِحُرُوفِ عَرَبِيَّةٍ طُوقَ سِرِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَزَمْتُ عَلَى شَرَائِهَا لِحَاجَتِي إِلَى مَعْرِفَةِ الْمَلَّةِ الْيَهُودِيَّةِ، فَسَأَلْتُ الشَّابَّ: مَا هَذِهِ الْخَرِيطَةُ؟

فَقَالَ: هَذِهِ خَرِيطَةُ قَرْطَبَةِ وَهَذَا الْوَادِي الْكَبِيرُ وَهَذَا حَيِّ الْخُودِرِيَا Juderia أَوْ حَيِّ الْيَهُودِ، وَهَذِهِ بَيْعَتُنَا الْكَبْرَى الَّتِي يُحَصِّنُهَا طُوقُ سِرِّ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أخرجت كيسًا من بين ثيابي، أعطيته للشاب.

برقت عيناه وقال لي: شكرًا يا سيدي.

فقلت له: نحن قوم نحب العلم ونقدره ونجزل عليه. ونحن حريصون على سر طوق موسى.

ثم أردفت لإرضاء صاحبي الوراق قائلاً: أما أبو دلف فهو تاجر لا يضمن أن يبيع كتبك بسهولة، فلهذا رأيتُه قد أبخس السلعة لعلمه يتفوق سوق الكتب مع توالي هذه الفتن في غرناطة.

ثم غيرت الموضوع، فقلت للشاب: لكن قل لي ما اسمك؟ فقال: إسماعيل بن النغيلة.

فقلت له: لعلكم تقولون بلسانكم، صموئيل بن النغيلة؟

فقال: نعم يا سيدي، ولكن نحن نعرّبه إسماعيل.

فقلت له: لا عليك!

ثم ودّعنا وانصرف.

التفتُ إلى أبي دلف وقلت له: لقد أبخست الرجل حقه.

فقال: إنّ مثلنا لا يكسبُ إلا في مثل هذه المناسبات، وقد فوّتت عليّ هذه الفرصة يا ابن حزم.

فقلت له: لا تقلق، سأشتري منك بعض الكتب حتى ترضى.

لكن لماذا كان الشاب مستعجلاً في بيع كتبه؟

فقال: لا شك أنّ الفتنة التي بدأت بوادرها لائحة قد تدفعه إلى مغادرة قرطبة مع قومه، وهم يعرفون أنّ مدينة تعرف انتقالاً في

السلطة أمرٌ قد يُعَرِّضُهُمُ لِلنَّهْبِ أَوْ إِلَى مَا هُوَ أَشْنَعُ مِنْ ذَلِكَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ مِنْذُ التَّيِّهِ وَهَمَّ مِثْلَ آلَاتِ لِلرُّضْدِ وَالِاسْتِشْعَارِ لِلْفِتَنِ، فَحَيْثُمَا تَلَبَّدَتِ السَّمَاءُ بِالْغَيُومِ تَرَاهُمْ يَجْمَعُونَ حَقَائِبَهُمْ وَأَعْرَاضَهُمْ وَيَأْخُذُونَ أَهْلَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ بَحْثًا عَنِ الصَّخْوِ فِي مَكَانٍ آخَرَ.

ثم جاء رجل آخر من رهبان النصارى لبيع وشراء بعض الكتب، فعرفَ بي أبو دلف للراهب، وأخبره بأنِّي ابن الوزير ابن حزم. انبسط الرجل وأثنى على والدي وانحاش إليّ. ثم طلب من أبي دلف كتبًا في الطبِّ والرياضيات والفلسفة والكيمياء. وعرض كتبًا جاء بها للبيع إلى أبي دلف، لكنّه آثرني بكتاب.

وقال لي: لعلّ هذا الكتابَ يهْمُك ويهْمُ والدك الوزير. وموضوعه عن تاريخ قرطبة.

أخذتُ الكتابَ منه وبدأتُ أتصفّحه، لكنّه كان مكتوبًا باللغة اللاتينية إلّا أنّه كان مزدانًا بمجموعة من الصور فيما يبدو أنّها حول تاريخ قرطبة. وبينما كنت أقلب الأوراق، وقعتُ على ورقة غريبة بها خارطة تشبه الخارطة التي رأيتها من قبل في دير أرملاط، والتي كانت مع الكونت. سألتُ الراهب قائلًا: ما هذه الخريطة؟

فقال الراهب: هي لمدينة قرطبة قديمًا.

ثم أخذ يشرح لي بالتفصيل كلّ مكان ويقول لي: هنا كان قصر الحاكم، وهذه الطريقُ الرومانية الشهيرة التي كانت تخترقُ المدينة وتصلُّها بباقي مناطق الإمبراطورية الرومانية، وهذا الوادي

الكبير، وهذه القنطرة التي بناها الرومان.

ثم غيّر نبرةً صوته كأنه يريدُ لفتَ انتباهي، وقال: هنا كنيسةُ سان فشتن San Vicente التي بناها الكاثوليك بعدما قضاوا على مذهب الأريوسية ليجعلوا منها طوقَ سرِّ المسيح في بلادنا.

فسألته: وما هي الأريوسية؟

فأجابني: الأريوسية مذهب مسيحي ظهر في الإسكندرية، ثم انتشر بعد ذلك في سائر الإمبراطورية الرومانية، ووصل إلى شمالي إفريقيا والأندلس واعتنقه أهلها. وللأريوسية رأي في التثليث الذي تناصره الكنيسة، حيث يعتبر هذا المذهب أن طبيعة السيد المسيح بشرية وليست إلهية، فهي أقرب الفرق المسيحية إلى دينكم في مسألة النقاش اللاهوتي حول طبيعة المسيح. وقد اضطهدت الكنيسة الرسمية أتباع هذا المذهب، وبُنيت كنيسة سان فشتن لتجسيد انتصار الكاثوليكين على الأريوسيين. لكن لما دَخَلَ المسلمون الأندلس صالحوا النصارى على هذه الكنيسة واشتروها منهم وبنوا جامعَ قرطبة فوق جزء منها.

بدا لي وكأنّ الراهب متعاطف مع هذه الطائفة، ولعلّه واحد منهم! لكنّه ربّما كان لا يستطيع المجاهرةً بعقيدته أمام باقي إخوانه النصارى، ولعلّه أراد أن يخبرني عن أمر سرّي متعلّق بهذه الكنيسة التي ذكر أنّها توجد تحت جامع قرطبة.

دققت جيّدًا في الخريطة والمواضع التي حدّثني عنها وقلت

له:

هل كانت الكنيسة تقوم في الموضوع الذي يقوم عليه اليوم  
قسم من جامع قرطبة؟

فقال الراهب «نعم بالتأكيد، إنَّ قسماً من الجامع يقوم على  
أنقاض تلك الكنيسة التي اشتراها المسلمون من نصارى ذلك  
الزمان ثم بُنيَ عليها الجامع، لكنّه توسّع شيئاً فشيئاً أضعافَ  
مساحة الكنيسة الأصليّة.

ثم بدا لي أن أتأكّد من عقيدته، فسألته: وهل ما زال هناك  
من يدينُ بالأريوسية في بلاد الأندلس؟

فأجاب: بكلّ تأكيد. لكنّهم يحرصون على إخفاء مذهبهم  
حتى لا تضطهدهم الكنيسة الرسميّة.

أدركتُ من جواب الراهب أنّه واحدٌ من هؤلاء، فقلت له مرّة  
أخرى بعدما غفَلَ عن نقاشنا أبو دلف لانشغاله مع بعض الزبناء  
الآخرين: وهل بقي شيءٌ من آثار كنيسة سان فشتت؟

فقال الراهب: إنّ الخريطة التي في هذا الكتاب توضح بشكل  
دقيق موقع الكنيسة. وقد بلغنا عن أحد الرهبان الكبار في السن أنّ  
هناك ممراً تحت الأرض يُوصَلُ منه إليها.

ازداد يقيني بأنّ الراهب أريوسي يخالف العقيدة الرسميّة  
للكنيسة، وأنّه أراد أن ينبّهني إلى أنّ زعماء الكنيسة ربّما كانوا  
يُخفون عن المسلمين الممرّات السريّة التي تُوصَلُ إلى هذه  
الكنيسة.

استأثر اهتمامي بالخريطة، فقلت للراهب: إنّي مهتمّ بالتاريخ

ولا سيّما تاريخ هذه المدينة، وسأشتري منك هذا الكتاب لأنّي سأستفيد حتمًا من هذه الخرائط والصُّور، كما أنّني حريص على اقتناء سرّ طوق المسيح، ولعلّي أستعين بك مستقبلاً في ترجمة ما يعترضني من صعوبات.

بدا الراهبُ مَسرورًا باستعراض مَعلوماته ومُساعدتي، فقال: وأنا مسرور بشرائك الكتاب، ومستعدٌّ لمساعدتِكَ. فإذا احتجّت إلى خدماتي أو أردت أن تتصل بي، تسأل عتي في الكنيسة الكبرى في ربض النصارى.

بَرَقْتُ عيناَي وتذكَّرتُ مغامراتي في الكنيسة التي دخلتها مُتخفياً ووقفتُ فيها على بعض الأسرار، فزاد حرصي على أخذ الكتاب. ولشراء وُدّ الراهب وخدماته، سلّمته مبلغًا يفوق قيمة الكتاب، فاشتري بالمبلغ كلَّ ما اقتناه من كتب من أبي دلف الوراق، ثم ودّعنا وانصرف.

تبيّنت أنّ الراهب قد يساعديني في اكتشاف سرّ الكنيسة الرسميّة وخُطّطها الخفيّة. ودعّتُ أبا دلف الوراق وعدتُ إلى دُورنا فالتقيتُ بوالدي وأخبرته بالموضوع، فقال لي مؤكِّدًا شكوكي: أحسنت يا عليّ، ولا بدّ أن تحاول أن تقف على سرّ هؤلاء، فلعلهم يدبرون أمرًا ما.

في مساء اليوم التالي خرجتُ بعدما لبستُ لباس العَجَم وقصدتُ ربض النصارى. وبينما كنتُ أهمُّ بدخول الكنيسة، رأيتُ بعض رجال ابن عاصم صاحبِ شُرطة قرطبة يخرجون من دار مُلاصقة للكنيسة ويحمِلون نَعشًا فوق برذونٍ فارِهِ. استغربتُ

وجودهم كما استغربتُ أمرَ البَغْلِ في هذه الساعة وَسَطَ بيوت  
النصارى، لكنني دخلتُ الكنيسة الكبرى أطوفُ في مدارِها حتى  
رَأَيْتُ صاحبي الراهب. كان المصلُّونَ قد بدأوا يغادرون، فتقدَّمتُ  
نحوه وسلَّمْتُ عليه، فطلبَ مِنِّي أن أتَّبَعَهُ إلى غرفته الخاصَّة. فلَمَّا  
دخلنا الغرفة رَحَّبَ بي مرَّةً أخرى ونوّه بسلوكي في أخذِ الحِيطَةِ  
بارتداء لباس أعجمي.

شكرته، ثم أخبرته بأنِّي أطلَّعتُ والدي على الكتابَ نظراً  
لاهتمامه بمعرفة تاريخ قرطبة، وقد كَلَّفَ أحدَ الفتيان لمساعدته في  
ترجمة نصوص الكتاب المذكور. ثم أردتُ أن أستوثقَ منه عن  
النعش الذي رأيتُ رجالَ صاحب الشرطة يحملونه على بغل، فقال  
لي: إنَّه نعشُ أحدِ الرهبان الذين ماتوا هذا اليوم.

فسألته: ولماذا جاء رجالُ شرطة قرطبة لأخذه منكم؟

فأجاب: الواقعُ أنَّ صاحبَ الشرطة جاء إلى الكنيسة وأخبرنا  
بأنَّ وباءَ ظهر في المدينة، وأنَّ سلطاتِ البلدي قرَّرتُ مُعَايِنَةَ جميع  
الأموات من قِبَلِ طبيبِ المارستان لملاحظة أعراضِ الوَبَاءِ على  
أجسادهم، والحرصِ على نَقْلِ الجُثْمَانِ خارجَ المدينة خوفاً من  
انتشارِ عَدْوَى المرضِ بين السكَّان. ولهذا، استأذنوا من الأبِ  
الراعي في أخذِ جُثْمَانِ الراهب فسمح لهم بذلك. وقد كانوا  
ينادون الراهب الهالك باسمِ هشام، لأنَّه كان يشبه إلى حدِّ  
المطابقة الخليفةَ هشامًا المؤيَّد.

تعجَّبتُ من هذه المصادفة ومن قصَّةِ الوَبَاءِ الذي لم أَسْمَعْ به  
بعدُ، لكنني لم أتلَبَّثُ حول هذا الموضوع، وانصرفتُ إلى ما كان

يَهْمُنِي، وبدا لي أن أسْقِطَ الكُلْفَةَ بيننا فقلت للراهب: هل أنت من أتباع الأريوسية؟

تردّد قليلاً ثم قال: نعم، أنا أحد الرهبان القلائل في بلادنا الذين يعتقدون بأن المسيح عبد مخلوق وأنه كلمة الله، وليس مُساوياً للآب في الجوهر كما تقول الكنيسة الرسميّة.

تعاطفتُ مع الراهب، لأنّ عقيدته قريبة من عقيدة التوحيد الذي يدين به المسلمون، فقلت له: هذه عقيدة مخالفة لما يقوله النصارى في قضية الأقانيم الثلاثة. لكن كيف تتعايش مع أبناء جلدتك؟

فقال: أتستّر على عقيدتي، لكنّ الكنيسة الرسميّة تُخصي علينا أنفاسنا، وكلّ اعتقادٍ يبتعد قليلاً أو كثيراً عن الحُطّ الرسمي المتبع يُعتبرُ هرطقةً تُوجبُ أشدّ العقوبات كالقتل والحرق وما شابه. لكن ذلك لم يحلّ بيننا ونصرة هذا المذهب، لأنّه الحقّ الذي لا مرأى فيه. ولولا أنّنا نعيش تحت حكم المسلمين لفتكّت بنا الكنيسة واضطهدتتنا شرّاً اضطهاد كما فعلت مع غيرنا من قبل.

ثم سألته: لكن أخبرني عن قصّة هذه الكنيسة التي تزعم أنّ خصوصكم قد بنّوها تخليداً لانتصار مذهبهم.

فقال: لا بدّ أن يحترز المسلمون من أنّ هؤلاء يحنّون إلى عودة ملكهم وسلطانهم على هذه البلاد. وقد علمت أنّهم استطاعوا مؤخراً شقّ ممرّ سريّ تحت الأرض يصل بين هذه الكنيسة التي نحن فيها الآن وكنيسة سان فشت التي بُني على أنقاضها جامع



قرطبة، بمساعدة مجموعة من الرهبان الذين قَدِمُوا من دَيْرِ أرملاط. بل إنَّهم كانوا قد استبشروا خيرًا بآخر توسعة لجامع قرطبة في عهد المنصور بن أبي عامر.

استوقفني حديثه عن دير أرملاط، وجمال بذهني نظام فرسان شانت ياقب الذين رأيتهم هناك، والخريطة التي كانت مع الكونت، لكنني لم أُعْلِن له عن خواطري.

استغربتُ حديثه عن استبشار النصارى بتوسعة المنصور لجامع قرطبة، فسألته: وكيف يستبشرون بتوسعة جامع مخصّص لدين يُنَاصِبُونَهُ العَدَاءُ؟

فقال: لقد قالوا وقتها إنَّ أحدَ الرُّهبانِ رأى القديس الشهيد سان فشت في المنام وأخبره أنَّ توسعةَ الجامعِ إنّما هي توسعةٌ للكنيسة الأصلية وستستفيد منها لاحقًا، وأنَّ المنصور الذي وسَّع البناءَ يَدُلُّ اسمُه على معنى اسم القديس فشتت باللاتينية أي المنصور باللسان العربي. ولا شكَّ أنَّ هذه إشارةٌ إلهيةٌ وبشارةٌ قدسيةٌ على نصره الكاثوليكية في الأندلس وعودة حكم ملوكها.

لم أهتم بتأويلات النصارى للتوسعة، وعلمت أنّها مكنتهم من التغطية على أعمال الحفر التي كانوا يقومون بها لاكتشاف آثارهم الدارسة، فلفَّقوا مثل هذه التهويلات والأساطير لأتباعهم.

ثم قلت للقسيس: وهل تعرف الطريق الذي يؤدي إلى ذلك الممرّ؟

تردّد مرّةً أخرى، ثم قال: نعم أعرفه، ويمكنني أن آخذك إلى

هناك.

بَرَقْتُ عيناى وقلت له: متى نقوم بهذه الزيارة؟

فقال: بعدما تَخِفُّ الحركة قليلاً وتُغْلِقُ الكنيسةُ أبوابها أمام المصلين.

أخرج الراهبُ الخريطةَ نفسها التي رأيتها في الكتاب الذي اشتريته منه، وقال لي: هذه خريطة قرطبة انتسختها من المخطوط القديم الذي بَعْتُكَ إِيَّاه، وكنت قد أخذته من مكتبة الكنيسة. وهي تَوْضِحُ بدقَّةَ موضعَ كنيسة سان فشت.

ثم أشار بأصبعه على الخريطة، وقال: وهذا السَّطْرُ المتعَرِّجُ الذي ترى هنا هو مسار الطريق السري تحت الأرض. وقد اشتغل الرهبان منذ سنوات في الحفر حتى وصلوا إلى آثار دارة مكتوبة في كتبهم. وفي الطُّور الأخير ساعدهم رهبان قَدِمُوا من دير أرملاط لاكتشاف الكنيسة أخيراً، لأنهم كانوا على علم بمختلف الممرات السريّة القديمة التي احتفظ بها الدير بعد دخول المسلمين إلى هذه البلاد. والنعشُ الذي رأيتُ رجالَ صاحبِ الشرطة يحملونه هو لواحدٍ من هؤلاء الرهبان من دير أرملاط. وقد سمّوه هشامًا أولاً لشبهه بالخليفة هشام، وثانياً للتسُّرُّ على هويته ثانياً.

تذكَّرتُ القِفَافَ المملوءةَ بالتراب التي كنت قد رأيتها في إحدى زياراتي السريّة عند مدخل الكنيسة العظمى، فتيقَّنتُ الآن أنها كانت ممّا استُخْرِجَ من التراب بعد حَفْرِ الممرِّ السريّ.

فتح الراهبُ بابَ غرفته وخرج ثم عاد بعدما تأكَّدَ مِنْ خُلُوءِ

الكنيسة من المصلين وإقبال أبوابها، فقال لي: الآن يمكننا أن نبدأ زيارتنا.

فقلت له: فلنبدأ، وسأمشي خلفك مُستَهديًا.

خرجنا من الغرفة وقصدنا الموهب، ومشى حتى وصل إلى الباب الحديدي الذي كنت دخلتُ منه في زيارتي السابقة. فتحه ثم لفَّ حول الصندوق وأمسك بالصليب فكَبَسَهُ فانفَتَحَتِ البَلاطَةُ. أخذ شمعةً مُشْتَعِلَةً من داخل مصباح زجاجي، تضيء أمام صندوق مخلقاتٍ شانت يَأْقُب المزعومة، فأسْرَجَ بها فَيْبَلَةَ المصباح المُعَشَّقِ بالزيت، ثم نزل الأدرج. كنت أتبعُهُ دونَ وَجَلٍ لمعرفتي السَّالفة بالمكان. ومشى في الطريق نفسه حتى وصل إلى غرفة الفرسان التي رأيتُ فيها المائدة ذات السيوف. هذه المرّة كانت بلا سيوف لأن الفرسان كانوا قد غادروا قرطبة كما أخبرني الكونت، ولا شك أنهم حملوا سيوفهم معهم. اقتربَ الراهبُ من مصباح مُعلَّقٍ على أحد أقواس العُرفَةِ فسحبه من موضِعِهِ وكشَفَ عن قاعدته الدائرية في الجدار فتبدَّى في مركزها ثُقْب. مَسَحَهَا بيده فظهر شِقُّ حديدي دائري فأخرج حديدة من بين ثيابه وأدخلها في الثقب، ثم ضغط على الحديدة في اتِّجَاهِ اليسار حتى دارت الدائرة دورةً كاملة انفتحَ على إثرها بابٌ في الجدار لا يُمكنُ افتِراضُ وجودِهِ. استغربتُ كيف فاتني اكتشافُ هذا الأمر من قبل، وزادَ حماسي وفضولي. وبعد أن كَفَّ العُبارُ المتطاير الذي أحدثَهُ انفتاحُ الباب، دخل الراهبُ ودخلتُ إثرَهُ ومشينا في ممرٍّ ضيقٍ جدًّا وانعطفنا مرَّاتٍ عديدة. كادَ رأسي يُلامِسُ سَقْفَ الممرِّ. أَحْسَسْتُ باختناقٍ وضيقٍ شديدين، لكنني واصلتُ السَّيرَ

خَلَفَ الرَّاهِبَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى رَذْمَةَ. أَعْطَانِي الْمَصْبَاحَ ثُمَّ شَمَّرَ عَنِ  
ذِرَاعِيهِ وَأَزَالَ بِلَاطَةَ فَاَنْفَتَحَ مَمْرٌ تَحْتَ الْأَرْضِ يُوصِلُ إِلَيْهِ بِسُلْمٍ. نَزَلَ  
السُّلْمَ ثُمَّ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُسَلِّمَهُ الْمَصْبَاحَ حَتَّى أَنْزَلَ فَنَزَلْتُ خَلْفَهُ.  
وَمَشِينَا مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى قَبْرِ فَدَخَلْنَا مِنْ فَتْحَةٍ بَابِهِ وَوَصَلْنَا  
إِلَى قَاعَةٍ بِأَقْوَاسٍ رُصِّتْ عَلَى جَنْبَاتِهَا نَوَاسِيسٌ عَدِيدَةٌ. قَطَعْنَا الْقَاعَةَ  
الْمَرْعَبَةَ بِرَائِحَةِ الْمَوْتِ وَدَخَلْنَا مِنْ بَابِهَا الْجَوْفِي، ثُمَّ صَعَدْنَا أُدْرَاجًا  
حَلْزُونِيَّةً فِي أَعْلَاهَا بَابٌ صَغِيرٌ فَتَحَهُ الرَّاهِبُ فَاسْتَوَيْنَا فِي كَنِيسَةِ سَانَ  
فَشَنَّتِ الَّتِي مَا زَالَتْ بَعْضُ مَعَالِمِهَا قَائِمَةٌ. كَانَتْ أَرْضِيَّتُهَا مِنْ  
الْفُسَيْفِسَاءِ الرُّومَانِي الدَّقِيقِ وَعَلَيْهِ رَسُومٌ بَاهِتَةٌ. بَعْضُ قَطْعِ الْفُسَيْفِسَاءِ  
الدَّقِيقَةِ كَانَتْ قَدْ اقْتَلَعَتْ. تَجَوَّلْنَا فِي الْمَكَانِ، وَسَأَلْتُ الرَّاهِبَ: هَلْ  
حَقًّا يَوْجَدُ فَوْقَ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ جَامِعٌ قَرْطَبَةٌ؟

فَقَالَ: نَعَمْ، بِكُلِّ تَأَكِيدٍ.

فَقُلْتُ: هَلْ يُمْكِنُنَا الْوَصُولُ إِلَيْهِ؟

فَقَالَ: لَقَدْ اسْتَطَاعَ الْفَرَسَانُ الرَّهْبَانُ شَقَّ بِلَاطَةَ تَفْتَحَ عَلَى رُكْنِ  
مَنْعَزَلٍ فِي الْجَامِعِ.

فَقُلْتُ بِحِمَاسٍ شَدِيدٍ: هَلْ تُطَلِّعُنِي عَلَى ذَلِكَ؟

فَقَالَ: اتَّبِعْنِي.

ثُمَّ مَشَى قَلِيلًا خَلْفَ الْمَذْبَحِ الْقَدِيمِ لِلْكَنِيسَةِ وَصَعِدَ أُدْرَاجًا  
حَلْزُونِيَّةً ضَيْقَةً جَدًّا، ثُمَّ أَزَاحَ حَدِيدَةً ثَقِيلَةً تَحْتَ بِلَاطَةَ صَغِيرَةٍ  
دَفَعَهَا فَاَنْحَسَرَتْ فِي مُجَوِّفٍ فِي أَعْلَى الْجِدَارِ الْحَلْزُونِيِّ، وَأَدْخَلَ  
يَدَهُ فِي الْفِرَاقِ الَّذِي تَرَكْتُهُ الْبِلَاطَةُ فَأَزَاحَ طَرَفَ حَصِيرِ أَرْضِيَّةِ

الجامع، ودخل نور القمر الخافت مُتَسَلِّلاً إلى الكنيسة، ثم نزل الأدرج وقال لي: يمكنك أن تصعد الآن وتُطلَّ على الجامع.

صعدت الأدرج الحلزونية وحشرت رأسي بصعوبة في الموضع الذي كانت تسده البلاطة ويُعْطِيهِ الحَصِيرُ من أعلى، ثم رَفَعْتُ بصري أعين رُكْنَا من الجامع لم يَسْبِقْ لي أن عرفته مِن قبل، ولم أَصْدُقْ أَنِّي وَصَلْتُهُ عبر هذا الممرِّ السَّرِّي. كان من غير الممكن أن أَمْرَّ جسدي بالكامل إلى أعلى. تيقنتُ أخيراً أن ما يقوله الراهب كان صحيحاً، وأنَّ القوم كانوا يعملون بسرِّية فائقة. أحسستُ لدى تمريري لرأسي دون جسدي من فراغ البلاطة بإحساس غريب، فقد كنت بين عالمِ الجامعِ العلوي الذي هو عالم المسلمين، وعالمِ الكنيسة السُّفلي الذي هو عالم المسيحيين. وتساءلتُ تَساؤُلَ العَاجِزِ عن الجواب، مَنْ يملك الحقَّ في هذه الأمكنة التي تتداخلُ فيها الملكيات وتتزاحم؟ السابقُ يدَّعي أنَّ حقَّه سابقٌ، واللاحقُ ينسخُ حُكْمَ الأسبقيةِ وَيَسْطُ أَحَقِّيَّتُهُ على المكان، سِيَمًا وقد صالح المسلمون المسيحيين على الكنيسة الأصلية واشتروها منهم ولم يَعْصِبُوهُمْ منها. لكن لماذا بقيت الكنيسة قائمةً إذن؟ ولماذا شقَّ هؤلاء ممرًّا سرِّيًّا تحت الجامع للوصول إلى كنيستهم؟ لا شكَّ أنهم لا يؤمنون بتقادم الحقوق. ولو افترضنا عودة الغلبة للمسيحيين، هل سيتصرفون بتصرف المسلمين نفسه في الإبقاء على طبقات المعنى المقدَّس؟ كان الفقيه في تكويني يناقشُ ويُناوِشُ الإنسانَ، مجردَ الإنسانِ بلا انتماءات دينية، على شَرُطِ الإباحة الأصلية. ولنفترض أنَّ مكانًا مقدَّسًا بُنِيَتْ فيه معابد

لديانات مختلفة متعاقبة، كلّ واحدة منها ترى أنّ لها الحقّ في ذلك المكان المقدّس، فلمن نَحْكُم؟ سؤال عميق وصعبٌ في الآن نفسه. فكم من المعالم تحمِلُ قداسةً متعدّدة بحكم تراؤفِ عبادات متعدّدة ومختلفة في الفضاء نفسه الذي تقوم عليه؟ قبل جامع قرطبة كانت كنيسة سان فشتن، وقبلها كان معبد روماني قامت هي أيضًا عليه، ولا شكّ أنّ قبل المعبد وُجِدَ شيء آخر لم يَعُدْ من يُطالبُ به، إذ القداسةُ تستدعي القداسةَ دائميًا، وكلُّ لاحقٍ يريدُ أن ينسخَ السابقَ مستفيدًا من القداسة المتراكمة في المكان نفسه. لعلّ الطريقة التي دَبَّرَ بها المسلمون هذه القضيةَ هنا عادلة، إذ لم يَعْصِبُوا المكانَ من أهله بل صالحوهم عليه وسمحوا لهم ببناء كنيسة أخرى في ربض النصارى حيث كانوا يقطنون. الشرع الإسلامي لا يُجيزُ الصلاةَ في مكان مغضوب، ويعتبرها باطلة. لم يهدم المسلمون الكنيسة السابقة كليًا بل تركوها وبنّوا فوقها جامعًا، وحافظوا على طبقة المعنى وطبقة القداسة المتراكمة نظرًا للوُسْعِ الإلهي الذي لا ينحصر في صورة معتقدي واحدٍ يُلغي غيره، لكن من سَيَضْمَنُ مستقبلًا أن لا يقومَ المتغلّبون اللاحقونَ بالإجهازِ على طبقة المعنى الجديد الذي يتلقّى أعلاه النور، بينما أسفله مُنْحَشِرٌ اليوم في الظلمة؟ ألن يطمعوا في الوصول إلى النور والخروج من الظلمة؟ مكانٌ فوق مكان وكأنه ما كان، وديانةٌ فوق ديانة من دون أن يتخلّل هذا بهذا، مع أنّ هذا يحمله ذلك، وذاك لا يقوم إلا بهذا. ألا يُشبه هذا ما يحصل للإنسان حينما يُعَيِّرُ دينه ويعتق دينًا ثانيًا، أليس الإنسان مثل هذا العمران تمامًا؟ فأين راحَتْ طبقةُ

المعنى الأوّل والدين الأوّل؟ هل سيهدمُ البنيانَ كلّهُ<sup>(١)</sup> ليقيمَ بُنياناً جديداً بدلهُ، مع أنّ فعلهُ هذا قد يُؤدّي إلى موته وهلاكه وانقطاع أمره؟ لم أُمع خاطرًا آخر حلّق في ذهني حول حشر الأموات في حالات مُعيّنة فوق بعض في قبور مشتركة مزدوجة أو جماعيّة، يقتسمون فيها حفرة الموت الضيّقة كما كانوا يقتسمون من قبلُ فضاء الحياة الواسع. فتجد الصالح فوق الطالح أو العكس. الحياة مقبرة كبيرة، ولا شك أنّنا أقرباء بالنظر إلى الجذ الأعلى والحقيقة الإنسانية التي لا نختلف فيها. فماذا صنعنا بهذه اللطيفة المتجوهره في الإنسان؟ هل هذه هي الحقيقة الإنسانية؟ وماذا صنعنا بهذه الفطرة القديمة؟ ولعلّ قصيدة الحكيم الذي ظهر في مَعْرَةَ النُعمان التي وصلت إلى بلادنا قريبًا، تُجمل القول في المسألة:

صَاحِ هَذِي قُبُورُنَا تَمَلَأُ الرُّحُ      بَ فَايِنِ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ  
خَفِّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ ال      أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ  
وَقَبِيحُ بِنَا وَإِنْ قَدِمَ العَهْدُ      دُ هَوَانِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ

(١) إنّ ما تقوم به قوّات الاحتلال الإسرائيلي من اعتداءات متواصلة على الأقصى وقبة الصخرة من خلال الحفر في أساساتهما تقويض لكلّ إمكانية للسلام. إنّ الأقصى بالنسبة للمسلمين هو نقطة التقاء الأرض بالسماء، فمنه عرج خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، ولهذا فالتعامد الأرضي في هذه البقعة المباركة مع السماء له أهميّة كبرى ورمزية عظيمة لا تقبل بإمكانية القيام بحفريات تحت الأرض وادّعاء أيّ حقّ على هذه البقعة. إنّ رسول الإسلام أخبر عن نفسه أنّه لبنة التمام والختام في حائط النبوة، ولا شك أنّ إزالة لبنة واحدة من هذا البناء مؤذن بخراب الحائط كلّهُ، ﴿فَلْيُنْذِرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سِرٌّ إِنْ اسْطَغَتْ فِي الْهَوَاءِ رُوَيْدًا لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ  
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاوَجِ الْأَضْدَادِ  
وَدَفِينٍ عَلَى بَقَايَا دَفِينٍ فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْآبَادِ  
مُجَرَّدُ خَوَاطِرٍ خَطَرَتْ بِبَالِي فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْمُخْتَلَسَةِ فِي غَفْلَةٍ  
عَنْ سُكَّانِ الْعَالَمَيْنِ مَعًا بَيْنَمَا كُنْتُ فِي بَرْزَخٍ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ .  
أَخْرَجْتُ رَأْسِي مَرَّةً أُخْرَى، أَوْ لَعَلِّي أُدْخِلُ رَأْسِي فِي النَّاحِيَةِ  
السُّفْلِيَّةِ، فَلَفَّتْ انْتِبَاهِي رَسْمٌ عَلَى الْمَوْضِعِ الَّتِي تَنْحَشِرُ فِيهِ الْبَلَاطَةُ  
لَمْ أَكُنْ قَدْ لَاحِظْتَهُ مِنْ قَبْلِ، هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ صَلِيبٍ، عَلَى كُلِّ طَرَفٍ  
مِنْ أَطْرَافِهِ صُورَةٌ جَرَسٍ . اسْتَغْرِبْتُ مِنْ وَجُودِ هَذَا الرَّسْمِ، وَنَزَلْتُ  
الْأَدْرَاجَ، فَصَعِدَ الرَّاهِبُ وَسَحَبَ الْحَصِيرَ ثُمَّ أَرْجَعَ الْبَلَاطَةَ إِلَى  
مَوْضِعِهَا فَكَفَّ نَوْرُ الْقَمَرِ الْخَافِتِ الَّذِي انْسَلَّ مِنَ الْجَامِعِ،  
وَاجْتَمَعَتِ الْكَنِيسَةُ وَالْجَامِعُ فِي طَاسَةٍ وَاحِدَةٍ بَعْدَ أَنْ أَغْلَقْنَا هَذِهِ  
النَّافِذَةَ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا فِي لِحْظَاتٍ . لَقَدْ حَزَمْتُ طُوقَ سِرِّ  
الْمَعْنَى فِي رَعِشَةٍ زَمْنِيَّةٍ مُخْتَلَسَةٍ عَنِ الْعَالَمِينَ . لَقَدْ كَانَ الْيَهُودِي  
يُبْحَثُ عَنْ سِرِّ طُوقِ مُوسَى، وَالنَّصْرَانِيَّ يَبْحَثُ عَنْ سِرِّ طُوقِ  
الْمَسِيحِ، وَكُنْتُ أَنَا الْمُسْلِمُ الْقَائِمُ بِسِرِّ طُوقِ مُحَمَّدٍ، فَصَحَّحْتُ لِي  
الْوَرَاثَةَ الْكَامِلَةَ .

وَضَعَ الرَّاهِبُ الْحَدِيدَةَ الْمَعْتَرِضَةَ، وَنَزَلَ نَحْوِي . كُنْتُ مُتَعَجِّبًا  
مِنْ هَذَا الْاِكْتِشَافِ، وَبَدَأَ لِي أَنْ أُسْتَفْسَرَ مِنَ الرَّاهِبِ عَنْ دَلَالَةِ  
وَجُودِ رَسْمِ الصَّلِيبِ فِي الْكُوَّةِ الَّتِي تَنْحَشِرُ فِيهَا الْبَلَاطَةُ، فَقَالَ لِي  
كَلَامًا طَوِيلًا أَعْلَمُ مَعْظَمَهُ عَنْ قِصَّةِ الْأَجْرَاسِ الَّتِي غَنِمَهَا الْمُسْلِمُونَ  
مِنْ كَاتَدْرَائِيَّةٍ شَانَتْ بِأَقْبِ .



وفي الأخير تردّد قبل أن يسألني: ما هو الترتيب الذي علّقت  
وَفَقَهُ أَجْرَاسُ كَاتِدْرَائِيَّةٍ شَانَتْ يَأْقُبُ دَاخِلَ جَامِعِ قَرْطَبَةِ؟  
أبديتُ دهشتي من هذا السؤال وقلت له: لا أعرف.

فقال لي: لقد حَرَصَ الْعُمَالُ النَّصَارَى فِي عَهْدِ الْمَنْصُورِ بْنِ  
أَبِي عَامِرٍ عَلَى اتِّبَاعِ تَعْلِيمَاتِ رَاهِبٍ مُسِنٍّ كَانَ يَعْرِفُ مَكَانَ الْكَنِيسَةِ  
الَّتِي بُنِيَ عَلَى أَنْقَاضِهَا مَسْجِدُ قَرْطَبَةِ، فَعَلَّقُوا الْأَجْرَاسَ فِي كُلِّ  
زَاوِيَةِ جَرَسٍ، وَوَزَعُوهَا فِي أَمْكَنَةٍ مُخْتَلَفَةٍ مِنَ الْجَامِعِ، بِحَيْثُ تُشَكِّلُ  
إِذَا مَا وَصِلَتْ حُدُودَ مَسَاحَةِ كَنِيسَةِ سَانَ فِشَنْتِ San Vicente،  
عَلَمًا بِأَنَّهَا صُمِّمَتْ عَلَى شَكْلِ صَلِيبٍ لَاتِينِي.

تَعَجَّبْتُ مِنْ هَذَا الدِّهَاءِ، لَكِنِّي قَلْتُ لِلرَّاهِبِ: لَكِنْ هَذَا لَنْ  
يُغَيِّرَ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هِيَ مِثْلُ خُيُوطِ الْعَنْكَبُوتِ الَّتِي يَتَمَسَّكُ بِهَا  
هَؤُلَاءِ، فَحُكْمُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ جَلَبَ النُّورَ لِهَذِهِ الْبِلَادِ وَعَمَّهَا بِالْعِلْمِ  
وَالْمَعْرِفَةِ، وَالْمُسْلِمُونَ لَمْ يَضْطَهُدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ بَلْ تَرَكَوْا لَهُمْ  
الْحُرِّيَّةَ فِي مِمَارَسَةِ عِبَادَاتِهِمْ، بَيْنَمَا أَمْثَالُكَ مِنْ مَعْتَنَقِي الْأَرِيوسِيَّةِ لَا  
يَجْرَأُونَ عَلَى الْجَهْرِ بِعَقَائِدِهِمْ مَخَافَةَ بَطْشِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِمْ بِهِمْ، فَانْتَمَ  
أَقْرَبُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَأَسْلَافُكُمْ هُمْ مَنْ سَهَّلُوا دُخُولَ  
الْإِسْلَامِ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ قَرِيبٌ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ، بَلْ إِنَّ  
كثِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ دَخَلُوا فِي هَذَا الدِّينِ.

فقال الراهب: صدقت، هذه هي الحقيقة. ونحن أتباع أريوس  
لا نستطيع أن نجهر كما تقول بعقائدنا في طبيعة المسيح، مع أنه  
في وقت من الأوقات كان أباطرة روما المسيحيون يعطفون على  
هذا المذهب وينصرونه، بل حتى الأمباطور قسطنطين كان قد

عمده راهب أريوسي.

قلت للراهب: دعنا نخرج الآن، فقد ضقتُ ذرعًا بهذا المكان وبدأت أشعرُ بالاختناق، والفرسان الذين شقوا هذا الممرَ قد غادروا، ولا أظنُّ أنَّ الوقتَ مناسبٌ لفتح هذا الموضع من جديد لأنه لا يُشكَلُ تهديدًا مُعيَّنًا لنا، بل هو يدلُّ فقط على تمسُّكِ هؤلاء القوم بديانتهم ونصرتِها وتعظيم شعائريها، وهذا لا يضرُّنا في شيء، بل لعلنا نُقدِّرُ هذا فيهم ونحترمُهم من أجله لأننا نؤمن بتعظيم الحرمات عموماً، حتى ولو كانت حُرُمات غيرنا.

رجعنا أدراجنا، وكنت أتصبُّ عرقاً من المشي وانعدام الهواء النقي. ثم خرجنا بعد مسافةٍ مشيٍ قَطَعْنَاهَا تحت الأرض، ورجعنا إلى غرفة الراهب، فقلت له: هل هناك مَنْ يَعْرِفُ هذا الممرَّ غيرك؟

فقال: هناك الأبُّ الراعي للكنيسة وراهبٌ آخرُ هُما فقط مَنْ يعرف هذه الممرَّات السريَّة، لكنَّهما بحُكم علُوِّ سِنِّهِمَا لا يستطيعان الوصولَ إلى هذا المكان. ثم هناك الرهبانُ الفرسانُ الذين ساعدوا في كشف المكانِ وحفرِ الممرِّ السريِّ.

ثم سألتُه مرَّةً أخرى: لقد كشفت لي عن سرٍّ غريبٍ وعجيبٍ، لكنني أريدُ أن أعرفَ الهدفَ من وراءِ هذا الاعتراف، فمسألةُ دفاعك عن الأريوسية ورغبتك في عودتها لا تُبرِّرُ كشفك لي عن هذا الممرِّ السريِّ.

نظر إليَّ بحرجٍ ثم قال: إنَّ الأريوسية كما قلتُ لك كانت

مزدهرةً في هذه البلاد، ولا يوجد الآن إلا بعض الرهبان الذين  
يَتَسَتَّرُونَ على عقيدتهم. وقد رأيت الأب الراعي لهذه الكنيسة،  
وهو اليوم مريضٌ ولعله يموت قريبًا، ومن المرجح أن يخلِّفه  
أُسْقَفٌ جديد، وقد فكَّرَ بعض إخواني أن يرشِّحوني لهذا المنصبِ،  
لكنني لا أحظى بثقة جميع الرهبان، وأرجو أن يتوسَّط لي والدُّك  
عند السلطان حتى يُقنِعَ رؤساء الكنيسة بتعييني خَلَفًا للأب الراعي  
الحالي، وبهذا نضمَّن عودة الأريوسية من جديد. هذا هو السبب  
الذي دفعني إلى الاتصال بك والحرص على مُلاقاتك في دُكَّانِ أبي  
دَفِّ الوَرَّاقِ وبيِّعِكَ الكتابَ عن تاريخ قرطبة.

نظرتُ إلى الراهب لأختبرَ صدقه من كذبه، فأردفَ قائلاً:  
أقسِمُ لك يا سيدي أن هذه هي الحقيقة ولا أهداف أخرى عندي  
أخفيها عليك، ولا يمكنني أن أعرضَ نفسي وإخوتي في الملةِ  
للخطر بكلِّ ما اعترفتُ به لك لو كنتُ أضمرُ غيرَ ما صَارَحْتُكَ به،  
فنحن نحتاج إلى مساعدتكم لِنَمَكِّنَ لمذهبنا من جديد في هذا  
البلد. ولا شك أن من مصلحة المسلمين أن يُساندوا أقرب  
مذاهب أهل الكتاب إلى عقيدتهم.

فقلت للراهب: سأنظرُ ماذا بإمكانني أن أفعل، لكنني لا أعدُّك  
بشيء، إلا أنني لن أتسبَّبَ لك في مكروه.

سُرَّ الرجلُ سُورًا بالغًا، ثم رافقني حتى خرجتُ من مَخْرَجِ  
أخرَ في ربضِ النصارى كان دارًا يجتمع فيها مع أصحابه  
الأريوسيين.

رَجَعْتُ أدراجي إلى دُورِنَا في بلاطِ مغيث. وفي صباح اليوم

التالي التَقَيْتُ بوالدي فأخبرته بما اكتشفتُ من أسرار، فَسَرَّ بي وقال لي: بوركَ فيك يا ولدي، لقد استطعتَ أن تكشفَ أسرارًا لم يستطعَ صاحبُ الشرطة ابنُ عاصِمٍ في قرطبةَ أن يصل إليها مع وُقُورِ سلطانه وكثرة رجاله. ولعلَّ أوَّلَ شيءٍ نقوم به هو التأكُّدُ من صِحِّة المعلومات التي أوردها الراهبُ حول أجراسِ جامعِ قرطبةَ، فعليك أن تذهبَ إلى هناك وتتحقَّقَ من الأمر.

ارتضيتُ مقالةَ والدي وخرجتُ تَنقُلُني الريحُ الرخاءُ إلى المسجد الجامع. دخلتُ من الناحية الشمالية فقطعتُ صَحْرَ المسجد، ودخلتُ حتى استويتُ عند أوَّلِ جرسٍ فحدَّدتُ مواقعَ الأجراسِ الباقية، وذَرَعْتُ المسافةَ فتبيَّنَ لي أنَّ القومَ تحايلوا في تحديد موقعِ كنيسةِ سان فشتت بتوزيعِ مُنْتَظِمٍ للأجراس. كان الشكلُ فعلاً شكلاً صليبَ لاتيني. عاينتُ جمالَ الأقواسِ التي تحملُ نصفَ أقواسٍ فوقها فأدركتُ نبوغَ الصنَّاعِ المسلمين وتَفَوُّقَهُمْ، وساءني أن توضعَ هذه الأجراسُ في هذا الفضاءِ الفَسِيحِ البَهِيمِ بِثُرَيَّاتِهِ المضيئة. ثم رأيتُ جموعاً تتقاطرُ على الجامع، فخرجتُ وسألتُ أحدَ المازنين فأخبرني أنَّ الخليفةَ هشامًا المؤيد مات، وأنهم ذاهبون للصلاة عليه في الجامع بعد صلاة الظهر.

عدتُ مسرعاً إلى بيتنا فأخبرتُ الوالد فتفكَّرَ في الأمر، وقال لي: أنت تعلمُ يا ولدي أننا لا نستطيع أن نقومَ بأيِّ شيءٍ نظراً لتقلُّبِ الأحوالِ في بلادنا، وقد تمَّ إعفائي من الوزارة، والأمويُّ الذي اعتلى الكرسيَّ طائشٌ لا يُحسِنُ تَدبِيرَ هذه الدولة، ومعالمُ الفتنة بدأتْ إذ لم يُحسنِ سوى الانتقامِ من العامريين، كما أساء

إلى البربر وناصبهم العداً وأراد أن يقضي على وجودهم هنا، مع أن المنصور لما استقدمهم من المغربيين الأقصى والأوسط فسح لهم ومكن لهم حتى استقرّوا نهائياً في البلاد. وهؤلاء قوّة عظيمة لا بدّ من الاعتمادِ عليها لا مواجهتها برعاع قرطبة من أصحاب هذا المهدي، وما أبعدَه عن الهداية، بل هو المُنقّش كما تلقّبه العامّة. والغريب أن البربر كانوا قد تخلّوا عن شنجول وأعلنوا بيعتهم للخليفة الجديد. وبدلاً من أن يسوس أمرهم بالكياسة أدلّ كبراءهم وأخرجهم من الخدمة، وألبّ العامّة عليهم، فأخذ العداً يستحكّم. وهذا خرّق عظيم، لأنّ وحدة الجيش انخرمت ممّا يعني انخرام الدولة. ولا شك أن الفتنة التي أحدثها ستقوّض هذه الدولة العظيمة.

فقلت للوالد: لقد خرج نَفَرٌ كبير من أهل قرطبة لتشيع الخليفة هشام المؤيد، لكنك لم تخرّج معهم، فهل لذلك سبب؟

فقال: يا ولدي، إنني أشك في موت هشام المؤيد، لأن بعض الفتيان العامريين ممّن بقي على الولاء أخبرني أنّ المهدي كان قد حبس هشاماً في القصر، ثم أخرج جواريه وفتيانه ودوابّه، ثم أخرجَه بعد ذلك سراً وأخفاه في إحدى دُورِ قرطبة. وبعد مُدّة تمّ الإعلان عن موته، وتمّ استدعاء الوزراء والفقهاء إلى القصر ليشهدوا بموته. ثم صلّوا عليه ودفنوه يوم الاثنين لثلاث بقين من شعبان من عام ٣٩٩ هـ.

فقلت: لا شك أن شكوكك في محلّها، ودعني أخبرك بأمر حدّث لم أعرّه اهتماماً كبيراً إلا في هذه الساعة.

فقال الوالدُ: وما هو هذا الأمر؟

قلت: أتذكُرُ أنني أخبرتك عن زيارتي للكنيسة الكبرى في قرطبة. وفي المساء ذاته عندما هممتُ بدخولها رأيتُ رجالَ صاحبِ الشرطة يُخرجون نَعشًا من دارِ قَرَبِ الكنيسة، فاستغربتُ أخذهم لجثمان مَيِّتِ نصرانيّ في تلك الساعة من الليل. فلما التقيتُ بالراهب الأريوسي سألتُه عن الأمر فأخبرني بأنَّ أحدَ الرهبان الذين كانوا يشتغلون في حفر الممرِّ السريّ الذي يُؤدِّي إلى كنيسة سان فشتنت قد أُصيبَ أثناء الحفر وبقي مُدَّةً يُعالجُ حتى تُؤفِّي. وقد كان رفاقُه فرسان شانت ياقب قد غادروا لما أُيسوا من حالته، وطلبوا من الأب الراعي أن يدفعه في أحد النواويس التي كانت تحت الكنيسة.

فقال الوالد: وما علاقةُ هذا الراهب بموضوعنا؟

فأجبتُه: الغريبُ هو أنّ الراهبَ الأريوسي أخبرني أنّ الراهبَ الهالكَ كان يشبهُ هشامًا المؤيدَ بحيث يصعبُ التمييزُ بينهما.

ضرب والدي يدًا بيدٍ وقال متعجبًا: إذن، فإنَّ صاحبَ الشرطة قد أخذ جثمانَ الراهب الذي ليس له أهلٌ بين نصارى قرطبة، وأوهموا الوزراءَ والفقهاءَ على أنه جثمانُ هشامِ المؤيد، وأشهدوهم على ذلك حتى ينتشرَ الخبرُ بين أهل قرطبة الذين ما كانوا ليُصدِّقوا موتَ الخليفة فجأةً.

فقلت: إنها جريمةٌ وتدليس.

فقال والدي: نعم هي كذلك، وقد أنجاني الله لأنني لم أحضر

تلك الشهادة الزورِيّة.

فقلت: العجيبُ هو أن رجالَ صاحبِ الشرطة ذكروا لأسقف الكنيسة أن سببَ اصطحابهم لجثمان الراهب الهالك هو ظهورُ وباءٍ في قرطبة، وأنهم في حاجة إلى أخذ الجثة لمعرفة الأعراض وبعد ذلك يدفنونها خارج المدينة في مكان منعزل.

فقال والدي: هي حيلة منهم للتستر على هذه الجريمة المزدوجة. وكيف يُعقل أن يُلبسوا على هؤلاء الجثة وعلى جميع الناس بهذه الطريقة الشنيعة، فيقدم جثمانَ راهب يؤمن بالتثليث على أنه جثمانُ خليفة المسلمين. إنها كارثة وخزي عظيم. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. هذا أمر لا يُحتمل، ولا شك أن أهل قرطبة لن يسكتوا عن هذا الكذب، وسيكتشفون التدليس، لكنني أخشى إن طال الأمد أن يقتلوا هشامًا.

خطر ببالي قول حكيم مَعرّة التُّعمان لما تحدّث عن تراحم الأضداد، فابتسمتُ من سخرية الحياة.

أما المهدي المنقش فقد أسرف في غيّه وأغرق في مُعاقرة خوابي الخمر وجمّع أهل الزمر والمجون والخلاعة من حوله، وتحدّث الناس عن تعشّقه بفتى صقلبيّ وجارية تُدعى بُستان كانت عند أبي القاسم المصري من جماعة الخياليين، وجارية أخرى اسمها واجد. فكان لا يُفوق من سُكره ولا يُقلع عن غيّه ودعارته حتى تندرّ الشعراء بسيرته المخزية:

أميرُ الناسِ سخنةُ كلِّ عَيْنٍ يبيت الليلَ بين مُخنّثَيْن

يُجَسِّمُ ذَا وَيَلْثِمُ خَدَّ هَذَا وَيَسْكُرُ كُلَّ يَوْمٍ سَكْرَتَيْنِ  
لقد ولّوا خلافتهم سفيها ضعیف العقل شینا بعد زین  
ثم حدثت الفتنة، فنفي المهدي من قرطبة كثيرا من الفتيان  
الصقالبة العامريين، وأساء إلى زعماء البربر وعامتهم، وانتهبت  
عامّة قرطبة دورهم وهتك حريمهم وسبيت نساؤهم وبناتهم وبيعت  
وقبلت النساء الحوامل وعمت الفوضى والفتنة ورحل كثير منهم  
خارج قرطبة. ثم قام بعض الأمويين على المهدي، وأول من فعل  
ذلك هشام بن سليمان بن الناصر، الذي تأمر على البربر وسمّوه  
الرشيد فزحف على قصر قرطبة وحاصر المهدي، لكنّ هذا الأخير  
استطاع أن يتغلّب عليهم بعد يوم وليلة من الحصار فقتل الرشيد،  
وانتقمّت عامّة قرطبة من البربر فأحرقوا دورهم وانتهبوا، وشرّدوا  
كثيرا منهم وفرّ الباقون حتى التأموا مع جموع الساخطين على  
المهدي.

ثم أقام البربر إماما ثانيًا عليهم لقبوه بالمستعين، هو سليمان  
بن حكم ابن أخي الرشيد، فاستعان بالنصارى لدخول قرطبة.  
حاول المهدي كسب وُدّ المسلمين ليساعده في ردّ الجيش الجرّار  
الذي تحالف فيه البربر والنصارى للانتقام ممّا فعله بهم القرطبيون  
من قبل، فأخرج هشامًا المؤيد الخليفة الذي كان ادّعى من قبل أنّه  
قد قُتل، فتعجّب الناس من هذا الأمر، لكنني كنت أعرف الحقيقة  
أنا ووالدي.

ورغم ظهور هشام المؤيد من جديد، فإنّ ذلك لم ينفذ  
المهدي من نقمة أعدائه البربر الذين دخلوا قرطبة بمساعدة جيش



شانجة بن غرسيّة فاحتلّوها وقتلوا الآلاف من أهل قرطبة. كانت واقعةً ازدوجَ فيها الانتقام من البربر الذين انتقموا ممّا لحقهم من قبل، ومن النصارى الذين كانوا لا يتجرأونَ على المسلمين، فأضحوا اليومَ في قرطبة قلبِ الخلافة. عجبًا لتبدّل الأحوال وتعاقب الأيام، وكيف يُصبحُ الذليلُ عزيزًا، والعزيرُ ذليلاً!

لم أكن أخرجُ من دارنا ولزمتها بعيدًا عن هذه الفتنة التي عُرفتْ بالفتنة البربريّة، وهي أحقُّ أن تُسمّى فتنةً هذا الدّعِيّ المسمّى بالمهدي الذي كان سببَ حدوثها بطيشه وسفاهته. وقد ظلم البربرُ في هذا كما ظلم غيرهم، لأنّ العصرَ كلّهُ كان عصرَ نكبات وفتن، وكان لوالدي بعض المعارف من البربر، فلما دخلتُ سنّة أربعمائة وهُزم القائد واضح الصقليّ الذي كان موالياً للمهدي في مدينة سالم ونواحيها، ومَلَكَ البربرُ تلك المنطقة، حفرَ المهدي خندقًا في فَحصِ السرايقِ الذي كان يسكنه البربر في قرطبة حتى يفصلَهُم عن باقي المدينة، لكنّ أهلَ قرطبة ارتأوا أن يبْطِشُوا بهم، فاستتر كثير منهم وآوينا في بيتنا بعض وجوههم من معارف والدي.

كانت الثورة التي حدثت في قرطبة منذ استيلاء المهدي على الخلافة قد جرّأتِ العامّة، فظنّوا أنّ الحشودَ تصنعُ التاريخَ وتُغيّرُ الواقعَ فاهتبلوا بقوتهم واستنقصوا خصومهم من البربر. إنّ أسوأ فتنة يمكن أن تقع هي فتنة ارتصاصِ الحشود مع بعضها بعضًا، حتى تتوهّم أنّ لها قدرةً على فعل المستحيل، ثم تبدأ تتصرّف لا كأفراد بعينهم بل كحشود هادرة تكسر كلّ شيء وتُفني كلّ ما يعترضها. ففي لمحة قصيرة تُوجّهُ التّهم إلى كلّ معترض حتى ولو

كان من الحشد، ثم يُحاكم علناً ويُقتَصُّ منه في الحين. هذه هي عدالة منطق الحشود. هكذا كانت تسير قرطبة نحو الهاوية، وتُبَدَّرُ كلُّ رأسمالها الحضاري السَّمح الذي بنته منذ قرون خَلَّتْ.

خرجت هذه الحشود الغاضبة تقتل جيرانها من بربر قرطبة وأرباضها، فلم يكن يقع بين أيديهم أحد إلا مزقوه إربًا إربًا، ثم خرجوا يطلبون مُنازلةً جيش البربر القادم نحو مدينتهم. تقدّم القائد واضح المهزوم بما بقي من فرسانه حتى نزل في أرملاط يوم الأربعاء قبل ليلة المولد بيوم. وفي يوم السبت الذي بعده وقعت المعركة بين جيش البربر وجيش قرطبة الذي كان مكوّنًا من فرسان القائد واضح؛ أمّا باقي الجيش، فكان من عامّة قرطبة فيهم شيوخ وأطفال يحسبون أنّهم سيُغيّرون ميزان القوى ويتغلّبون على جيش البربر، لكنّ الأمر كان بخلاف ذلك، فهزمهم البربر وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وغرق منهم من غرق في الوادي وهرب القائد واضح إلى الثغر.

فلما رأى ابن عبد الجبار المهدي هزيمته، أظهر هشام المؤيد وأقعده على إحدى شرفات القصر بحيث يشرف على باب الشكّال والقنطرة حتى يراه الناس، ثم دعا القاضي ابن ذكوان لكي يذهب إلى البربر ويُعلّمهم بأنّ المهدي حاجبُ الخليفة ونائبُ عنه. فلما وقف أمام سليمان المستعين ورجاله من البربر أخبرهم بمقالته التي سمعها من المهدي، فضحكوا عليه وسخروا منه قائلين: سبحان الله أيّها القاضي، يموت هشام بالأمس وتصلّي عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافةُ إليه.

وأخذوا يضحكون حتى خجل القاضي واعتذر لهم. أما ابن عبد الجبار فإنه اختفى من القصر. فلما كان يوم الاثنين خرج أهل قرطبة إلى سليمان فأحسن لقاءهم وردّهم سالمين، ثم دخل القصر مع زاوي بن زيري أحد زعماء البربر. ثم نودي لبيعة لسليمان في المسجد الجامع فبايعه الناس ولُقّبَ بالمستعين بالله. بقي المستعين يياشر الحكم مع حلفائه من البربر، أما ابن عبد الجبار فكان ينتقل من دار إلى دار متخفياً لا يصحو من السكر، ثم هرب أخيراً إلى طليطلة في جمادى الأولى من السنة نفسها فاستقبله أهلها وأعلنوا طاعته. أما عامة أهل قرطبة فكانت تكره البربر، لكنّ هؤلاء أبانوا عن حكمة ورزانة وصبر، بحيث لم ينتقموا منهم رغم الاعتداءات المتكررة عليهم في الأسواق.

كان القائد واضح الصقليّ يرتّب الأمور ضدّ البربر، لكنّه أظهر الطاعة لسليمان وادّعى أنّه يريد الاعتزال والاستقرار في مدينة لورقة للعبادة، فأمره سليمان أن يمكث في مهمّة الجهاد للدفاع عن منطقة الثغر. استغلّ واضح الأمر واتّصل بالنصارى، ووافق على تسليمهم مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط بعدما أفرغها من سكّانها المسلمين نظير مساعدة النصارى له في قتال البربر. فكان أوّل ما فعلوه لما تسلّموا مدينة سالم هو دخول الجامع وضرب النواقيس فيه وتحويل قبلته، ثم اشترطوا على واضح شروطًا وافق عليها، ومنها تمويل جيشهم وتسليم الغنائم التي سيحصلون عليها، بما في ذلك نساء البربر واستحالة دمائهم وأموالهم، وشروطًا أخرى.

وكأنّ الكوارث الطبيعيّة والأوبئة قد انضافت إلى الكوارث

السياسية التي حدثت في البلاد، فظهر الطاعون في ذي القعدة الذي وافق بداية صيف ٤٠١ هـ. وأودى بحياة كثيرين، ومنهم شقيقي الذي لقي حتفه. فأصابنا حزن شديد على فراقه، واحتسبنا أمرنا لله على هذه الفواجع المتتالية. أما زوجته عاتكة فكانت تبكيه ليل نهار حتى ذبلت وركبها المرض وعلاها السقام، وتقول لأمتها وجواربها: «ما يُقَوِّي صبري ويمسكُ رمقي في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سروري وتيقني أنه لا يَضُمُّهُ وامرأة مَضْجَعٌ أبداً، فقد أمنتُ هذا الذي ما كنت أتخوَّفُ غيره، وأعظمُ آمالي اليوم اللُّحاقُ به».

ثم جاء السَّيْلُ وفاض نهرُ قرطبةَ على امتداد ثلاثة أيام، فسقطت الدور ومات فيه آلاف الناس وذهبت أمتعة الناس وأموالهم. كثرت الأراجيفُ، وتسامع الناسُ على أن سبب هذه الكوارث تصرفاتُ وَاضح وشيعته.

لَمَّا رأى والدي تحالفَ واضح مع النصارى ضد المسلمين استشاطَ غيظًا وانحاش للبربر وسلطانهم. أمّا واضح فقد قاد جيشه برفقة جيش النصارى فاحتلوا سرقسطة وسأموا أهلها الحُسنف والذُّلَّ، ثم تقدّموا نحو طليطلة ليجتمعوا بابن عبد الجبّار الخليفة المخلوع. ولَمَّا بلغ الخبرُ قرطبةَ أعلن سليمانُ المستعينُ بالله التّفيرَ في قرطبة لقتال الإفرنج. التقى الجيشان وكرَّ الغزاةُ على قرطبة فنالوا منهم في أوّل صدمة. فلَمَّا رأى سليمانُ تخريقَ صفوفِ جيشه انهزم وفرَّ، لكنّ البربرَ صدّوا الغزاةَ في المرّة الثانية وقتلوا مَلِكَهُمْ ووجوه فرسانهم. ولَمَّا رأوا انهزامَ سليمان وفراره انحاشوا إلى

الزاهرة، وأخرجوا عيالهم وأموالهم وأولادهم حتى لم يبق منهم أحد. ولحق بهم بعضُ معارفِ والدي الذين كُنَّا قد أجرناهم.

ولمَّا رأى عامَّة قرطبة خروجَ البربر دخلوا الزاهرة وانتهبوا، ربَّما في ذلك الجامع الذي نهبوا حُصْرَه وقناديله وصفائحَ أبوابه. وجاء ابن عبد الجبَّار مرَّة ثانية إلى قرطبة فدخلها، واسترجع ملكه وأخذ البيعة لنفسه، فكان أوَّل من بايعه هشامُ المؤيَّد ثم سائرُ أهل قرطبة. ولمَّا استوثق من أمره طلب كلَّ عَدَوِيٍّ<sup>(١)</sup> أو من كان يتشبهه بالبربر أو يناصرهم فقتل منهم خلقًا كثيرًا. وكان والدي ممَّن شملهم هذا الانتقام، فجاء القائد واضح الصقلبيِّ إلى بيتنا في بلاط مغيث مع جملة من رجاله، وكان يكره والدي لمنافسة سبقت بينهما، فدخل دارنا وأمر رجاله أن ينهبوا، فلم يُراعوا حرمةً ولا ذمَّةً وأخفروا جانبنا، ربَّما لا تستحمله النفوس الكريمة.

كنت واقفًا أحجزُ هؤلاء الأوباش عن تعنيف نَعْم أو ترهيبها، فَعَلِقْتُ خلفي تمسِكُ بكتفي مخفية خلف نقابها ترمُقُ بعيون وجِلَّة هذا الكدر المباعث. كانت تَغْرِزُ أظافرَ أصابعها في كتفي بسبب ما كان يجيش في صدرها من فزع ورعب، امتدَّ في كلِّ ذاتها وسرى حتى مخارج كفيها، فنالني منه نصيب، لعلَّ ألهني كبرياء أمام سخرية هذه اللحظات فصبرت على وَخزِ الأصابع. نظرت إلى الصقلبيِّ فَعَبَّرْتُهُ بنظراتي، فلم يجد بُدًّا من وضع يده على طُبا حُسامه يتهددني بذلك. مرَّ بذهني خاطرٌ خَفَّف من حِدَّة ما يجيش

(١) من سكان العُدوة، أي الساحل الجنوبي لبحر الزُّقاق، وهم أهل المغرب.

بداخلي من كبرياء واحتقار للناهيين، وأدركت أنّ الشجاعة المفرطة في هذا الموطن لن تجلبَ إلّا مزيدًا من العار والنكال عليّ وعلى نُعم وأهل بيتي. لم يكن الصقليّ الحصريّ فحلًا حتى يُدرِكَ قيمة الدُّودِ عن الحُرّمات، فلم يكن له ذوق في هذه الدقائق التي يُمتَحَنُ بها الرجال، فمن أين له أن يدركَ مشاعرَ الغيرة والأنفّة وحِفْظِ الأعراض؟ إنّ «الحصريّ ليزهو بِذِكْرِ أبيه»، كما يقول عامّة أهل الأندلس عن هؤلاء. أَشَحْتُ بنظري عنه، فابتسم ابتسامة سخرية، ثم أدار ظهره وانقلب من حيث أتى مع رجاله. لم تمهلني نُعم حتى ارتمت في أحضاني تُطَوِّقُني وتَدْفُنُ رأسها على صدري، وبدأت تبكي بدموع حَرَى وتفتّر بكلمات مبهمّة لعلّها كانت تتساءل عن معنى ما حصل. لم أكن أملكُ الجوابَ حينما مَلَكَتْ هي السؤال. وكم هو عجيب أن يتساءل المرء حينما تَدَهَمُهُ المصائب، فلا يملك أن يقاومها إلّا بالسؤال لعله يدفعُ به بعض معاناته. وهكذا فعلتُ نُعم، كانت تسألني تريد جوابًا. ومن أين أملكُ الجوابَ عن سؤال يُفني كلّ جواب؟

لماذا، لماذا، لماذا؟ رَدَدْتُهَا مرارًا حتى ردعتها كي تكفَّ عن تعذبي بهذا السؤال الحارق، الذي أحالني على ضعفي وهواني وقلة حيلتي أمام بأس الأعداء، ومُنقلبات الدهر ونكبات الحياة. صرت أتفكّر في وقت لا فكّر فيه سوى للشرود، وطفقتُ أسائل نفسي، هل الشرودُ فكْرٌ، أم هو تعطيلٌ للفكر، أم هو حالة من التّيه التي تلبسُ العقلَ والكَيانَ كلّهُ فلا يتوقّف عن شيء، فتراه يسير مع كلّ خاطر إلى منتهاه، ثم يعيده المرّة تلو الأخرى، وبعد

ذلك ينتقل من غير طفرة في المكان ولا في الزمان سوى طفرة ما يُحدِّثُه فيه الشرود، إلى خاطر آخر. تلك كانت حالي، ولعلّ سؤالٌ نَعْم نفحنى بهذا الإدراك حول الشرود. إنّ العقلَ مربوطٌ دومًا بمحدّداته ومُكَيِّفاته التي تأتيه من كلّ ناحية من زمان ومكان وأشخاص وأحوال وأفكار وغيرها، فانفكَّ عن عقّاله بفعل الشرود وانطلق حُرًّا بعدما كان معقولاً بتلك المظروفات. إنّها حرّيّة العقل التي لا تَشِعُّ إلّا في لحظات الأسى وحصول الدّواهي، لكنّها حرّيّة خَطِرة تلاميِسُ الموت والجنون. حينما يشتغل العقلُ في أحواله العاديّة يُنتِجُ الفِكرَ، لكنّه حينما ينطلقُ من عقّاله يَشْرُدُ بلا فكر، أو يعتريه هذيان تسيّل به أفكار مختلطة ومتقطّعة.

عادت نَعْم تسألني سؤالها الحارق: لماذا، لماذا، لماذا؟

صرخت في وجهها على غير عادة: كفى، كفى، كفى.

ومددتُ كفى نحو شفيتها أريدُ إطباقَهُما حتى لا تُعيد السؤال. كانت تسألني عن العِلّة والسبب فيما حصل، ومن أين لي أن أُحيط بالعِلّة، ونحن في قلب العِلّة والمحنة؟

كفّت نَعْم عن السؤال، واخترمها النّحيب كما يخترم الموت الإنسان. لم أتمكّن من وداع والدي الذي سيّق إلى السجن مع زبانيّة واضح الصّقليّ كما يُساق السفهاء واللصوص. لقد فات الحزمُ في قرطبة حينما أخذوا أحمدَ ابن حزم.

خرج العُتاة الظلمة وتركوا البيت قفرًا شاردًا عمّا حصل. وتعالى النّحيب من نسوة البيت، فلم يكن بُدٌّ من ذلك لإخمداد

حرائقِ الباطن المتألم بنكبة هذه الساعة. أدركتُ أنني دخلت في طورٍ جديد، وتلك قصّة أخرى لعلكم تسمعونها أو تقرأونها في حينها.

\*\*\*

كان البلاء الذي حلّ بنا شديداً، إذ لم يسبق أن عرفنا مثل هذا الذلّ، وزاد من شدّته غيابُ أبي الذي أودعَ السجن، فكانت تلك بداية كلِّ النكبات التي حصلت لي، وأظنّ أنني أدركت معنى الرجولة مع حصول هذه النكبة، إذ كان غيابُ أبي عنوانَ تحمّلي مسؤوليات كبيرة في المحنة.

اعتُقل أبي وامتحنّا بالإغرام الفادح والاستتار عن الأعين، وهي الإقامة الجبريّة في دورنا، والترقيب وهو المراقبة والرصد لجميع حركاتنا.

لم يخفّف عناّ عناء هذه الصدمات سوى شيوع هذه النكبة في أسرٍ أخرى في قرطبة. وتتابعت حملة تصفية المعارضين مُدّةً كانت كافية لجمع ما يلزم من الأموال قصد تجهيز جيش من الرّعاع، بعدما لم يُعدّ في الأندلس جيش يحمي البلاد جرّاء السياسات الخرقاء التي انتهجها شنجول وتالتت من بعده إلى اليوم. كان واضح الصقلبيّ يعلم أنّ بأسه لا ينفع في غياب مال يدفعه لرجاله، فارتأى أن ينتقم من الأسر التي كانت تعطف على البربر، لكنّ الحقيقة هي أنّه كان يطمع في جمع هذه الأموال لِيُسكّت بها رجاله ويرشي بها المرتزقة من حلفائه الإفرنج.



بعد انتهاء عمليات تصفية الخصوم في قرطبة، خرج ابن عبد الجبار مع أنصاره في إثر البربر، لكنه هُزم مع حلفائه من الفرنجة، فرجع خائبًا إلى قرطبة منتظرًا أن يحاصر أعداؤه المدينة ومعهم حليفهم سليمان الملقب بالمستعين. وحفر ابن عبد الجبار خندقًا ثم بنى سورًا خلفه ليحول دون دخول جيش البربر إلى قرطبة.

كانت مصيبتنا بمصادرة أموالنا وسجن الوالد لا شيء أمام الانتهاكات الجسيمة التي حدثت في قرطبة في هذا الإبان، فقد استولى واضح على أموال الأحياس (الأوقاف) المودعة في المسجد الجامع، وسلّمها لحلفائه من الإفرنج، مع أنّ هذا أمرٌ حرام! وازداد هؤلاء طغيانًا بالسُّخرية من المسلمين وازدراء النبي عليه الصلاة والسلام من دون أدنى مُضايقة. أمّا مَنْ كانت له عداوةٌ مع أحدٍ فيكفي أن يتَّهمه بأنه من سُكَّانِ العُدوة حتى ينال منه ما يُريد، حتى ولو لم يكن كذلك. وتوالى الهزائم على ابن عبد الجبار وهو مُمعنٌ في فسقه والتضييق على الناس، فاتَّفَق واضح مع جماعة من عبيد العامريين على الانتقام منه، فدخلوا وقتلوه وحزّوا رأسه ورمّوا بجثته على الرّصيف، وبعث واضح برأسه إلى سليمان المستعين بالله أمير البربر، ونُصِبَتْ جثته أيتامًا ثم دُفِنَ في مِرْحاض تحت حَشَبِ المصلوبين، فارتاح الناس من شرّه وجوره.

وفي يوم مقتله كان قد بُويِعَ مرّةً أخرى لهشام المؤيد، وذلك يوم الثامن من ذي الحجة سنة أربعمائة للهجرة، وعيّن واضح الصقليّ في مَنْصِبِ الحِجَابَةِ، وبعث يطلّب من البربر الدُّخُولَ في طاعته لكنهم رفضوا بسبب ما لحقهم من الظلم على يد واضح

ورجاله . وقد نَقَمَ الناسُ عليه التَّجَاةَ إلى البربر . وهذا ما عَجَّلَ سوءَ خاتمته إذ غَدَّى أعداؤه، وعلى رأسهم القائد ابن وداعة، مساوئنه عند عامَّة قرطبة . وحدثتْ نَكَبَاتٌ لأهل الأندلس، وانتَقَمَ منهم البربرُ شرًّا انتِقَامَ في قرطبة ومالقة والبيرة والجزيرة وغيرها من المدن . وحوصرت قرطبة حتى هَلَكَتْ من الجوع، وطالب حلفاؤها من الإفرنج تَسْلِيمَ الحُصُونِ التي تعهَّدوا مِن قَبْلِ تَسْلِيمِهَا لهم نَظِيرَ نُضْرَتِهِمْ على البربر، فَأَدْعَنُوا لِذَلِكَ صَاغِرِينَ . كَثُرَتِ النِّكَبَاتُ وَتَوَالَتِ المَصَائِبُ وَعَدِمَ هشامٌ وَحَاجِبُهُ المَالُ لمحاربة البربر، وسُدَّتْ في وجوههم كلُّ الأبواب، فكان من نتيجة هذا أن استاءَ الناسُ من سياسةٍ واضح، فقامَ إليه القائد ابن وداعة فَقَتَلَهُ وَطَافَ بِرَأْسِهِ في قُرْطَبَة، وَأُلْقِيَ جَسَدُهُ بِجَانِبِ جُنَّةِ المَهْدِيِّ الذي كان قد قتلَه . فعَيَّنَ هشامُ ابنَ وداعةَ على شُرطة المدينة . ثم حصل فيضانٌ في أحد أرباضِ قُرْطَبَة فَهَلَكَ فيه خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَذَهَبَتْ دُورُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَتَهَدَّمَ السُّورُ وَالدُّورُ وَالمَسَاجِدُ وَالقَنَاطِيرُ، وَغَلَّتِ الأَسْعَارُ وَحَلَّتِ المَجَاعَةُ حتى أَكَلَتِ المَيْتَةَ وانتشرتِ الرذيلة .

وأمامَ هذه الشرور، استَقَرَّ رأيُ كثيرينَ في قرطبة على طلب الصلح مع البربر، فَبَعَثُوا لهم برسالة مَوْقَّعة من هشام المؤيد مفادها أن يَقْبَلُوا بِبَيْعَتِهِ وإِسنادِ ولايةِ العَهْدِ لِسُلَيْمَانَ . فَلَمَّا وَصَلَتِ الرِّسَالَةُ رَفَضَهَا سُلَيْمَانُ وَالمُبربر .

وفي خِضْمِ هذه النِّكَبَاتِ، لم يَتَحَمَّلْ والدي السُّجْنِ على شيخوخته، ولا ما آلَ إليه حالُه وحالُ أسرته، فَتُوُفِّيَ بعد العَصْرِ يومَ السبتِ لِلْيَلْتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ ذِي القعدة عام اثنتين وأربعمائة عن سنِّ

تفوق أربعة وسبعين عامًا بقليل، فحزنتُ عليه كثيرًا. ثم اتَّصَلتْ  
النَّكبات علينا فماتتْ عاتكةُ زوجةُ أخي عامًا بعد وفاته يومًا بيوم.  
مرضتُ نَعْم من توالي هذه النكبات، وضمُرتُ حتى أصبحتُ نحيفةً  
الجسم، ذابلةً العينين، شاحبةً النظرات. كنتُ أسألها عن سبب  
هذا المرض فتنظرُ إليَّ نظرةً ملؤها الأسى والعجز، فأتلوَى حزنًا  
في صمت، وأصومُ عن الكلام في ضِراعة، لكنني ما كنتُ أفارقها،  
إذ كنتُ أخشى أن يخترمها الموتُ في غيبتني. وكلما كنتُ أهمُّ  
بالذهاب لقضاء بعض أغراضني كانت تُمسِكُ بِكُمِّي وتنظرُ إليَّ  
نظرةً، فأجلسُ إلى جانبها وأقبلُها على جبينها، وأدْفِنُ رأسي في  
صدرها حتى لا ترى بكائي الصامت. لم أكن أريدُ أن أزيدَ من  
حزنها حتى لا أضعفَها. لقد صامتُ نَعْم عن الكلام خلال هذه  
الفترة. قاومتُ مرضها بشجاعة نادرة، وفي الأخير انصرمتُ  
مُقاومتها ولم يبقَ فيها ما يُقاوم، فأخذتُ مِنِّي كما أخذَ مِنِّي والذي  
فتضاعفَ حزني وغمِّي، وكدتُ أجنُّ على فراقها، ولم أتمنَّ  
الموتَ كما تمنيتُهُ يوم فارقتني. ومما زاد من هُمومي لما أقمنا  
جنازتها حضورُ نُصار التي كانت قد انقطعت عني أخبارها. رأيتها  
في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادر. فلما التقي  
نظري بنظرها أثار في القلبَ وجْدًا دفينًا وحركت ساكنًا، وذكَّرتني  
عهدًا قديمًا فجددتُ أحزاني وهيَّجتُ بلائلي وتوقدتِ اللوعةُ من  
جديدٍ وتضاعفَ الحُزنُ والأسى واستجلبَ الوجدُ ما كان مطويًا في  
عقدِ السرائر. لم أكن أدري من أبكي؟ أنعمًا التي مَضتْ، أم  
والدي الذي هلك، أم حبي المستحيل لنصار؟ كانت مشاعري

مختلطة وأحزاني متراكمة، طبقات بعضها فوق بعض. ما أتعس  
الإنسان حينما يتقلَّب من نعيم إلى جحيم، ومن بهجة إلى كمد! ما  
أتعس الإنسان حين يَضْطَرُّ أن يختارَ على أن لا يختار! لم أملك  
أن أنشدُ لنفسي قائلاً:

يُبَكِّي لِمَيِّتٍ مَاتَ وَهُوَ مُكْرَمٌ وَللْحَيِّ أَوْلَى بِالذُّمِّوعِ الدُّوَارِفِ  
فَيَا عَجَبًا مِنْ آسِفٍ لَامِرٍ نَوَى وَمَا هُوَ لِلْمَقْتُولِ ظُلْمًا بِآسِفِ

\* \* \*

## كتاب الميم

أنا الشَّمْسُ في جَوْ العُلُومِ مُنِيرَةٌ      وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنَّ مَظْلَعِي الغَرْبُ  
وَلَوْ أَنَّي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ      لَجَدَّ عَلَيَّ مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي النَّهْبُ  
ابن حزم

\* \* \*

مات والدي وماتت نُعم، وماتت ذكرياتي مع نُصار، وماتت قرطبة، فلماذا أعيش بعد ذلك؟ كانت رائحة الموت تَطُوفُ في كلِّ أرجاء مدينتنا وبلادنا، وأنا بَعْدُ في العشرين، فكيف يموت كلُّ شيءٍ حول المرء وهو في حَدِّ الشباب وزهرته؟ إنها فاجعةٌ كبيرةٌ أن تُقْبَلَ على الدنيا وهي تُدْبِرُ عنك. لم أملكُ إلاَّ البكاءَ فَلَمْ يَرْفَأْ لي دَمْعٌ على فِراقِ الأَحِبَّةِ. لقد انْتَزَعَتْ مِنِّي نُعم، فلم أعْرِفْ كيف أصنَعُ بعدها، إلاَّ. أَنَّ الدَّمْعَ لم يفارقني فأظَلُّ أبكي عليها ليلاً ونهاراً، وأتَحَسَّرُ على فراقها، وتَفْجَعُنِي الوحدهُ من دونها في أنيسِ

الليل وجَلَبَة النهار. وزاد من ثِقَلِ هذه الشهور التي أَهْرَمْتَنِي بلا  
 عَدَد، وسرَّعت من جريان الأَيَّام كأنها مُدَد، أَنِّي لم أَعُدْ أَهْتَمُّ  
 بمظهري ولا بحالي، بل أَصْبَحْتُ لا أَغَيِّرُ مَلابِسي إِلاَّ يَسِيرًا حتى  
 حُسِبْتُ على الزُّهَّاد، وأَقْبَلْتُ على كُتُبِ الرِّفَاقِ وانفَتَحَ قَلْبِي لها،  
 وهانت في عيني الدُّنيا وزُخْرُفُهَا. لم يكن يُسْرِي عَنِّي إِلاَّ اللِّقَاءُ  
 بأهل الآخرة مِمَّنْ كانوا في مدينتنا. ولم أَكُنْ أَجِدِ الرَّاحَةَ النَّفْسِيَّةَ  
 إِلاَّ في الحديثِ معهم والجلوسِ إِلَيْهِمْ. أما أَهلُ الدُّنيا فكانوا  
 يَزِيدُونِي عَذَابًا بِكَثْرَةِ تَذَمُّرِهِم والتَّبَاكِي على أوضاعهم، وعدمِ  
 رضاهم عن مآلات الأمور. لم أَعُدْ أَفَكِّرُ حتى في السُّكُونِ إِلى  
 النِّسَاءِ مِمَّنْ كُنَّ يَنْتَظِرْنَ وَيُمَنِّينَ النَّفْسَ لِكِي أَخْلُصَ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ  
 بعد غيابِ نَعْمٍ وانفِتاحِ الفُرْصَةِ أَمَامَهُنَّ. وفي هذه الأَيَّامِ ساءتْ  
 أَحْوالُ كَثِيرٍ مِنْهُنَّ، وَحَرِصَ الأَباءُ على تَزْوِيجِ بناتِهِم بأَبْخَسِ  
 الشُّرُوطِ مَخَافَةَ أَنْ لا يَجِدُوا يَوْمًا أَدْنَى شَرُوطِ يَشْتَرِطُونَهَا على  
 العِرْسَانِ. كان أَهلُ الأَنْدَلُسِ عَامَّةً وَأَهْلُ قَرطَبَةَ خَاصَّةً يَبالِغُونَ في  
 مُهورِ بناتِهِنَّ، وَيُغالون في الشُّرُوطِ التي لا يَقْبَلُهَا إِلاَّ أَبْناءُ الأَكابِرِ  
 مِمَّنْ لَهُمُ القُدْرَةُ على إِرضاءِ اشْتِراطاتِ غَيْرِهِم مِنَ القَرطِبيينَ. أما  
 اليَوْمَ لَمَّا لائتْ هذه الفِتْنَةُ بِحاضِرَةِ بلادنا، فقد قَبِلَ النَّاسُ بِأَقْلٍ  
 المُهورِ وأدنى الشُّرُوطِ لِتَزْوِيجِ بناتِهِنَّ. وكم فاتحني أَناسٌ في  
 فَلذاتِ كِبَدِهِنَّ، لَكِنِّي كُنتُ أَتَعَلَّلُ بِحالي ورُزْءِ الأَيَّامِ لي في أَعزِّ  
 النَّاسِ فيَقنَعُونَ مِنِّي بِالْجِوابِ رِشْمًا تَنْفِرُجُ الأمورَ. لَكِنِّي عَقَدْتُ رُزْأَ  
 سِرْوالِي ولم أَتَجَرَّدَ عن ثِيابي لأَيِّ امْرَأَةٍ. وفي خِصْمِ هذه النِّكباتِ  
 أَذْرَكْتُ قِيمَةَ الوِفاءِ في الفِرَاقِ. تَمَنَّيْتُ فِداءً نَعْمَ بِكُلِّ ما أَمْلِكُ، بل

بنفسي وروحي وأعضاء جسمي العزيزة عليّ مؤثراً بها. لم يَطْب لي عيشٌ ولا استكُنْتُ إلى لَهْوٍ بعد مَوْتِ نُعم، ولا أُنِسْتُ لغيرها ولا تعشَّفتُ سواها. أُخِذْتُ عَنِّي في غفلةٍ مِنِّي فما سَلَوْتُ، وَيَشْهَدُ الله أَنِّي ما عَرَفْتُ حُبًّا كَحُبِّهَا ولا تعشَّفتُ بعدها بغيرها. بَانَتْ عَنِّي ولم تَهْجُرْنِي، وَطَفِقتُ أَقْلُبُ الاحتمالات بين البَيْنِ وَالهِجْر، وَأَيُّهما أَشدُّ على النَّفس. لم أَجدُ بُدًّا من الاعتراف مع نفسي أَنَّ البَيْنَ أَشدُّ وطأةً من الهجر للنفوس الحنَّانة الثابتة كحالي اليومَ بعدما فارقتني نُعم، والموتُ عندي أهونُ من البَيْنِ والفراق. وَأما الهجرُ فَإِنَّه داءٌ للنفوس الملوَّنة القليقة، ولا يُسليها إِلَّا البَيْن. وقد يَحْدُثُ للناس أَن يَتَسَلَّوا بِهَجْرِ المحبوبِ تَحَوُّظًا من وَقوعِ البَيْنِ، لكنِّي لم أَكُنْ أَرْضَى بِمثلِ هذا لِأَنَّهُ استعجالٌ للبلاءِ قبل وَقوعِهِ، وَتَجَرُّعٌ لِلعُصَّةِ قبل نُزولِها. وهذا يُشبهُ حالَ غَنِيِّ يَعيشُ عِيشَةً فَقْرٍ مَخَافَةَ أَن يُصَبِحَ فقيراً، أو حالة رجل يَعيشُ قَربَ عَينِ ماءٍ زَلالٍ فلا يَرتوي منها، وَيَظَلُّ على العطشِ وَيُمسي خَشِيَةً أَن تَغِيضَ العَينُ وَيُعَدِّمَ الماءَ. فما أَجْهَلَ هؤُلاءِ بِتَضْييعِ الحاصِلِ والتعلُّقِ بموهوم.

أَمْضِيَتْ سَنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فِي قَرطبةِ على حالٍ مِنَ البَدَادَةِ وَالتَقَلُّلِ، لكنِّي انصرفتُ إِلَى العِلْمِ، وانخلعتُ عن سيرتي السالفة. صرتُ كالصخرةِ وَسِعِيَتْ فِي أَن تَتَفَجَّرَ منها عَيونِي الثَّنْتِي عَشْرَةَ: العَينِينِ وَالأذُنِينِ وَالْمِنْخَرِينِ وَالْفَمِ وَالثَّدِيبِينِ وَالسَّبِيلِينِ وَالسُّرَّةَ. هذه هي العَيونُ التي تنفجرُ من هذه الصخرةِ الأدميةِ. فَمِنَ العَينِ يَخْرُجُ الدَّمعُ، وَمِنَ الأذُنِ يَخْرُجُ الصَّمغُ، وَمِنَ المِنْخَرِ يَخْرُجُ المُخاطُ، وَمِنَ الفَمِ يَخْرُجُ اللُّعابُ، وَمِنَ الثَّدِي يَخْرُجُ الحَلِيبُ، وَمِنَ السَّبِيلِينِ

تخرج عدّة أشياء، ومن السُّرّة يرتبط الجنين مع أمّه فيأتيه منها الغذاء. هكذا خُلِقَ الإنسان. كلُّ صخرة تطلبُ البحرَ حتى تنكسرَ أمواجه عليها، ولا بُدَّ لي من بحر العِلْمِ لكي تنكسرَ أمواجه على صخرتي، فأُحْمِلُ صخرةَ جسدي في هذا الكون، كما حَمَلَ مِنْ قَبْلُ المايكرو سيزيفُ في أساطير الإغريق صخرةَ هذا العالمِ يرجو أن يصلَ بها إلى قِمَّةِ جَبَلٍ، لكنّه ظلَّ يُكرِّرُ هذا الأمرَ إلى الأبد، والصخرةُ تندرجُ كلَّ مرّةٍ من القِمَّةِ إلى السَّفْحِ. لكنني سأحْمِلُ صخرتي مِنِّي إِلَيَّ لأُقَارِعَ بها أحجارَ العالمِ وصخراته، وأرجو أن لا ألقى نَفْسَ مصيرِ سيزيف في عذابه الأبدي، لكنني أُوَمِّلُ لقاءَ الماءِ وألتقي بِسِرِّ البحرِ في الأعالي أو عند البرازخ. هذا العالمِ جِسْمٌ كُلِّي يستدعي الظهور، والحاكِمُ عليه هو الاسم الإلهي «الظاهر»، فلأَحَقِّقُ معنى الظهور والظاهر بدءًا من النصوص المؤسّسة للاجتماع الإنساني.

هكذا تأسَّسَ عَقْدُ إِضْمَارِي بعد ورود هذه الواردات التي بدأتْ نَقَرَ خَاطِرِي، ثم انجَمَعَتْ حتى صَارَتْ إِرَادَةً، ثم تَقَوَّتْ فَصَحَّتْ عَزْمًا، ثم توَسَّلَتْ بِأسباب، فتحوَّلَتْ قَضْدًا إلى أن أَضَحَّتْ يَنَّةً خالصةً مُحَالِلَةً لِكَيَانِي، فَصَارَ العَمَلُ يُحَايِيهَا وَيُوَايِيهَا، وانطاعتْ لها جوارحي بالامْتِثَالِ.

حَدَّثَ كَرٌّ وَفَرٌّ بَيْنَ القَرطبيين وجيش البربر إلى أن اقتحم هؤلاء المدينة يوم الأحد ٦ شوال عام ٤٠٣ هـ. من الباب المقابل لربض شقندة جنوبي قرطبة من الضفة الثانية للوادي الكبير. وبهذه الجهة من المدينة مقابرُ الخشّابين، ومقبرةُ رَبَضِ شُقْنَدَةَ،



وَمُنْتزَهَات. اندفع الجيش الغازي هادِرًا كَأَنَّهُ السَّيْلُ الفَتَاك فِي كُلِّ أَحْيَاءِ قَرْطَبَةَ، وَلَمْ يَسْتَطِع الصَّقَالِبَةُ رَدَّ الهَجُومِ فاندَحَرُوا وانسَحَبُوا عِنْدَمَا أدْرَكُوا أَن لا أَمَلٌ فِي إنْقَاذِ قَرْطَبَةَ، وَأَعْمَلَ العُزْرَةُ سِيوفَهُمْ فِي القَرْطَبِيِّينَ انْتِقَامًا مِنْ كُلِّ مَا مَضَى بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ مِنْ عَدَاوَةٍ. قُتِلَ الشِّيُوخُ والنِّسَاءُ والأَطْفَالُ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ كالأَنْهَارِ فانصَبَتْ مَدِينَتُنَا بِحُمْرَةٍ مُرْعِبَةٍ. وَلَمْ يَنْجُ مِنْ الهَجُومِ الأَجِلَّةُ والصَّالِحُونَ، فَقُتِلَ العَالِمُ الكَبِيرُ مَنْذَرُ بنِ سَعِيدٍ، وَهُوَ شَيْخٌ هَرِمٌ اشْتَهَرَ بِعِلْمِهِ وَوَرَعِهِ، وَكَانَ خَطِيبَ مَسْجِدِ قَرْطَبَةَ مِنْذُ الحَكْمِ المُسْتَنْصَرِ، وَقُتِلَ ابْنُ الفَرَضِيِّ مَوْلَفِ كِتَابِ «تَارِيخِ عُلَمَاءِ الأَنْدَلُسِ»، وَكَانَ قَاضِيًا عَلَى بِلَنْسِيَةِ أَيَّامِ خِلافةِ المَهْدِيِّ، بَيَدِ أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ الشَّهَادَةَ لِمَا حَجَّ، فَمَاتَ شَهِيدًا كَمَا طَلِبَ. وَشَبَّتِ الحِرَائِقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَالْتَهَمَتِ الدُّورَ والقُصُورَ، وَرَاحَ قَصْرُ وَالدِّي فِي الزَّاهِرَةِ وَشَبَّتَ فِيهِ النَّارُ فَأَضْحَى أَثْرًا بَعْدَ عَيْنِ.

وبعد يومين من التخریب، دخلَ سليمانُ قَصْرَ الخِلافةِ، وأمر من نجا بالاصطفاف في طريقه، فأَنشَدَ مُتَمَثِّلًا:

إِذَا مَا رَأَوْنِي طَالَعًا مِنْ نَيْبَةٍ يَقُولُونَ: مَنْ هَذَا؟ وَقَدْ عَرَفُونِي يَقُولُونَ لِي: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا وَلَوْ ظَفِرُوا بِي سَاعَةً قَتَلُونِي

ثم جيء بهشام المؤيد فاعتذر لسليمان وتبرأ من الخلافة وخلع نفسه. وبعد ذلك لم نعد نسمع أخباره، ولعلَّ سليمانَ قَتَلَهُ لِيُنْهِيَ مِحْنَةَ هَذَا الخَلِيفَةِ، الَّذِي مَرَّتْ عَلَيْهِ كُلُّ هَذِهِ النِّكَبَاتِ وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَنْجُو مِنْهَا إِلَى اليَوْمِ، وَسِنَّهُ حِوَالِي ثَمَانِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. سَكَنَ البَرْبَرُ الزَّاهِرَةَ فَضَاقَتْ بِهِمْ، فَعَمَدُوا إِلَى مُصَادَرَةِ أَمْلَاقِ

القرطبيين وطردوهم خارجها، وَلَحِقَ النَّاسَ مَعْرَةً فِي نَسَائِهِمْ  
وَأَبْنَائِهِمْ.

انحسرت دولة الخلافة في خمس مدن لا تتعداها، هي قرطبة  
وإشبيلية ونبلة وأكشنة وباجة. أمام هذه الفواجع قَرَرْتُ أَنْ أُغَادِرَ  
قرطبة، رغم أَنَّ سليمان المستعين كان رجلاً هادئاً كريماً أديباً  
شاعراً، إِلَّا أَنَّ قُوَادَهُ وَجِيْشَهُ لَمْ يَكُونُوا بِمِثْلِ أَخْلَاقِهِ. ومن بديع  
شعره قصيدة عارض بها قطعة للخليفة هارون الرشيد حين يقول:

مَلِكُ الثَّلَاثِ الْإِنْسَاتِ عِنَانِي      وَحَلَلَنْ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ  
مَا لِي تُظَاوِعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا      وَأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عِضْيَانِي  
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى      وَبِهِ قَوِيْنَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

فقال في المعنى نفسه سليمان:

عَجَبًا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي      وَأَهَابُ لِحَظِّ قَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ  
وَأَقَارِعُ الْأَبْطَالِ لَا مُتَهَيِّبًا      مِنْهَا سِوَى الْإِعْرَاضِ وَالْهَجْرَانِ  
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثٌ كَالدُّمَى      زُهْرُ الْوُجُوهِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ

لقد كان سليمان يطمح لأن يصبح مثل هارون الرشيد رغم أن  
هذا عباسي، وهو أموي مرواني، والعداوة بينهما متصلة، لكن  
حبَّ الأدبِ وَطُمُوْحًا خَفِيًّا فِي أَنَّ مَنْ يَمْلِكُ ثَلَاثَ أَوَانِسٍ مُؤَشِّرٌ  
عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَطْمَحُ لِأَنَّ يَمْلِكُ كَمَا مَلِكُ هَارُونَ الرَّشِيدِ مِنْ قَبْلِهِ،  
بَلْ لَعَلَّهُ كَانَ يَحْلُمُ أَنْ يَمْلِكُ كَمَا مَلِكُ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
الْإِنْسَ وَالْجَنَّ، وَلِهَذَا مَدَحَهُ مُتَنَبِّيٌّ وَقَتَهُ ابْنُ دَرَّاجِ الْقَسْطَلِيُّ بِقَوْلِهِ:

سَمِيَّ الَّذِي انْقَادَ الْأَنَامُ لِأَمْرِهِ      فَلَمْ يَعْصِهِ فِي الْأَرْضِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ

لكن هذا الخليفة الأديب لم يكن رشيداً كما كان سلفه العباسي، ولا حاكماً كما كان نبيُّ الله سليمان. وكانت سنوات خلافته تزيد على ثلاثِ قليلاً كالدُّمى الثلاث اللآئي هام بهنَّ. فلم يَدُم ملكه لا لهذه ولا لتلك. ولم يَسْتَطِعْ أن يَدْفَعْ ظُلْمَ جيشه ولا جَوْرَهُ. وأقصى ما كان بإمكانه أن يَفْعَلَهُ، هو أن يُخَفِّفَ من غَلَوَاءِ هذا الظُّلم على أهل قرطبة. لكن رغم كلِّ هذا، فإنه ظلَّ في أعينِ القرطبيين مثلاً للعاصِبِ الزنديق الذي استعانَ بالآفاقيين ونصارى الشمال لِيُعْتَصِبَ عَرْشَ الخلافة.

\* \* \*

خَرَجْتُ من قرطبةَ فاراً بنفسي وما بقي لي من كرامة في حاضرة الخلافة الأموية، التي شَحِبَ لونها حتى لم يبق على وجهها إلا جِلْدٌ مُترهلٌ مُتَجَعَّد.

كانت الدولة منقسمةً إلى ثلاثِ فِرَقٍ: فريقِ الأندلسيين أو البلديين، وهم مزيج من الأمويين والعرب، والبربر الذين دخلوا الأندلس مع الفتح، وأهل البلاد النصارى الذين أسلموا وتعرَّبوا. وفريقِ ثانٍ مُكوَّن من الصقالبة. وفريقِ ثالثٍ مُكوَّن من سُكَّانِ العُدوة من البربر. لقد كسر المنصور بن أبي عامر شوكةَ العصبية القبلية العربية لما استقدم أعداداً كبيرة من البربر إلى الأندلس وجعلهم عمادَ جيشه، واستطاع أن يَحُدَّ من مناوأة البيت الأموي وأنصارهم له. ثم سارَ ابنُه عبدُ الملك المظفر سيرةَ والده في اصطناع البربر وإخماد كلِّ الحركات الانفصالية والمؤامرات الانقلابية التي كان يقومُ بها أشرافُ العرب والمولِّدون. وبذلك

ضَعُفَ تأثيرُ هؤلاء في الدولة، وزاد ذلك من نعمتهم على الدولة العامريّة ببربرها الوافدين وصقالبتها. لكن لما قامت الثورة التي أطاحت بعبد الرحمن شنجول واسترجع الأمويّون السلطة، فقد حرّكت هذه الثورة البربرَ والصقالبة معًا في ثورة مُضَادَّة أتت على الدولة بالكامل، وبدأ معها عصر جديد.

لقد بدأتِ الفتنة البربريّة لما تغلّب سليمانُ المستعين بالله على المهدي وأنصاره سنة ٤٠٣ هـ. وقامت سياسةُ المستعين على إرضاء حلفائه بإسنادِ الرِّياسة على مدن وقرى الأندلس لِقُواده من رؤساء القبائل البربريّة، وكانوا سِتَّة. فأعطى البيّرة لبني زيري ابن مَناد الصنهاجيين، وأعطى جُوفِيّ البلاد لمغراوة، وسلّم جِيان وما وَالها مثل رُنْدَة لبني بُرْزَال وبني يَفْرَن، وشَدُونَة ومَوْزُور لبني دَمَّر وَأَزْدَاجَة، وآلَت سَبْتَة لعلّي بن حَمُود من سُلالة الأدارسة، كما آلت طنجة وأصيلا والجزيرة لأخيه الأكبر القاسم بن حَمُود.

بعد دخول المستعين إلى قرطبة، لم يبقَ أمام الفتيان الصقالبة سوى الفِرار إلى شرق الأندلس لإنشاء دويلات بتلك المنطقة. أما جنوب الأندلس فأصبح بيد البربر، بينما بدأ البلديّون يتجمّعون في سرقسطة وطليطلة وبطليموس وإشبيلية. ولا شكّ أنهم سيؤسّسون ممالكَ لهم في تلك النواحي على غرار الصّقالبة والبربر.

في ظلّ هذه الأوضاع المضطربة، اخترتُ أن أبتعدَ عن قرطبة في محرم من سنة ٤٠٤ هـ. فخرجتُ رفقة صاحبيّ أبي بكر محمّد بن إسحاق، وأبي عامر محمّد بن عامر. لقد فررنا نحن الثلاثة من الاضطهاد، واستقرّ بنا المقام في مالقة. ثم أبي صاحبنا أبو عامر

إلا السفر نحو شرق الأندلس، بينما بَقِيَتْ مع أبي بكر نُدْبَرُ أَمْرَنَا حتى نجدَ وجهةَ أَمَنَةٍ. خرجنا لنودِّعَ أبا عامر، فلم يتمالك أبو بكر نفسه من البكاء، وظلَّ ينتحب. وقفنا على ساحل البحر لَمَّا صعد أبو عامر مَرَكَبًا لِيُقْلَهُ إلى الشرق، وبدأنا نُلَوِّحُ له ونحن في حالة من الحزن الشديد، وكأَنَّا نتوقَّعُ أن لا نراه مرَّةً ثانية، هذا الفتى الذي كانت تُضْرَبُ به الأمثال في المَلَاخَةِ في قرطبة، حتى كان يُقال «أجملُ من وجه أبي عامر». ثم إنَّ أبا بكر أجهشَ بالبكاء وأنشدَ متمثلاً بيت أبي عطاء السُّنْدِي:

ألا إنَّ عينا لم تجذَّ يومَ واسطِ عليك بباقي دَمِهَا لَجْمُودُ  
فصرت أكثرُ التَفَجُّعِ والأسى، وعيني لا تُساعدني على البكاء  
لعلَّه لِحِقَّتْني في قلبي جعلتني أذمُّ على تناول الكُنْدُرِ، فارتجلتُ  
ساعاتها بيتاً شعرياً مناسباً، فقلت:

وإنَّ امرأً لم يُفْنِ حُسْنَ اضْطِبَارِهِ عليك وقد فارقتُهُ لَجَلِيدُ

\* \* \*

بعد فترة قضيتها في مالقة، قرَّرتُ اللجوءَ إلى المريَّةِ إحدى مُدنِ مَوْسَطَةَ الأندلس، التي كانت تضمُّ قرطبةَ وطليطلةَ وجيَّانَ وغرناطةَ ومالقةَ وما يتبعُ كُلَّ واحدةٍ من هذه المدن الكبرى. لقد بنى المريَّةَ الخليفةُ عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ. لتكونَ مَرَقَبًا للساحل الجنوبي الشرقي للأندلس، وقاعدةً بحريَّةً للأسطول الأموي. وسُمِّيَتْ بهذا الاسم لأنها كانت مرأى للمراقبة البحرية. وفي هذا العهد الذي نحن فيه كانت بيد الصقالبة، وكان يحكمها القائد أفلح الصقلبي. كانت المريَّةُ مدينةً على البحر. كنتُ محتاجاً

أن أشعرَ آتي قريبٌ من البحر حتى إذا دهمني داهم ركبْتُ أحدَ  
 المراكب، وأبحرْتُ إلى حيث أجدُ الأمنَ والأمان. بالفعل كانت  
 المريّة مدينةً بحريّةً بامتياز، وفيها تُصنَعُ المراكبُ الكبرى. كما  
 كانت تؤمُّها المراكبُ الآتيةُ من الشرق، لكنني لم آتِها من جهة  
 البحر بل دخلتها من جهة الشمال. وعلى بُعدِ مرحلتين من المدينة  
 تُصادِفُكَ مَنَاطِقُ صحراويةٍ قاحلةٌ غيرَ معهودة في بلاد الأندلس.  
 شعرتُ بحرارةٍ غيرَ معهودةٍ عند دُخولنا في هذا الإقليم ممّا كان  
 معروفاً عند أهل الأندلس عن المريّة، إذ رغمَ وجودِ البحرِ إلّا أنّها  
 تتمتّعُ بمناخٍ حارٍّ جدًّا هو ما يُفسّرُ وجودَ مناطقٍ صحراويةٍ قاحلة  
 في إقليمها. لكنّ فصلَ الشتاء، في المريّة، كان مُعتدلاً ولا تنزلُ  
 فيه الحرارةُ كما في باقي مُدن الأندلس، إلّا أنّ تعرّضها للرياح  
 الشرقية لا تناسب اتّخاذها مَسْتَوًى للسكنى في فصل الشتاء، بسبب  
 ما تحمّله تلك الرياح من غبارٍ ملحيٍّ أبيض تُعربيه عن الصُّخُور  
 المِلْحِيّة المحيطة بالمدينة. صادفتُ تلالاً رمليةً وهضاباً صخريةً  
 وسَبَخات مالحة. لمّا اقتربنا من مَشَارِفِ المدينة بدأتِ الرياح  
 المنعشةُ الآتيةُ من جهة البحر تَقْذِفُ بِدَرَاتِ الرَّمْلِ على وجهي  
 فأشعرُ بِوَحْزِهَا. لا شك أنّ هذه الرياح هي التي نَحَتَتْ هذه  
 التضاريس العجيبة في هذا الإقليم، وكنتُ أُحسُّ أنّها تَنَحَتْ وَجْهِي  
 وتُحِيلُهُ مَالِحًا كالبحر. لقد غادرتني حياتي الحلوة، وبدأتُ طَوْرَ  
 حياةٍ مالحة! كانت هذه الخواطر تَنتابني وأنا على دابّتي التي  
 أحسّْتُ بمثل ما كُنْتُ أُحسُّ، لكنّها كانت مَسْرُورةً بهذه الرياح  
 المحمّلة مِلْحًا. كانت الجبالُ تُحيطُ بالمدينة باستثناء الجهة

الجنوبية. لما وصلتُ قِبَالَتَهَا وَضَوْءُ الْقَمَرِ يَضِيئُهَا، وَجَدْتُهَا رَابِضَةً  
 بَيْنَ جَبَلَيْنِ بَيْنَهُمَا خَنْدَقٌ مَعْمُورٌ بِالسَّكَّانِ. عَلَى الْجَبَلِ الْأَوَّلِ قَصْبَتُهَا  
 الْمَشْهُورَةُ الْمَعْرُوفَةُ بِقَلْعَةِ خَيْرَانَ، الَّتِي بَنَاهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ ثُمَّ  
 عَظَّمَتْ فِي عَهْدِ الْمَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ الَّذِي وَلَّى عَلَيْهَا مَوْلَاهُ  
 خَيْرَانَ الصَّقَلْبِيُّ، فَنُسِبَتْ الْقَلْعَةُ إِلَيْهِ. وَعَلَى الْجَبَلِ الثَّانِي رِبْضُهَا،  
 وَالسُّورُ مُحِيطٌ بِالْمَدِينَةِ وَالرِّبْضُ مَعًا. بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ أُخْدُودٌ يُعْرَفُ  
 بِخَنْدَقِ بَابِ مُوسَى. دَخَلْتُهَا مِنْ بَابِ الْعُقَابِ وَهُوَ بَابٌ عَلَيْهِ صُورَةٌ  
 عُقَابٍ مِنْ حَجَرٍ قَدِيمٍ.

جئتُ من مَدِينَةٍ دَاخِلِيَّةٍ هِيَ حَضْرَةُ الْخِلَافَةِ إِلَى مَدِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ  
 مُؤَلِّيَّةٍ وَجْهَهَا لِلْبَحْرِ الَّذِي تَأْتِي مِنْهُ أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ. مَرَسَى الْمَدِينَةِ هُوَ  
 شِرْيَانُ الْحَيَاةِ فِي الْمَرِيَّةِ الَّتِي يَشْقُهَا نَهْرُ أَنْدَرُوشِ. الْمَاءُ مُشْكَلَةٌ فِي  
 الْمَرِيَّةِ، لِهَذَا حُفِرَتْ جِبَابٌ لِتَخْزِينِ الْمِيَاهِ تَحْسَبًا لِأَيِّ حِصَارٍ. كَمَا  
 أَنَّ لَهَا سُورًا يَحْمِي قَصْرَ الْإِمَارَةِ، وَسُورًا ثَانِيًا يَحْمِي الْمَدِينَةَ مَعَ  
 الرِّبْضِ. كَانَتِ الْقَصْبَةُ عَالِيَةً تُشْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ بِانْحِدَارٍ شَدِيدٍ يَمْنَعُ  
 الْوُصُولَ إِلَيْهَا. مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ يَبْدُو لَكَ الْخَلِيجُ الْوَاسِعُ الَّذِي يَمْتَدُّ  
 عَلَى مَسَافَةٍ كَبِيرَةٍ وَيَحْمِي الْمَدِينَةَ مِنَ الرِّيَّاحِ، كَمَا كَانَ مُلَاتِمًا لِرُسُوِّ  
 السُّفُنِ وَالْمَرَاقِبِ بَعِيدًا عَنِ التِّيَّارَاتِ الْبَحْرِيَّةِ. وَمِنَ السُّفُنِ الَّتِي تَنْزِلُ  
 الْمَرَسَى الْحَرَاقَاتِ الْحَرْبِيَّةِ، وَالْأَغْرِبَةَ، وَالشَّوَانِي، وَالْبُطْسَ  
 الْعَظِيمَةَ، وَالْحَمَّالَاتِ لِنَقْلِ الْغِلَالِ وَمَوْؤَنَةِ الْجِيُوشِ وَالْخَدَمِ  
 وَالصَّنَاعِ. أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ الَّتِي هِيَ رِبَاطٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ كَثُرَتْ  
 الرُّبُطُ فِي بِلْدَانِنَا دَرَةً لِهَجْمَاتِ النَّصَارِيِّ. كَانَ دَخُولِي إِلَى الْمَدِينَةِ  
 بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ فَسَمِعْتُ صَوْتَ تَكْبِيرٍ شَدِيدٍ مُتَّبِعٍ مِنْ أَحَدٍ هَذِهِ

الرُّبُط. وكنْتُ قد قرأتُ للفقِية المَحَدِّثِ المفسِّرِ ابنِ أبي زَمِينِ الأندلسيِّ رحمهُ اللهُ قولَهُ في كتابهِ «قدوةُ الغازي»: «ورأيتُ أهلَ العلمِ يستجِبُونَ التَّكْبِيرَ في العَسَاكِرِ والثُّغُورِ والرَّابِطَاتِ دُبُرَ صَلَاةِ العِشَاءِ وصلَاةِ التَّسْبِيحِ تكبِيرًا عَالِيًا ثلاثَ تكبيراتٍ، ولم يَزَلْ ذلكَ من شأنِ الناسِ قديمًا». ولعلَّهم بذلك كانوا يَشْحَدُونَ هِمَمَ المِجَاهِدِينَ لِيُدْخِلُوا الرُّهْبَةَ والرَّغَبَ على قلوبِ أعدائِهِم. وقد أَفْرَعَتْنِي قُوَّةُ تلكَ الأصواتِ المنبَعِثَةِ من ذلكِ الرِّباطِ عندِ مُرُورِي أَمَامَ بابِهِ، فَحَمِدْتُ اللهُ أَنِّي وَصَلْتُ رِبَاطَ المِريَّةِ.

نَزَلْتُ في أحدِ الفِنادقِ في المِدينةِ القَدِيمةِ قَريبًا من المِسْجِدِ الجامعِ. أُوتِيتُ إلى الدَّوْرِ العُلُويِّ للفِندقِ بعد أن تَرَكْتُ دَابَّتِي في الدَّوْرِ السِّفْلِيِّ. نَقَدْتُ القِيَمَ على الفِندقِ أُجْرَةَ المِبيتِ، وطلبتُ منه تَكْلِيفَ أحدِ رِجالِهِ للعِنايةِ بِفِرسِي والبَغْلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كَانَتَا تَحْمِلَانِ أَمْتَعَتِي وِبَعْضِ الكِتابِ. شُكِرْنِي، ثم نادى على أحدِ رِجالِهِ، وأمرَهُ أن يَأْخُذَ الأمتعةَ ويلحقَ بِهِ إلى الدَّوْرِ الأَعْلَى. طَلَبَ مِنِّي القِيَمَ أن أَتَبِعَهُ وصعدنا إلى الدَّوْرِ الأَعْلَى في مَرِّ قَرَبِ مَدْخَلِ الفِندقِ. كانَ الفِندقُ مُرَبَّعَ الشَّكْلِ، في وَسْطِهِ نافورةٌ ماء. وفي الدَّوْرِ الأَعْلَى بِيوتٌ كَثِيرةٌ أَمَامَهَا مَمَرٌ مَحْجُوزٌ بِدَرَابِزِينَ من الحَدِيدِ المِشْغُولِ شُغْلًا دَقِيقًا في شَكْلِ دَوَائِرٍ حَلْزُونِيَّةٍ مُتَنَاطِرَةٍ. فَتَحَ الغِرفَةَ الفِسيحَةَ وأوقَدَ سِراجًا كانَ في مِشْكاةٍ. وبعْدَ بَرَهَةٍ جَاءَ المِساْعِدُ بِأَمْتَعَتِي فوَضَعَهَا في الغِرفةِ.

نِمْتُ تلكَ اللَّيلةِ نَوْمًا عَمِيقًا جَرَاءَ تَعَبِ السَّفَرِ. وَعِنْدَ الصُّبْحِ اسْتَيْقَظْتُ على صَوْتِ المَهْلَلِ أو مُؤنِسِ اللَّيْلِ يَهْلَلُ بِصَوْتِ شَجِيٍّ.



فَرَكْتُ عَيْنِي وَعَمَدْتُ إِلَى جَرَّةِ مَاءٍ فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي كُوْزٍ وَتَوَضَّأْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ رَكَعَاتٍ لِلَّهِ حَتَّى سَمِعْتُ الْمُؤَنَسَ يُؤَدِّنُ لَصَلَاةِ الصُّبْحِ. صَلَّيْتُ رُكْعَتِي الْفَجْرِ فِي غُرْفَتِي ثُمَّ خَرَجْتُ لِلصَّلَاةِ. كَانَ النَّاسُ يَتَقَاتِرُونَ عَلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا مَنشَغَلِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ تَكُنْ تَسْمَعُ لِأَحَدِهِمْ ضَجِيحًا أَوْ تَشْوِيشًا. جَلَسْتُ أَنْتَظِرُ قَلِيلًا حَتَّى أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّيْتُ بِنَا الْإِمَامِ، وَصَلَّيْتُ خَلْفَهُ. فَلَمَّا سَلَّمَ التَّفَتَّ إِلَى جِهَةِ الْيَسَارِ عَلَى عَادَةِ الْمَالِكِيَّةِ فِي ذَلِكَ، إِذْ كَانُوا يَرَاعُونَ أَنَّ قَبْرَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ كَانَ لَجِهَةِ الْيَسَارِ، فَكَانُوا يَحْرِصُونَ عَلَى عَدَمِ الْإِدْبَارِ عَنِ سَيِّدِ الْخَلْقِ، وَمُوَاجَهَتِهِ أَوْلًا حَالِ الْخُرُوجِ مِنَ الصَّلَاةِ. اسْتَدَارَ الْإِمَامُ يُصَافِحُ النَّاسَ فَرَأَيْتُ قَدْ حَسَرْتُ عَنْ وَجْهِهِ فَعَرَفَنِي وَعَرَفْتَهُ، إِذْ سَبَقَ لَهُ أَنْ كَانَ يَأْتِي إِلَى حَلَقَاتِ الْعِلْمِ فِي جَامِعِ قَرْطَبَةَ. رَحَّبَ بِي وَسَأَلَنِي عَنْ أَحْوَالِي فَأَخْبَرْتُهُ بِوَصُولِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَطَلَبَ مِنِّي أَنْ أَصْطَحِبَهُ إِلَى بَيْتِهِ لَتَنَاوِلَ طَعَامَ الْفُطُورِ. تَرَدَّدْتُ فِي قَبُولِ دَعْوَتِهِ، لَكِنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيَّ قَلْبُهُ بِإِعْرَاضِي عَنْهُ فَقَبِلْتُ دَعْوَتَهُ. خَرَجْنَا مِنَ الْمَسْجِدِ وَمَشِينَا قَلِيلًا حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى دَارِ فَيْخِيْمَةَ. فَتَحَ لَنَا الْبَوَابُ الْبَابَ وَدَخَلْنَا حَتَّى أَجْلَسَنِي عَلَى سَرِيرٍ فِي بَيْتِ وَسَطِ الدَّارِ نُسَمِّيهِ الْقُبَّةَ. نَادَى عَلَى الْخَادِمِ فَاتَى مُسْرِعًا، وَكَانَ مِنَ الْفَتَيَانِ الصَّقَالِبَةِ، فَأَنْفَذَ أَمْرَهُ بِإِحْضَارِ الطَّعَامِ. كَانَ الْإِمَامُ يُلَاطِفُنِي، لَكِنَّهُ لَمْ يُكْثِرْ عَلَيَّ مِنَ الْأَسْئَلَةِ حَتَّى جَاءَ الطَّعَامُ. أَكَلْنَا وَشَرَبْنَا، ثُمَّ بَدَأَ يَسْأَلُنِي عَنْ قَرْطَبَةَ وَعَمَّا حَصَلَ فِيهَا فَأَوْجَزْتُ لَهُ الْقَوْلَ بِحَيَادٍ دُونَ أَنْ أَنْتَصِرَ لِأَحَدٍ،

سوى بالإكثار من الدُّعَاءِ وَالضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكْشِفَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ الْعُمَّةَ وَيَضْرِبَ عَنْهُمْ الْفِتْنَ وَيُثَبِّتَ السُّلْطَانَ، فَكَانَ يُؤْمِنُ عَلَى دَعْوَاتِي. وَبَعْدَ أَنْ أَكَلْنَا دَعَا بَمَاءٍ فِي إِبْرِيْقٍ وَطَسَبْتِ فغسلتُ يَدِي مِنْ أَثَرِ الدُّهْنِ وَالْعَسَلِ فِي «الْمَلَاوِي» الَّتِي تَنَاوَلْنَاهَا. سَأَلَنِي عَنِ الْفَنْدُقِ الَّذِي نَزَلْتُ فِيهِ، فَأَقْسَمَ عَلَيَّ أَنْ لَا أَزِيدَ فِي الْمُكْتَبِ فِيهِ لَيْلَةً ثَانِيَةً. ثُمَّ دَعَا أَحَدَ فَتْيَانِهِ وَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ إِلَى الْفَنْدُقِ وَخُذْ مَتَاعَ أَبِي مُحَمَّدٍ وَجِئْ بِهِ إِلَيَّ هُنَا، وَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُودَ دَوَابَّهُ إِلَى الْإِصْطَبْلِ. التَفَّتْ إِلَيَّ الْإِمَامُ وَقَالَ: رَبِّمَا تَرِيدُ أَنْ تَضْحَبَهُ لَكَي تَجْمَعَ أَغْرَاضَكَ بِنَفْسِكَ؟

فأجبتة: بَارِكْ اللَّهُ فِيكَ، لَكِنِّي لَا أَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ، لِأَنِّي لَمْ أَفْتَحْ أَغْرَاضِي الْبَارِحَةَ، بَلْ نَمْتُ مِنْ فَرْطِ التَّعَبِ مَبَاشِرَةً بَعْدَ وُصُولِي إِلَى هُنَاكَ.

ذَهَبَ الْفَتَى الصَّقْلَبِيُّ وَأَحْضَرَ الْأَمْتَعَةَ وَالذَّوَابَّ، فَقَامَ الْإِمَامُ وَقَمْتُ مَعَهُ، وَخَرَجْنَا مِنْ بَيْتِهِ وَمَشِينَا خَطَوَاتٍ قَلِيلَةً حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بَابِ صَغِيرٍ بِجَوَارِ بَيْتِهِ فَفَتَحَهُ وَدَخَلَ وَقَالَ لِي: تَفَضَّلْ، أَدْخُلْ.

دَخَلْتُ فِي إِثْرِهِ، وَقَالَ لِي: هَذَا بَيْتُكَ الْآنَ، وَقَدْ كَانَ يَسْكُنُهُ وَلَدِي مَعَ أَهْلِهِ إِلَّا أَنَّهُ اتَّخَذَ بَيْتًا أَكْبَرَ لِنَفْسِهِ.

ثُمَّ مَازَحَنِي قَائِلًا: لَمْ يَبْقَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَ بِأَهْلِكَ.

فَقُلْتُ لَهُ: لَيْسَ لِي أَهْلٌ.

فَقَالَ: لَا يَصِحُّ هَذَا.

شَكَرْتُهُ وَبَالَغْتُ فِي الشُّكْرِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُلَاطِفُنِي بِصَدَقٍ وَيُعَامِلُنِي

كأبْنٍ لَهُ أَضْرَثُ بِهِ مُنْقَلَبَاتُ الدُّنْيَا، وَقَدْ سَبَقَ لَوَالِدِي عَلَيْهِ أَفْضَالٌ  
لَمْ يَنْسَهَا.

بعد أن تَفَقَّدْتُ البَيْتَ وَزَرْتُ كُلَّ جَوَانِبِهِ، اسْتَأْذَنْ مَتِي الإِمَامَ  
فِي المِغَادِرَةِ بَعْدَمَا أَمَرَ أَحَدَ الفُتْيَانِ كَيْ يُؤَمِّنَ كُلَّ أَغْرَاضِي وَبِقى  
فِي خِدْمَتِي. شَكَرْتُ الإِمَامَ مَرَّةً أُخْرَى وَشَايَعْتُهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَابِ  
بَيْتِهِ، ثُمَّ سَلَّمْتُ عَلَيَّ فَانصَرَفْتُ عَائِدًا إِلَى بَيْتِي الجَدِيدِ.

فِي ذَلِكَ اليَوْمِ خَرَجْتُ أَتَفَقَّدُ المَدِينَةَ بَعْدَمَا فَتَحْتُ أَغْرَاضِي  
وَلَبِسْتُ ثِيَابًا جَدِيدَةً. كَانَتِ المَرِيَّةُ مَدِينَةً تَعُجُّ بِالوَافِدِينَ الأَجَانِبِ  
وَالغُرَبَاءِ وَالمَسَافِرِينَ وَالمِهَاجِرِينَ، الَّذِينَ هَرَبُوا مِنَ الفِتَنِ  
وَالاضْطِرَابَاتِ الَّتِي كَانَتِ تَمُورُ بِهَا بِلَادُنَا فِي هَذِهِ الفِتْرَةِ، فَلَمْ  
يَلْحَظْنِي أَحَدٌ وَلَمْ يُضَايِقْنِي أَحَدٌ. كَانَتِ مَدِينَةٌ مَفْتُوحَةٌ عَلَيَّ  
الِاخْتِلَافِ، وَكَانَ النَّاسُ يُحْسِنُونَ بِالأَمْنِ دَاخِلَ أسْوَارِهَا وَفِي ظِلِّ  
قَصَبَتَيْهَا الشَّامِخَةِ بَعِيدًا عَنِ الصَّرَاعَاتِ الَّتِي كَانَتِ تَعْصِفُ بِدَوْلَةِ  
الخِلَافَةِ. ذَرَعَتْ المَدِينَةَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، ففِي الشَّمَالِ كَانَتِ تَحُدُّهَا  
قَصَبَتُهَا المُنِيعةُ، وَفِي الجَنُوبِ كَانَ يُحُدُّهَا البَحْرُ، وَبِقَيْتٍ مُنْفَتِحَةٍ  
مِنْ جِهَتِي الشَّرْقِ وَالعَرَبِ، وَلا شَكَّ أَنَّ هَؤُلاءِ الوَافِدِينَ سَيَجْعَلُونَهَا  
تَتَوَسَّعَ خَارِجَ أسْوَارِهَا مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ، إِذْ لا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَوْعَبَ  
كُلَّ المِهَاجِرِينَ وَالمِهَاجِرِينَ مِنَ الفِتَنِ ضَمَّنَ المَدِينَةَ القَدِيمَةَ وَدَاخِلَ  
الأسْوَارِ. وَبِالفِعْلِ، كَانَ هَذَا الانطِبَاعُ الَّذِي سَاوَرَنِي هُوَ بَدَايَةُ  
تَشَكُّلِ هَذَا الوَاقِعِ الجَدِيدِ، إِذْ رَأَيْتُ بَعْضَ البُيُوتِ المَتَنَاثِرَةِ الَّتِي  
بَدَأَتْ تَنْشَأُ بَيْنَ وَادِي الرَّمْلَةِ وَالجَبَلِ. سَأَلْتُ أَحَدَ أَصْحَابِ  
الدَّكَاكِينِ عَنِ تِلْكَ الجِهَةِ، فَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ النَّاسَ يُصَلُّونَ العِيدَ هُنَاكَ

لكنّ الوافدين الجُدُد والمهاجرين بدأوا يستقروُن في تلك الجهة .  
كما أخبرني بأنّ الوافدين أصبحوا يستقروُن أيضًا في رَبَضِ الحَوْضِ  
حيث تُخزَنُ المياه في جُبِّ كبير في تلك الناحية تَحَسُّبًا لآيِّ  
حصار . رجعتُ أدراجي وأمضيتُ ذلك اليوم في اقتناء بعض  
حاجاتي التي ساعدني على حملها الفتى الصقليّ .

مرّت الأيام في اكتشاف المدينة والتَّعرُّف إلى مساجدها  
وأسواقها وحمّاماتها وقِساريَّتها وقصَبَيتها ومرساها حتى تكوّنتُ لديّ  
فِكْرَةٌ واضحة عنها . إنَّتَقَيْتُ هناك بعض معارفي ممّن قرّ بجلده من  
قرطبة بعدما ساءت الأحوال فيها، وشكّلنا في المريّة فتهّ جديدة من  
القرطبيين . كان الإمامُ يتحبّب إليّ ويلاطفني ويحدّب عليّ كما لو  
كنتُ أحدَ أبنائه، ويدعوني مرارًا لِتَنَاوُلِ الطَّعام في بيته فَتَعَرَّفْتُ  
عنده على كثير من أعلام المريّة، وربّطتُ معهم علاقات وُدِّيّة .  
وإني أذكرُ أنّي ناقشتُ يومًا أبا عبد الله من أهل القيروان في الحُبِّ  
ومعانيه، وكان الرجلُ طويلَ اللسان، مُثَقِّمًا للسؤال في كلِّ فنّ .  
فسألني: ماذا يصنَعُ مُحِبُّ كَرِهَ المحبوبُ لقاءه؟

تدبّرتُ سؤاله، ولاح لي أنّ الرجلَ أُغْرِمَ بمن كَرِهَ لقاءه  
ووصاله، فذكرتُ له أن يسعى المحبُّ في إدخال الرُّوحِ على نفسه  
بلقائه، وإن كره المحبوب لقاءه ووصاله .

فقال أبو عبد الله مُعترفًا: لكنّي لا أرى ذلك، بل أوثرُ هواه  
على هواي، ومراده على مُرادِي، وأضبرُ ولو كان في ذلك  
الحَتْفُ .

فقلت له: إني إنّما نصحتُ ربّما ذكرتُ لك لأنّي أحببته

لنفسى ولالتذاذها بصورته، فأنا أتبعُ قياسى وأقودُ أصلي وأقفو  
طريقي فى الرغبة فى سرورها.

فقال لى: هذا ظلمٌ من القياس، أشدُّ من الموت ما تُمنى له  
الموت، وأعزُّ من النفس ما بُدلت له النفس.

فقلت له: إن بدلتَ نفسك لم يكن اختيارًا، بل كان  
اضطرارًا. ولو أمكنك ألا تبدلها لما بدلتها، وتركك لقاءه اختيارًا  
منك أنت فيه ملوِّمٌ لإضرارك بنفسك، وإدخالك الحتف عليها.

فقال لى: أنت رجلٌ جدلى، ولا جدلٌ فى الحب يُلتفت إليه.  
فقلت له: إذا كان صاحبه مؤوفاً.

فقال: وأيُّ آفةٍ أعظمُ من الحب؟

كان أبو عبد الله يستعملُ النظرَ فى فهمِ الحبِّ، بينما كنتُ  
أنتطقُ من تجربتي الواقعية التي عشتها حولِ الحبِّ. ولا شك أن  
امتناعَ الحبيبِ منه وكُرْهه لقاءه جعله يؤثُّ لذلك نظرًا يُعِينُهُ على  
تجاوزِ محنته وجبرِ كسرِهِ. تركته لحاله وخرجتُ من عنده.

كان عليّ أن أملاً وقتي وأشغله ريثما تهدأُ الأمورُ فأعودُ إلى  
قرطبة، إذ لم أكنُ أتخيلُ أنني سأعيشُ بعيداً عن قرطبةها. كان  
جميعُ من تعرَّفْتُ إليهم فى المريّة لا يفترُّون عن مناقشة الأوضاع  
التي كانت تمرُّ منها بلادنا. كثيراً ما كنتُ أذهبُ عند بعض معارفي  
الجُدُد فى السوق. وكان بعضهم من اليهود. ومن هؤلاء صديقُ  
طيبٍ يُدعى إسماعيلُ بن يونس، وكان بصيراً بالفِرَاسة مُحسِنًا لها،  
وقد اختبرناه غير مرّة فكان يَنجَحُ فى الاختبار، وأفادنا بإتقانه

للفرّاسة. كان في المريّة كثيرٌ من اليهود الذين استوطنوا المدينة، وازدهرت فيها درّاساتهم التلموديّة والأدبيّة. كما التقيتُ في المريّة بصموئيل أو إسماعيل بن الثغريلة الذي كنتُ قد رأيتُه في قرطبة. لقد كنتُ أذاكرُ علماء اليهود وطالعتُ كتبهم واستفدتُ منهم في معرفة مختلف فرقهم وعقائدهم. كما كنتُ أجلسُ في دُكانٍ أحدِ الكُتُبِينِ لِتَصَيِّدِ الأخبار الجديدة والكتبِ النادرة، فلا نلّبتُ حتى يَنسَبَ النقاش حول فلان وفلان أو حول هذه المدينة أو تلك، لكنني كنتُ منشغلاً بأمر الخِلافة مُنافحاً عنها. لم يَكُنْ هؤلاء المعارف الجُدد على قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ إِزاء هذه القُضايا. وقد سئلتُ مراراً عن رأيي، فكنتُ أَتَحَفَّظُ في التصريح الكامل ربّما أَضْمِرُ حتى لا يَشْتَهَرَ رأيي ويُسَبَّبَ لي المتاعب، لكنني كنتُ مُظْمِئاً بعضَ الشيء إلى أنّ الجميع مُجمِعٌ على الخِلافة، لكنّ أحدَ رُوّادِ الدُكانِ، ويُلقَّبُه الناسُ بالنّجدي، لم يُعجِبُه رأيي في الخِلافة، فسألني لِيَجْرِنِي حتى أَكشِفَ عن رأيي: ما قولك في الإمامة يا ابنِ حزم؟

فقلت: هي فرضٌ لازم، ولا يَصْلُحُ أمرُ الناسِ إلّا بها. ولو ذَهَبَتْ لَذَهَبَ رُكْنٌ من الدين معها.

فقال النّجدي مُعترضاً: أنا لا أرى أنّها فَرَضٌ لازم، بل هي من مَصالِحِ الناسِ، وعلى الناسِ أن يَتَعَاطَوْا الحَقَّ فيما بينهم.

فقلت له: كيف تُنكرُ أن لا يكونَ إقامةُ إمامٍ فرضاً لازماً، وقد أمرَ المؤمنون أن لا يبيتوا ليلةً وليس في عُقُوبِهِمْ بَيَعَةٌ؟

فقال النّجدي: إذا صَلَحَ أمرُ الناسِ فيما بينهم من دون حاجة

إلى إمام، فليس في الأمر إلزام.

زادت حَدَّتِي، وغالبتني نفسي لأنْقَضَ عليه، فقلت له: لعلَّكَ ترى رأيَ فِرْقَةِ النَّجْدَاتِ من الخوارج في الإمامة، وما لَقَبُكَ هذا بغريب عنهم.

احمَرَّ وجهُ الرَّجُلِ واضْطَرَبَ، فَتَدَخَّلَ رجلٌ يُلقَّبُ بالحَمُودي وقال: دَعَاكَ منه يا ابنَ حزم، وربِّما يكون له سَنَدٌ فيما يقول، لكن ما قولُكَ في اشتِراطِ قرشيَّةِ الإمام كما يُلزم بذلك الفقهاء؟

فقلت: لا تَتَعَقِدُ الإمامةَ إلَّا إذا كان الإمامُ قرشيًّا لقول النبي عليه الصلاة والسلام «الأئمةُ في قريش»، وهي رواية متواترة. وقال أبو بكر «لا تدينُ العربُ إلَّا لهذا الحيِّ من قريش».

فقال النَّجدي مرَّةً أخرى: شَرَطَ القرشيَّةَ ليس مَوْضِعَ إجماع، بل يُشْتَرَطُ في الإمام أن يكونَ عَدْلًا من غيرِ نَظَرٍ إلى قبيلة.

فقلتُ له مرَّةً أخرى: إنَّكَ ترى رأيَ الخوارج في هذه النقطة أيضًا، لكن قُلْ لنا، لماذا أَدْعَنَ الأنصارُ يومَ السَّقِيفَةِ لقريش بالإمامة، مع أنَّهم سُكَّانُ المدينة وأهلُها ولهم العُدَّةُ والعَدَدُ؟

فقال النَّجدي مرَّةً أخرى: إنِّي أرى أن شرطَ العَدْلِ مُقَدَّمٌ على شرطِ القرشيَّةِ، بل إذا تَسَاوَى قرشيٌّ مع حبشيٍّ في الفضل، فالواجبُ تقديمُ الحبشيِّ.

فقلت له مستغربًا: وليمَ ذاكَ أيُّها النَّجدي؟

فقال: حتى لا تكونَ له عصبيةٌ يستولي بها على رِقَابِ الناسِ وأموالهم، وإذا صار إلى الظلمِ والجورِ سَهْلَ خَلْعُهُ وَأَمِنَتِ الفتنة.

فقلت له: أنتم تُبَيِّنُونَ نِيَّةَ الْخَلْعِ قبل انعقاد الإمامة، وهذا لا يَنْصَلِحُ به أمرُ الدُّوَلِ، لأنَّ أَيَّ قَتَانٍ يُمْكِنُه أَنْ يُنْكَرَ عَلَى الْإِمَامِ متى كان حبشيًّا بأدنى شُبْهَةٍ ويسعى إلى خَلْعِهِ، فأنت وأثرابك تَرَوْنَ الْعَدْلَ في استمرار الثورات والاضطرابات على رَأْسِ الدُولِ.

صَمَتَ الرَّجُلُ، لَكِنَّ الْحَمُودِي بَادِرٌ إِلَى السُّؤَالِ قَائِلًا: وما قولك في توريث الإمامة، وتوَلِيَّةِ غيرِ الْبَالِغِ؟

فقلت: لا تَوَارَثُ في الْخِلَافَةِ. كما لا تَصِحُّ إِمَامَةٌ غيرِ الْبَالِغِ، بل لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْعَا مَمِيَّرًا.

فقال باستفزاز: ولماذا كان والدك وقومك يَدْعَمُونَ الْمُرَوَانِيْنَ؟ ولماذا سَكَّتُمْ عن خلافة هشام المؤيد لما بُويع له وهو صبي بعد وفاة والده الخليفة الْحَكَمِ الْمُسْتَنْصِرِ؟

فقلت: قد قال النبي عليه الصلاة والسلام «رُفِعَ الْقَلَمُ عن ثلاثة»، وذكر منها الصبي حتى يَحْتَلِمَ، ولا شك أن هشامًا المؤيد قد بويع له وهو صبي، وتولى المنصورُ بن أبي عامر منصبَ الْحِجَابَةِ في عهده. لكنك لم تَقِفْ بَعْدُ على رأيي في عَقْدِ الْإِمَامَةِ، وسَأَبِيْنُهُ لك بيانًا واضحًا حتى لا تَتَّهَمَنِي وأبي بأمورٍ لا تُعْرِفُهَا، ويبدو لي أنك تَمِيلُ إلى رَأْيِ الشَّيْعَةِ في وِلَايَةِ الْغُلَمَانِ وتَوَارَثُ الْإِمَامَةَ. إني أرى أن عَقْدَ الْإِمَامَةِ يَتِمُّ بِأَحَدٍ وَجُوهُ ثَلَاثَةٍ قَدْ ثَبَّتَتْ كُلُّهَا عن الصَّحَابَةِ.

فقال الحمودي مستعجلاً الجواب: وما هي تلك الأوجهُ الثَّلَاثَةُ؟



فقلت: أفضلها وأصحها عندي هي أن يعهد الإمام قبل وفاته إلى رجل يختاره إماماً بعده، وسواء فعل ذلك في صحّة أو مرضٍ فلا تأثير في النتيجة، إذ ليس هناك نصّ أو إجماع يمنع من تعيين إمام قبل وفاته يخلفه على أمر المسلمين. وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ بأبي بكر، وفعله أبو بكر مع عمر رضي الله عنهما. كما فعله سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز. وهذا الوجه هو الذي اختاره. ولا يخفى عليك أنّ هذا هو الذي حصل لما عهد الحكّم المستنصر لابنه هشام المؤيد بولاية العهد وهو غلام لم يحتلم بعد.

فقال النجدي يسابق صاحبه الحمودي بالاعتراض: إنّنا رأينا جميعاً ما آل إليه الأمر لما وُلّي هذا الخليفة المسكين الذي كان تحت رحمة أوصيائه من العامرين ومن جاء بعدهم.

فقلت: مهلاً، فإنّي كنتُ أعدُّ أوجهَ ولاية العهد، ولم أنّه جوابي عن سؤال الحمودي واعتراضه بعدُ حتى أُجيب عن اعتراضاتك أنت، مع أنّي ذكرتُ لكم أنّي لا أقرُّ ولاية الغلمان، لكن إذا عهد الإمام قبل وفاته لأحدٍ صحّحت ولايته، وأعين على ذلك من جماعة المؤمنين حتى يضلّب عودُ من تولى، لما في ذلك من اتّصال أمر الإمامة وانتظام شؤون الدولة وأهلها، ورَفَع التَّخَوُّفِ والترقّب من المجهول، وظهور الأطماع الكثيرة في الإمامة.

فقال النجدي معترضاً: لكنّ الصحابة اعترضوا على ولاية العهد ليزيد وإلى سليمان بن عبد الملك.

فقلت: إنّ الاعتراضَ عليهما لم يكن لجهة العهد لهما، بل لأنهما كانا غير مرضيين في دينهما وأخلاقهما لإعلانهما الفساد

جَهَارًا. وأرجو أن لا تُقاطعاني كثيرًا حتى أخلُصَ إلى الوجهين  
الآخرين.

فأمَّا الوجهُ الثاني من وجوه عقْدِ الإمامة، فهو في حال ما إذا  
تُوِّفِيَ الإمامُ ولم يَعْهَدْ لرجل من بعده بالإمامة، فهي أن يُبَادِرَ رجلٌ  
مُسْتَحِقٌّ لها مُتَوَفِّرٌ على الشُّروطِ المطلوبة لها فيدعو إلى نفسه.  
ويَلْزِمُ آنذاك الخُضُوعُ له واتباعه والالتزامُ ببيعته وإمامته وطاعته.  
وإذا قام بعده رجلٌ ثانٍ ولو بِطَرْفَةِ عَيْنٍ لم يَجُزْ له تَوَلِّيَ الإمامة،  
بل يُحَارَبُ على قيامه.

فقال الحمودي مُعْتَبِرًا: كما فعلَ الإمامَ عليّ عليه السلام.

فقلت: تمامًا، ولا شكَّ عندي أنك من الشيعة الآن.

فقال الحمودي: أولستَ مُجِبًّا في الإمام عليّ وآله؟

فقلت: ليس هذا موضعَ نقاشنا، فكلَّ مُسْلِمٍ مأمورٌ بحبِّ  
الإمام عليّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، وحبِّ آلِ البيت، لكنِّي كنتُ فقط  
أَسْتَوِثِقُ من انتمائك العَقْدِي حتى أعرفَ كيف أُجيبُ عن أسئلتك،  
كما كنتُ قد استوثقتُ من قَبْلِ لجهة صاحبنا النَجْدِي بأنَّه على  
مذهب الخوارج النَّجْدَاتِ في الإمامة.

زَمَرَمَ كلاهما، فأكملتُ قائلاً: إذن هذا هو الوجه الثاني كما  
فعل الإمام عليّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، لَمَّا دعا لنفسه بعد قتل عثمان بن  
عقَّان رضي الله عنه.

فقال النجدي: قد أنكرَ معاوية هذا ولم يَقْبَلْهُ، فهل هناك دليلٌ  
غيرُ هذا تَسْوِيقُهُ؟

فقلت: قد فعل هذا خالد بن الوليد في غزوة تبوك لما قُتِلَ  
 الأمراء زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن  
 رواحة، فأخذ خالد الراية من غير أن يؤمّره أحدٌ واستأمر على  
 المسلمين، وقد صوّب رسول الله ﷺ الأمر لما بلغه فعله، كما أن  
 المسلمين أذعنوا له، وساعدوه في إمارته عليهم.

فقال الحمّودي: وما هو الوجه الثالث يا ابن حزم؟

فقلت: الوجه الثالث هو أن يعهد الإمام إلى جماعة أو إلى  
 رجلٍ ثقةٍ بعد موته باختيار الإمام من بعده، كما فعل سيّدنا عمراً  
 رضي الله عنه فبيل موته لما عهد إلى ستّة من الصحابة ليكون  
 الإمام من بينهم، وفوض أربعة من الستّة إلى واحدٍ هو عبد  
 الرحمن بن عوف. وليس ها هنا إلا الإذعان والتسليم لما أجمَعَ  
 عليه الصحابة. ولا يجوز البيّات عن غير إمام أكثر من ليلتين.

فقال التّجديّ: لكن يبدو لي أنك أهملت أمراً مهمّاً في كلّ  
 هذا، فقد حدّدت هذه الأوجه لاختيار الخليفة، لكنك أهملت  
 البيعة في انعقاد الإمامة. فكلّ هؤلاء الذين ذكرت لم يُصبِحُوا  
 خلفاء إلا بعد أخذ البيعة. وعندني أنّ هذه الأوجه لا تعدو أن  
 تكون صوراً ثلاثاً للتّرشح للخلافة لا تولّي الخلافة الفعلية بعينها.

ثم انقضّ الحمّودي هو الآخر قائلاً: صحيح هذا، كما أن  
 الإمام عليّ، عليه السلام، لم يدع إلى نفسه كما ذكرت، وإنّما  
 كان قد أوصى له رسول الله ﷺ بذلك، بيد أنّ الصحابة لم يقفوا  
 على الأمر، فصيّروا. وكان كثيرٌ من الصحابة قد دَعَوْهُ للخلافة فتقدّم  
 لها مُجيباً، ولم تتعقد بمجرّد تقدّمه، بل بالبيعة له.

فقال النجدي: يبدو لي أنك تُهملُ أمرَ البيعةِ ولا تجعله أساسَ عَقْدِ الإمامةِ بل تجعله طاعةً على الرعية التي ينبغي عليها أن تُطيعَ وُلاةَ الأمر. والرأيُ عندي أنّ البيعةَ كانت دائماً أساسَ الاختيار، وهي بمثابة عَقْدٍ مُوثَّقٍ بالأيمانِ بين الأمةِ والإمام. فعليّ قد أخذ البيعةَ من أهل المدينة الذين كانوا يُبايعون مَنْ قَبْلَهُ من الخُلفاء، لكن معاويةَ وَمَنْ رأى رأيه لم يَقْبَلُوا بهذا، بل اشترطوا بيعَةَ جميعِ المسلمِينَ للطعنِ في إمامة عليّ. وإنَّ ما ذَهَبَتْ إليه في الأوجه الثلاثة قد يُؤدِّي إلى ضَرَرٍ كبيرٍ وفسادٍ عظيمٍ.

فقلت بحدّة: وكيف ذلك؟

فقال: فأما الوجهُ الأوّل، وهو أن يعهدَ الإمامُ الحَيّ إلى من يَخْلُفه، فقد آلَ إلى أن أصبحَ الأمرُ وراثَةً كما فعله المروانيون في الشام أو في الأندلس. ولا شكّ أنّ نصرتكَ للأمويين جعلتكَ تَخْتَارُ هذا الوجهَ حتى تُدافعَ عن التورث. وقد أدّى هذا الأمرُ إلى إسنَادِ الإمامةِ إلى الأطفال أو حتى إلى الفُسّاق كما اعترفتَ بذلك، حتى فسَدَ الأمرُ واستبدَّ العبيدُ والغلمانُ والجوّاري بأمر المسلمين، ممّا نراه ظاهراً للعيان.

وأما الثاني، فهو ما آلَ إليه الحُكْمُ حيث أصبحَ الاستبدادُ هو القاعدة، وذَهَبَتِ الشورى وتعلّطَ النظامُ والتعاونُ بين المؤمنين.

فقلت: جوابي على اعتراضك من القرآن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أما التَّعَاوُنُ الَّذِي تَتَحَسَّرُ عَلَى ضَيَاعِهِ فَمَرَدُّهُ إِلَى طَاعَةِ أَوْلِي الْأَمْرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ .

فَقَالَ النَّجْدِيُّ: التَّعَاوُنُ فِي الْحُكْمِ لَيْسَ مَعْنَاهُ الطَّاعَةُ الْعَمِيَاءُ وَالْمَطْلَقَةُ لِأَوْلِي الْأَمْرِ، بَلِ التَّعَاوُنُ فِي الْحُكْمِ هُوَ التَّشَاوُرُ وَتَبَادُلُ النَّظَرِ فِيمَا يَضِلُّحُ لِإِدَارَةِ شَأْنِ الْمُسْلِمِينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ .

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ الْحَمُودِي قَائِلًا: إِنَّ الْوَجْهَ الثَّانِي الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ، وَهُوَ أَنْ يَقُومَ رَجُلٌ فِي حَالِ مَوْتِ الْإِمَامِ دُونَ أَنْ يَعْهَدَ بِوِلَايَةِ الْأَمْرِ لِرَجُلٍ مِنْ بَعْدِهِ، أَمْرٌ فِي غَايَةِ الْخُطُورَةِ، بَلِ لَعَلَّهُ يَقُودُ إِلَى الْفِتْنَةِ وَالْفَوْضَى. فَكَيْفَ نَقْبَلُ مُجَرَّدَ أَنْ يَدَّعِي رَجُلٌ اسْتِيفَاءَ شُرُوطِ الْخِلَافَةِ أَنْ يَقُومَ وَيَدْعُو لِنَفْسِهِ، وَأَنْ يَكْفِي فِي انْعِقَادِ الْخِلَافَةِ هَذَا الزَّعْمُ وَتِلْكَ الدَّعْوَى لِأَنَّهُ كَانَ أَسْبَقَ مِنْ غَيْرِهِ فِي الْقِيَامِ، وَلَوْ بِطَرَفَةٍ عَيْنٍ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي الْأُمَّةِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ. بَلِ الْغَرِيبُ أَنْ لَوْ لَمْ يَلْتَفَّ فُضْلَاءُ الْأُمَّةِ حَوْلَ الثَّانِي اعْتَبَرْتَهُمْ آثِمِينَ. إِنَّ هَذَا لَا يُجُوزُ، وَمِثَالُ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي سُقَّتْهُ غَيْرُ صَحِيحٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يَدَّعِ الْإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ بَلِ دَعَاَهُ لَهَا الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَأَوْصَىٰ بِهَا لَهُ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَقُلْتُ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «مَنْ جَاءَكُمْ وَأَمْرُكُمْ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»؟

فَقَالَ الْحَمُودِي: الْاسْتِشْهَادُ بِهَذَا الْحَدِيثِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لَا

يَخْلُصُ، لَكَ لِأَنَّ الْحَدِيثَ مَوْضُوعُهُ أَنْ يَكُونَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَهَلْ ذَلِكَ يَكُونُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَةِ الرَّجُلِ لِنَفْسِهِ؟

ثم قال النَّجْدِيُّ: إِنَّهُ رَأَيْتُكَ فِي الْخِلَافَةِ أَمَلْتُهُ عَلَيْكَ تَحَالُفَاتُ أُسْرَتِكَ مَعَ الْأُمَوِيِّينَ، فَتَمَحَّلْتَ فِي الْمَنَافَحَةِ عَلَى الْوَضْعِ الْقَائِمِ، وَنَحْنُ نَرَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ الْأُمُورُ.

فقلت: وَأَنْتَ تُنَافِحُ عَنِ عَقِيدَةِ بَنِي جِلْدَتِكَ مِنَ الْخَوَارِجِ النَّجْدَاتِ. أَمَّا الْحَمَّودِيُّ فَهُوَ يَرَى أَنَّ الْإِمَامَةَ مَحْصُورَةٌ فِي آلِ الْبَيْتِ، وَيَرَى الْيَوْمَ أَنَّ بَنِي حَمُودِ الْأَدَارِسَةِ الَّذِينَ قَدِمُوا مِنَ الْمَغْرِبِ هُمْ أَوْلَى بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ.

فقال الحمّودي: وَمَا قَوْلُكَ فِي السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ، أَلَيْسَتْ أَفْضَلَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ؟

فقلت: إِنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ. أَمَّا السَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ فَقَدْ قَالَ عَنْهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «إِنَّ فَاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ». وَالْوَاجِبُ مُرَاعَاةُ ظَاهِرِ الْحَدِيثِ، وَقَدْ ذَكَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ السِّيَادَةَ وَلَمْ يَذْكَرِ الْفَضْلَ، وَذَكَرَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ الْفَضْلَ لِقَوْلِهِ «وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

فقال الحمّودي مُغْضَبًا: كَيْفَ تُفَرِّقُ بَيْنَ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ، وَالنَّبِيُّ قَدْ نَهَى عَنِ التَّفَاخُرِ بِالْأَنْسَابِ، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ «إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَفْهَمَ السِّيَادَةَ عَلَى أَنَّهَا الشَّرْفُ الدِّينِي فَقَطْ، بَلْ إِنَّهَا الْعَمَلُ لِأَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ نَشَأَتْ

في بيت النبوة على أكمل الأخلاق والفضائل حتى صارت مثلاً لسائر نساء العالمين. وإني أحسب أن منافحتك عن المروانيين ومحاربتك للشيعنة قد دفعتك أيضاً إلى القول بأن هناك من هو أفضل من آل البيت، فعمدت إلى التفريق بين السيادة والفضل.

ثم أضاف: اسمع جيداً يا ابن حزم، إن آل النبي عليهم السلام سيحكمون هذه البلاد، وقد تحدث أصحاب الملاحم والحدثان أن دولة الأمويين التي تُنافح عنها ستقرض على يد رجلٍ علويٍّ أول اسمِهِ «عين». ولعلَّ الله أن يكون عليّ بن حمّود. فهو اليوم سيّد في قومه. وقد انتهى إلى سمعي أن هشاماً المؤيد قد وقف على هذه الحقيقة، وأنت تعلم أنه مُهتّم بالملاحم والحدثان، وقد نُميّ إليه أن دولة الأمويين ستقرض على يد رجلٍ علويٍّ أول اسمِهِ «عين» فأرسل وهو في سجنه يطلبُ منه المعونة والتّصرّ حتى يُنقِذَهُ من سليمان المستعين ويأخذَ بثأره منه. وقد تناهى إلى سمعِكَ كما تناهى إلى سَمعِ الجميع ما صارت إليه الأمور في قرطبة وكيف أنّ الناسَ ملّوا المستعين، ولا شكّ عندي أنّ عليّ بن حمّود سيقومُ للخلافة حتى يُصلِحَ الأحوال. فاحذّر على نفسك من تقلباتِ الدّولِ وتغيّراتِ الأحلاف.

لم تكن لي حمية في المريّة، وما كان لي أن أوّلِبَ أعداءَ آخرين عليّ، فقلتُ للرّجلين: إنّما هي أفكارٌ نتداولها، ولكم أن تعتقدوا ما تريدون، ولي أن أعتقد ما أريدُ، فكلُّ سَيْلَقَى رَبِّهِ بما اعتقد وعَمِلَ.

ثم ودّعتهما وانصرفتُ مُتفكّراً في ما قاله الحمودي عن خروج

رَجُلٍ عَلَوِيٍّ لِّلْمَطَالِبَةِ بِالْخِلَافَةِ، فَصَحَّ عِنْدِي أَنَّهُ مِمَّا يَتَدَاوَلُونَهُ سِرًّا فِي مَجَالِ سَهْمٍ.

مَرَّتِ الشُّهُورُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْحَالِ فِي الْمَرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ أَعْدَادُ الْمَهَاجِرِينَ تَتَضَاعَفُ فِيهَا، وَانصَرَفَتْ إِلَى تَدْيِيرِ أَمْوَالِي وَالْأَتْجَارِ بِمَا خَلَّفَهُ لِي وَالِدِي، وَاسْتِخْلَاصِ الْجَبَايَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُدِيرُهَا بَعْضُ مُمْتَلِكَاتِنَا الَّتِي بَقِيَتْ فِي يَدِي، وَالَّتِي سَاعَدْتَنِي عَلَى تَحْمَلِ النَّكْبَةِ الَّتِي حَصَلَتْ لِأُسْرَتِنَا.

\*\*\*

أَمْضَيْتُ أَعْوَامًا هَادِئَةً فِي الْمَرِيَّةِ، وَكَانَ الْقَائِدُ خَيْرَانَ الصَّقْلَبِيِّ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا بَعْدَمَا هَزَمَ قَائِدَهَا مَفْلِحَ الصَّقْلَبِيِّ.

كُنْتُ أَحَبُّ أَنْ أَتَمَتَّعَ بِمَنْظَرِ الْبَحْرِ، وَيَحْلُو لِي أَنْ أَتَجَوَّلَ فِي الْمَدِينَةِ. كَانَتْ الْقَيْسَارِيَّةُ قَرِيبَةً مِنْ مَحَلِّ سُكْنَائِي فَأَمُرُّ فِي زُقَاقَاتِهَا، ثُمَّ أَمْشِي فِي اتِّجَاهِ الشَّمَالِ فَأَمُرُّ عَلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ الْمَلَاصِقِ لِلْمَدِينَةِ الْدَاخِلِيَّةِ، وَبَعْدَهَا قَصَبَةُ الْمَرِيَّةِ. ثُمَّ أَخْرُجُ مِنْ بَابِ مُوسَى وَأَنْزَلُ فِي اتِّجَاهِ الشَّرْقِ صَوْبَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَصِلَ إِلَى الْمَصَلَّى. وَمِنْ هُنَاكَ أَتَّجِهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ بِاتِّجَاهِ الْبَحْرِ حَتَّى أَصِلَ إِلَى دَارِ الصَّنَاعَةِ. وَأَمْشِي بِجِذَاءِ السُّورِ صَوْبَ الشَّرْقِ إِلَى أَنْ أَصِلَ إِلَى بَابِ الْبَحْرِ فَأَخْرَجَ مِنْهُ إِلَى خَلِيجِ الْمَرِيَّةِ. هُنَاكَ أَجْلِسُ لِلتَّأَمُّلِ فِي حَرَكَةِ السُّفُنِ وَالْمَرَاقِبِ، وَأَتَمَلَّى بَزْرَقَةَ السَّمَاءِ وَصَفَاءَ الْبَحْرِ. كَانَتْ هَذِهِ السُّوَيْعَاتُ كَافِيَةً لِإِعَادَةِ السَّكِينَةِ إِلَى نَفْسِي الْمَتَأَرِّجَةِ الْفَلِقَةِ. كُنْتُ أَقْلُبُ نَظْرِي بَيْنَ الْخَلِيجِ الْفَسِيحِ أَمَامِي، وَالْمَرِيَّةِ مِنْ خَلْفِي، حَيْثُ تَنْتَضِبُ الْأَبْرَاجُ وَالْمَنَائِرُ الَّتِي تُسَمَّى بِالطَّلَائِعِ فِي مُخْتَلَفِ



جِهاَتِها، وتَرُضِدُ عِیونَ السُّمَّارِ<sup>(١)</sup> من بَعیدِ العَدُوِّ القَادِمِ من البَحْرِ، فِیُشْعِلُونَ النِّیرَانَ لیلًا أَوِ الدُّخَانَ نهارًا حَتَّى یَتَأَهَّبَ سَكَّانُ المَرِیةِ لِمَواجِهةِ أَعْدائِهِم. كانَ عَلى الأَرْضِ مَنْ یَسْتَعْمِلُ الطُّبْلَ والنَّفِیرَ لِلتَّنْبِیهِ إلی الخَطرِ. لَقَد كانَتِ رُبُطُ الرِّهَادِ والصُّوفِیةِ المِجَاهِدِینِ مَنتَشِرةً فی المَرِیةِ ونَواحِیها مِثْلَ رابِطَةِ القابِطَةِ، ورِباطِ عَمْرُوسَ، ورِباطِ الحُسنِی. وَقَد زَرْتُ بَعْضًا مِنْها فَوَقَفْتُ عَلى عِمارَتِها وَالتَّقِیةِ بَعْضًا مِنْ رُودِها. كانَ الشِیوخُ یَشْحَذُونَ هِمَمَ مَرِیدِیهِم لِلجِهادِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَخاصَّةَ التَّكْبِیرِ. وَلِهِم بَرامِجٌ مَحَدَّدَةٌ یَتَوَزَّعُ بَینَ العِلْمِ وَالتَّمارِینِ الرِیاضِیةِ وَفنونِ الحَرْبِ وَالعِبادَةِ. وَیَفضَلُ هَذهِ الرُّبُطُ المَنتَشِرةُ عَلى طُولِ السَّاحِلِ لَم یَكُن یَجْرُؤُ النورماندِیونَ، أَوِ کَما نُسَمِّیهِم الأَرْدَمَانِیونَ المِجوسَ، أَسِیادَ البَحْرِ، عَلى الوَصولِ إلی سِواحِلِ المِسلمِینِ. کَنتُ أُسْتَعْرَبُ مِنْ تَسمِیةِ هَؤلاءِ الأَرْدَمَانِیینِ بِالمِجوسِ فَسَأَلْتُ أَحَدَ البَحْرِیینِ الصِّقالِبةِ عَنْهِم، فَأَخْبَرَنی بِأَنَّهُم لَیسُوا مِجوسًا مِثْلَ أَتِباعِ زَرادِشتِ، لَکِن لَمَّا رَأى أَهلُ الأَنْدَلُسِ أَنَّهُم کَانُوا یَشْعَلُونَ النَّارَ فی الأَماکنِ الَّتِی کَانُوا یَغْزُونَهَا ظَنُّوهُم یَعْبُدُونَ النَّارَ فَسَمَّوْهُم مِجوسًا.

فی المَرِیةِ کَثِیرٌ مِنَ البَحْرِیینِ الصِّقالِبةِ الَذِینَ یُجَلِّبُونَ إلیها فِیَتَرَبِّیُونَ هَنا وَیَتَعَلَّمُونَ فَنونَ الحَرْبِ. كانَ الِیهودُ یَتولَّونَ إِخْصاءَهُم فی مَدِینةَ بَجانةَ شِمالِی بِلنِسیةِ، إِلَّا أَنَّ قَوْمًا مِنَ المِسلمِینِ جَنوبِی فَرَنسا تَجَرَّأُوا عَلى هَذا التَّمْشِیلِ بِخَلْقِ اللَّهِ، وَلِهَذا كانَ الصِّقالِبةُ یُعرفُونَ بِالمِجَابِیبِ. لَقَد أَصْبَحَتِ المَرِیةُ مَع مَرسِیةِ قَاعِدَةِ الصِّقالِبةِ

(١) السُّمَّارُ: اسمُ حَرَّاسِ المِناثِرِ.

بزعامه خيران الصقليّ. وكان كثير من فتيان الصقالبة يشتغلون في دار الصناعة التي تُصنَع فيها السُّفُنُ والمراكبُ بمختلف أنواعها. وفي هذه الأثناء، كنتُ أشاهدُ مجموعةً من هذه المراكبِ رابضةً في المرسى، مثل الحَرَارِيقِ التي اشتهرتُ بها المريّة، والأغرِبةُ وهي سفنٌ شديدةُ البأسِ تُدخِلُ الرُّعْبَ على الأعداء، وهي أشبهُ بالشَّواني التي هي سفنٌ كبيرةٌ مزوّدةٌ بأبراجٍ وقلاعٍ للدِّفاعِ والهجوم، ولها مائة وثلاثة وأربعون مجدافاً. ثم هناك البُطسُ، وهي سفنٌ عظيمةٌ لها عدّة طبقات، في كلّ طبقةٍ فئةٌ معيّنة من الجنْدِ بأسلحتِها، وهي تسيّرُ بقُلُوعٍ كثيرة، وتستطيع حملَ الأسلحةِ والمؤنِ الكثيرة. وهناك الحمّالاتُ التي كانت تُستعملُ لدعمِ الأسطولِ بحمْلِ مَؤونةِ الجيشِ، والصنّاعِ والحَدَمِ الملحّقين بالصيّانةِ والمساعدةِ والإصلاح. وهناك أيضاً الشَّلنديّاتُ، وهي مراكبُ حربيّةٌ كبيرةٌ ومسطّحةٌ لحملِ المقاتلين وآلاتِ السِّلاحِ، وقد تُستخدَمُ في حملِ البضائع. وهناك الطَّراريدُ، وهي سفنٌ صغيرةٌ سريعةٌ السير، وتُشبهُ البرميلَ الكبير. ثم هناك العُشاريّاتُ وهي نوعٌ من السُّفُنِ الصغيرةِ الخفيفةِ التي تُستعملُ قواربَ نِجاةٍ في حالِ إغراقِ السفنِ الكبيرةِ لإنقاذِ الجنود. وهناك القَرّاقيرُ وهي سفنٌ ضخمةٌ لحملِ المؤن. وهناك أيضاً المُسطّحاتُ، وهي أكبرُ سفنِ الأسطولِ الإسلامي الحربي.

لم أكن أعلم شيئاً عن كلّ هذه السُّفُنِ والمُعِدّات، رغم أنّ قرطبة يخرقُها نهرٌ تَسبِحُ فيه سفنٌ كثيرةٌ إلّا أنّ أغلبها كان صغيراً أو متوسّطاً لنقلِ البضائعِ وشحنِها، لكنّ اتّصالي بالفتيان البحريين

أفادني بها خبرة وعِلْمًا.

كنتُ جالسًا، ثم قمتُ أمشي على طُولِ السَّاحِلِ فراعني  
أَسْرَابٌ مِنَ السَّلْطَعُونَ البحري، وبدأتُ أتأملُ مشيته العجيبة على  
أربع، رافعًا أو خافضًا كَمَا شِئْتِيهِ. كان يُعْطِيكَ انطبَاعًا بأنّه يتقدّم  
على حين أنّه كان يتقهقر في مشيته العجيبة تلك. لم أَمْنَعُ خَاطِرًا  
مرّ بي، إذ كثير من الناس من يمشون القهقري على حين أنّهم  
يُعطون الانطبَاعَ أنّهم يتقدّمون تمامًا مثلما يفعل هذا السَّلْطَعُونَ  
العجيب، أو «حَنَّةُ قُرَيْشٍ» كما يُسَمِّيهِ الأهلِي هِنَا. لا أدري أصل  
هذه التسمية، هل هي عجوز كانت تمشي مثل هذه المشية، أو هي  
مأخوذة من الحِنَاءِ حينما تنطبع ألوانها الحمراء الزاهية على الأَكْفِ  
المَخْضَبَةِ! لم أكن أعرف، وليس مهمًّا أن نَحْضِرَ هذه الدلالة في  
هذا الأصل. مشيت طويلاً على طول الخليج، ومرّت بأفُقِ فكري  
مقارنات عجيبة بين دَوَابِّ البحر والإنسان. كان لا بُدَّ أن أُوزِنَ  
في تشبيھاتي بين المرأة والرَّجُلِ، فإذا كان بعضُ الرجالِ يمشون  
كالسَّلْطَعُونَ، فإن محارَ البحر الملقى على الشاطئ كان يدفعني إلى  
أن أُشَبِّهَ جنسَ النساءِ بالمَحَارِ. وعلى الرَّاغِبِ الطَّالِبِ أن يبحثَ  
طويلاً حتى يجدَ المحارة التي تَضُمُّ اللؤلؤةَ الحَرِيدَةَ. فكم من  
المحار ليس فيه سوى الشَّحْمِ الأبيض، وبعض المحار فارغٌ بلا  
شحم ولا لؤلؤ. ضَحِكْتُ من تشبيھاتي وقلتُ لِنَفْسِي: لقد أصبحتُ  
بائعِ سمكٍ يا عليّ، فصرتُ تشبُّهُ بني الإنسان بدوابِّ البحر، وتَعَقَّدُ  
مقارنات بينه وبينها. وقد تبادلتُ التُّهَمَ بين بائعِ سمكٍ يئسَ من  
العثور على الحَرِيدَةِ المصنونة في قلب المحارِّ الكثير، وبائعةِ سمكٍ

يَسْتَمِنُ مِنَ الْعَثُورِ عَلَى رَجُلٍ يَمْشِي بِهَا إِلَى الْأَمَامِ بَيْنَ جَمْعِ أَشْبَاهِ الرِّجَالِ، بَلْ يُصِرُّ عَلَى أَنْ يُكِرَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِالْبَطْلَانِ رَافِعًا كَمَا شِئْتَهُ أَوْ مِلْقَظِيهِ مَزْهُوًّا. عُدْتُ أَدْرَاجِي بَعْدَمَا نَفَحَنِي الْبَحْرُ وَهَوَاؤُهُ بِطَاقَةٍ جَدِيدَةٍ. دَخَلْتُ بَيْتِي وَأَخْلَدْتُ لِلرَّاحَةِ.

وفي سنة سبعٍ وأربعمئة، بدأتُ سياسةَ خيرانٍ تتغيَّرُ فتحالَفَ مع الحمُوديين، وهم من الأدارسة الأشراف الذين قَدِمُوا مِنَ الْمَغْرِبِ بَعْدَ أَنْ انْدَرَجُوا فِي سُكَّانِهِ. وَلَمَّا انْدَلَعَتِ الْفِتْنَةُ فِي الْأَنْدَلُسِ تَطَلَّعُوا إِلَى الْخِلَافَةِ فَتَحَالَفُوا مَعَ خَيْرَانَ الصَّقَلْبِيِّ ضِدًّا عَلَى سَلِيمَانَ الْمُسْتَعِينِ فِي قَرْطَبَةَ، كَمَا أَوْمَأَ لِي بِذَلِكَ صَاحِبِي الْحَمُودِي مَرَارًا. وَلَمَّا كَانَ نَجْمِي طَالِعًا فِي الْمَرِيَّةِ، وَصَارَ الْكُبْرَاءُ يَخْطُبُونَ وَدِّي وَيَدْعُونِي لِلْوَلَائِمِ الَّتِي كَانُوا يُقِيمُونَهَا، فَيَجْرِي الْحَدِيثُ بَيْنَنَا فِي اسْتِرْسَالٍ عَنِ الشَّأْنِ الْعَامِّ فِي الْبِلَادِ، فَأُدْلِي بِدَلْوِي مِنْ غَيْرِ مُوَارِبَةٍ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ ذَوِي النُّفُوسِ الْمَرِيضَةِ مَمَّنْ كَانَ يَسُوؤُهُمْ حُظُوتِي نَقَلُوا عَنِّي وَعَنْ صَاحِبِي مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ تَنْقِيلَاتٍ مُلَفَّفَةً، مَفَادُهَا أَنَّنَا نَسْعَى فِي الْقِيَامِ بِالِدَّعْوَةِ لِلدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ، بَعْدَمَا أَطَاحَ الْبَرِيرُ بِحَلِيفِهِمْ سَلِيمَانَ الْمُسْتَعِينِ، وَتَوَلَّى عَلِيَّ بْنَ حَمُودٍ، حَلِيفُ خَيْرَانَ الصَّقَلْبِيِّ الْخِلَافَةَ فِي قَرْطَبَةَ. اعْتَقَلَنِي خَيْرَانٌ وَنَكَبَنِي مَعَ صَاحِبِي مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ. دَخَلْنَا السِّجْنَ فِي الْقَصْبَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ شَرِّ مَا لَقِيتُ، إِذْ أُلْقِيتُ فِي زَنْزَانَةٍ كَمَا تَلْقَى جُلُودُ الْأَصْحَاحِ فِي دُورِ الدِّبَاغَةِ، فَانْتَشَرَ جَيْشُ الْبَعُوضِ الَّذِي كَانَ مَتَشَرًّا فِي الْمَرِيَّةِ يَهْرُسُنِي وَيَسْفُتُ دَمِي. تَلَبَّدْتُ سَمَائِي بِالْكَأَبَةِ وَرَاوَدْتَنِي نَفْسِي بِالْهَلَاكِ، فَرَاوَدْتُهَا بِالْخِيَالَاتِ الَّتِي تَصْنَعُ احْتِمَالَاتٍ فِي الْآتِي ثُمَّ

تُفنيها إلى احتمالات ثانية، وتَسَلَّسَلُ الاحتمالات إلى ما لانهاية. ولولا هذه القدرة على وضع الاحتمالات لكنت هلكت، إذ كان ذلك مؤشراً على اتِّقَادِ ذهني واشتغال قوتي الوهميّة. ورغم كثرة الأفكار السوداويّة التي كانت تُعَشِّشُ في كياني، فإنّ باعثاً من الخير كان يُزهِدُنِي في الدنيا وَيُقَلِّلُهَا في نظري، واستحضرتُ تمثيلَ الشارعِ للدنيا بجنّاحِ بَعوضَةٍ لا تُساوي شيئاً، لكنّ البعوضَ اليومَ كان سميناً في زنزاتي، إذ كان يتغذّى على دمي فيغرسُ خرطومَه الدقيق في جلدي ويرشُفُ بقوةِ رشفاتٍ يمتلئ لها بطنه ثم يسحبُه فأحسُّ بوخزِه بعدما طار عني وارتوى من دمي. ثم تأتي بعوضة أخرى فتفعلُ في ذاتي وجلدي ما فعلته الأولى. تكالبَ عليّ البَعوضُ وسلبوني شريان حياتي حتى نَحُفْتُ وفارقتني نضارتي. كنت أتفكّرُ في هذا المخلوق الحقيق الذي قد يَقْتُلُ مخلوقاً مثلي، فألْفَيْتُ الحياةَ تافهَةً بعدما عَلِقَ مصيري بخرطوم قرصه بعوض. ولعلّ العربيّة أوفى في البيان لما سَمَّتْ هذه الحشرات بَعُوضًا، إذ لاحظتُ أنها لا تَقْرِصُ بل تَعَضُّ عَضًّا مَكرًا خَفِيًّا، فاشتَقَّتْ لها من «العَضِّ» اسمَ البَعُوضِ. وتَعَجَّبْتُ كيف يَعَضُّ البعوض وهو بلا أسنان، مع أنّ العَضَّ لا يكون إلّا لمن كانت له أسنان، ثم تذكّرتُ أنّنا نقول «عَضَّ فلانًا بلسانه» أي ذكره بسوء، مع أنّ اللسانَ شحمةً لحم بلا أسنان. بقيت متهالكًا كالغربال وانتشرت عَضَّاتُ البعوض على جلدي كالثقوب أو كالجمم الملتهبة تُنذِرُ بالانفجار صديدًا وقِيحًا، فَعِفْتُ ذاتي وتمنّيتُ الخلاصَ غيرَ ما مرّة. قَضَيْتُ عِدَّةَ أَشْهُرٍ في السِّجْنِ، ثم ارتأى خيران أن يُطلقَ

سراحي مع صاحبي بِتَدْخُلِ بَعْضِ أَهْلِ الْخَيْرِ لِصَالِحِي، ومنهم إمام المسجد الجامع، لكن خيرانَ اشترط تغريبنا عن المريّة. حملتُ عَصَا التَّسْيَارِ مرّةً أُخْرَى كَأَنِّي مُوسَى زَمَانِهِ إِلَى أَرْضِ لَعْلِي أَجْدُ فِيهَا الرَّجُلَ الصَّالِحَ. وَكُنْتُ أَنْذَكُرُ كَلَامَ شَيْخِي فِي قَرْطَبَةَ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغِيثِ الزَّاهِدِ. وَكَانَ مِنْ أَعْيَانِ الْعِلْمِ، وَعُرِفَ بِالزُّهْدِ وَالْمِيلِ إِلَى التَّحْقِيقِ فِي التَّصَوُّفِ. كَانَ زُهْدُهُ وَكَلَامُهُ عَنِ الدُّنْيَا تَرْيَاقًا لِي فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الصَّعْبَةِ. تَمَّ تَغْرِيْبُنَا إِلَى حِصْنِ الْقَصْرِ، فَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَيْهِ لَقِينَا صَاحِبَهُ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَذِيلِ التُّجِيبِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْمَقْفَلِ. أَبَدَلَنِي هَذَا الرَّجُلُ مِنْ سَجْنِي وَنَكَبْتِي إِكْرَامًا أَنْسَانِي مَا عَانَيْتُهُ مِنْذُ تَشْرِيدِي وَخُرُوجِي مِنْ قَرْطَبَةَ بَعْدَ أَنْ رُزِئْتُ فِي أَعْرَ أُنَاسٍ، وَكُيِّسَتْ دُورُنَا وَأَمْلَأْنَا، ثُمَّ حَلَلْتُ غَرِيبًا فِي الْمَرِيَّةِ حَتَّى سَجِنْتُ بِهَا. لَمْ أَكُنْ أَثِقُ فِي تَقْلُبَاتِ الزَّمَانِ، إِذْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الْأَوْضَاعَ لَنْ تَعُودَ رَغْمَ وَلائِي الدَّائِمِ لِلْأُمُويِّينَ وَأَمْلِي فِي عَوْدَتِهِمْ، وَعُودَةِ جَاهِي وَجَاهِ أُسْرَتِي كَمَا كَانَ، لَكِنْ هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ! بَقِيَتْ أَشْهُرًا فِي حِصْنِ الْقَصْرِ الَّذِي كَانَ فِي نَاحِيَةِ مَرْسِيَّةَ، ثُمَّ أَبْحَرْتُ صُوبَ بِلَنْسِيَّةِ عَامَ ٤٠٧ هـ. لَمَّا سَمِعْتُ بِظُهُورِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ الْأُمُويِّ الْمَلَقَّبِ بِالْمُرْتَضَى. وَصَلْتُ إِلَى بِلَنْسِيَّةِ حَتَّى كَأَنِّي أَضْرَبْتُ عَنِ نِسْيَانِ حَالِي، فَنَاصَرْتُ الْقَائِمَ الْأُمُويِّ الْجَدِيدَ بَعْدَمَا أَلْهَبَ حِمَاسَتِي عَنِ تَحَالُفِ خَيْرَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ وَقَتَلَ سَلِيمَانَ الْمُسْتَعِينِ، وَرَدَّدَ لِي كَيْفَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ حَمُودٍ كَانَ قَدْ بَدَأَ خِلَافَتَهُ حَاكِمًا عَادِلًا وَاقْتَصَّ مِنْ ظُلْمِ الْبِرَابِرَةِ فِي قَرْطَبَةَ حَتَّى كَرِهُوهُ، وَتَلَقَّبَ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ

سُرْعَانَ مَا انْقَلَبَ عَلَى أَهْلِ قَرْطَبَةَ لَمَّا سَمِعَ بظهور المرتضى،  
 وسامَهُمُ الحَسْفَ حَتَّى مَلَّوهُ وَطَمِعُوا فِيمَنْ يُخَلِّصُهُمْ مِنْ جَوْرِهِ. وَهُوَ  
 أَوَّلُ مُلُوكِ بَنِي هَاشِمٍ فِي الأَنْدَلُسِ. وَقَدْ بُويعَ لَهُ فِي المَحَرَّمِ مِنْ  
 سَنَةِ سَبْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ. ثُمَّ أَطْلَعَنِي المَرْتَضَى عَلَى أَنَّ خَيْرَانَ أَصْبَحَ  
 يُنَاصِرُهُ لِأَنَّهُ مَا نَاصِرَ عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ إِلَّا طَمَعًا فِي أَنْ يُعِيدَ هِشَامًا  
 المُوَيْدَ إِلَى سُدَّةِ الخِلافةِ، فَلَمَّا دَخَلَ قَرْطَبَةَ عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ فَرَجَعَ  
 إِلَى قَوَاعِدِهِ فِي شَرْقِ الأَنْدَلُسِ وَنَاصِرَ المَرْتَضَى وَأَطْمَعَهُ فِي اسْتِعادَةِ  
 الخِلافةِ لِلبَيْتِ الأُمَوِيِّ.

كَانَتْ أَخْبَارُ سُخْطِ أَهْلِ قَرْطَبَةَ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى المَرْتَضَى  
 وَأَطْمَعَتْهُ فِي اسْتِعادَةِ الخِلافةِ لِلبَيْتِ المَرَوَانِيِّ مِنَ الحَمُودِيِّينَ، وَعَلِمَ  
 كَيْفَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ حَمُودٍ قَدْ أَخْلَى قَرْطَبَةَ مِنْ أَهْلِهَا حَتَّى يَأْمَنَ انْقِلابَهُمْ  
 عَلَيْهِ. انْتَفَقَ المَرْتَضَى مَعَ أَنْصارِهِ، خَيْرَانَ الصَّقْلِيِّ وَجماعَتِهِ، عَلَى  
 الكَيْدِ لِعَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ بَدَلَ الدُّخُولِ مَعَهُ فِي مُواجَهَةِ مُباشرةٍ. كَانَ  
 خَيْرَانَ يَعْرِفُ مَدَاخِلَ القَصْرِ فِي قَرْطَبَةَ، فَأَوْعَزَ إِلَى بَعْضِ فِتْيَانِهِ  
 الصَّقَالِبَةَ باغْتِيالِ عَلِيِّ بْنِ حَمُودٍ حِينَ يَخْتَلُونَ بِهِ. وَفِي سَنَةِ ثَمَانَ  
 وَأَرْبَعِمِائَةٍ قَتَلَهُ الصَّقَالِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعْلُونَ فِي القَصْرِ، حَيْثُ دَخَلَ  
 عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ صَبِيانٍ مِنْهُمْ، فَقَتَلُوهُ فِي الحَمَّامِ وَخَرَجُوا مُتَسَلِّينَ فَلَمْ  
 يُحَسَّ بِهِمْ أَحَدٌ. وَلَمَّا اسْتَبَطَّاتِ نِساؤُهُ رُجُوعَهُ دَخَلْنَ عَلَيْهِ فَوَجَدْنَهُ  
 مُدْرَجًا فِي دِمَائِهِ وَسَطِ الحَمَّامِ. أَمَّا الصَّبِيَّةُ الَّذِينَ قَتَلُوهُ فَقَدَ هَرَبُوا،  
 وَلَمْ يُعَثَّرْ عَلَيْهِمْ، وَقُبِضَ عَلَى فِتْيَةِ آخِرِينَ لَمْ يَكُونُوا ضَالِعِينَ فِي  
 المُواامرةِ مُباشرةٍ، لَكِنَّهُمْ عَذَّبُوا عَذابًا شَدِيدًا ثُمَّ صُلِبُوا. وَبَعْدَ أَيَّامٍ  
 لَحِقَ القَاسِمُ بْنُ حَمُودٍ، شَقِيقُ عَلِيِّ، بِقَرْطَبَةَ وَدَفَّنَ أَخاهُ فِي سَبْتِهِ.

سكنتُ بلنسية مُدَّةً وصرْتُ أحدَ وزراء المرتضى، وراشَ جناحي بجانبه بعد النَّكْبَاتِ التي مرَّتْ بي. وفي بلنسية حَضَرْتُ حَلَقَاتِ العِلْمِ، وَجَلَسْتُ إلى القاضي عبد الله بن عبد الرحمن ابن الجحاف المعافري، وأخذتُ عنه كتابَ «أحكام القرآن» لأبي بكر بن العلاء القشيري. كما حضرتُ مجالسَ أبي عمر أحمد بن محمَّد الطلمنكي. ثم تَكَدَّرَ الجَالُ لِمَا قَرَّرَ المرتضى مهاجمةَ الحموديين في قرطبة واستردادها. تحرَّك الجيش من بلنسية مُعَزَّزًا بالموالي العامريين والصقالبة والأندلسيين. وفي الطريق عندما مررنا بقرطبة، زَيْنَ خيران وجماعتهُ للمرتضى أن يُحاصرها حتى يُؤمَّنَ ظهره من قائدها الداهية، زاوي بن زيري الصنهاجي من رجالات الحموديين. لم أَكُنْ مُرتاحًا لهذا الرأي، لأنَّه كان سيُضعِفُ الجيشَ ويَصْرِفُهُ عن هدفه الأول وهو دخول قرطبة، لكنَّ المرتضى انحأَسَ إلى رأي خيران. وبعد أَيَّامٍ من الحِصَارِ والمعارك وتخاذُلِ الحُلَفَاءِ وخِيَانَةِ خيران والعامريين، انهزم جيشُ الأندلس فَفَرَّ المرتضى ونَهَبَتْ محلَّتهُ وأخذَ سُرَادِقُهُ، ولحق به بعض غلمان خيران فقتلوه وحملوا رأسه إلى المريَّة.

أُسِرْتُ في حملة المرتضى أمام قرطبة، وعَجِبْتُ كيف أصبحت حياتي بهذا السوء، وتذكَّرْتُ نعمةَ العيش في قرطبة أَيَّام الصَّبَا، وتذكَّرْتُ نَعْمَ، حبيبةَ القلب فبكيْتُ لدى ذكراها. يَبْسُتُ من عودة حُكْمِ المروانيين وتأكَّدَ لي قُوَّةُ سُلْطَانِ الحموديين. حُمِلْتُ إلى قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة، وكنت قد سمعتُ عن عدل القاسم بن حمود وكيف أَلْفَ قلوبَ الناس عليه، بل غالبَ



عَصِيَّةَ البربر بِاتِّخَاذِ السُّودَانِ، فَأَحَقَّقَهُمْ. وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى أُطْلِقَ سَرَاجِي.

\*\*\*

عُدْتُ إِلَى قَرْطَبَةَ أُسِيرًا بَعْدَ سِتِّ سِنَوَاتٍ قَضَيْتُهَا فِي النَّيْبِ، وَعَرَفْتُ الْغُرْبَةَ وَالتَّكْيِيلَ وَالسُّجْنَ ثُمَّ الْفَرَجَ الَّذِي سُرْعَانَ مَا تَلَاشَى، لِأَعِيشَ الْأَسْرَ وَالْهَزِيمَةَ فِي الْفَرِيقِ الْأُمَوِيِّ الَّذِي كُنْتُ أَنْاصِرُهُ دَوْمًا حَتَّى خَذَلَهُ الصَّقَالِبَةُ وَالْعَامِرِيُّونَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى قَرْطَبَةَ. خَرَجْتُ مِنْهَا ظَرِيدًا شَرِيدًا وَعَدْتُ إِلَيْهَا أُسِيرًا. لَكِنِّي رَغَمَ ذَلِكَ كُنْتُ سَعِيدًا لِكُونِي رَجَعْتُ إِلَى مَرْكَزِ الْعَالَمِ. كَانَتْ رِحْلَتِي الْاضْطِرَارِيَّةَ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ كَافِيَةً لِثَوْقِفَنِي عَلَى أَنَّ حُضْنَ قَرْطَبَةَ أَرْحَمَ بِي مِنْ غَيْرِهَا. نَزَلْتُ عِنْدَ بَعْضِ نَسَائِنَا مَمَّنْ كُنَّ قَدْ مَكَثْنَ فِي قَرْطَبَةَ بَعْدَ حَصُولِ الْفِتْنَةِ. مَرَرْتُ عَلَى دُورِنَا فَوَجَدْتُهَا قَاعًا صَفْصَفًا، فَأَيْنَ الْقُصُورُ وَالذُّورُ؟ وَأَيْنَ تِلْكَ الْأَقْوَامُ الْبَهِيَّةُ وَالْأَحْوَاضُ السَّائِلَةُ، وَالْمَمَاشِي النَّضْرَةَ؟ وَأَيْنَ الْحِسَانَ اللَّائِي كُنَّ يَخْطُرْنَ فِي تِلْكَ الْمَقَاصِيرِ؟ أَيْنَ رَاحَتْ أَيَّامُ شَبِيبَتِي فِي غَفْلَةِ الدَّهْرِ مَعَ نُعْمٍ وَنُضَارٍ؟ لَقَدْ طَوَى الْمَوْتُ حَبَّةَ قَلْبِي تَحْتَ التَّرَابِ، وَيَا تُرَى أَيْنَ نُضَارٍ، وَمَا فَعَلَ اللَّهُ بِهَا بَعْدَ هَذِهِ السِّنِينَ؟ وَأَيْنَ أَصْحَابِي وَرِفَاقِي فِي زَهْرَةِ الصُّبَا؟ أَيْنَ أَبُو عَامِرٍ وَأَيْنَ ابْنُ شَهِيدٍ؟ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ حَدِيثًا فَاتٌ وَمَضَى، وَسَمَرًا يُبْكِي وَيُرْتَضَى. مَاذَا يَصْنَعُ الْمَرْءُ فِي مَدِينَةٍ كَانَتْ إِلَى عَهْدِي قَرِيبَ مَرْكَزِ الْعَالَمِ، وَحَاضِرَةَ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ثُمَّ أَضْحَتْ فِي سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ مَدِينَةً لَا يَأْمَنُ الْمَرْءُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ. ضَيَّعْتُ الْحَزْمَ يَا ابْنَ حَزْمٍ لَمَّا اعْتَقَدْتُ أَنَّ الْغَفْلَةَ تَدُومُ، لَكِنَّا

عَشَّتِ الثِّيَةَ لِسِتِّ سِنَوَاتٍ عَرَفَتْ خِلَالَهَا الْغُرْبَةَ وَالسَّجْنَ وَالْأَسْرَ .  
وَالْيَوْمَ تَعُودُ بِأَمَلٍ كَبِيرٍ لَعَلَّكَ تَسْتَعِيدُ ذِكْرِيَاتِ الْمَاضِي أَوْ تَجِدُ  
تَعْلَاتٍ لَهَا . أَيْنَ نُغَمِ الَّتِي مَضَتْ فِي نَضَارَةِ الرَّبِيعِ ، وَأَيْنَ نُضَارِ؟ مَا  
فَعَلَ اللَّهُ بِهَا ، هَلْ صَارَتْ مِثْلَ حَجَرٍ مُلْقَى فِي قَاعِ الْوَادِي تَتَقَاذَفُهُ  
الْتِيَارَاتُ الْمَائِيَّةُ الْمَخْتَلِفَةُ بَعْدَ أَنْ أَنْسَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ لِلطَّحَالِبِ  
الَّتِي عَلِقَتْ بِهِ فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ أَوْ أَنَّ الْقِرَانَ ، وَمَا لَبِثُ التِّيَارُ أَنْ  
قَذَفَهُ مَرَّةً أُخْرَى . أَيْنَ أَنْتِ يَا نُضَارَ الْآنَ؟ أَنْتِ كُلُّ أَمَلِي الْيَوْمَ فِي  
قَرْطَبَةَ ، بَلْ أَنْتِ الْيَوْمَ قَرْطَبَةٌ . لَمْ آتِ إِلَّا بَحْثًا عَنْ بَعْضِ ذَاتِي الَّتِي  
مَضَتْ بِلا رَجْعَةٍ . لَقَدْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ فِي قَرْطَبَةَ ، كَأَنِّي فِي مَدِينَةٍ  
أُخْرَى غَيْرِ تِلْكَ الَّتِي عَهْدْتُهَا فِي صَبَايَ . لَمَّا كُنْتُ فِي الْمَرِيَّةِ  
وَبِلَنْسِيَّةِ ، كُنْتُ أَحْسُ بِشَعُورٍ غَرِيبٍ هُوَ مَزِيحٌ مِنَ الْأَشْمِثَزَاذِ  
وَالْحَذَرِ . وَالسَّبَبُ هُوَ أَنَّ أَغْلَبَ سُكَّانِهَا لَمْ يَكُونُوا مِنَ الْعَرَبِ بَلْ  
مِنَ الْمَوَالِي وَالْبُشْكُنْسِ وَالْقُطْلَانِيِّينَ أَوْ الصَّقَالِبَةَ . كَانَ هَذَا الْوَجُودُ  
الْكَثِيفُ لَهُؤْلَاءِ يُشْعِرُنِي بِالْوَحْدَةِ وَالْيُتْمِ فِي جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ . ثُمَّ  
كُنْتُ أَشْمِزُّ مِنَ الْعَيْشِ بَيْنَ قَوْمٍ مِنَ الْمَجْبُوبِينَ الْمَخْصِيَّينَ الَّذِينَ لَمْ  
تَكُنْ لَهُمْ فُحُولَةٌ ، وَلَا خَبَرَ عِنْدَهُمْ عَنِ قَضَاءِ الْوَطْرِ مَعَ لَذَّةِ الدُّنْيَا  
وَبِهَجَّتِهَا مِنَ النِّسَاءِ . لَمْ يَكُنْ لَهُؤْلَاءِ طَمَعٌ وَلَا نَظَرٌ لِضَفِ الْعَالَمِ ،  
فَكَيْفَ يَعْيشُ الْمَرْءُ بَيْنَ مَنْ يَرَى بَعَيْنٍ وَاحِدَةً أَوْ يَسْمَعُ بِأُذُنٍ وَاحِدَةٍ  
أَوْ يَسْعَى بِرِجْلِ وَاحِدَةٍ أَوْ يَبْطِشُ بِوَيْدٍ وَاحِدَةٍ؟ لَا شَكَّ أَنَّهُ عَالَمٌ  
نَاقِصٌ مُعَوَّقٌ . وَزَادَ مِنْ إِعَاقَتِهِ أَنَّهُ مَجْبُوبٌ مَخْصِيٌّ قَدْ عَدِمَ الْمَحَبَّةَ  
الَّتِي تُحَرِّكُ هَذَا الْكُونِ . فَيَا لَيْتَ إِعَاقَتُهُ كَانَتْ فِي غَيْرِ مَا بِهِ لَا  
تَرْتَفِعُ أَيَّ إِعَاقَةٍ مَعَهَا ، وَأَعْنِي بِذَلِكَ إِعَاقَةُ الْحَبِّ ، إِذْ لَوْ كَانَتْ

إعاقته في غيرها لانجبر الأمر وتعايش المرء معها، لكن إعاقه الحب لا يستقيم معها التعايش بأي حال. هكذا كنت أحس في شرق الأندلس بين البشكنس والقطلانين وأضرابهم من الفتيان الصقالبة. بينما اليوم في قرطبة ينتابني شعور آخر، شعور مناقض تمامًا. صار البربرُ أسيادَ قرطبة، وهم قومٌ فيهم جفاءٌ وغِلظةٌ لأنهم من سُكَّانِ الجبال، لكنَّ فيهم نخوة ورجولة. ثم إلى جانبهم مخصيون من جنسٍ آخر هم السودانُ الذين استجلبَهُم القاسم بن حمود ليضع حدًا لقهَر البربرِ وَلِيُوازِنَ بعصبيَّتِهِم عصبية هؤلاء. أين قرطبة التي أعرف؟ صار الأخصاء يَحْكُمُونَ الفُحُولَ، وَتَفَسَّتِ العُجْمَةُ في الألسنة، فلم تُعَدْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ مَنْ يَفْهَمُ عنك نكتة بلاغية في بيت شعري، بل كلُّ هَمِّ القومِ الخِدْمَةُ أو السُخْرَةُ أو الضرابُ أو العزُّ والنهب. هكذا انسلت الحضارة عن قرطبة، ولم تُعَدِ قُرْطُ بهاءٍ كما عهدتها.

لم أكن مُستَعِدًّا لأقبل بهذا الوضع فزرتُ بعضَ قَرِيبَاتِي، ومَرَّتْ بجاني فتاةٌ قد ألقى الحزنُ عليها دثاره فلم أعْرِها انتباهًا، حتى نبهتني قريبتِي أنها نُصارُ بنتُ الجيران التي كنتُ قد تولَّهتُ بها. صُدِمتُ لما سمعتُ اسمها، لا يُعقلُ أن تكونَ هذه الفتاةُ الشَّاحِبَةُ النَّحِيلَةُ هي نُصارُ العَبْهَرِيَّةِ الممْتَلِئَةُ التي استطاعتُ أن تُنافِسَ نَعْمَ على قلبي. لن أقول لكم إنها أصبحتُ ظللاً أو رَمَمًا، لا أُحِبُّ لكم هذا التَّشْبِيهَ ولا أرضاهُ لِنَفْسِي، لا. سأقولُ شيئًا آخرَ يَتَسَاوَقُ مع صَدَمَةِ الحال. لقد وُلِعْنَا نحنُ أهلُ الأندلسِ بالتَّشْبِيهاتِ، لأننا كُنَّا نَعِيشُ الجمالَ من حولنا في كلِّ لحظاته

وَأَنَاتِهِ، وَكُنَّا نَخْشَى مِنْ فَقْدِهِ لِأَنَّنا كُنَّا نَعِيشُ كَالْأَيْتَامِ فِي جَزِيرَةِ  
 الْأَنْدَلُسِ. كُنَّا نَسْتَدِيمُ ذَلِكَ الْجَمَالَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَنَرَاهُ فِي  
 النَّرْجِسِ وَنَشْمُهُ فِي الرَّيْحَانِ وَنَشْتَمُ طَبِيبَهُ فِي الْأَلْكَنُجُوجِ، وَنَرَشْفُ  
 شَدَاهُ فِي الرُّضَابِ، وَنُبْجِرُ فِي بَحْرِ سَوَالِفِهِ، أَوْ نَضْطَافُ عَلَى  
 ضِيفِافِ قَدِّهِ الْمِيَادِ، أَوْ نَهْجَعُ عَلَى جِيدِهِ فِي ارْتِفَاقِ، وَنُنْصِتُ  
 لِحَفَقَانِ قَلْبِهِ بِمِنْصَاتِ رَفِيعِ. وَالْيَوْمَ مَاذَا أَرَى؟ سَبَحًا قَادِمًا مِنْ لَأْ  
 أَيْنَ، عُصْنَا ذَابِلًا عَرَكَتُهُ رِيَاخُ عَائِيَّةٍ فِي لَيْلٍ بِهَيْمِ، شِلُو كَأَنَّهُ قِلْعُ  
 مَرْكَبِ عَادَ مِنْ بَحْرِ الظُّلَمَاتِ بِحَرْقِ عَادَةٍ. نُضَارُ أَضْحَتْ مِثْلَ حَظِّ  
 الدُّمُوعِ الَّذِي يَحْفِرُ عَلَى الخُدُودِ الْأَحَادِيدِ. كَيْفَ أُشْبَهُ نُضَارَ، وَقَدْ  
 نَزَعَتْ عَنْهَا الْمَضَارُّ نَضَارَتَهَا وَحَشَرَتَهَا فِي بَحْرِ الْعَدَمِ. وَفَجَاءَ  
 تَسَاءَلْتُ مَعَ نَفْسِي، كَيْفَ أُسَلِّمُ عَلَى هَذَا الْمَخْلُوقِ الْعَجِيبِ؟ لَعَلَّهَا  
 لَا تَقْوَى عَلَى تَحْمِلِ السَّلَامِ، إِذْ لَا شَكَّ عِنْدِي أَنَّهُ أَمْرٌ عَزِيزٌ لَا  
 تَعْرِفُهُ مِثْلُ هَذِهِ الْأَشْبَاحِ الْمُرْعِبَةِ. لَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَةَ الَّتِي  
 تَقِفُ أَمَامِي كَأَنَّهَا سَعْدَانَةٌ ذَابِلَةٌ، فَكَيْفَ أُسَلِّمُ عَلَيْهَا كَمَا لَوْ أَنِّي  
 أَعْرِفُهَا. اسْتَعْظَمْتُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّسْلِيمِ لِأَنِّي رَأَيْتُ الْأَمْرَ فَوْقَ مَا  
 تَحْتَمِلُ هَذِهِ الْمَسْكِينَةَ، وَفَوْقَ مَا أَطِيقُ أَنَا. لَعَلَّ سَلَامِي لَهَا قَدْ  
 يَقْضِي عَلَيْهَا، فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ فِي الْعَادَةِ، بَلْ تَزْدَرِيهِمْ  
 الْعَيْنُ وَتَسْتَخِفُّهُمْ النُّظْرَاتُ وَتُلْقِي بِهِمْ فِي هَوَامِشِ النِّسْيَانِ. نَظَرْتُ  
 إِلَيَّ فَرَأَيْتُ فِي عَيْنَيْهَا الْغَائِرَتَيْنِ كَجَمْرَتَيْنِ مَنْظَفَتَيْنِ تَارِيخًا مِنَ الْمِحْنِ  
 وَالْإِحْنِ. كَانَ بَرِيقُهُمَا مِنْ غَيْرِ بَرِيقِ كَأَنَّهُمَا تَسْبَحَانِ فِي سَائِلِ  
 مُنْكَدِرٍ لَا يَنْعَكُسُ وَلَا يَشْعُ بِالصَّفَاءِ وَالنُّورِ كَمَا فِي عَيُونِ الصَّبَايَا.  
 تَمَّتْ بِكَلَامِ غَيْرِ مَفْهُومٍ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَجْتَازَ هَذَا الْاِخْتِبَارَ الَّذِي

لَخَّصَ بؤسَ هذه السنوات. لقد غَاضَ الماءَ منها وذهبتَ نَضَارَتُهَا وَفَيَّيْتُ بِهَجَّتُهَا، فلم يبقَ منها إِلَّا ما يُنْبِئُ عن حُسْنِ بَاهِرِ فَنَى إلى غير عودة. وبدل أن أُسَلِّمَ عليها سألتها فجأة عن حالها. فقالت بصوت مرتعش مُتَقَطِّعٍ: الحمد لله.

نَعَمْ، الحمد لله على كلِّ حال، رغم كلِّ هذه الشُّرور التي عشناها لا نَمْلِكُ إِلَّا أن نحمدَ الله، فهذا تِرْيَاقُ العارفين المؤمنين. طلبتُ منها أن تُخبرني عمَّا حصل لها، فلم تَسْتَطِعْ أن تُرَكِّبَ الكلماتَ بَلْهَ الجُمَلِ، لكنَّ قريبتِي التي كانت تقف أمامي تكَلَّمَت نِياةً عنها وأعارتها بعضَ كلامِها، وكنْتُ مُتَيَقِّنًا أنَّ عُسْرَ الكلام هو البلاغةُ التامةُ عن هذا البؤسِ وهذه المحن. قالت قريبتِي: لم تعد نَضار تهتلُ بنفسها بعد الفِتنِ التي حلَّتْ بمديتنا، ولم تُعَدْ مُتَّصَاوِنَةً كما كانت أيامَ دولتنا، وصارت تتبدَّلُ في الخروجِ فيما لا بُدَّ له لقضاء الحاجات التي كانت تُصانُ عنها في أيام العِزِّ والصَّوْلَةِ والجاه.

ثم أردفتُ: يا عليّ، «إنما النساءُ رياحين متى لم تُتَعَاهَدْ دَبَلَتْ، وبنيةٌ متى لم يُهْتَبَلْ بها استُهْدِمَتْ».

لم يكن ممكناً أن نُجري حوارًا أو نتسارَرَ، لأنَّ شيئًا هائلًا قد مُدَّ بيننا أصبحَ يَمْنَعُ من تَذْكَارِ ما كان عليه عهد الصُّبا. لقد مُدَّتْ بيننا فلاةٌ مَنَعَتْ كلَّ إمكانيَّةٍ حتَّى للاجتماعِ بَلْهَ الكلام. ودَعَّتْها والحزنُ يَنْهَشُنِي، وأدرَكْتُ... حة ما خسرناه في هذه الفتن. في ضياعِ نَضارةِ نَضار ضاعت قُرْطَبَةٌ وضاع كلُّ شيء. هذه هي الغربة الكبيرة التي أصبحنا نعيشها. كانت حالُ نَضار تشبه حالَ

قرطبة التي راحت منّا. كيف أصبح الأنيسُ غريباً إلى درجة تمنع اللقاء بما آل إليه؟ إنّ الحاجبَ المنصور بن أبي عامر لما حَجَرَ على هشام المؤيد لم يكن يدركُ أنّ الخلافةَ وإمارةَ المؤمنين رابطةٌ روحيةٌ أعظمُ من الدولِ وأعظمُ من نظامِ الحُكم. إنّها القُوَّةُ التي تُحرِّكُ الأُمَّةَ. كان يعتقد أنّ الذي يُحرِّكُ الأُمَّةَ هو القُوَّةُ والسلاحُ، وظنَّ أنّ كثرةَ الغزواتِ والمعاركِ ستُفجِعُ الأعداءَ وتَهزِمُهُمُ لِقرون، لكن ما إن توفي حتى بدأ الصَّدْعُ يَدِبُّ في كيانِ الدولةِ كلّها. فلما تولّى ابنه شنجول طمع في الإمامة العظمى، وهذا أمرٌ مُتَوَقَّعٌ، لأنّ الحاكمَ لم يكن الخليفةُ بل كان الحاجبُ، فكيف يُعقلُ أن لا يطمحَ ذلك الحاجبُ في اعتلاءِ دَرَجِ الخلافةِ. لقد نسيَ أنّ الخلافةَ رابطةٌ روحيةٌ أسمى من الدولة ذاتها. لقد ظهرت الدولة العامرية وانقرضت، وقامت اليومَ ممالكُ الطوائف، وتجرأت الأُمَّةُ المسيحية على الحُرْمَاتِ فتحالفت المسلمُ مع المسيحي ضدَّ أخيه المسلم، لأنّ الرابطةَ انفكَّتْ. لقد جاء الحموديون اليومَ لإعادةِ الخلافةِ، لكنّ ذلك كان بعدَ غَضَبِ الأمرِ من أهله. وحاول علي بن حمّود أن يَعدِلَ بين الناسِ، لكنّه أدركَ أنّ من يُحرِّكُ الناسَ هو الرابطةُ الروحيةُ التي كانت في أعناقهم للأمويين الذين بنَوْا هذه البلادَ وعمروها بهذه الحضارةِ الباهرة. لم يكن ممكناً أن يتناسى الناسَ أفضالَ مَنْ بَنَى، ويرتَمي في أحضان من غَزَا واستولى مهما كان مَحْتَدُهُ، لهذا عادَ علي بن حمّود فَسَامَ القُرْطُبيّينَ الهوانَ وسأسَهُمُ بالظلمِ والجورِ حتى يَقْطَعُوا عنهم كُلَّ أَمَلٍ في إعادةِ الأمويين، لكنّه سرعانَ ما قُتِلَ، واليومَ ها هوَ أخوه يَسْتَبِدُّ إلى

عَصَبِيَّةِ السُّودَانِ لِيُرَدَّ بِهَا الْعَصَبِيَّاتُ الْآخَرَى، وَهَلْ ضَمِنَ أَنْ لَا  
يُنْقَلَبَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءُ كَمَا انْقَلَبَ الْبَاقُونَ عَلَى أَوْلِيَاءِ نِعْمَتِهِمْ؟

اشْتَقْتُ إِلَى أَحِبَّائِي وَعَزَمْتُ عَلَى زِيَارَةِ قَبْرِ وَالِدِي وَأَخِي،  
وَقَبْرِ نَعْمَ. كَانَتْ مَقَابِرُ قَرْطَبَةَ فِي هَذَا الْعَهْدِ كَثِيرَةً تَبْلُغُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ  
مَقْبَرَةً مِثْلَ مَقْبَرَةِ الْبُرْجِ، وَمَقْبَرَةِ أُمِّ سَلْمَةَ زَوْجَةِ مُحَمَّدِ الْأَوَّلِ،  
وَمَقْبَرَةِ مُتَعَةَ جَارِيَةِ الْحَكَمِ الْأَوَّلِ، وَمَقْبَرَةِ مُعَمَّرَةَ أُمَّةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ  
الثَّانِي، وَمَقْبَرَةِ الْوَلِيِّ الصَّالِحِ ابْنِ حَازِمٍ، وَمَقْبَرَةِ الْوَلِيِّ الصَّالِحِ ابْنِ  
الْعَبَّاسِ، وَمَقْبَرَةِ أَبِي الْعَبَّاسِ الْوَزِيرِ، وَمَقْبَرَةِ الرَّبِضِ. جُلُّ هَذِهِ  
الْمَقَابِرِ كَانَتْ خَارِجَ أُسْوَارِ قَرْطَبَةَ، عَلَى عَكْسِ مَقَابِرِ النَّصَارَى  
الَّذِينَ كَانُوا يَدْفِنُونَ أَمْوَاتَهُمْ دَاخِلَ أُسْوَارِ مَدِينِهِمْ قَرَبَ الْكِنَائِسِ أَوْ  
دَاخِلَهَا. أَمَّا أَكْبَرُ الْمُسْلِمِينَ فَكَانُوا يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ فِي حَدَائِقِ  
قُصُورِهِمْ، وَتُسَمَّى الرَّوْضَةَ. كَمَا كَانَ الْعُلَمَاءُ وَالصَّالِحُونَ يُدْفِنُونَ  
فِي بَيْتِهِمْ، وَتُبِنِي عَلَيْهِمْ قِيَابٌ وَأَضْرِحَةٌ دَاخِلَ الْمَدِينِ أَوْ خَارِجَهَا.  
وَعَادَةٌ مَا تُضَيِّحُ هَذِهِ الْقِيَابُ وَالْأَضْرِحَةُ نَوَاةً لِمَقَابِرٍ جَدِيدَةٍ حَيْثُ  
يُقْبَلُ النَّاسُ عَلَى مُجَاوَزَةِ قَبْرِ عَالِمٍ أَوْ صَالِحٍ. وَهَذَا مَا يُفَسِّرُ فِي  
جِزءٍ مِنْهُ وَجُودَ هَذَا الْعَدَدِ مِنَ الْمَقَابِرِ فِي قَرْطَبَةَ. خَرَجْتُ مِنْ بَابِ  
إِشْبِيلِيَّةِ أَوْ الْعِطَّارِينَ إِلَى جِنَانِ الْقَصْرِ، وَمَشَيْتُ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى  
بَابِ الْقَنْظَرَةِ عَلَى الْوَادِي الْكَبِيرِ فَجَزَّئْتُهَا حَتَّى وَصَلْتُ الضَّفَّةَ الثَّانِيَةَ  
إِلَى بَابِ الشَّرِيعَةِ فَوَقَعْتُ عَلَى مَقْبَرَةِ الرَّبِضِ، وَوَقَفْتُ مُعْتَبِرًا عِنْدَ  
قَبْرِ نَعْمَ طَوِيلًا، وَجَاسَتْ عَيْنَايَ بِالْعِبْرَاتِ، وَتَذَكَّرْتُ كَيْفَ أَنَّ هَذِهِ  
الرَّمَّةَ الْبَالِيَةَ كَانَتْ حَبِيبَتِي وَحَبَّةَ قَلْبِي قَبْلَ بَضْعِ سِنَوَاتٍ خَلَّتْ.  
كَلَّمْتُهَا فِي صَمْتٍ، وَسَارَرْتُهَا فِي سَكُونٍ، وَخَلَّتْ أَنِّي أَكَادُ أَسْمَعُ

روحها تجاوزني بحديثٍ خَفِيَةٍ في قلبي حتى تُخَفَّفَ عَنِّي، وتطلبُ مِنِّي أن أعيشَ حياتي. كانت كريمةً حتى في رَفَدَتِهَا الأبدية. يا لك من حبيبة غالية يا نَعْم! ودَعَتْهَا كما يُودَّعُ الأحياء، لأنِّي كنتُ أعتبرُ أنها كذلك، إذ كيفَ يموتُ من كان حياً في القلب؟ قرأتُ عليها ما تيسرُ من القرآن ثم أخذتُ سطلَ ماءٍ فغسلتُ به لوحَتها الرخامية وصببتُ فاضلَ الماءِ على وجه القبر الذي غُرِسَتْ فيه بعضُ النباتات الخضراء، ثم عُدْتُ من حيثُ أتيتُ. ولَمَّا جُرِزَتْ الفَنَطْرَةَ في اتِّجاه قرطبةً انعطفتُ يساراً على طولِ الرصيف حتى وصلتُ بمحاذاة جنان القصر، وفي ركنٍ منها مقبرةٌ لكُبراءِ الدَّولة من أبناء الأَسْرِ الكبيرة. كان يفصلُ هذه الجنان عن المَصَلَّى الذي يُخَصَّصُ لصلاة العيدين سُورًا. وكان المَصَلَّى فضاءً فَسِيحًا على جَنَبَاتِ الوادي، ويُسْتَعْمَلُ في غير الأعياد مَيِّدانًا لجري الخيول والتَدْرُبِ على فنون الحرب، ويسمى بالمُصَاوَرَةِ بِلُغَةِ بلدنا.

مَشَيْتُ بين أشجارِ السَّرْوِ العالية حتى وَصَلْتُ إلى قُبُورِ أُسْرَتِنَا، فَأَلْفَيْتُ قَبْرَ والدي وبيجانبه قَبْرُ شقيقِي. جلستُ على حَجَرٍ هناك بجانب رأسِ والدي الوزير. كان القبرُ مَصْنُوعًا من رُخَامِ المرية. وبينما كنتُ أَسْتَعِدُّ لِلدَّعَاءِ جَاءَ نَاحِيَتِي مُتَعَهِّدُ المَقْبَرَةَ يَحْمِلُ دَلْوَ ماءٍ فَنَظَّفَ اللوحةَ الجنازِيَّةَ فظهرت الكتابةُ على الرُخَامِ. كان على رأسِ القبرِ شاهدٌ أطولُ من الشاهدِ الموضوع عند القدمين. نقدتُ الرجلَ مَالًا فانصرف، فإذا بِطَالِبِيْنِ أْتِيَا نَاحِيَتِي ثم افْتَتَحَا قراءةَ سورةِ يُس، ثم سُورِ أُخرى. وبعد ذلك بدأ أحدهما في الدعاءَ للميتِ وَأَهْلِهِ. وبعد أن أنهيا نقدتُهما أيضًا ببعضِ المالِ،



ووقفْتُ طويلاً عند قبر والدي وقبر شقيقي أَسْتَذِكِرُ أَيَّامَ الصَّبَا  
وإِقْبَالَ الزمان. كان الحزنُ يَنْهَشُنِي نَهْشًا، وَبَكَيْتُ اعْتِبَارًا عَلَى فِرَاقِ  
الأَجِبَةِ، وَمَنْ كَانُوا لِي عَوْنًا وَسَنَدًا. خَرَجْتُ مِنَ المَقْبِرَةِ أَجْرُ دُيُولِي  
كَمَا أَجْتَرُّ أَفْكَارِي السَّوْدَاءِ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ تَائِهًا فِي أَرْقَةِ قَرْطَبَةَ  
سَمِعْتُ صَوْتًا أَعْرِفُهُ أَخْرَجَنِي مِنْ حَالَةِ الذُّهُولِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا.  
حَقَّقْتُ النَّظَرَ فِي الرَّجُلِ، فَعَرَفْتُ صَاحِبِي أَبَا عَامِرَ بْنَ شَهِيدٍ. كَانَ  
كَمَا عَهْدْتُهُ مَرِحًا مُجِبًّا لِلْحَيَاةِ يَفْضِمُهَا بِكُلِّ كَيْانِهِ قَضْمًا، خَوْفًا مِنْ  
أَنْ تَفَلَّتْ مِنْهُ. لَقَدْ كَانَ نَمُودَجًا لِلشَّخْصِيَّةِ الأَنْدَلِيسِيَّةِ المَرِحَةِ،  
القَلِيقَةِ، الخائفة من فُقدان النِّعمِ الَّتِي جَمَعَتْهَا، وَالْحَضَارَةَ الَّتِي  
بَنَتْهَا. لَقَدْ كَانَ ابْنُ شَهِيدٍ يَعِيشُ كُلَّ أَنَاتِهِ وَلِحْظَاتِهِ بِهَوَسِ الشُّعْرَاءِ.  
أَمَّا أَنَا فَفَقَدْتُ أَنْصَجَتِي العُربَةَ وَالمِحْنَ عَلَى نَارِ التَّحْفُظِ وَجَمْرِ  
الحَدَرِ، فَلَمْ أَعُدْ آتِسُ بِالمُسْلِمَاتِ الفَانِيَةِ، وَأَحْذَرُ مِنْهَا، كَمَا لَا  
تُبَيِّنُنِي عَنِ بُوْسِ الحَيَاةِ وَقَسَاوَتِهَا. مَا إِنْ اجْتَمَعْتُ بِهِ حَتَّى دَعَانِي  
إِلَى مَجْلِسِ مُنَادِمَةٍ بِقَصْرِ أَحَدِ مَعَارِفِنَا الأَمُويِّينَ. ذَهَبْتُ إِلَيْهِ حَتَّى  
أَنْسَى حَالِي وَأَسْلَى نَفْسِي بِغِنَاءِ الغَوَانِي وَرَائِقِ الشُّعْرِ، لَكِنَّ شَيْئًا  
غَرِيبًا كَانَ يُكَدِّرُ عَلَيَّ الجَلْسَةَ، إِذْ كُلُّ هَذِهِ الأَشْعَارِ الرَّائِقَةِ وَالأَنْغَامِ  
الفَائِقَةِ لَمْ تَكُنْ طَبِيعِيَّةً بَلْ كَانَتْ فِي غَيْرِ زَمَانِهَا. كَانَ المَجْلِسُ يَزْهُو  
بِجَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الأَدَبِ وَالعِلْمِ، مِنْهُمْ ابْنُ عَمِّ لِي اسْمُهُ أَبُو بَكْرٍ  
يَحْيَى بْنُ حَزْمٍ، وَصَدِيقٌ لِي عَزِيزٌ اسْمُهُ الطَّنْبِي.

جلس النَّدمان يتحدَّثون ويتباصطون ويتنعمون بأنغام تنثرها  
جاريةٌ على أسماعنا من مِزْهِرٍ يترافقُ وَأَوْتَارٍ تتناوَحُ، وَدَارَتْ عَلَى  
النَّدمان ساقيةٌ صَبِيئةٌ غَرِيبَةٌ قُصِّصَ شَعْرُهَا حَتَّى لَكَانَهَا صَبِيَّةً،

تَسْقِيهِمْ دُمُوعَ الْكَرَمِ، فَجَاءَتْ نَحْوِي بِإِبْرِيْقِهَا فَارْتَعَشْتُ رِجْلِي  
وَصَرَفْتُهَا إِلَى ابْنِ شَهِيدٍ بِإِيْمَاءَةٍ مِنْ حَاجِبِي، وَانْكَفَأْتُ عَلَى كُوبِ  
مَاءٍ أُسَايِرُ الْقَوْمَ بِلا رَغْبَةٍ، فَقَالَ لِي ابْنُ شَهِيدٍ: هَلَّا نَضَحْتَ مَاءَ  
قَلْبِكَ بِمَاءِ الْعَيْنِ؟

خَشِيتُ أَنْ يُرْسِلَ ابْنُ شَهِيدٍ قَارِصَ شِعْرِهِ وَقَدْ اسْتَوَى أَدْيِيًا لَا  
يُبَارِي، فَتَلَقَّعْتُ الْكَلَامَ أَتَمَثَّلُ بَيْتًا مِنَ الشُّعْرِ لَوْلَاهُ:

فَهَقَّةَ الْإِبْرِيْقِ مِنْي ضَحِكًا وَرَأَى رِغْسَةَ رِجْلِي فَبَكَى  
ضَحَكَ التُّدْمَانَ وَقَالَ ابْنُ شَهِيدٍ: هَذَا الشَّعْرُ، وَهَذَا الطَّبْعُ.

ثم أنشد من رائق نظمه:

أَذَنَ الدَّيْكَ فَنُوبٌ أَوْ ثُوبٌ      وَانْضَحِ الْقَلْبَ بِمَاءِ الْعَيْنِ  
وَتَأْمَلُ آيَةً مُعْجِزَةً      مَا قَرَأْنَا مِثْلَهَا فِي الْكُتُبِ  
رَكَعَ الْإِبْرِيْقُ مِنْ طَاعَتِهِ      وَبَكَى فَابْتَلَّ ثُوبُ الْأَكُوبِ  
وَلَوْلَ الْمِزْهَرُ يَنْفِي كُرْبِي      وَتَطَرَّبْتُ فَأَعْيَا طَرْبِي  
وَرَبِيبٌ قَامَ فِينَا سَاقِيًا      كَالرِّشَا أَرْضِعَ بَيْنَ الرَّبْرِ  
ظَبِيَّةٌ دُونَ الصَّبَايَا فُضِّصَتْ      فَأَتَتْ غَيْدَاءَ فِي شَكْلِ صَبِي  
فُتِّحَ الْوَرْدُ عَلَى صَفْحَتِهَا      وَحَمَاهُ صُدْعُهَا بِالْعَفْرِ  
فَمَشَتْ نَحْوِي وَقَدْ مُلْكَتْهَا      مَشِيَةَ الْعُضْفُورِ نَحْوِ الثُّعْلَبِ

ضحكنا من هذه البراعة ومن دِقَّةِ التَّشْبِيهِ، حَتَّى قَالَ ابْنُ عَمِّي  
أَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنِ حَزْمٍ: أَقْسِمُ أَنَّ لَهُ تَابِعَةً تُنْجِدُهُ وَرُوبَعَةً تُلْهِمُهُ.  
ضحكنا مرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ سَأَلْتُهُ: مَا سِرُّ بَهْجَتِكَ وَتَوْقُودِكَ يَا أَبَا عَامِرٍ؟

فقال: هو ذاك الحبُّ الذي أضناني وأسقمني، وأحياني وأنعشني، ثم أمرضني وأفناني.

فقلت: ومن هي محبوبتُك التي تشكو منها أحوالك العجيبة يا تُرى؟

فقال: إنَّ «الذي أشكو منه أغربُّ الغرائب وأعجبُّ العجائب: بَثُّ شاغلٍ وبرحٌ قاتلٍ، وصبرٌ بغيضٌ، ودَمْعٌ يفيضُ لعُجوزٍ بخراءٍ، سَهْكَةٌ دَرْدَاءٍ»<sup>(١)</sup> تُدعى قُرْطَبَةٌ. ثم أنشد:

عُجُوزٌ لَعَمْرُ الصُّبَا فَايَنِي لَهَا فِي الحُسْنِ صُورَةٌ الفَايَنِي  
زَنْتُ بِالرِّجَالِ عَلَى سِنِّهَا فَيَا حَبِّدَا هِيَ مِنْ زَانِيَةٍ  
ضحكنا من تشبيه قرطبة الغالية بالعجوز الزانية.

ثم قلت: فأخبرني عن سرِّ براعتك الأدبية، وقد عهدتُك بظالماً لم تجلس كثيراً في حلِّقِ العلماء، ولا نبضَ لك عِرْقٌ فيها؟

فقال: لقد ترَدَّدَ مثْلُ قَوْلِكَ يا ابن حزم على لسان كثير ممَّن استَحْفُوا بهذه البراعة، وتنقَّصوا من أصالتي. وإني واضعُ رسالةٍ يا ابن حزم أُخبرُ فيها عن سرِّ صنعتي رغم قِلَّةِ مطالعتي وعدم اهْتِبَالِي بِجَمْعِ الكُتُبِ وَتَتَبُعِ أقوالِ السابقين، لكنني استَجَزْتُ من كبار خُطباء وشُعراء العربيَّة ممَّا لا حَظَّ لكم جميعاً بلقائهم واستجازتهم.

فقال ابن عمِّي: فَلَعَلَّكَ تُعْنُونَهَا «رسالة التَّوابع والزَّوابع»، فهي من تُمَلِّي عليك، وتفتح ما أرتج عليك.

(١) بخراء سهكة: كريمة رائحة الفم. درداء: ذهبت أسنانها.

فقال أبو عامر: نفعُ ياذن الله.

فقلت: لا شكَّ عندي أنك من أبرع الأدباء، وقد عَجِبْتُ لِمَا صِرْتَ إِلَيْهِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَإِنْ كَانَتْ نَوَافِجُ الْبِرَاعَةِ قَدْ أَثْمَرَتْ فِي أَغْصَانِ دَوْحِكَ مِنْذُ عَهْدِ الصُّبَا، لَكِنْ مِنْ أَيْنَ اغْتَمَرَتْ هَذِهِ الْعَبْقَرِيَّةُ يَا أَبَا عَامِرٍ، وَكَيْفَ أَجَارَكَ كِبَارُ الْخُطْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ مِمَّنْ لَمْ نَلْقَهُمْ نَحْنُ، أَذَاكَ مَسَّ قَدْ أَصَابَكَ كَمَا يَزْعَمُ أَبُو بَكْرٍ، أَمْ رُؤْيَةٌ صَالِحَةٌ قَدْ بَدَتْ لَكَ؟ وَلَا إِخَالُ مَنْ يُعَاقِرُ الدَّنَانَ مِمَّنْ تَعَشَّاهُ مَرَائِي الصَّالِحِينَ.

فقال: لَقَدْ تَجَسَّمْتُ السَّفَرَ إِلَى وَادِي عَبَّرَ كَمَا أَوْمَأَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ عَمِّكَ يَحْيَى. وَإِنِّي أَذْكُرُ أَنِّي بُلِيْتُ بِحَبِيبٍ أُخِذَ مِنِّي، فَجَلَسْتُ يَوْمًا فِي مَجْلِسِي كَثِيرًا حَزِينًا أَذْكُرُ سُوَيْعَاتِ الْهَوَى وَنَضَارَةَ الصُّبَا، فَهَزَّنِي الشُّعْرُ فَأَخَذْتُ فِي رِثَائِهِ بِأَبْيَاتٍ كُنْتُ قَدْ نَظَّمْتُهَا مِنْ جَمْرِ قَلْبِي، قَلْتُ فِي مَطْلَعِهَا:

تَوَلَّى الْحِمَامُ بِظُنْبِي الْخُدُورِ وَقَازَ الرَّدَى بِالْعَزَالِ الْغَرِيرِ  
إِلَى أَنْ انْتَهَيْتَ إِلَى الْإِعْتِذَارِ مِنَ الْمَلَلِ الَّذِي تَعْرِفُ عَنِّي،  
فقلت:

وَكُنْتُ مَلَلْتُكَ لَا عَنُ قَلِي . وَلَا عَنُ فَسَادِ جَرَى فِي ضَمِيرِي  
فَاسْتَعْلَقَ عَلَيَّ الْكَلَامُ وَاسْتَعَصَى عَلَيَّ الْإِكْمَالُ، وَأَفْجَمْتُ فِيمَا كُنْتُ فِيهِ أَرَاوِدُ صِدْقِ مَحَبَّتِي لِمَنْ انْتَزَعَهُ مِنِّي حِمَامُ الرَّدَى، فَإِذَا أَنَا بِفَارِسِ بِيَابِ الْمَجْلِسِ عَلَى فَرَسِ أَذْهَمٍ، قَدْ اتَّكَأَ عَلَى رُمْحِهِ وَصَاحَ بِي: أَعْجَزَا يَا فَتَى الْإِنْسِ؟ قَلْتُ: لَا وَأَبِيكَ، لِلْكَلامِ أَحْيَانٌ... ثُمَّ

قال لي: قُلْ بَعْدَهُ:

كَمِثْلِ مَلَالِ الْفَتَى لِلنَّعِيمِ إِذَا دَامَ فِيهِ، وَحَالِ السُّرُورِ  
فَأُتْبِتُ إِجَازَتَهُ وَسَأَلْتَهُ مَنْ هُوَ، فَقَالَ: أَنَا زُهَيْرُ بْنُ نُمَيْرٍ مِنْ  
أَشْجَعِ<sup>(١)</sup> الْجَنْ. ثم تحادثنا حينًا حتى قال لي: إذا شئت  
استحضاري فَأُنشِدْ هذه الأبيات:

وَإِلَى زُهَيْرِ الْحُبِّ يَا عَزَّ إِنَّهُ إِذَا ذَكَرْتَهُ الذَّاكِرَاتُ أَتَاهَا  
إِذَا جَرَّتِ الْأَفْوَاهُ يَوْمًا بِذِكْرِهَا يُحَيِّلُ لِي أَنِّي أَقْبِلُ فَاهَا  
فَأَغْشَى دِيَارَ الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ نَأَتْ أَجَارُعُ مِنْ دَارِي، هَوَى لِهَوَاهَا  
ثم وَتَبَ عَلَى الْأَذْهَمِ وَعَابَ فِي جِدَارِ الْحَائِطِ. وكنت متى ما  
اسْتَعْلَقَ عَلَيَّ فِي نَظْمٍ يَا أَبْنَ حَزْمٍ، أَنُشِدُ الْأَبْيَاتَ فَيَمْتَلُ لِي تَابِعِي،  
فَأُنشِدُ مَا أَشَاءُ بِقَرِيحَتِي حَتَّى أَذْهَلْتُ الْفُصْحَاءَ وَأَعْيَيْتُ الْبُلْغَاءَ، وَنَدَّ  
مِقْدَارِي عَنِ مِقْدَارِ الشُّعْرَاءِ. وقد جرت لي مع صاحبي هذا  
حكايات.

فقلت له وقد أفرى كلامه عن إحماضِ فاتني عهدُه طوَالِ  
غُرْبَتِي.. قلت مُسْتَزِيدًا تَعَلَّاتِهِ، فهل زُرْتُ وَادِي عَبْقَرِ الَّذِي كَانَ  
يَتَحَدَّثُ عَنْهُ الشُّعْرَاءُ؟

فقال: تذاكرتُ مع زُهَيْرٍ يَوْمًا أَخْبَارَ رَهْطِ الشُّعْرَاءِ وَالْخُطْبَاءِ،  
وما كان يأتِيهم مِنَ التَّوَابِعِ وَالزَّوَابِعِ يُلْقَوْنَ لَهُمُ الْقَوْلَ وَالنَّظْمَ،  
وقلت له: هل من حِيلَةٍ فِي لِقَائِهِمْ؟

(١) أشجع الجن، أي ينتمي إلى بني أشجع في الجن، وابن شهيد ينتسب إلى قبيلة  
بني أشجع العربية في الإنس، فبينهما قرابة في النسب.

فغاب عني ثم عادَ في لَمَحِ البَصْرِ، بعد أن استأذَنَ شَيْخَ التَّوَابِعِ والزَّوَابِعِ فَأَذِنَ لَهُ، ثُمَّ أَرَدْتُني عَلَى الْأُدْهَمِ فَطَارَ بِنَا بَقَطْعُ الْفِيَّافِي وَالْقِفَارِ، وَيُحَلِّقُ فَوْقَ الْبِحَارِ وَالْجِبَالِ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى أَرْضِ لَا كَأَرْضِنَا كَثِيفَةَ الْأَشْجَارِ غَضَّةِ الْأَزْهَارِ، فَقَالَ لِي: هَذِهِ أَرْضُ الْحِجْنِ يَا أَبَا عَامِرٍ، فَمِنْ أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ تَبْدَأَ، وَمَنْ تُرِيدُ أَنْ تَرَى أَوَّلًا بِأَوَّلٍ؟

فأجبتُه أَنِّي أَرُغِبُ فِي لِقَاءِ تَوَابِعِ الشُّعْرَاءِ أَوَّلًا.

فقلت لأبي عامر: وَمَنْ لَقِيتَ مِنْهُمْ؟

فقال: لَقِيتُ شَيْطَانَ امْرِئِ الْقَيْسِ وَشَيْطَانَ طَرْفَةَ، وَقَيْسَ بْنَ الْخَطِيمِ، وَأَبِي تَمَّامٍ، وَابْحَثَرِي، وَأَبِي نَوَاسٍ، وَأَبِي الطَّيِّبِ الْمَتَنِيِّ.

فقلت له: وَعَمَّاذَا أَخْبَرَكَ تَابِعُ أَبِي نَوَاسٍ، وَمَاذَا أَنْشَدَكَ لَهُ وَاسْتَجَازَكَ فِيهِ؟

فقال أبو عامر: سَرْتُ مَعَ زَهِيرٍ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى أَضَلِّ جَبَلِ دَيْرِ حَنْتَةَ، فَسَمِعْتُ قَرَعَ النِّوَاقِيسِ، وَصَرْنَا نَجُوبَ أُدَيْرَةَ وَكُنَائِسَ وَحَانَاتٍ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى دَيْرٍ عَظِيمٍ، فَسَلَّمَ زَهِيرٌ عَلَى الرَّهَابِينِ فَرَدُّوا السَّلَامَ عَلَيْنَا وَسَأَلُونَا عَنْ بُعَيْتِنَا، فَقَالَ زَهِيرٌ: حُسَيْنُ الدَّنَانِ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ غَارِقٌ فِي شُرْبِهِ مُنْذُ عَشْرَةِ أَيَّامٍ. ثُمَّ مَشَوْا بِنَا حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بَيْتٍ فِيهِ شَيْخٌ جَلِيلٌ قَدْ اتَّكَأَ عَلَى زِقِّ خَمْرٍ وَحَوْلَهُ صَبِيَّةٌ يَرْتَعُونَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَجَاوَبَ بِجَوَابٍ لَا يُعْقَلُ لِدَهَابِ عَقْلِهِ بِالشُّرْبِ. وَأَمْرِنِي زَهِيرٌ أَنْ أَسْمِعَهُ بَعْضَ خَمْرِيَّاتِي، فَأَنْشَدْتُهُ مِنْ

قصيدة طويلة كنت قد أنشدتها لما كنت في دير أرملاط قبل سنوات  
خلت، مطلعها:

ولرب حانٍ قد أذرت بديره خمر الصبا مزجت بصفو حُموره  
فصاح الشيخ الراهب قائلاً: أأشجعي؟ قلت أنا ذاك. فشرب  
ماءً قراحاً وغسل وجهه فأفاق واعتذر إلي من حاله، فعرتني مهابته  
بعد زوال سُكره ووقوفي على جلاله قدره في العلم والشعر، وأنى  
علي ثم أنشد:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي  
بغتاده كل محفوف مفارقه من الدهان عليه سحق أمساح  
لا يدلّفون إلى ماء آنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح  
ثم استشدني فأبيت، ولح علي حتى أنشدت:

أصبح شيم أم برق بدا أم سنا المحبوب أوزى أزندا  
هب من مرقده منكسراً مسبلاً لكم، مريح للردا  
قلت: هب لي يا حبيبي قبلة تشف من عمك تبريح الصدى  
فانثنى بهتزاز من منكبيه قائلاً: لا، ثم أعطاني اليدا  
كلما كلمني قبلته فهو إما قال قولاً ردداً  
كاد أن يرجع من لثمي له وارثافي الثغر منه أزددا<sup>(١)</sup>  
قال لي يلعب: خذ لي طائراً فتراني الدهر أجري بالكدي

(١) أورد: بلا أسنان. ولعله إن قال «أوردًا»، أي صار في حمرة الورد من كثرة  
التقبيل لكان أجمل في الدلالة، إذ لا يُقبل من كانت قد سقطت أسنانه كالعجانز  
(المؤلف).

وَإِذَا اسْتَنْجَزْتُ يَوْمًا وَعَدَهُ قَالَ لِي يَمْطُلُ: ذَكَّرَنِي غَدًا  
شَرِبْتُ أَعْظَافَهُ خَمَرَ الصَّبَا وَسَقَاهُ الْحُسْنَ حَتَّى عَرَبَدَا  
وَإِذَا بِتُّ بِهِ فِي رَوْضَةٍ أَعْيَدَا يَعْرُونَ بَابًا أَعْيَدَا<sup>(١)</sup>  
قَامَ فِي اللَّيْلِ بِجِيدٍ أَتْلَعُ يَنْفُضُ اللَّمَّةَ مِنْ دَمْعِ النَّدَى<sup>(٢)</sup>  
رَشَاءَ بَلِّ عَادَةٌ مَمْكُورَةٌ عَمَّمْتُ صُبْحًا بِلَيْلٍ أَسْوَدَا  
أَحَحْتُ مِنْ عَضَّتِي فِي نَهْدِهَا ثُمَّ عَضَّتْ حُرًّا وَجْهِي عَمَدًا<sup>(٣)</sup>  
فَأَنَا الْمَجْرُوحُ مِنْ عَضَّتِهَا لَا شَفَانِي اللَّهُ مِنْهَا أَبَدَا

وصار يستنشدني من أغراض شعري، فأنشدته حتى استوفيت  
وبكى طويلاً، ثم أنشدته من فائق شعري حتى قام يَرْقُصُ وَيُرَدِّدُ  
شعري، ثم استدنانني وقبل بين عيني، وقال: إِذْهَبْ فَإِنَّكَ مُجَازٌ،  
فانصرفنا عنه وانحدرتنا من الجبل.

فقلت: والله يا أبا عامر، لقد أنسيتنا كدَر هذه السنين،  
وعادت قرطبة بك قُرْطُ بَاهٍ وَبَهَاءٍ كما عهدتها، فوالله أنت شاعرها  
وَبُلْبُلُهَا الْغَرِيدِ، ودعني من سَجْعِ الْكُهَّانِ، ومن أشعار العُرَبَانِ،  
فأنت اليوم فارسُ الْحَلْبَةِ الذي لَا يُبَارَى، وصاحبُ الْقِدْحِ الْمُعَلَّى  
الذي لَا يُجَارَى، وإني مُسْتَنْجِزُكَ هذه الرسالة فَعَجَّلْ بِإِخْرَاجِهَا،  
وَأذْكَرْ لَنَا أَسَانِيدَ تَبَاعِثِهَا وَرَوَابِعِهَا، وما أَجَازُوكَ به من الإجازات  
التي لم يَظْفَرْ بها مَشَايخُ الشعرِ وَأَسَاتِيدُهُ.

(١) أعيد: من مالت عنقه. يعرو: يقصد.

(٢) أتلع: طوّل في الجيد حسن.

(٣) أححت: حكاية صوت، أي قالت «أح».



طَرَبَ ابنُ شُهَيْدٍ لِلتَّقْرِيطِ، وَالتَّقَطُّتُ كَيْسًا مِنَ الدَّنَانِيرِ أَهْدِيَتْهُ  
إِيَّاهُ لِعِلْمِي بِعَوَزِهِ وَوَقَصَّرِ يَدَهُ.

مَرَّتِ الأَيَّامُ وَالشُّهُورُ فِي قَرْطَبَةِ، وَكُنْتُ مُبَادِرًا لِأَخْذِ الْعِلْمِ مِنَ  
الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ شِيُوخِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ. فَجَلَسْتُ إِلَى مَجَالِسِ مُحَمَّدِ  
بْنِ سَعِيدِ بْنِ نَبَاتٍ، وَالْقَاضِي يُونُسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغِيثٍ، وَأَحْمَدِ  
بْنِ قَاسِمِ بْنِ أَصْبَغِ الْبِيَّانِيِّ، وَالْمَهْلَبِ بْنِ أَحْمَدِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ،  
وَحَمَامِ بْنِ أَحْمَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ. وَكَانَ لَهُ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي تَحْوِيلِي إِلَى  
الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، لِأَنَّهُ كَانَ فَقِيهًا شَافِعِيًّا. وَقَدْ رَوَيْتُ عَنْ طَرِيقِهِ  
رِسَالَةَ الشَّافِعِيِّ. وَأَدْرَكْتَنِي حِرْفَةُ الْكِتَابَةِ وَعَزَمْتُ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا  
عَاهَدْتُ بِهِ نَفْسِي فِي كِتَابَةِ رِسَالَةِ حَوْلِ الْحُبِّ. وَكُنْتُ قَدْ جَمَعْتُ  
عِدَّةَ رَسَائِلٍ وَصَلَّتْنِي فِي غَرْبَتِي وَسِيَّاحَتِي مِنَ الْأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ  
فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ حِكَايَاتِ الْحُبِّ وَقِصَصِ الْعِشْقِ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُمْ أَوْ  
لِغَيْرِهِمْ، تَضَلُّحُ أَنْ تَكُونَ مَادَّةً لِكِتَابِي. كَانَ ذَلِكَ أَفْضَلَ مَا أَصْنَعُهُ  
وَأَتَسَلَّى بِهِ مِنْ غَرْبَةِ الزَّمَانِ وَالشَّدَائِدِ الَّتِي حَلَّتْ بِنَا. تَفَكَّرْتُ فِي  
اسْمِ اخْتَارُهُ لِهَذَا الْكِتَابِ أَوْ الرِّسَالَةِ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي أُرْتَبُ مَا  
تَجَمَّعَ لَدَيَّ مِنْ أَخْبَارٍ، فَبَوَّيْتُهَا إِلَى عِدَّةِ أَبْوَابٍ عَنْ مَاهِيَةِ الْحُبِّ  
وَعِلَامَاتِهِ، وَعَنْ أَحَبَّةِ أَحْبَبُوا فِي النُّومِ، وَعَنْ آخَرِينَ أَحْبَبُوا بِسْمَاعِ  
وَصَفِّ مَحْبُوبٍ، وَآخَرِينَ أَحْبَبُوا مِنْ نَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ. ثُمَّ ارْتَأَيْتُ أَنْ  
أُفْرِدَ بَابًا عَمَّنْ لَا يُحِبُّ إِلَّا بَعْدَ مُطَاوَلَةٍ، وَعَمَّنْ لَا يُحِبُّ إِلَّا صِفَةَ  
مَعِينَةٍ فِي الْمَحْبُوبِ وَلَا يُحِبُّ غَيْرَهَا. كَمَا بَوَّيْتُ أَبْوَابًا فِي التَّعْرِيفِ  
بِالْقَوْلِ وَالإِشَارَةِ بِالْعَيْنِ وَالْمِرَاسَلَةِ وَالسَّفِيرِ وَطَيِّ السَّرِّ وَإِذَاعَةِ  
الْحُبِّ، وَبَابًا فِي أَسْبَابِ الْكَشْفِ، وَفِي الطَّاعَةِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْعَادِلِ

والمساعد من الإخوان، وبابًا عن الرقيب والواشي والوصل والهجر والوفاء والبين والقنوع والسُّلُوّ والموت. وبابًا في قبح المعصية وفضل التَّعَفُّفِ؛ وارتأيتُ أن أختَمَ بهذا الباب هذه الرسالة. وبعد أن أنهيتُ التَّبويب، بقي عليّ أن أتخَيَّرَ لها عنوانًا وأبدأ التحرير، وبينما كنتُ أَرَدُّدُ مع نفسي ما أَعْنُونُ به الرسالة، وجال بذهني ما قرأته في كتاب كليله ودمنة في باب الحَمَامَةِ المطوّقة عن الوُدِّ والمحبة، حتى سمعتُ هديلَ حمام فرفعتُ بصري فألفيتُ رُوجًا من الحمام مُتَجَاوِزَيْنِ، وعلى عُنُقِي وَاحِدٍ منهما طَوْقٌ، فلمعتُ في ذهني فكرةَ العُنوان، ثم زادتُ رُسُوخًا بعدما تَدَكَّرْتُ فِراقَ نَعْمٍ وكيف أنها راحت مَني، وَعَزَمْتُ أن أَجْعَلَ هذا الكتابَ رسالةً أُرْسِلُهَا لها، وَأَطَوِّقُ بها جِيدَ الحَمَامِ لِيَحْمِلَ لها بَرِيدِي مُعْطَرًا بالأشواق. قَضَيْتُ مُدَّةً في جمع المادّة وترتيبها وتَنقِيحِهَا واختِيَارِ مَنْ يُمَثِّلُ كُلَّ بابٍ لها، ثم حَذَفْتُ أسماءَ بعض مَنْ أَعْرِفُ حتى لا أَكْشِفَ عَوْرَاتِهِمْ أَمَامَ القُرَاءِ. لقد كنتُ مُقْتِنِعًا بأنَّ ذَهَابَ الخِلافةِ مُؤَدِّنٌ بذهابِ شيءٍ جميلٍ في هذه الحضارة هو الحُبِّ. إذا ذهبَ الحُبُّ ذَهَبَ كُلُّ شيءٍ، ولا شَكُّ أنَّ الحُبَّ قد ذَهَبَ من أُنْدَلُسِنَا وغادره، فلم يَعدْ يَهُمُّ النَّاسَ سِوَى الثورات والعُنفِ والقتلِ ونَسُوا الحُبَّ. كان عليّ أن أَطَوِّقَ جِيدَ حَمَامَةِ الأندلسِ بطَوْقِ الحُبِّ. إنَّها وصيَّتِي لمن بَعْدِي ورسالتِي للناس بعد انقِضَاءِ أَجَلِي.

وفي أوقاتٍ أُخرى كنتُ أَسْتَزِيدُ من العِلْمِ في فنون كثيرة، حتى طلع نجمي على كافة أترابي وأقراني، وصِرْتُ عَلَمَ الأعلام في بلادنا. أما قرطبة، فكانت مَسْرَحًا لصراعات الحموديين، إذ

هرب القاسم بن حمّود الملقّب بالمستعلي إلى إشبيلية، ودخل قرطبة ابنُ أخيه يحيى بن عليّ بن حمّود، وتلقّب بالمعتلي بالله. وبعد هذه الثُّلثة في الخلافة، خليفة في قرطبة والآخر في إشبيلية، وهو أمرٌ لم يُسمَع بأدَلّ منه ولا أدلّ على إدبارِ الأمور، قرّرت الابتعادَ مرّةً أخرى عن قرطبة في ظلّ هذه الأوضاع المرتبِكة، فغادرتها في سنة ٤١٢ هـ. إلى شاطبة.

كان هواء هذه المدينة مُعتدلاً إلا أنّ الحرارة كانت ترتفع في الصيف لبُعدِ المدينة نِسبياً عن الساحل. وبها قِصَابٌ مَنِيعةٌ رفيعة على جبل صخري مُرتفع، به عُيونُ ماءٍ كثيرة تصلُ إلى بَطْحَاءِ المدينة فَتُوَزَّعُ على دُورِها ومَرافِقِها العامّة مثل المساجِدِ والسَّقَايَاتِ، وهي سَبِيلٌ عمومي لتزويد سُكَّانِ الحارات والأحياء بالماء. كنتُ أُحِبُّ التَّجَوُّلَ في المدينة على طُولِ الشَّارِعَيْنِ الكبيرين اللّذين يخرقان المدينة، ويُسمّى كلُّ واحدٍ منهما بِاسْمِ السُّكَّةِ العظيمة. وعلى امتداد هاتين السُّكَّتَيْنِ شوارعٌ ثانويّة تصل إلى حاراتٍ وأحياءٍ في المدينة التي تحميها أسوارٌ، بها عدّةُ أبوابٍ مثل باب بلنسية وباب الحمّامات. وهناك أسواقٌ داخلية منها سوقُ الدواب، وآخر لأواني الفخّار، وسوقٌ ثالثة للحمّام. أمّا مساجد المدينة فكثيرة منها المسجد الجامع، ومسجد ابن الزرّاد، ومسجد ابن وضّاح. في أعلى جبل برنيسة بُنيَ حِصْنًا المدينة، أحدهما أكبر من الثاني. ففي الحصن الأوّل برجان ضخمان، وعشرون برجًا صغيرًا. في حين كان الحصن الأصغر مزوّدًا بشمانية أبراج صغيرة. ويربط بين الحِصْنَيْنِ أسوار.

كانت شاطبة مدينةً زراعيةً بسبب اعتدال مناخها وانسباط أراضيها. وزاد من تكثيف هذا النشاط اختراقُ واديتها لها، الذي رُصِّعت جنباته بالنواعير التي كانت تجذبُ الماءَ إلى السواقي فتبثُّ الحياةَ في بساتينها اليبانة بأنواع المزروعات والخضّر والثمار. شاطبة مدينةُ الزهور والرياحين والورود وأشجار الفواكه المتنوعة لا سيما الحمضيات والكرّوم. كما يشتغل أهلها بالتجارة لكثرة الأنهار والوديان وقُرب الساحل منها ممّا هيأ لها كلّ أسباب التبادل مع الثغور البحريّة في بلاد المغرب، ومنها إلى بلاد السودان، والجزر الشرقية بياسة وميورة ومنورقة. كثيرٌ من سُكّان شاطبة من الوافدين عليها مثلُ جُلّ مدن الشرق في الأندلس، لهذا فاضَ عمرانُ المدينة خارجَ أسوارها، وتكوّنَ رِبْضَانٍ.

في هذه المدينة، جاءني رسالةً من صديق عزيزٍ كان في المرية، يطلبُ منّي أن أصنّف له «رسالة في صفة الحبِّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه». كنت محتاجًا إلى أمرٍ مثل هذا يشغلني عن فتنة الاضطرابات ومخازي السياسة، وكانت نفسي تتوقُّ للكتابة في هذا الموضوع الذي كان يشغلني منذ مدّة، وقد ازداد اليوم شغفي بالكتابة فيه بعدما وضعت مخطّطًا لها وبوّبتها، إذ ربّما بعد فقْدِ الحبِّ تدعو الحاجةُ للكتابة عنه. عكفتُ على تحريرِ رسالة طوّقِ الحمامة متألفًا بذلك قلبي ممّا يحوِّكُ به من أشواق وما استولى عليه من إخفاق.

كتبتُ الرسالةَ وختمتها في بضعة أشهر. وقد كنت وفتتُ على ما ذكره الحكماء والفلاسفة عن الحبِّ. كان يُذاكرني في الأمر

بعضُ الأصحاب من فتیان الصَّقالبة ممَّن كان له أدبٌ ووَلَعٌ بهذه الأمور اللطيفة. وأذکرُ أننا تحدَّثنا يوماً عن ماهية الحبِّ، فقال لي: ما سِرُّ قولِ ابن داودَ في كتاب الزهرة حينما عرَّفَ الحبَّ بقوله «إنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه خَلَقَ كُلَّ رُوحٍ مُدَوَّرَةً الشَّكْلَ على هيئة الكرة، ثم قَطَّهَا أيضًا فجعل في كلِّ جَسَدٍ نصفًا. وكلُّ جَسَدٍ لقيَ الجسدَ الذي فيه النصفُ الذي قُطِعَ من النِّصفِ الذي معه، كان بينهما عشقٌ للمناسبة القديمة، وتتفاوت أحوالُ الناس في ذلك بحسب رِقَّةِ طبائعهم»، فكيف يُعقلُ هذا؟

فقلت: «اختلفَ الناس في ماهية الحبِّ... والذي أذهبُ إليه أنَّه اتَّصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليفة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمَّد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة «الأرواح أكرُّ مقسومة» كما أوردت عنه في كلامك.

فقال الصاحب: ما هو أصلُ كلام ابنِ داودَ عند حکماءِ اليونان؟

فقلت: إنَّ مقالةَ الأكرِّ المقسومة مأخوذةٌ من كتاب المأدبة لأفلاطون التي جمع فيها ثمانية شُخُوصٍ للحديث عن الحبِّ. وأهمُّ تعريفٍ له هو الذي وَرَدَ على لسان أرسطوفان الشَّاعِرِ الساخِرِ، أحدِ شُخُوصِ المأدبة.

قال الصاحب: وما سببُ اجتماع هؤلاء؟

فقلت: إنَّها مأدبةٌ دَعَا إليها أحدُ شُعراءِ أثينا ممَّن له ولَعٌ بمجالس الأدب والخلاعة والمُجون، وكان سُقراطُ حاضِرًا بينهم.

إنها تُشبهُ المجلسَ أو المأدبةَ التي دعا إليها الوزيرُ يحيى بن خالد البرمكي في دولة بني العباس لمناقشة موضوع الحُب. ومثلُ هذا الكلام ذكْرهُ الدَّيْلَمِي في كتابه «عَظْفُ الأَلفِ المألُوفِ على اللام المعطوف»، ممَّا يعني أنَّها أمرٌ إنساني مُشْتَرَكٌ قد يَظْهَرُ عند أَقْوامٍ مُخْتَلِفِينَ. فحِوَاءَ فَرْعٍ من آدم، وهي شِقُّ له انفصلت عنه ثم التَقِيَ بعد ذلك.

فقال صاحبي الصقليّ: وما حَقِيقَةُ تَعْرِيفِهِ الأَزْوَاحَ بِأَنَّها دَوَائِرُ أو أَكْرَمُ مَقْسُومَةٍ؟

قلت: إنَّها من أساطير اليونان، فقد ذكر هذا الشاعِرُ السَاحِرُ أَرِسْتَوْفانَ أنَّ جِنْسَ الإنسانِ قَدِيمًا كان مُقسَّمًا إلى ثلاثِ فِئَاتٍ: ذكر، وأنثى، وخُنثى. وكان كلُّ إنسانٍ من هؤلاء مثلَ الكُرَّةِ له أيادٍ أربع، وأرجلُ أربع، ورأسٌ بوجهين، وأذانٌ أربع، وفرج في جهةٍ وأخر في الجهة المقابلة. وكان بمقدور أيِّ واحدٍ أن يتقدَّم أو يتأخَّر في مشيته كما يحلو له، كأنَّ له وجهًا لكلِّ جهة. وإذا أراد أن يعدو فإنَّه يَتَدَخَّرُ كالكُرَّةِ على جوارحه الثماني.

ضحك الفتى الصقليّ، وكان مَخْصِيًّا، وقال: إنَّه فِعْلاً شاعِرٌ سَاحِرٌ هذا الذي استطاع أن يتصوَّرَ هذا الأمر.

فقلت: إنَّه يَذْكَرُ أنَّ الذَكَرَ ابنٌ للشمس، والأنثى بنتٌ للأرض، والخُنثى ولدٌ للقمر.

فقال الفتى ضاحكًا: وكيف تحوَّلوا إلى أن أصبحوا مِثْلَنَا؟

فقلت: لقد كان يعيبُ هؤلاء، الكِبْرُ والخِيَلَاءُ، فَتَازَعُوا أربابَ

الأولمب في صلاحياتهم وأرادوا أن يُصبحوا أربابًا مثلهم كما يزعمُ صاحبنا الشاعر، فصعدوا إلى السماء لمقاتلتهم، لكن كبير أرباب الأولمب، زيوس، اتخذ قرارًا بإضعافهم بدل قتلهم، فشقَّ كلَّ مخلوقٍ من الفئات الثلاث إلى شقين، ثم طلب من أحد أعوانه أن يجعل وجوههم ناحية السرة، ثم يخيظ الشق.

فقال الفتى الصقليّ مبتسمًا: وماذا حلَّ بهؤلاء بعد ذلك؟

فقلت: لقد حاول كلَّ شقِّ التعلُّق بصاحبه وحنَّ إلى الاجتماع بنصفه المفضول عنه في شوقٍ إلى الاتِّحاد به حتى هلَّكوا من الجوع والإهمال. ثم قام زيوس بتحويل أعضائهم التناسلية إلى مقدِّمة أبدانهم فالتقى الشقُّ الذكُّر مع الشقِّ الأنثى فتولَّد بينهما الولد وحفظ النوع من الزوال.

فقال الصَّاحبُ المَجُوبُ: وماذا تحصَّل من لقاء الأمثال؟

فقلت: عيادًا بالله من اللواطِ والسحاق، لقد ذكَّر الشاعرُ الماجنُ أرسطوفان أنه إذا كان اللقاء بين المتضادين يولَّد الحياة، فإن اللقاء بين المتماثلين يولَّد الروح.

فقال الفتى: وأين هو الحبُّ؟

فقلت: إنه اجتماعُ الشقين اللذَّين فُصِّلا عن بعضهما كُرْهًا وجبرًا مرَّةً أخرى بعد أن كانا متصليين قديمًا. فالحبُّ في الإنسان قديم.

فقال الفتى: إنَّ الحبَّ، إذن، هو اجتماعُ الأزواج التي انفصلت عن بعضها. ولعلَّ هذا هو الذي يفسِّرُ العبارة المشهورة

عن «الرَّوْحِ الشَّقِيقِ» .

فقلت: إنها أصداءٌ بعيدةٌ لهذا الكلام، فكلَّ شِقِّ يبحث عن شِقِّه، وكلُّ نِصْفٍ يَعدُو إثرَ نِصْفِهِ الضَّائع. هذا هو سرُّ دائرةِ الحبِّ التي تُعْطِي الإنسانَ الشُّعُورَ بالاكْتِمَالِ والامْتِلاءِ.

فقال الفتى: وما قولك في أمثالنا من المَجَابِبِ؟

فقال: لقد عَظَلْتُ آلَةَ الحُبِّ عندكم، لا حقيقةَ الحبِّ، وهذه أمثولةٌ لا يُقرُّها ديننا. لكنَّ الحبَّ غيرُ شهوةِ الحبِّ. ففقدانُ الآلةِ لا يُفقدُ طلبَ المحبوب، ولا شكَّ أنَّ أمثالكم من المجابِبِ تُحبُّونَ كما نُحبُّ لكن من دُونِ شهوةِ. إنَّ الحبَّ في المُحصَلَةِ الأَخِيرَةِ بحثٌ عن الاتِّحَادِ والفَنَاءِ في النِّصْفِ الضَّائع، إنها رحلةٌ البَحْثِ عن الدَّائِرَةِ الكَامِلَةِ أو الكُرَّةِ المَقْدُوفَةِ في فَيَافِي الكَوْنِ.

فقال الفتى: لكن، لماذا لا يُحبُّ بعضُ الناس؟ ولماذا يحبُّ آخرونَ أناسًا مختلفين عنهم تمامًا؟ فلا يُعقلُ أن يكونَ ذلك شِقًّا لهم أو نصفًا ضائعًا منهم. ولماذا الدَّائِرَةُ أَكْمَلُ من غيرها في تَشْخِيسِ حَقِيقَةِ المحبَّة؟ أليس التَّرْبِيعُ والتَّثْلِيثُ وغيرها أشكالًا للحُبِّ؟ ألا يُشْبِهُ الفَرْجُ شكلَ المثلث، والدَّكْرُ شكلَ النَّخْلَةِ؟ ألا يعيشُ الرَّجُلُ مع نساته الأربع؟ فهذه أشكال أخرى لها من الكونيةِ ما للدَّائِرَةِ من كمالٍ وتمامٍ.

فقلت: الحبُّ أمرٌ عَجِيبٌ، وكَم من فُضْلَاءِ الناسِ مَنْ أَحَبَّ خَسِيسًا. وهذا أبْقَرُاطُ قيل له إنَّ شخصًا من الأَرَاذِلِ أَحَبَّهُ، فقال لمبلِّغِهِ، لعلَّهُ وافقَ في شخصي ما يُماثلُهُ ولو خَفِيَ عنكم. الدَّائِرَةُ



يا صاحبي أكمل من غيرها، إنها وَجْهٌ لكلِّ ناحية، كما أنها تُؤشِّرُ على خَوْفِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْخِصَاءِ. إِنَّ كُلَّ شَخْصٍ يَشْبَهُ ذَاتَهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَبِلا حُدُودٍ كَالْكُرَّةِ الْمَلْسَاءِ، فَهُوَ مَلِكٌ عَلَى نَفْسِهِ، كَامِلٌ الْاِمْتِلَاءِ، لَا خِصَاصَ عِنْدَهُ لِأَنَّهُ يُعْذِي كُلَّ خِصَاصٍ بِذَاتِهِ. الْحُبُّ كُرَّةٌ مَلْسَاءٌ تَتَدَخَّرُ فِي الْكُونِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَغْلِقَ بِهَا فَلَهُ أَنْ يَرْمِي جِبَالَهَا عَلَيْهَا لَعَلَّهَا تَجْرُفُهُ مَعَهَا إِمَّا إِلَى السَّعَادَةِ أَوْ إِلَى الشَّقَاءِ. لَكِنَّمَا سَتَظَلُّ تَتَدَخَّرُ. هَذَا هُوَ قَدْرُ دَائِرَةِ الْحُبِّ.

فقال الفتى: ولماذا نتكلَّفُ في تفسير الحبِّ بهذه الأساطير اليونانية؟

فقلت: إنَّ الحَيَاةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي عَمَقِهَا، وَمَا تَحْمِلُهُ مِنْ مِشَاعِرٍ قَوِيَّةٍ تَحْتَاجُ فِي تَفْسِيرِهَا وَتَأْوِيلِهَا وَالْحَدِيثِ عَنْهَا إِلَى أُسَاطِيرٍ كَبِيرَةٍ. إِنَّ الْحُبَّ بِحَسَبِ هَذِهِ الْأَسْطُورَةِ يَجْعَلُ مِنَ الْحُبِّ شَيْئًا قَدِيمًا قَبْلَ وُجُودِ أَوَانِي الْحُبِّ فِي الْكَائِنَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، لَكِنَّ الْفَرْقَ فِي التَّصَوُّرَيْنِ هُوَ أَنَّ نَتَفَقُّ فِي الْمَبْدَأِ وَنَخْتَلِفُ فِي الْحَيْثِيَّاتِ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ كَأَهْلِ دِينٍ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُخْلُوقٌ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ. إِنَّ الْإِنْسَانَ الْمَحْدُودَ قَدْ يُجِبُّ بِحُبِّ غَيْرِ مَحْدُودٍ يَا صَاحِبِي. وَهَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي تَنْتَشِلُ الْإِنْسَانَ مِنْ ضَيْقِ الْكَوْنِ إِلَى وُسْعِ الْمُكُونِ. إِنَّ هَذِهِ الْأَسْطُورَةَ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ تَعْقُلًا لِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، حَتَّى يُلَامِسَ الْإِنْسَانَ حَقِيقَةُ الْحُبِّ وَالرَّغْبَةُ فِي غَيْرِهِ وَيَتَوَخَّذَ مَعَهَا فَلَا يَبْقَى مَعْنَى لِلغَيْرِيَّةِ. هُنَاكَ تَقْسِيمٌ سَابِقٌ لِلأرواحِ قَبْلَ ظُهُورِ الأَجْسَادِ الَّتِي تَحْمِلُهَا. وَفِي هَذَا التَّقْسِيمِ الأَزَلِيِّ لِلأرواحِ هُنَاكَ تَمَعُّظٌ قَهْرِيٌّ لِلاتِّحَادِ بِالْقَسِيمِ الرَّفِيقِ، وَالرُّوحِ الشَّقِيقِ.

فقال الفتى المَجْبُوبُ بعد أن نُفِحَ بِصَهْبَاءِ المحبَّة: إِنَّ مِنْ  
الْبَيَانِ لَسِحْرًا. وإن الرَّغْبَةَ في الكلام هي مِثْلُ الرَّغْبَةِ في الحُبِّ.  
إنَّ الإنسانَ يَتَزَاوَجُ في كلِّ منهما، أي إنه يَتَشَنَّى. فهو يَرَعْبُ فيما  
لَيْسَ عِنْدَهُ. إنه يَبْحَثُ عن الدَّائِرَةِ بعد أن كَانَ نِصْفًا، وَلَعَلَّهُ في  
بحثه هذا يُرِيدُ السَّكِينَةَ والسَّكْنَ إلى نِصْفِهِ المفقودِ، إنه خَوْفٌ من  
الوَخْدَةِ والغُرْبَةِ واليُسْمِ، وورجاءٌ في الاتِّحَادِ والأُنْسِ. إنَّ الحُبَّ هو  
الأسْطُورَةُ الحَقِيقِيَّةُ قَبْلَ أساطيرِ يونانَ وغيرِهِم.

ثم أردف: وبماذا عَنَوْنَتِ رسالتَكَ في المحبَّة؟

فقلت: طَوْقُ الحَمَامَةِ في ذِكْرِ الأُلْفَةِ والألَافِ.

فقال الفتى: ولماذا اخترتِ الأُلْفَةَ بدلَ الأسماءِ التسعةِ  
والتسعين المتبقية للمحبَّة في اللغة العربيَّة؟ وهل الأُلْفَةُ هي الحُبُّ  
العذري؟

فقلت: الأُلْفَةُ غيرُ العشقِ، لأنَّها محبَّةٌ وَدِيعَةٌ وَعُذْرِيَّةٌ. أمَّا  
العِشْقُ فهو الحُبُّ الهائِجُ المصحوبُ بِشَوْكَةِ الحُبِّ أو الشهوةِ، إنَّه  
حُبٌّ قَلِقٌ مُضْطَرِبٌ مُؤَلِّمٌ يَصِلُ بِصَاحِبِهِ إلى طَرَفِ قَاصِيٍّ، إلى  
الموتِ وإلى الجُنونِ. إنَّني أقفُ على مسافةٍ وَسَطِيٍّ بينَ الحُبِّ  
العذري الذي يُلغِي الجسدَ ويمجِّدُ الروحَ، وبينَ الخلاعةِ التي  
تمجِّدُ الجسدَ وتهمُّشُ الروحَ. إنَّني أقفُ هناك في تلكِ النقطةِ  
البرزخيَّةِ الجامعةِ لمقتضياتِ الروحِ والجسدِ معًا. إنَّني أُسَمِّيها  
الأُلْفَةَ التي تجمعُ الرُّوحِيْنَ والجسديين المتحابَّين معًا فيتألفانِ،  
ويكتبان تأليفَ المحبَّةِ مثلَ رَوْجِ الحمامِ المطوقِ بطوقِ الأُلْفَةِ.  
فَذَكَرُ الحَمَامِ يُسَمَّى إلفًا لصاحبتهِ. وفي العنوانِ جاء ذكرُ الحمامةِ،

فاستدعت القرينة ذكر الألفة تنبيهاً إلى ما بين زوج الحمام من تألف.

فقال صاحب: إن الألفة تعني الاجتماع والتأليف، ولعلها في ذلك أقرب إلى العشق منها إلى الحب العُدري.

فقلت: الإلف هو المحبوب الذي لا تستغني عنه، الحاضر معك والسّاكن إليك، إنه زوجك حساً ومعنى الذي تسكن إليه، بينما العشق شوكة سَعْدَانَةٍ تُمَضِّكُ وتَعَلِّقُ بك وتَجْرَحُكُ إذا اجتمعت بها بعد غيبة، فتطلب مفارقتها بعد أن لَدَعْتَكِ بِسَعَتِهَا. الألفة هي الحب الذي يَسْكُنُ إلى الرُّوحِ الشَّقِيقِ الذي وجدته بعد عَنَاءٍ فَسَكَّنْتُهُ وَسَاكَنْتُهُ، فهو بحضرتك موجود وفي عين القرب منك مودود. إنني يا صاحبي أَوْلَّفُ هذا التأليف عن الألفة والألاف بعد طُولِ عَنَاءٍ. فمن كان قد عاش مثل الحياة التي عشتها، لا بد أن يَسْكُنَ إلى الألفة بدل ذلك الحب الصّارخ الذي يُسَمَّى العِشْقُ. ألا يكفي ما قاسيناه من تهجير وغربة وإهانة وسجنٍ وأسْرٍ حتى نرغب أو نَحِنَّ إلى عِشْقٍ يَزِيدُ من آلامنا وأوجاعنا؟ اعذرني، فلستُ أَحِبُّ حُبَّ قَبِيلَةِ بَنِي عُذْرَةَ، ولستُ أَحِبُّ حُبَّ العُشَّاقِ، وإنما أنا مسلوبٌ لِلأُلْفَةِ والأَلافِ. إني لا أرضى بدلاً عن سُكُونِ إلى الرُّوحِ الشَّقِيقِ في اجتماع الأرواح والأبدان معاً.

فقال الفتى: لكن، ألا يُضايِقُكُ أن تُحْضِرَ الحُبَّ في انجذابٍ قديم بين الشَّقِّ لِشِقِّهِ الثَّانِي كما يَنْجَذِبُ الحَدِيدُ إلى المَغْنَطِيسِ؟ وها أنت ترى كما أرى أن الأرواح المتشابهة لا تحب بعضها بالدرجة نفسها، وهذه حالة تُخْرِمُ ذلك التَّعْرِيفَ الذي أعطيته للمحبّة. فتجد

شِقًّا يَحِبُّ أَكْثَرَ مِنَ الشَّقِّ الثَّانِي، فَهَلْ تَوَزَّعَ تَقْسِيمُ الْمَحَبَّةِ بِالتَّسَاوِي  
بَيْنَ الشَّقَّيْنِ، أَمْ أَنَّ شِقًّا حَازَ نِسْبَةً أَعْلَى مِنَ الشَّقِّ الثَّانِي؟

فقلت: إذا كان الحبُّ قديمًا، سابقًا على الأبدان، وكانت  
الأَنْصَافُ تشتاق إلى أنصافها، والأرواحُ تُسْتَهْلِكُ في أَشِقَائِهَا، فَإِنَّ  
اغْتَوَارَ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الشَّقَّيْنِ أَوْ النُّصْفَيْنِ مَرَدُّهُ إِلَى الْأَبْدَانِ وَلَيْسَ إِلَى  
الْأَرْوَاحِ. فَالْخَلْلُ رَاجِعٌ لِلْبَدَنِ الَّذِي يَعِيشُ فِي عَالَمِ الْكُونِ  
وَالْفَسَادِ، بَيْنَمَا الْأَرْوَاحُ مِنْ عَالَمٍ أَعْلَى لَا تُحِسُّ الْإِحْسَاسَ نَفْسَهُ،  
إِنَّهَا مَنْزَهَةٌ عَنِ هَذَا الثَّيِّهِ. أَلَا تَرَى امْرَأَةً عَيْنَاءً تُحِبُّ رَجُلًا أَحْوَلَ؟  
فَمَا الَّذِي دَفَعَ شِقَّهَا الْكَامِلَ إِلَى حُبِّ شِقِّ نَافِصٍ؟ إِنَّهَا قِصَّةُ الْأَبْدَانِ  
الَّتِي ارْتَضَمَتْ فِي هَذَا الْكُونِ بِعَوَامِلِ الْفَسَادِ، أَمَّا الْأَرْوَاحُ فَلَا  
زَالَتْ تُحِبُّ بَعْضَهَا، وَتَرَى الْمَرْأَةَ الْعَيْنَاءَ شِقَّهَا رَجُلًا أَعْيَنَ فِي ذَلِكَ  
العَالَمِ، بَيْنَمَا هُوَ عَلَى حَالَةٍ مِنَ النَّقْصِ وَالْحَوْلِ فِي عَالَمِ الْكُونِ  
وَالْفَسَادِ.

فقال الفتى مواصلاً: لعلَّ دائرةَ الحبِّ التي تحدَّثتَ عنها قد  
تَكَسَّرَتْ، وَلَعَلَّ حَجَرَ الْمَغْنَطِيسِ قَدْ تَوَزَّعَ أَقْسَامًا، فَتَجِدُ الْمَرْءَ  
يَحِبُّ كَثْرًا، وَيَجِدُ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مَا يُكْمِلُهُ. وَكَيْفَ يَحِبُّ  
شَخْصٌ مَوْجُودٌ مَعْدُومًا؟ أَيْنَ ذَهَبَ أَحَدُ الشَّقَّيْنِ؟ وَكَيْفَ نَفَسَرُ حَالَةَ  
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْحَبِّ أَصْلًا؟ أَلَيْسَ لَهُ دَائِرَةٌ يَأْوِي إِلَيْهَا أَوْ يَحْلُمُ  
بِهَا؟

فقلت: لعلِّي أقولُ لك إِنَّهُ الْحِجَابُ الْمُنْسَدِلُ بَيْنَ الشَّقَّيْنِ الَّذِي  
أَعْتَمَ الرُّؤْيَا حَتَّى اخْتَفَى كُلُّ شِقِّ عَنْ صَاحِبِهِ، إِمَّا فِي الْوُجُودِ أَوْ  
فِي الْعَدَمِ.

فقال الفتى: والله إنني أخشى إن أخذنا ربما نقول قد نصير  
إلى التقسيم.

فقلت: صدقت، لهذا نحن نُؤلفُ ونَتألفُ. وإنني أعترفُ بأنني  
صادفتُ حكايات تَبْدُ عن هذا التعريف، وما بين الألفة والعشق.  
إن الألفة قد تتحوّل إلى عِشْقٍ مُدْمِرٍ إذا ما غاب أحدُ الإلْفَيْنِ أو  
توقفتِ المساكنة. ويعلم الله كم عانيتُ من غيابِ حَبِيبَةٍ لي حتى  
أشرفتُ على الهلاك، لكن الله قَيَّضَ لي إلفًا تزوّجته وجاءني بالولد  
فنجوتُ من الهلاك والكمَدِ والاحتراق.

فقال الفتى: وهل استوفيتِ المحبةَ من إلفك ومحبوبتك؟

فقلت: «ما رويتُ قطُّ من ماء الوصلِ ولا زادني إلا ظمًا...  
ولقد بلّغتُ من التمكنِ بمن أحبُّ أبعدَ الغايات التي لا يجدُ  
الإنسانُ وراءها مَرَمًى، فما وجدتني إلا مُستزِيدًا.. ولقد ضمّني  
مَجْلِسٌ مع بعض مَنْ كُنْتُ أُحِبُّ، فلم أجُلْ خاطرِي في فنٍّ من  
فنون الوصلِ إلا وجدته مُقَصِّرًا عن مُرادِي وغيرِ شافٍ وَجِدِي، ولا  
قاضي لُبَانَةٍ من لُباناتي، ووجدتني كلما ازددتُ دُنُوًّا ازددتُ وُلُوعًا،  
وقدَحْتُ زِنَادَ الشُّوقِ نَارَ الوجد بين ضلوعي، فقلتُ في ذلك  
المجلس:

وَدِدْتُ بَأَنَّ الْقَلْبَ شُقَّ بِمُدْبِيَةٍ وَأَدْخِلَتْ فِيهِ ثُمَّ أَطْبِقَ فِي صَدْرِي  
فَأَصْبَحَتْ فِيهِ لَا تَحْلِينَ غَيْرَهُ إِلَى مُقْتَضَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ  
تَعِيشِينَ فِيهِ مَا حَبِيبٌ فَإِنْ أُمْتُ سَكَنْتِ شُغَافَ الْقَلْبِ فِي ظِلِّ الْقَبْرِ

فقال الفتى: أيصحُّ أنه رغم اتحاد المحبين يظلان منفصلين؟

فقلت: هو كذلك، وإنَّ السَّبَبَ يَكْمُنُ في الحُبِّ ذَاتِهِ. ولعلَّنا ننتقلُ من طلب اتِّحَادِ الشَّقِّينِ إلى تقسيم الشَّقِّ ذَاتِهِ. وهذه حقيقةٌ هذا التَّأْلِيفِ الذي أُريدُ أن أُخْرِجَ به حول المحبَّة.

فقال الفتى: يبدو أننا لم نتقدَّم في معرفة المحبَّة رغم ما ذكرناه في هذا المجلس، فوراء الوَحْدَةِ والاتِّحَادِ المطلوب، هناك التجربة الإنسانيَّة في الحُبِّ التي تَسْتَعْصِي على هذا الاتِّحَادِ، ولا تَظَرُّدُ في ذلك التَّعْرِيفِ.

فقلت: إنَّ الحُبَّ رغبةٌ دفينَةٌ في أن يرى الحِبُّ نفسه بِعَيْنِ المحبوب. إنَّه بحثٌ عن الاعتراف، وَأَنَايَّةٌ خَفِيَّةٌ. إنَّ حُبَّ الشَّقِّ الآخر هو في الحقيقة حُبُّ في الذات.

فقال الفتى: فأين حُبُّ أغيارنا؟

فقلت: رزقَكَ اللهُ غَيْرَةً على الحبيب يا صاحبي. إن كانت لك غيرَةٌ فأنت تعتبرُ غيرَكَ، وإن لم تكنْ لك غَيْرَةٌ فما أنتَ إِلَّا أَنَايِي يُحِبُّ ذَاتَهُ.

فقال الفتى: أَسَلُّكَ لَنَا جَوَاهِرَ تَأْلِيفِكَ في عِقْدِ طَوْقِ حَمَامَتِكَ من بديعِ البَيَانِ وَرَفِيعِ مَشَاعِرِ الجَنَانِ عن الأُلْفَةِ والأَلْفِ.

\*\*\*

أمضيتُ مدَّةً في هذه المدينة حتى حدثتْ انقلاباتٌ أخرى في قرطبة، فعاد القاسمُ بن حمود إلى قرطبة بعدما طرَدَ البربرُ ابنَ أخيه يحيى منها. ولم يلبثوا حتى طردوا القاسمَ مرَّةً أخرى وعزموا على تنصيب خليفة عليهم، وترشَّح لها ثلاثة، أحدهم صاحبي عبد

الرحمن بن هشام بن عبد الجبار، شقيق المهدي، الذي كان قد أقنعني بالالتحاق به. كان عبد الرحمن شاعراً أديباً شاعراً لبيباً لَوَدَعِيًّا، أشقر العين، طويلًا نحيفًا، حَسَنَ القَدِّ والجسم. ولم يكن في بيتهم من هو أفضل ولا أبرعُ منه. وقد تجرَّدتُ للدَّعوة إليه لعلمي بأهليَّته فقصدنا قرطبة. كان ينافسه على الخلافة، عبدُ الرحمن بن سليمان المرتضى، وأمويّ ثالث اسمه عليّ بن محمّد العراقي. دخلَ أهلُ الحَلِّ والعَقْدِ جامعَ قرطبة في الرابع من شهر رمضان سنة ٤١٤ هـ. مع المرشّحين الثلاثة، وكان المرتضى في أبهى حُلّة وأصحابه من حوله يظنّون أنّ الأمرَ له، وبينما هم كذلك إذ دخلتُ رفقةَ عبد الرحمن بن هشام في خَلْقٍ عظيم من الجُنْدِ والعامّة، واتَّصلتُ بالكاتب ابن بُرد وطلبتُ منه أن يُطلِعني على نصِّ البيعة التي كان قد حرَّرها، فإذا فيها اسمُ المرتضى، فطلبتُ منه أن يمحو اسمه في انتظار ما ستُسْفِرُ عنه المشاورات. وبينما كنّا نتحدث في الأمر، إذ تقدّم أميرًا الدائرة محمود وعنبر مع رجالهما مُشهرين سيوفَهُم، ففزع كلُّ من في المجلس، فلم يَجِدْ ابنُ برد بُدًا من مَحْوِ اسمِ المرتضى. دخل عبد الرحمن المقصورة واجتمع بأهل الحَلِّ والعَقْدِ، فَبُويعَ له من ساعته خليفَةً، وكتب ابنُ برد اسمَ الخليفة الجديد في زِمَامِ البيعة. وتقدّم إلى المبايعة مُنافسًا فقبَّلًا يديه وبايعاه. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يَتِمُّ فيها انتخابُ خليفةٍ أمويّ بهذه الطريقة في المسجد الجامع في قرطبة، وَحِمِدْتُ اللهَ أنّي شهدتُ هذا الحدث. كنت سعيدًا لأنّ الجماعة اختاروا عبد الرحمن، هذا الفتى الشجاع العَفيف الذي لا

يَقْرَبُ المحرّمات، وكنت قد وَقَفْتُ إلى جانبه وأَيْدْتُ اختياره لعلمي بقدرته على تَوَلِّي الخلافة. كنت سعيدًا بعد تولية عبد الرحمن الذي تَلَقَّبَ بالمستظهر، وكنت أُمْنِي النفسَ باستعادة مجد الخلافة ورُؤايتها بعد هذه السنوات العِجافِ التي أمضيتها كَحَجْرٍ يتيم في وادي الحياة، تُقَلِّبُهُ التيارات المائية في كلِّ اتِّجَاهٍ وتَعَلِّقُ به فُظْرِيَّاتُ الأقدار. استدعاني عبد الرحمن لمساندته وعيَّني وزيرًا، فَمُمْتُ بمهمتي على أَحْسَنِ وَجْهِ، وبَذَلْتُ النُّصْحَ فيما يُرضي الله. كما عيَّن ابنَ عمِّي أبا المغيرة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن حزم، وأبا عامر بن شُهَيْد، وحسَّان بن مالك الشَّاعر البارِع، والكَاتِبَ الفَدَّ ابنَ برد. استبشرنا خيرًا بهذه التعيينات ورجونا منها تحقيقَ الخير فيما يُرضي الله والعباد، لكن دَوَامَةَ الانقلابات التي دَخَلَتْ فيها بلادنا أَبَتْ إِلَّا أَنْ تُنْعَصَ عَلَيَّ مرَّةً أخرى. نَعِيمَ الاستقرار، فَقتَلَ صاحبي عبد الرحمن المستظهر بعد سبعةِ وأربعين يومًا من تَوَلِّيهِ الخِلافة يوم السبت ثالث ذي القعدة، بسببِ سعاية بعضِ شيوخِ قُرطبة الذين أَلْفُوا مثلَ هذه الانقلابات لتحقيق مآربهم، وَزَرَعِ الفتنة في البلاد. قام بالأمر بعدَ المستظهر ابنُ عمِّ له لُقِّبَ بالمستكفي. أمَّا أنا فقد سَجِنْتُ مع آخرين في سجن المطبِّق، وكانت فُرْصَةً سانحةً للتَّفكير في مآلات الأمور وما ينبغي أن أعمَلَه، فقرَّرتُ النَّأْيَ بنفسِي عن ممارسة السياسة، وتيقَّنتُ أَنَّ كَلَّ ما ناضَلْتُ من أجله انتهى، وأتانا احترَقْنَا بالسياسة الحَرَقَاء. أصابني الحزنُ والأسى، وامتلاً باطني بخيبة أملٍ كبيرةٍ إذ كان عبدُ الرحمن المستظهر رجلاً قادرًا على ترتيب الأمور، لكنَّ محترفي



المؤامرات عاكسوا نموَّ هذا البرعم الصّالح.

ثم أطلق سراحِي، فخرجتُ من قرطبة بعدما كرهتُ هذه الحال من الفوضى، واتّجّهتُ إلى المرية أولاً، وعكفتُ على دراسة المنطق والفلسفة على يدي محمّد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتّاني. ثم قصدت شاطبة، وكُلّي عزمٌ على الاستزادة من قراءة العلوم وتقييد الآثار، فهي خيرٌ ما ألقى به ربّي وأستعينُ به في حياتي الفانية.

\* \* \*

انصرفتُ بكلّيتي إلى العلم في شاطبة، لكن أصداء الثورات كانت تصلُ إلى مسامعي، فعلمتُ أنّ أهل قرطبة خلَعوا المستكفي ثم قتلوه، وعادتْ دولة يحيى بن عليّ بن حمود مرّة ثانية، لكنّه خرج من قرطبة إلى مالقة في حين أنّ خيران ومجاهد الصّقلبيّان دخلاها، ثم اختلفا، فخشي كلّ واحد منهما العذر من صاحبه، فخرج خيران إلى مَعْقِلِهِ في المرية. وبعد ذلك قُتل يحيى وقام أخوه إدريس مكانه. ثم جئتُ إلى قرطبة مرّة أخرى وانصرفتُ إلى دراسة وتدريس المذهب الظاهري مع شيخنا أبي الخيار مسعود بن سليمان بن مُفلت السُنتريني. عُيّنْتُ للتدريس في جامع قرطبة، فكنتُ أدرّسُ الفقه على غير مذهب الإمام مالك، السائد في بلادنا، بعدما اختلفت مع بعض فقهاء المالكية بسبب مُمالاتهم لطالبي السُلطان حيث اتّخذوا الدّينَ غطاءً لأهوائهم، فزيناوا لكلّ طامع مُتعلّب طلب المُلْك، وسخّروا نصوص الدّين لهذه الأغراض. كنتُ أجهرُ بهذه الحقائق وأسفُّه تدبير هؤلاء الفقهاء

المتحالفين مع أصحاب الدنيا، فقام المقلدة يُناوِشُونِي، بما لديهم، لكنهم كانوا لا يُحَسِنُونَ النَّظَرَ، ولا يُتَقِنُونَ صِنَاعَةَ الْجَدَلِ، فكنْتُ أَبْهَتُهُمْ بَهْتًا وَأُضْكَهُمْ صَكَّ الْجَنْدَلِ، وَأَرْمِيَهُمْ فِي بَحْرِ النِّسيانِ، لكنهم تَأَلَّبُوا وَتَحَالَفُوا وَشَدَّدُوا النَّفِيرَ عَلَيَّ وَعَلَى شَيْخِي أَبِي الخِيارِ. وَاتَّهَمُونَا بِإِفسادِ عَقِيدَةِ الناسِ وَتَغْيِيرِ مَذْهَبِهِمْ فِي التَّدْيِينِ، وَالْحَقُّ أَنَّهُمْ كانوا يَفْعَلُونَ ذلكَ لَخَوْفِهِمْ مِنْ فُقدانِ مَناصِبِهِمْ. وَتَجَرَّدَ ابْنُ أَبِي القَراميدِ، صاحِبُ أَحكامِ الشرطَةِ وَالسُّوقِ لِلنَّكِيرِ عَلَيْنَا، وَكُتِبَ فِي شَأنِنا إِلى الخليفةِ الجَدِيدِ هشامِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عبدِ المَلِكِ، المَلقَّبُ بِالْمَعْتَدِّ بِاللَّهِ، وَقَدْ بويعَ لَهُ خَلِيفَةً فِي حِصْنِ البُنْتِ الواقِعِ شِمالِي بِلنِسيَةِ. وَمِنْ هِناكَ كُتِبَ إِلى صاحِبِ قِضاءِ الشرطَةِ والسُّوقِ يَسْتَحسِنُ رَأْيَهُ وَيَسْتَصوِبُهُ، فَمَنَعْنَا ابْنَ أَبِي القَراميدِ مِنَ التَّدريسِ فِي جامِعِ قَرطَبَةِ، وَمَنَعَ العامَّةَ مِنَ التَّحَلُّقِ إِليْنا، وَأَدْخَلَ بَعْضَ رُؤادِ حَلَقاتِنا السُّجْنَ وَامْتَهَنَهُمْ حَتى يَتَفَرَّقُوا عَنَّا. لَكِنِّي لَمْ أَلِزْ وَلَمْ أَتَهَيَّبْ وَلَمْ أَتَوَقَّفْ عَنِ المِجَاهِرَةِ بِما أَعْتَقِدُ، وَمُناظَرَةِ فُقهاءِ المِمالِكِيَّةِ، فَتصدَّى لِي مِنْهُمُ اللَّيْثُ بنُ حَرِيشِ العَبْدَرِيِّ فِي مِجالِسِ القاضِيِ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَحْمَدِ بنِ بَشَرٍ، وَرِغْمَ أَنَّ القاضِيَّ كانَ مالِكِيًّا إِلا أَنَّهُ ساندَنِي فِي مِحنتِي وَوَقَفَ إِلى جِانِبِي، وَلَمْ يَمْنَعَهُ انْتِسابُهُ لِلْمِمالِكِيَّةِ مِنْ نُصرةِ الحَقِّ - جِزاءَ اللَّهِ خَيْرًا، هَكَذا يَكُونُ الإِنصافُ. وَكَذلكَ ناصِرَنِي فِي هَذِهِ المِحنَةِ وَزَيْرُ المَعْتَدِّ بِاللَّهِ أَبُو العاصِيِ حَكَمُ بنِ سَعِيدِ الحائِكِ، وَمُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ هِشامِ بنِ عبدِ الرُّؤوفِ، صاحِبُ أَحكامِ المِظالِمِ فِي قَرطَبَةِ، وَالقاضِيِ يونسِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ مَغِيثِ. كانَ المِجالِسُ غاصًّا

بالعلماء، وكان موضوع المناظرة قضيةً أتباع الإمام مالك بن أنس،  
وجرت في حدود سنة ٤١٩ هـ.

وفي قرطبة، بدأت تأليفاً جديداً عنونته «الفصل في الملل  
والآراء والنحل»، اهتديت إليه بعد اطلاعي الواسع على كتب  
الملل والنحل، ورأيت أن أصحابها لم يلتزموا في تأليفهم بالصرامة  
العلمية اللازمة إلا نادراً، كما كنت شاهداً على الآراء والملل  
والنحل التي تعجُّ بها بلادنا، وقد حصلت لي مع أتباعها مناظرات  
كثيرة. اهتديت إلى تبويب أحسبه غير مسبوق، إذ قسّمت الكتاب  
إلى ستة أقسام هي: الملل، التوحيد، القدر، الإيمان والوعد  
والوعيد، الإمامة والمفاضلة، واللطائف. وأعتقد جازماً أن هذه  
هي القضايا الشائكة التي اختلف حولها الناس قديماً وحديثاً وأنها  
هي الممحصّص لكلّ ملةٍ ونحلةٍ. فبدأت بالحديث عن الملل  
المخالفة للإسلام ثم تدرّجت في التأليف إلى أقربها له. وبعد ذلك  
انتقلت إلى الفرق الإسلامية، وركّزت الحديث على القضايا  
الخلافية العظيمة التي كانت وراء ما حصل من انقسامات وفتن،  
وهي مسائل التوحيد ونفي التشبيه، والكلام في القدر، والإيمان  
والوعد والوعيد، والإمامة والمفاضلة. ثم ألحقت بهذه الفصول  
فصلاً لمناقشة بعض المسائل الكلامية الفرعية حول الجزء الذي لا  
يتجزأ، والفرق بين الاسم والمسمى، وغير ذلك. كان  
السفسطائيون والشكّاك أولَ فرقةٍ أتكلّم عليها في كتابي هذا، لأنّي  
أعتقد أنهم أبعدُ الفرق عن دين الإسلام لأنهم لا يُثبتون حقيقةً،  
وختمْتُ بأقربها إلى ديننا، وهم اليهود والنصارى. وقد عمِلْتُ على

هذا الكتاب مُدَّةً طويلاً أُضِيفَ إليه وأُنْفَحُ سنواتٍ طويلة قاربتِ  
الثلاثينَ أو يزيد قليلاً.

وفي سنة ٤٢٠ هـ. أتى المعتد بالله قرطبة ودخلها في زِيٍّ  
تَفْتَحِيهِ الْعَيْنُ، وَقَلَّةِ عُدَّةٍ وَعَدَدٍ، وَبُؤْيَعٍ بِهَا بَيْعَةٍ تَامَةٍ، ثُمَّ عَيْنِي  
وزيراً مع آخرين، إلا أنه أطلق يد وزيره أبي العاصي بن سعيد  
الحائك القَرَازي في كلِّ شيء، ولم تكن له خِبرَةٌ في شؤون الحكم،  
انتقلَ من الحياكة إلى الوزارة. وتفرَّدَ المعتدُّ بمشورته لتقارُبهما في  
شِخُوخَةِ السِّنِّ، وأطلقَ يده في كلِّ شيء، وعاكسَ سائرَ الوزراء  
الذين لهم الخبرة في إدارة أمور البلاد، وحجَّبهُم عن رؤية المعتدِّ،  
فأفسدَ الأمورَ واتَّخَذَ الوزيرُ بطانةً من أهل السُّوء والفُجور ممَّن  
كانت تُزَدِّرِيهِمُ الْعَيْنُ، وَيَنْقُضُهُمُ الْخُلُقُ وَالشَّرْفُ، استمالهم إليه  
وحكَّمهم في رقاب الناس فعاثوا فساداً وجَرُّوا على الدولة ويلات،  
فَبَغَضَهُ أَهْلُ قَرْطَبَةَ حَتَّى نَصَبُوا لَهُ مَكِيدَةً وَقَتْلُوهُ، وَاخْلَعُوا الْمُعْتَدَّ بِاللَّهِ  
الذي اعتدَّ بصاحبه فخذله وأورده مَوَارِدَ الرَّدَى. قرَّرَ أَهْلُ قَرْطَبَةَ  
خَلَعَ بَنِي أُمَيَّةَ أَجْمَعِينَ. وَنُودِيَ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْأَرِيَاضِ أَنْ لَا يَبْقَى  
منهم أحدٌ في قرطبة وأحوازها، وأسبَدُوا الْأُمُورَ إِلَى الْوِزَرَاءِ،  
فَنَصَّرَ أَبُو الْحَزْمِ بْنِ جَهْوَرٍ لِرِيَاسَةِ قَرْطَبَةَ. كَانَ الْمُعْتَدُّ آخَرَ مُلُوكِ  
بَنِي أُمَيَّةَ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَبِهِ خُتِمَتِ خِلَافَةُ الْبَيْتِ الْأُمَوِيِّ فِي  
الْأَنْدَلُسِ.

كنت شاهدَ عصرٍ رأيتُ فيه المجدَّ ثم الضَّعْفَ إِلَى أَنْ تَمَّ  
القضاءُ عَلَى اللَّحْمَةِ الَّتِي تَجْمَعُ هَذِهِ الْأُمَّةُ، وَالرَّابِطَةَ الَّتِي يَأْوِي  
إِلَيْهَا كُلُّ مُسْلِمٍ. لَقَدْ صَرْنَا أَيْتَامًا حَقًّا بَعْدَ نَهَايَةِ الْخِلَافَةِ. وَكُنْتُ قَدْ

اقتنعتُ أنّ مواجهةَ هذه الارتدادات لا بدّ أن يُقوِّمَهَا نُهوَضُ فكري يَرْجِعُ بالأمر إلى ظواهرها، فاقتنعتُ بأصول المذهب الظاهري وأسهمتُ في نشره مع شيخي أبي الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت. لم تُفترَّ عزيمةُ علماء المالكية على مناهضة خرقِ إجماعهم الزائف بمذهب جديد. ولم أكن مقتنعاً بما يقولون، إذ كان كثير منهم مُمَالئًا لكلّ طامع في السلطة، يزيّنون له الأهواء ويغرّونهُ بطلب المنصبِ ويسخّرونَ نصوصَ القرآن والحديث لهذه المهام الوضيعة. سقطوا من عيني وما كان لهم إلّا أن يسقطوا، فخالفتُهُم في مذهبهم واتخذتُ لي طريقًا غيرَ طريقهم حتى صرتُ حاملَ لواءِ المذهب الظاهري، فصرتُ عدوَّهُم الذي يُحاولونَ قطعَ رأسه، لأنّه قطعَ عنهم مادّة سلطتهم وطغيانهم وتزييفهم، وفضحُ تورّطهم أمام الناس. وبدل أن يشرّفوا بالعلم فقد انسفلوا بالسياسة الفاسدة.

لكن، لما فجّعتني الموتُ في حُماتي الذين كانوا يذودون عني ويدافعون عن حقّي في معتقدي وكفّالة حرّيتي في التعبير عن آرائي، أظلمَ الجوُّ عليّ في قرطبة فحملتُ عصا التسيار مرّةً أخرى إلى المرية في سنة ٤٢٩ هـ.

استقبلني أبو جعفر أحمد بن عبّاس القرطبي، وزير زهير العامري حاكم المرية، استقبالاً حارّاً، واعتنى بي أشدّ العناية ونصرني على كلّ من حاكوا ثياب شرّ بنوّل ألسنتهم ضدّي، واجتروها في النيلِ منّي، لكنّه وقفَ مثلَ الصخرة الشامخة يصدُّ عني كيدهم. وجرتُ بيني وبين فقهاء المرية مثل ما جرى بيني وبين فقهاء قرطبة، وكانوا متحمّسينَ لمالكيّتهم يضيّقونَ بغيرها.

فلَمَّا بَشَّتْ عِلْمِي فِي جَامِعِ الْمِرْيَةِ اجْتَمَعَ إِلَيَّ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الطَّلَبَةِ، فَحَنِقَ عَلَيَّ فَهَاءُ الْمَالِكِيَّةِ نَشَرَ مَذْهَبَ ظَنُوهِ غَرِيبًا، وَكَأَنَّمَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَى الْخَلْقِ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا بِفِقْهِ مَالِكٍ. وَلَوْ أَنَّ مَالِكًا كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا نَهْيُهُمْ عَنْ ذَلِكَ. أَوْلَمْ يَطْلُبْ مِنْهُ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِي أَنْ يَنْصُرَ مَذْهَبَهُ وَيُنْشِرَهُ فِي أَرْجَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ؟ فَرَفُضَ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ صَحَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَفَرَّقُوا فِي الْأَمْصَارِ. وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عِلْمٌ نَبَوِيٌّ بَلَّغَهُ بِحَدِّ التَّوَاتُرِ، فَلَا يَجُوزُ حَضْرُ الْمِيرَاثِ الْعِلْمِيِّ النَّبَوِيِّ فِي وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ مَهْمَا كَانَ قَدْرُهُ. لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْفُقَهَاءَ كَانُوا يَذُودُونَ عَنِ مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَيَغْلُفُونَهَا بِلِبَاسِ الدِّينِ. وَجَرَتْ لِي مَعَهُمْ مَنَاظِرَاتٌ عَظِيمَةٌ كُنْتُ أَخْرَجُ فِيهَا مُنْتَصِرًا لِعَدَمِ إِتْقَانِهِمْ لِآلَةِ النَّظَرِ وَالْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ.

وَمِنْ بَيْنِ الْمَنَاظِرَاتِ الَّتِي حَصَلَتْ بَيْنَنَا تِلْكَ الْمَتَعَلِّقَةُ بِالْقِبْلَةِ، حَيْثُ إِنِّي كُنْتُ لَمَّا أَنْهَيْتُ دَرْسِي بَعْدَ دُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ وَأَذَانَ الْمُؤَذِّنِ، أَقَفْتُ فِي الصَّفِّ إِلَى جَانِبِ الْمُصَلِّينَ فَيُؤَمِّنَانَا الْإِمَامَ، وَكُنْتُ أَنْحَرْتُ قَلِيلًا إِلَى الشَّرْقِ فِي صَلَاتِي عَنِ قِبْلَةِ مَحْرَابِ جَامِعِ الْمِرْيَةِ لِتَيَقُّنِي بِعَدَمِ مُسَامَتَتِهَا، مُسْتَدَلًّا فِي ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ الْقِبْلَةَ صَلَّى وَلَا بُدَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ. وَأَحْيَانًا كُنْتُ أُصَلِّي إِلَى جَنْبِ الْقَاضِي ابْنِ سَهْرٍ الْقُرْطُبِيِّ، الَّذِي وَلِيَ الْقَضَاءَ فِي الْمِرْيَةِ بَعْدَ وَفَاةِ قَاضِيهَا اللَّيْثِ بْنِ حَرِيْشِ الْعَبْدَرِيِّ سَنَةَ ٤٢٨ هـ، فَثَارَتْ نَائِرَتُهُمْ وَحَوَقَلُوا مُكَابَرَةً حَتَّى يَرْفَعُوا مِنْ حِدَّةِ الْإِحْتِقَانِ وَمُسْتَوَى الْإِسْتِنْكَارِ، وَالتَّدْلِيلِ عَلَى خُطُورَةِ الْحَدَثِ، ثُمَّ تَقَوَّلُوا فِي أَنِّي أُصَلِّي إِلَى قِبْلَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِالشَّامِ. وَجَاؤُوا إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْرٍ وَقَالُوا لَهُ

أن يُخَيِّرَنِي فِي أَنْ أُصَلِّيَ إِلَى قِبَلْتِهِمْ أَوْ أُطْرَدَ مِنَ الْمَرِيَةِ. ثُمَّ حَذَّرُوهُ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَطْرُدْ ابْنَ حَزْمٍ، رَبِّمَا ظَنَّ الْأَعْمَارُ أَنَّ الْفَتَانَ عَلَى صَوَابٍ، وَرَبِّمَا احْتَجَّ هَذَا الْمَخَالِفُ بِالْقَاضِي يَوْمًا مَا عَلَيْنَا. خَافَ ابْنَ سَهْرٍ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ يَدَافِعُ عَنِّي دَوْمًا فِي وَجْهِ فَقَهَاءِ الْمَرِيَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ سَمَحًا وَاسِعَ الْأَفْقِ، وَلِأَنَّهُ قَرَطَبِيٌّ مِثْلِي، وَقَرَطَبَةُ كَانَتْ أَكْثَرَ قَبُولًا لِلآرَاءِ الْمَخْتَلِفَةِ، وَأَطْلَعَنِي عَلَى مَا قَالُوهُ لَهُ، وَطَلَبَ مِنِّي التَّحَفُّظَ فِيمَا أَعْتَقَدُ فَرَفَضْتُ. وَلَمَّا خَيَّرَنِي فِي مَا اشْتَرَطُوا عَلَيْهِ اخْتَرْتُ الْخُرُوجَ مِنَ الْمَرِيَةِ مُنْتَصِرًا لَمَّا أَعْتَقَدُ، وَأَنْشَدْتُ قَائِلًا:

قَالُوا تَحَفَّظْ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ كَثُرَتْ أَقْوَالُهُمْ وَأَقَاوِيلُ الْعِدَا مِحْنُ  
فَقُلْتُ: هَلْ عَيْبُهُمْ لِي غَيْرَ أَنِّي لَا أَقُولُ بِالرَّأْيِ إِذْ فِي رَأْيِهِمْ فِتْنُ  
وَأَنَّنِي مَوْلَعٌ بِالنَّصِّ لَسْتُ إِلَى سِوَاهُ أَنْحُو وَلَا فِي نَصْرِهِ أَهْنُ  
لَا أَنَّنِي نَحْوَ آرَاءِ يُقَالُ بِهَا فِي الدِّينِ، بَلْ حَسْبِي الْقُرْآنُ وَالسُّنَنُ

\* \* \*

لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْخُرُوجِ مَرَّةً أُخْرَى مِنَ الْمَرِيَةِ إِلَى دَانِيَّةَ، الَّتِي كُنْتُ عَلَى صِلَةِ بُوْزَيْرِهَا أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنَ رَشِيقٍ، وَكَانَ يَحْبُبُنِي وَيُبَجِّلُنِي، وَيَعْرِفُ أَفْضَالَ أَسْرَتِي بِسَبَبِ وِلَايَتِهِ لِأَسْرَةِ صَاحِبِي ابْنَ شُهَيْدٍ. كَمَا كَانَ مُجَاهِدَ الْعَامِرِيِّ حَاكِمَ مَمْلَكَةِ دَانِيَّةَ وَالْجَزْرِ الشَّرْقِيَّةِ يَعْرِفُنِي مِنْذُ كُنْتُ وَزِيرًا لِخَلِيفَةِ الْمَرْتَضِيِّ، وَجَرَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَجَالِسٌ عِلْمِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ. وَكَانَ قَدْ انْضَمَّ إِلَى جَيْشِ الْمَرْتَضِيِّ الَّذِي انْهَزَمَ أَمَامَ زَاوِيِ بْنِ زَيْرِي، صَاحِبِ غِرْنَاطَةَ سَنَةِ ٤٠٩ هـ.

كَانَ حَاكِمًا دَانِيَّةَ وَالْجَزْرِ الشَّرْقِيَّةَ، مَيُورَقَةَ وَمُنُورَقَةَ وَبِيَّاسَةَ، هُوَ

مجاهد العامري. وقد فرَّ مجاهد من قرطبة بعد مقتل محمّد المهدي بالله فاستولى على دانية والجزر الشرقية، كما استولى على جزيرة سردينيا. وكان يستقدم العلماء من المغرب والمشرق ويكرّمهم حتى أضحّت مملكة دانية وما والاها من الجزر الشرقية سوقًا نافقةً للعلم.

كانت مدينة دانية تُشرفُ على البحر وكأنها جزيرة، لكون المياه تُحيط بها من كلّ الجهات، وتنتشر في ضواحيها الملاحات. أمضيتُ حوالي الستين في هذه المدينة. وبعد وفاة فقيه ميّورقة عام ٤٣٤ هـ، الذي كانت الفتيا تدور عليه، فإنّ ابنَ رشيق توسّط لي عند مجاهد العامري كي أنتقلَ إلى هذه الجزيرة بعدما اشترط عليّ أن أفتي فيها بمذهب مالك لا بما أعتقده. انتقلتُ إلى ميّورقة، وحملتُ مُرفهاً مُنعماً على ظهر أحد المراكب. وفي ميّورقة وجدتُ الجوّ سانحاً للتفرُّغ للعلم والتأليف والتدريس ومُناظرة فقهاء المالكية ونُصرة المذهب الظاهري. طار صيتي في ميّورقة وحجَّ إليّ الطلبة من كلّ مكان، وبدأ ابني الفضل يحضر أيضًا هذه الدروس.

كانت ميّورقة أكبرَ جزر شرق الأندلس، وكانت مدينتها حافلةً بالمهاجرين الذين قدّموا إليها من كلّ جهات الأندلس حتى توسّع عمرانها. جلسْتُ في ميّورقة لا أبه بشُشنة فقهاء المالكية حتى زاد غيظهم عليّ، فأرصدوا لي أحدَ علمائهم يُقال له ابن البارية يطمح في مُناظرتي والتطويح بي. استجبتُ لدعوته واشترطتُ أن تكونَ بمحضر صاحبي الوزير ابن رشيق. انعقدتِ الجلسةُ وهويتُ بابن البارية مهاوي سحيقة حتى وكّف منه العرقُ خيوطًا كُشفتُ عن



بَوَائِقِهِ، وبان للحاضرين عجزه وجهله بأمر الديانة. ولما بان الحقُّ اسْتَبْتَبْتُهُ أمام الملاء فتاب من عقيدته الفاسدة، وأدخله ابن رشيّق السّجن، ثم أطلقه بعد أن اشترط عليه الخروج من ميّورقة.

خرج ابن البارية، وفي صدره أرطالٌ من العَمِّ، وأضعافها من الغلِّ على من كان سبباً في هذه البليّة، وقد كنتُ لا أبه بما قد يُدبّر مع أمثاله من بعض مالكيّة الأندلس، وما كان عليّ أن أنساق إلى الاستهانة بهم، لأنّ استعداد الناس حين لا يلزمُ لا فائدة منه، بل قد يكون مَجْلَبَةً لكثير من الشُّرور. وهو ما حصل تماماً، إذ خرج ابن البارية يُشنعُ عليّ، ويطلبُ إخراجي من ميّورقة، فانحاش إليه رَهْطٌ من أمثاله يَهْرِفُونَ بما لا يعرفون، وصار تَسِيحُهُم بالليل والنهار الشناعة على أبي محمّد بن حزم.

لاحظ أحدُ أذكىاء فقهاء ميّورقة، هو محمّد بن سعيد الميورقي، بأنّ فقهاء المالكيّة لا يقدرُونَ على مُحاجّجتي لاهتمامهم بالفروع وإغفالهم علوم المناظرة والحجاج والجدل، ولم يكن فيهم واحدٌ يقدر على مناظرتي، فهده تفكيره إلى مكاتبة أبي الوليد الباجي، أحد العلماء الشباب الذي عاد بعلم غزير من رحلته في طلب العلم إلى الشرق التي قادته إلى الأخذ عن كبار علماء الأُمَّة ونجبايها، فتمرّس على الجدل والمناظرة، وحاز قصبَ السّبقي في الحجاج. فقصدّه الميورقي في بعض سواجل الأندلس، وفتحهُ في شأنِي وشنع عليّ بما ملأ صدْرَ الباجي بالانتصار لأصحابه والإفساح لنفسه ولمذهبه.

كلّمني صاحبي ابن رشيّق، والي ميّورقة عن مُناظرة أبي الوليد

الباجي، فأجبتُهُ لما طلب. جاء الباجيُّ مع ابن سعيد الميَورقي، واجتمع فقهاء المالكيّة لمناظرة علنيّة في قصر الوالي ابن رشيق. دخل الباجيُّ إلى المجلس فألفيته شابًّا يصغرُني بحوالي عشرين سنة. أعطى الوالي الإشارةَ لبدء المناظرة، وسرَدَ أحدَ الفقهاء بعضًا من الآداب التي ينبغي التَّحليُّ بها حتى يتمكَّنَ الحاضرونَ من الحُكم على المتناظرين، فقال: «ينبغي للمناظر أن يُقدِّمَ على جدِّهِ تقوى الله عزَّ وجلَّ، كما ينبغي أن يُصلِّيَ على رسوله عليه الصلاة والسلام، ثم يسألَ الله المعونةَ والتوفيقَ لنفسه على طلب الحقِّ وإدراكه، ويقصدَ بنظره طلبَ الحقِّ ليُدركَ مقصوده ويحوزَ أجره.. ولا يقصدَ به المُباهاةَ والمفاخرةَ.. ويتوقَّرُ في جلوسه ولا ينزعجَ من مكانه.. ويُقبلَ على خصمه فإنَّه أحسنُ في الأدب، ويُحسِنَ الاستماعَ إلى كلامه.. ولا يُداخِلُه في نوبتِه ويصبر له حتى يفرغَ من كلامه..».

ثم أخذ أبو الوليد الكلمة، وحاول أن يزعزعني ويُضعفَ موقفِي، فهجم عليَّ مندفعًا بحِدَّةِ الشباب، وقال بغرور: «أنا أعظمُ منك همّةً في طلب العلم لأنك طلبتَهُ وأنتَ مُعانٌ عليه، تسهَّرُ بِمَشْكَاةِ الذَّهَبِ؛ وطلبتَهُ، وأنا أسهَّرُ بِقِنْدِيلِ بَائِتِ السُّوقِ (الحارس الليلي).

فقلت: «هذا الكلامُ عليك لا لك، لأنك إنَّما طلبتَ العلمَ وأنتَ في تلك الحالِ رجاءٌ تبديلُها بمثلِ حالي. وأنا طلبتُهُ في حين ما تَعَلَّمُهُ وما ذَكَرْتُهُ، فلم أَرُجُ إِلَّا عُلُوَّ القَدْرِ العِلْمِي في الدنيا والآخرة».

تغامز الحاضرون، وابتسم ابن رشيقي، لأنني أفحمتُ أبا الوليد بهذا الجواب.

ثم قال الباجي بعد أن ازدردَ ريقه: ما هي مصادرُ التشريع عندك؟

فقلت: الكتاب والسنة والإجماع.

فقال الباجي: فأين القياس؟

فقلت: لا أقول به، وأعتبره من يدع المتأخرين من أصحاب الفتيا، ولم يكن من مسلك المتقدمين.

فقال الباجي: «هذا الكلام غريب، إذ إنَّ القياس كان مصاحباً لاجتهاد والرأي منذ العهد الأول. فحمادُ شيخ أبي حنيفة، وإبراهيم النخعي مثلاً، كانوا ممن يقيسون لأنهم كانوا يجتهدون بأرائهم، فالقياس إذن ليس بدعة من المتأخرين، بل كان معمولاً به عند أئمة المتقدمين.

فقلت: إنَّ الله سبحانه أنزلَ الشرائع. فما أمرنا به فذاك واجبٌ، وما نهانا عنه فهو حرام، وما لم يأمر به أو ينه عنه فهو مُباح مُطلقٌ حلال. والمكروه والمندوب جزء من المباح، فهما مُندرجان فيه. ونصوصُ الشريعة بيَّنتِ الحلال والحرام، وما كان دونهما فهو على أصلِ الإباحة. ومن أوجب على العباد بالقياس أو بغيره أمراً غير ما وردت به النصوص، فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى. كما أنَّ من حرَّم عليهم من غير النص، فقد أتى بما لم يأذن به الله تعالى.

فقال الباجي: نحن جميعًا نُقِرُّ بأننا نؤمن بالله ورسوله، فكيف نعلم ما يريدُه الله منّا؟

فقلت: مُرادُ الله بَيْنَهُ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وهما لا يفترقان.

فقال الباجي: وكيف تتأكَّد عندنا حُجِّيَّةُ هذين المصدرين، الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ؟

فقلت: لقد نشأتُ عُلُومُ التَّوَاتُرِ وَعِلْمُ الرِّوَايَةِ لهذا الغرض، وهي كثيرة.

فقال الباجي: إلى الآن نحن متفقان، لكن كيف نفهم هذين المصدرين، الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ؟

فقلت: النصوص واضحة.

فقال: دعنا نَتَّفِقُ أَوَّلًا، أَلَسْتَ تُقِرُّ بِأَنَّ النصوصَ متناهية؟

فقلت: بلى.

فقال الباجي: أَلَسْتَ تُقِرُّ أَيْضًا بِأَنَّ الوقائع غير متناهية؟

فقلت: بلى.

فقال الباجي: إذا كانت النصوص متناهية، والوقائع غير متناهية، فكيف نعلمُ حكمَ الله في الوقائع التي لم يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ؟

فقلت: إِنَّ كُلَّ الوقائع غير المتناهية إذا لم تكن محرمة بنص من النصوص، فهي على أصل الإباحة، وهناك نصوص كثيرة في هذا، مثل قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. ويمكن أن أعكس وأقول لك إنك جوّزت وجود وقائع

ونوازلَ لا حُكْمَ لها في قرآنٍ ولا سُنَّةٍ، فماذا تصنع فيها؟ فهذا لازم لكم وليس بلازم لنا، لأننا نعتقد أنّ هذا باطلٌ معدومٌ لا سبيلَ إلى وجوده أبداً. فنصُّ الإباحة يشملُ كلَّ ما فيه من أمرٍ أو نهي. ومن قاس فأمر، أو قاس فحرّم، فقد خالف الشَّرْعَ.

فقال الباجي: لا نُسلِّمُ لك هذا الأمر، فهناك وقائع كثيرة، ونحن نحتاج إلى فهم مصادر التشريع لإيجاد عِلَّةِ الحُكْمِ بين الوقائع المتشابهة في النصوص حتى نحكمَ عليها بواحد من الأحكام الشرعيّة الخمسة. وهو موضوعُ عِلْمِ أصول الفقه. وقد وضعه الإمام الشافعي كما تعلّم، وألّف فيه كتابه «الرسالة». وقد قام أحد شيوخنا وهو الخطيب البغداديّ المالكيّ في كتابه «الفقيه والمتفقه» بإسناد جزئيات ما ذكره الشافعي في الرسالة، مثل ما ذكره عن المطلق والمجمل وما سوى ذلك إلى الصحابة رضوان الله عليهم.

فقلت: فعلى فَرَضٍ ما تقول، فقد قام بعض الصحابة بالقياس، لكنّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام نهاهم عن ذلك، مثل ما حصل مع عمر وأسامة بن زيد في لبس الحرير وخطأهما النبي عليه السلام بقوله «إنما يلبس الحرير في الدنيا مَنْ لا خلاقَ له في الآخرة». ثم إنّه بعث لكلّ واحدٍ منهما بحلّة، وقال لعمر «شقّقها حُمراً بين نسائك». أمّا أسامة فراح في حُلَّتِهِ فنظر إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام نظراً عَرَفَ منه إنكاره عليه، فقال: يا رسول الله لِمَ تَنْظُرُ إليّ؟ فأنتَ بَعَثْتَ بها إليّ، فقال: إني لم أبعثها إليك لتلبسها، ولكن بعثتها إليك لِشَقَّقَهَا حُمراً بين نسائك» فأنت ترى

أَتَهُمَا قَاسَا اللَّبَاسَ عَلَى الْمِلْكِ وَالْبَيْعِ وَالِانْتِفَاعِ، فَكَمَا أَنَّ هَذِهِ  
الْثَلَاثَةَ مُبَاحَةٌ، فَلَبَسُ الْحَرِيرِ كَذَلِكَ مُبَاحٌ. وَإِنْ كَانَتْ حَرَامًا، فَلَبَسُهُ  
حَرَامٌ، فَنَبَّهَهُمَا النَّبِيُّ أَنَّ هَذَا قِيَاسٌ خَاطِئٌ، لِأَنَّ جَوَازَ الْمِلْكِ  
وَالْبَيْعِ وَالِانْتِفَاعِ بِالْحَرِيرِ لَا يَعْنِي جَوَازَ لِبَاسِهِ لِلرِّجَالِ.

فَقَالَ الْبَاجِي: لَا نُسَلِّمُ لَكَ مَا تَقُولُ، فَقَدْ فَهَمَا أَنَّ اللَّبَسَ  
حَلَالٌ لِأَتَهُمَا لَمْ يَعْرِفَا النَّهْيَ، فَكَانَ عَلَى الْإِبَاحَةِ. ثُمَّ إِنَّ هَذَا لَيْسَ  
بِقِيَاسٍ وَإِنَّمَا هُوَ اسْتِنْبَاطٌ. وَعَلَى فَرَضِ أَتَهُمَا أَخْطَأَ فِي قِيَاسِهِمَا،  
فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى بَطْلَانِ قِيَاسٍ مُخْصُوصٍ لَا عَلَى بَطْلَانِ كُلِّ قِيَاسٍ.  
وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْخَطَأَ يَجُوزُ فِي الْاجْتِهَادِ، فَكَذَلِكَ يَجُوزُ فِي  
الْقِيَاسِ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْاجْتِهَادِ. ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ يَأْمُرُنَا بِالِاعْتِبَارِ  
وَهُوَ حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ لِلْقِيَاسِ بِقَوْلِهِ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

فَقُلْتُ: لَيْسَ مَعْنَى «اعْتَبِرُوا» فِي لُغَةِ الْعَرَبِ قِيَسُوا، وَلَا فِي  
عُرْفِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَإِنَّمَا مَعْنَى «اعْتَبِرُوا» تَعَجَّبُوا وَاتَّعَظُوا  
بِدَلِيلِ نَصِّ الْقُرْآنِ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَي  
عَجَبٌ وَمَوْعِظَةٌ.

فَقَالَ الْبَاجِي: إِنَّ الْقِيَاسَ هُوَ حَقِيقَةُ الْاجْتِهَادِ، وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى  
ذَهْنٍ صَافٍ، وَنَفْسٍ عَالِيَةٍ، وَتَقْوَى لِلَّهِ تَعَالَى لِإِصْدَارِ حُكْمٍ عَلَى  
مُرَادِ اللَّهِ.

فَقُلْتُ: هَذِهِ دَعْوَى عَرِيضَةٌ أَنْ تَدَّعُوا قُدْرَةَ عَلَى إِصْدَارِ أَحْكَامٍ  
عَلَى مُرَادِ اللَّهِ. لَكِنْ، دَعْنَا مِنْ هَذَا وَأَجِيبْنِي، كَيْفَ تَفْعَلُونَ حِينَمَا  
تَجِدُونَ أَنْفُسَكُمْ بَيْنَ دَائِرَتَيْنِ لِلْأَحْكَامِ، إِحْدَاهُمَا قَطْعِيَّةٌ وَالثَّانِيَّةُ  
ظَنِّيَّةٌ، فَكَيْفَ تَرْجَحُونَ؟

فقال الباجي: حينما تتعارضُ النصوصُ نرجِّحُ بينها ونُراعي مقاصدَ الشارع.

فقلت: ليس هناك تعارضٌ بين نصوص القرآن مع بعضها، أو بين نصوص السُّنة مع بعضها، أو بين القرآن والسُّنة. بل إنَّ كلَّ النصوص الشرعية تتصافر في بيان أحكام الشريعة الإسلامية لأنَّ مصدرها واحد وهو الوحي الإلهي.

فقال الباجي: وكيف تصنعُ إذا تعارضَ الحديثان أو الآيتان؟

فقلت: فَرَضُ على كلِّ مُسْلِمٍ في هذه الحالة أن يَسْتَعْمِلَ كُلًّا منهما، لأنَّه ليس بعضُ ذلك أولى بالاستعمال مِنْ بَعْضٍ، ولا حديثٌ بأوجبَ من حديثٍ آخرَ مثله، ولا آيةٌ أولى بالطاعة من آيةٍ أخرى مثليها. فالكلُّ من عند الله.

فقال الباجي: مثَلُ لنا بأمثلة حتى نعرفَ مذهبك.

فقلت: إنَّ التَّعارضَ كثيرًا ما يكون مَزْعومًا وليس حقيقيًا بين النصوص الشرعية. وهناك أربعة أمور تُمَكِّنُ من إيجاد التَّوافق بين النصوص المتعارضة. فأوَّلُ هذه الوُجوه التَّخصيصُ، كأن يُحْصَصَ الأكثرُ بالأقلِّ، فيكونُ حكمُ الأكثرِ باقيا في الباقي بعد إخراج الأقلِّ. مثال ذلك أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قد أمر بأن لا يَنْفِرَ أحدٌ من الحَجِّ حتى يكونَ آخرَ عهده بالبيت الحرام، فلا يعودُ إلى بلده قبل أن يطوفَ طوافَ الوداع، لكنَّه أذِنَ للحائض أن تَنْفِرَ قبل أن تُودِّعَ، فوجب استثناء الحائض من الحُكْم. والأمثلة على هذا كثيرة، ولا نُبالي في هذا الوجه إن كُنَّا نعلَمُ أيَّ النَّصِّين ورد

أَوَّلًا أو لم نعلم، فالكلُّ سواءٌ ويُستعملان معًا.

فقال الباجي: هذا هو الوجه الأول، وما هو الوجه الثاني؟

فقلت: الوجه الثاني أن يكونَ أحدُ النَّصِّينِ مُوجِبًا إيجابًا عامًا، ويأتي نصٌّ آخرٌ يبيِّنُ إيجابًا خاصًّا، أو فيما يَحْصُ المنعُ كذلك كقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ وقوله ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فالثانية خاصةٌ داخلَةٌ في عمومِ الأولى. ففي هذه الآياتِ يعمُّ الحُكْمُ بالإيجابِ، ويَحْصُ بعضها بالإيجابِ أيضًا. فليس هناك تعارضٌ بينها.

أما الوجهُ الثالثُ، فهو أن يكونَ أحدُ النَّصِّينِ مُوجِبًا عملاً بكيفيةٍ مخصوصةٍ أو في زمانٍ أو مكانٍ أو شخصٍ مخصوص، أو بعددٍ معيَّن. ثم يكونُ النصُّ الثاني فيه نهْيٌ عن عمَلٍ له صلةٌ بالأوَّل أو جنسِه أو نوعه، ومُقَيِّدًا بحالٍ أو زمانٍ أو مكانٍ أو نوعٍ من الأشخاص. ومثاله قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، بينما يقولُ النَّبِيُّ عليه السَّلَامُ «لا يَحِلُّ لامرأةٍ تؤمُّ بالله واليوم الآخر أن تُسَافِرَ إلَّا معَ زَوْجٍ أو ذي رَجْمٍ محرَّمٍ منها». فإني أرى إعمالَ النصِّ بأن يكونَ أحدهما مُخَصَّصًا للآخر، ولا بُدَّ مِنْ مُرَجِّحٍ. فقد يكونُ الحديثُ مُخَصَّصًا للآية، فنقول ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «حَاشَا اللَّائِي لَا يُصَاحِبُهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ»، إلخ. أو يقال: إنَّ السَّفَرَ إِلَى الْحَجِّ خَارِجٌ عن موضِعِ النَّهْيِ، فتكونُ آيَةُ الْحَجِّ هي المَخَصَّصَةُ للحديث، وهو ما أختاره لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله». والذَّهَابُ إِلَى الْحَجِّ ذَهَابٌ إِلَى أعظم مساجد الله. وَيَسُوعُ



للمرأة أن تَحُجَّ بدون مَحْرَمٍ، ويكون تحريم السَّفَرِ مُسْتَثْنَى مِنْهُ السَّفَرُ لأداء الواجبات والمندوبات.

أما الوجه الرابع، فهو الذي يبدو فيه التَّعَارُضُ قَوِيًّا، كأن يكون أحد النَّصِّينِ مُحَرَّمًا وَالْآخَرُ مُبِيحًا. ففي هذه الحالة، ننظرُ في تاريخ وُرُودِ النَّصِّينِ، فنَنْظُرُحُ النَّصْرَ الْمَنْسُوحَ وَنَعْمَلُ بِالنَّصْرِ النَّاسِخِ لَهُ، لَكِنْ بَعْدَ حُصُولِ الدَّلِيلِ.

ثم تناظرنا في المصدر الثالث من مصادر التشريع وهو الإجماع، فسألني الباجي عن قولي فيه، فقلت: الإجماعُ المعتبر هو إجماعُ الصحابة، لأنه يعني المعلومَ من الدين بالضرورة وهو المتواترُ منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام، كالإيمان والصلوات المفروضة وأوقاتها وركعاتها والصيام وشهره ووقته والحج ووقته وركنه، ومثل هذا، ممَّا لا يختلف فيه المسلمون. ولا يكون إجماعٌ إلَّا عن توقيف، والصَّحَابَةُ شَهِدُوا التَّوْقِيفَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ثم إنَّ الإجماعَ ينبغي أن يكونَ من جميع المؤمنين، ولم يكن ذلك إلَّا في عهد الصحابة إذ كانوا كلهم مؤمنين. وأمَّا كلَّ عَصْرٍ بَعْدَهُمْ، فليس مَقْطُوعًا بِإِجْمَاعِهِمْ، فَهَمُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ لَا كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ. ولا يمكننا أن نُسَمِّيَ إِجْمَاعَ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ إِجْمَاعًا.

فقال الباجي: فعلى قولك، فليس هناك إلَّا فرضُ احتمالين اثنين بخصوص الإجماع، إمَّا أن يكونَ إِجْمَاعُ كُلِّ الْعُصُورِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ إِجْمَاعُ عَصْرٍِ مِنْ عُصُورِ الْإِسْلَامِ.

فقلت: صدقت، فالأوَّلُ متعذَّرٌ بِلِ مَسْتَحِيلٌ، فلم يبقَ إلَّا أن يكونَ عَصْرًا مِنْ الْعُصُورِ. فَأَيُّ عَصْرٍ هُوَ، أَعَصْرُ الصَّحَابَةِ أَمْ عَصْرُ

يأتي بعدهم؟ لا شك أنه عصر الصحابة، لأنه العصر الوحيد الذي تحقّق فيه الإجماع، ولم يتحقّق في غيره.

فقال الباجي: لقد حصرت الإجماع في عصر الصحابة، وضيّقت دائرة التشريع المفتوحة في قوله عليه الصلاة والسلام «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..». ونحن نرى أنّ هناك قانوناً للاستنباط لا يتقيّد بعصر دون عصر.

فقلت: الدليل لا يكون إلا من النصوص، وهي كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِمَّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. وكلّ إجماع من غير نصّ فليس باتّباع. وقوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وكلّ إجماع لا يُبْنَى مِمَّا كَمَلَ مِنَ الدِّينِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ فَغَيْرِ مُعْتَبَرٍ، لأنه لا زيادة لمستزيد على كمال الدين.

فقال الباجي: أنا أوافقك في أنّ النصوص هي الأدلّة، لكن يمكن أن نحمل عليها، ونستنبط من عللها وأطرادها. والأقيسة الصحيحة حمل على النصوص، ولا تنافي كمال الدين.

فقلت: يستحيل بناء الإجماع من غير نصّ لاستحالة جمع أهل الأمصار في صعيد واحد. ونحن نعتقد أنّ الإجماع على غير نصّ غير ممكن، لأنّ طرائق تفكير الناس في استخراج العليل لا يمكن أن تتفق أو تطرد. فمن الناس رقيق القلب الذي يميل إلى الرفق بعباد الله ويتحرّى رفع الحرج عنهم، ومنهم قاسي القلب الذي يميل إلى التشدّد، ومنهم من يميل إلى العمل والأخذ بالعزائم والصبر عليها، ومنهم الضعيف الذي لا يقوى على تحمّل الشدائد ويميل إلى التخفيف، ومنهم المعتدل المائل إلى التوسط

في كلّ شيء. فَبَطَّلَ أَنْ يَصِحَّ إِجْمَاعٌ عَلَى غَيْرِ تَوْقِيفٍ، حَتَّى وَلَوْ  
كَانَ إِجْمَاعُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كَمَا يَقُولُ الْمَالِكِيَّةُ.

فقال الباجي: إنك تنكر حُجَّةَ إجماع أهل المدينة لفضلها على  
غيرها بدليل قوله عليه السلام «المدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون».  
وأهلها شهدوا نزولَ الوحي.

فقلت: كلُّ الآثار الواردة في فضل المدينة لا تقتضي أن  
يكونَ كلُّ من فيها دائماً فضلاءً. وحالها اليومَ أنّها بيد الروافض.  
ثم إنَّ من شهدوا الوحي هم الصحابةُ لا من جاء بعدهم من أهل  
المدينة. ثم إنَّ أهلَ المدينة لا يُجمِعُونَ على أمرٍ إلا إذا كان  
الصحابةُ قد أجمعوا عليه، وإنَّ ذلك الإجماع هو نفسه إجماعُ  
العلماء في كلِّ الأمصار، فلا فائدةٌ للتخصيص. وإني أقول إنَّ  
ادِّعَاءَ حُجِّيَّةِ عملِ أهلِ المدينة كما يزعمُ المالكيَّةُ هو من عملِ  
المتأخرين حتى يُلزموا الناسَ تقليدَ واحد من علماء المدينة دون  
غيره من علمائها، وإن كان إمامَ دار الهجرة رضي الله عنه.

استمرَّت المناظرة مدّةً طويلةً، وانتقلنا إلى مسائلٍ عويصة في  
الكلام، وقد كان الباجي ضليعاً في الحجاج فاستوفى مني كما  
استوفيتُ منه، لكنَّ القومَ سَعِدُوا به لأنَّهم ظفروا بمن يمكنه أن  
يضمَّدَ في المناظرة مع ابن حزم، لا كما كانت تنتهي المناظرات  
دوماً بانهازمهم.

انتهت المناظرة، ولم تُسْفِرْ عن أيِّ نتيجة، لكنَّ القومَ زعموا  
أنَّ الباجي انتصر، وكانوا مستعدين لتصديق هذا الوهم الذي  
صنعه. وكيف يستطيع مثل هؤلاء الحُكَمَ على ما كنّا نتناظر فيه

وليس لهم فيه قَدَمٌ ولا نصيب؟

انفضَّ المجلس، وبعد مدة قصيرة تُوفِّي الوالي الذي كان يساندني، فعاد الفقهاء إلى التشنيع عليّ عند خَلْفِهِ، ولم يكن يجمعني به صداقة ولا صحبة، فطلب مني الخروج من الجزيرة. خرجتُ مرّةً أخرى من ميّورقة باتجاه دانية حوالي سنة ٤٤٠ هـ. لم أنسب أن وصلتُ إلى دانية حتى تلقَّني فقهاؤها وعلمائها بالنكايّة والاستنكار، وفي مقدّمة هؤلاء، الفقيه المقرئ عثمان بن سعيد الداني الذي وَصَلْتُ معه المنازعة إلى حدِّ الهجاء والسباب. كتبتُ عدّة كتب خلال هذه الفترة، ومن بينها كتابٌ للردِّ على الداني وبيان غَلَطِهِ في كتابيه المسند والمرسل. لكنّ قُوَّةَ الفقهاء المالكيّة كانت عظيمةً سيّما وأنّي كنت وحيداً مع طلبتي، ولا أحسنُ سياسةَ العِلم، إذ كان من الممكن أن أنجح في نشر المذهب الظاهريّ بهدوء، لكنّ نفسي التي بين جنبيّ كانت لا تُطاعني على المُهادنة، فكنْتُ أَصُكُّ الخصومَ صَكًّا يُجندِلُهُمْ، وكنْتُ لا أتهاون في الطَّعْنِ على أئمّتهم بقارصِ القول انتصاراً للحقّ، فتتبعوا تلك العثرات وكتبوا بشأني السلاطين وملوك الطوائف فانتصروا لهم مخافةَ الفتنة وإثارةِ العامّة. وهكذا خرجتُ مرّةً أخرى من دانية والتحقّتُ بسرقسطة ومنها إلى طرطوشة فطلبيرة. وفي كلّ مرّة كانت تتلقَّني سهام الانتقاد وحجارة التَّغريب فأنحاشُ إلى حيث أجد أملاً فيمن يُضيفني. لقد تحالف الفقهاء والسلاطين ضدّي، وقرّروا طردي من ممالكهم ومدنهم، فعَدِمْتُ النصير، وضاعت عليّ الأرض بما رَحُبَتْ. كنتُ حزيناً جدًّا لكنتي لم أهادنُ ولا مرّةً

واحدة، ولو كان في ذلك حَتْفِي. لقد كنت مُتَيَقِّنًا مِمَّا كُنْتُ  
أَعْتَقِدُهُ، ولا بُدَّ لي من تَحْمُلِ تَبِعَاتِهِ، ولو كان في ذلك العذابُ  
المستمرَّ والتَّيَهُ الدَّائم في الأرض. وأخيرًا، وبِفَضْلِ بعض  
الوَسَاطَات، قَبِلْتُ المَريَّةَ أَنْ تُجِيرَنِي، فَنَزَلْتُهَا عَشْرَ سِنِينَ مُتتَالِيَةً  
حتى رَآشَ جَنَاحِي بِهَا. وخلال هذه المُدَّة، رزقني الله بأولادٍ  
آخَرِينَ، وتَجَمَّعَ حولي كثيرٌ من الطلبة حتى انتشرَ مذهبي، وكاد أن  
يُعْفِي المذهبَ المالكي من الأندلس، وألَّفْتُ كِتَابًا كثيرة. وقد  
«انتفعتُ بِمَحَكِّ أَهْلِ الجَهْلِ مَنفَعَةً عَظِيمَةً، وهي أَنَّهُ تَوَقَّدَ طَبْعِي  
وَاحْتَدَمَ خَاطِرِي وَحَمِيَ فِكْرِي وَتَهَيَّجَ نَشَاطِي، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى  
تَوَالِيْفِ لِي عَظِيمَةِ المَنفَعَةِ، وَلَوْلَا اسْتِثَارُهُمْ سَاكِنِي وَاقْتِدَاحُهُمْ  
كَامِنِي مَا انْبَعَثَتْ لَتِلْكَ التَّوَالِيْفِ». ثارت نائِرَةُ الفُقَهَاءِ وَكَاتَبُوا مَرَّةً  
أُخْرَى مَلُوكَ الطَّوَائِفِ بِشَأْنِي. ثم خَافَ بَعْضُ طَلَبَتِي عَلَى أَنْفُسِهِمْ  
فَتَفَرَّقُوا عَنِّي، وَمِنْ هَؤُلَاءِ، طَالِبٌ نَجِيبٌ اسْمُهُ الحُمَيْدِيُّ فَرَّ بِنَفْسِهِ  
إِلَى المَشْرِقِ. لَمْ أَهْنَأُ بِالعِيشِ فِي المَريَّةِ بِسَبَبِ دَسَائِسِ فُقَيْهِهَا  
وَمُفْتِيهَا أَبِي عَمْرٍ أَحْمَدَ بِنِ رَشِيْقِ التَّغْلِبِيِّ الَّذِي كَتَبَ رِسَالَةً إِلَى  
مُفْتِي قَرطَبَةَ ابْنِ عَتَّابِ بِشَأْنِ مَا يَعتَبِرُهُ شُدُوذًا فِي آرَائِي. وَعَلَى إِثْرِ  
ذَلِكَ، قَامَ أَحَدُ الفُقَهَاءِ بِكِتَابَةِ رِسَالَةٍ مِنْ قَرطَبَةَ فِي المَوْضُوعِ وَجَّهَهَا  
لِي، كَلَّمَهَا سَبَابٌ وَشَتَائِمٌ، لَكِنَّ الرَّاقِمَ خَانَتُهُ الشَّجَاعَةُ فَلَمْ يُسَوِّدْ  
اسْمَهُ عَلَى ظَهْرِ الرِّسَالَةِ خَوْفًا مِنْ قَارِصِ رَدِّي، بَلْ تَرَكَهَا غُفْلًا،  
فَكَتَبْتُ رِسَالَةً فِي الرَّدِّ عَلَى هَذِهِ العَرَبِيَّةِ بِرِسَالَةِ أَسْمِيئُهَا «الرَّدُّ عَلَى  
الهِاتِفِ مِنْ بَعْدِ».

ما أصعبَ أن تَقِفَ لِحَدِّكَ أَمَامَ الجَمِيعِ، كُنْتُ صَليْبًا عَلَى

الحق لا أهادن ولا أطاوع ولا أَرْضُحُ، ولو كان في ذلك حَتْفِي،  
فَصِرْتُ مَنبُودًا من كلِّ المدن والمجالس، واشتدَّ عليَّ الأمر في  
المرية حتى أجمعَ الفقهاء على تضليلي وتسفيهي والتَّشْنِيعِ عليَّ عند  
العامة والسلاطين، فخرجتُ منها في حدود سنة ٤٥٠ هـ، قاصدًا  
إشبيلية التي كان يحكمها آلُ عَبَّاد. في إشبيلية، قضيتُ السنوات  
الأولى في إعادة تحرير كتاب الفِصَل في الملل والآراء والنحل،  
وأهديته للمعتضد بن عَبَّاد. وكنت قد انتقدتُ في النسخة الأولى  
ملوك الطوائف، وأفتيتُ الناس بالثورة عليهم وعدمِ مُهادنتهم، ثم  
نزعتُ هذه الفقرات من النسخة الأخيرة لضرورة الإهداء إلى  
المعتضد، وهو أحدُ ملوك الطوائف، لكن بعضَ «فاعلي الخير» قام  
فأطاعَ المعتضدَ على النَّصِّ الأوَّل فثارت ثائرتُه ضِدِّي، ومنعني من  
الإفتاء بين اثنين جملة وتفصيلاً لا بمذهبي ولا بمذهب مالك ولا  
بأيِّ مذهبٍ آخر، وشدَّدَ عليَّ، لكنني ما هادنتُ ولا ساومتُ ولا  
خضعتُ، بل بقيتُ شامخًا كالنخلة تُرْمَى بالأحجار، فتجودُ  
بالثُّمار. لم أركع للرياح العاتية بل صمدتُ لأُصدَّ عني تَكالِبَ  
الرِّدَاءة.

\*\*\*

تواليت الحملاتُ عليَّ، وقام الخصومُ في كلِّ مكان يكتبون  
ويُفتنون ويؤلَّبون الناسَ حتى ضاقتُ عليَّ الأرض بما رَحِبَتْ، لكنني  
لم أكرتُ لهم، بل بقيتُ صامدًا رغم تفرُّق كثيرٍ من الأصحاب  
والطلبة عني، إلا القلَّة القليلة التي لم تخشَ في الله لومة لائم،  
فَبَشَّتُهُمْ علمي، وعكفتُ على التأليف بما لم يسبقني له أحدٌ في

فنونٍ وعلوم كثيرة، في التاريخ والحديث والفقهِ وأصول الفقهِ والمنطق والفلسفة وغيرها. لكن أشدَّ ما أغازني ونال منِّي نَبأُ إحراقِ كتبي في إشبيلية. فقد استجاب المعتضدُ لطلبات أعدائي، فعَمَد إلى جمع نُسخِ منها وأحرقها أمام العوامِّ، وانتشر الخبرُ كالنار في الهَشيم. فلَمَّا بلغني النَبأُ أصابني كَمَدٌ عظيم، فأنشدت:

إِنْ تَحْرِقُوا الْقِرْطَاسَ لَا تَحْرِقُوا الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْقِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي  
يَسِيرٌ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزَلَ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي  
دَعُونِي مِنْ إِحْرَاقِ رَقٍّ وَكَاغِدٍ وَقُولُوا بِعِلْمِ كَيْ يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي  
وَأَلَّا فَعُودُوا فِي الْمَكَاتِبِ بَدَاةً فَكَمْ دُونَ مَا تَبْعُونَ اللَّهَ مِنْ سِثْرِ  
كَذَلِكَ النَّصَارَى يَحْرِقُونَ إِذَا عَلَتْ أَكْفُهُمُ الْقِرَانَ فِي مُدُنِ الشَّعْرِ  
أَلَقْتُ بِي عَصَا التَّسْيَارِ إِلَى أَرْضِ أَجْدَادِي فِي بَادِيَةِ لَبْلَةَ،  
وتحديدًا في قريةٍ مِنْتُ لِيَشْمُ، وكانت لنا أملاكٌ هناك. كما أنَّ  
بعضَ أهلينا كانوا يَقْطَنُونَ المنطقة. خلوتُ مع نفسي في هذه  
البلدة بين أسرتي وأهلي وطلبتي الأوفياء. لقد اشتغلتُ على تطهير  
باطني من رُعوناتِ النَّفسِ وتَشْرُفِهَا. كانت هذه الابتلاءات مفيدةً  
لي في معرفةٍ عُيُوبِي فاشتغلتُ على إصلاحها، وقد اطلَّعتُ على ما  
قاله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأفاضلُ من الحكماء  
المتأخِّرينَ أو المتقدِّمينَ في الأخلاق، وفي آدابِ النَّفسِ، لمدادِ  
أدواءِ النَّفسِ، فوفَّقني اللهُ على أكثر ذلك.

ومن أمراضِ المُزْمِنَةِ التي كَبُرَتْ معي منذ أن عَقَلْتُ، الكَلْفُ، في الرُّضَى، والإفراط في العَضْبُ، فلم أزلُ أدَاوِي ذلك حتى

وَفَقَّنِي الْحَقَّ لِكَيْتُمْ غَضَبِي، وَالتَّحَكُّمَ فِيهِ سِوَاءَ بِالْكَلامِ أَوْ الْفِعْلِ،  
وَأَلْجَمْتُ نَفْسِي مِمَّا لَا يَجِلُّ مِنَ الْإِنْتِصَارِ، وَتَحَمَّلْتُ فِي ذَلِكَ  
كَثِيرًا، إِذْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَيَّ ثَقِيلًا، سِيِّمًا وَأَنَّ نَفْسِي لَمْ تُطَاوِعْنِي دَوْمًا  
لِلرُّضُوحِ وَالْإِدْعَانِ، بَلْ كَانَتْ تَشْرَبُ إِلَى الْفَوْرَانِ، وَقَدْ كَانَ الصَّبْرُ  
دَوَائِي مِنْ هَذَا الدَّاءِ الْفَتَّاكِ، حَتَّى أَمْرَضْتَنِي الْمُعَالَجَةَ، لَكِنْ فِي  
النِّهَايَةِ اعْتَدَلَ حَالِي، فَلَمْ يَعْذُ يَهْزُنِي تَحَرُّشَاتُ الْخُصُومِ وَلَا  
أَتَهَامَاتُ الْأَقْرَانِ، وَلَا سَخَطَاتُ الْحُكَّامِ، وَلَا انْقِلَابُ الدُّنْيَا..  
وَبَقَدَرِ نِجَاحِي فِي الْإِمْسَاكِ بِالْغَضَبِ، بِقَدْرِ فَشْلِي فِي الْعِجْزِ عَنِ  
إِذْهَابِ الْكَلْفِ فِي الرُّضَى. وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ عَدَمَ الرُّضَى لُوْمٌ وَخِسَّةٌ،  
فَبَقِيَ مَعِي.

وَمِنْ أَدْوَائِي الْأُخْرَى الَّتِي عَمِلْتُ عَلَى مَدَاوَاتِهَا، الدُّعَابَةُ  
الْغَالِبَةُ، وَكَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَشْتَكُونَ مِنْهَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْقَدْرِ الَّذِي  
يُثِيرُ حَفِيظَةَ الْمُمَازِحِ، وَتَسَاهَلْتُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ، لِأَنِّي رَأَيْتُ أَنَّ  
تَرْكَهَا جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا عِلَامَةٌ عَلَى الْإِنْغِلَاقِ وَالْمُكَابَرَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ الْعُجْبِ الشَّدِيدِ، وَقَدْ كُنْتُ مُعْجَبًا بِنَفْسِي وَبِأَرَائِي  
وَأَسْتَضُوبُ مَا أَنَا عَلَيْهِ، وَأُعْجَبُ بِهِ. وَكَانَ هَذَا الشُّعُورُ يُؤَلِّمُنِي  
بِقَدْرِ مَا كَانَ يُنْعِشُنِي، لَكِنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ وَمِنْ  
سُورَتِهَا فِي الْهَيِّجَانِ، فَعَمِلْتُ عَلَى تَهْدِيئِهَا بِمُكَافَاحَةِ عَنَاصِرِ الْعُجْبِ  
وَالْجَامِهَا عَنِ السُّرُورِ بِكُلِّ مَا يَبْعَثُ عَلَى الْعُجْبِ حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى  
أَكْثَرِهِ، بَلْ لَعَلِّي قَضَيْتُ عَلَيْهِ حَتَّى ذَهَبَ كُلُّهُ، حَتَّى أَثَّرَ فِي ذِهَابِهِ  
احْتِقَارًا لِلنَّفْسِ وَسُلُوكَ طَرِيقِ التَّوَاضُّعِ. وَكَانَتْ فِي حَرَكَاتٍ غَرِيبَةٍ  
أَتَطَاوَلُ بِهَا عَلَى الْأَقْرَانِ وَالْخُصُومِ، وَتَزْهَوُ أَعْضَائِي فِي خِفَّةٍ مِمَّا



لا يَنسَجِم مع المُرُوَّةَ والتَحَفُّظ، فَأَغْضَيْتُ عنها، وعالجتها حتى انقَطَعَتْ بترويض الأعضاء لقانون العقل وميزان الشرع، فلم تُعَدُّ تَأتمر إِلَّا بأوامري، وَلَوِيتُ خِفتَهَا حتى انصاعَتْ عن إكراه.. كما كُنْتُ أَتَوَقُّ إلى المَحْمَدَةَ وَبُعْدِ الصَّيْتِ والعَلْبَةِ والظُّهور، فكانت آياتِ المجاهدة، وأحاديثُ الرسول عليه الصلاة والسلام هاديًا لي. ومما زاد من ألمي إفراطًا في الأنفَةِ بَغَضْتُ إليَّ الزواجَ جُمْلَةً، ولم أستطِعْ مُغالَبَةَ هذا الشُّعورِ الذي استولى عليّ، وقد زَيْنَهُ في نفسي ما عَشْتُهُ في غَرارَةِ الشباب من حُبِّ شديدٍ في نُعم تولَّدَ عنه جُرْحٌ عميقٌ بعد غيابها المفاجئ. ومن عيوبي القاتلة، حَقْدُ ابْتِليْتُ به، وقد وفَّقني الله لِمُغالَبَتِهِ وَسَتْرِهِ في أغلبِ أحيائي لما أَعْلَمُ مِنْ صَرِيحِ النُّصوصِ عن فُبحه وَرَدَّالَتِهِ، لكنَّهُ طَبِعٌ جُبِلْتُ عليه، فأقصى ما وَصَلْتُ في مُعالجته إلى أن صَرَفْتُهُ في مَصارِفَ مقبولة، لكنِّي لم أَقْطَعْ شَأْفَتَهُ تمامًا لأنِّي كُنْتُ عاجِزًا عن مُصادقةٍ من عاداني، فلم أستطِعْ أن أستبدِلَ الحَقْدَ بِسلامةِ الصِّدرِ أو الصداقة. فذلك أمرٌ لم يَكُنْ لي قُدْرَةٌ على بُلوغه. ومن العيوب التي وقفت عليها لَمَّا بلغت هذه السَّن، سوءُ الظَّنِّ، وعلى الجملة، فلست أعتبره عَيْبًا ما دام لم يُؤدِّ إلى انتهاك ما نَهَتْ عنه الشَّرِيعَةُ، بل لعلَّه مطلوبٌ ومرغوبٌ فيه، إذ قد يكونُ عنوانَ الحزم، والحزمُ من ابنِ حزمِ فضيلةٌ. ومن جَهْلِ اسْمُهُ كان كَمَنْ جَهَلَ نَسَبَهُ.

كما أن بعض الجُهال من أعدائي كانوا يَعيبونني بأنِّي لا أبالي بالدُّودِ عَمَّا أعتقده حقًا، ولا أراعي حُصومي فيما يعتقدونه، حتى ولو أَطَبَقَ أهلُ الأرضِ على مُخالفتي ما رجعتُ إلى قولهم حين

اعتقدُ أنّ قولني حقٌّ. وإني أعتبرُ أنّ هذه فضيلةٌ من فضائلي لا عيبٌ كما يزعم أعدائي. وأزعمُ خلافًا لهم أنّ هذه من أشرفِ فضائلي. ولو لم تكن من صفاتي لطلبتها بالليل والنهار، بل أوصي طلبتي بها. فإنّ اتّباعَ الناس ليس من طبعِ الآدمي العاقل، بل لا يحلُّ التقليدُ في شيءٍ، وأساسًا في الدين. فلن ينفعَ الإنسانَ اتّباعه للناسِ إن كانوا على خطأ، بل سينفعه أنّه تحمّلَ مؤونةَ البحث عن الحقِّ والصّدقِ به. ثم إنّ عدائي قد أسرفوا في تُهمتي، فعَيروني بأنّي لا آلمُ لنيْلٍ مَنْ نالَ منّي، وربّما تعدّى ذلك إلى إخواني، فلا أمتنعُ لهم إذا نيّلَ منهم. والحقُّ أنّ الأمرَ بخلاف ما قالوا، لكنّه عيبُ الإجمالِ، وإني أُحذّرُ منه، فلا بُدَّ من البيان الواضح الذي يَشفي الغليل، لكنّ أهلَ المخارِقِ والسفاسيفِ والخداعِ يُجمِلون القول، وحين يتقلون أقوالَ خصومهم فإنهم يُجمِلونها ولا يبيّنون سياقاتها، فيشتبكُ على الناسِ إدراكُ فحواها، ويتطرّقُ إليهم الشكُّ في ديانتهم، والظنُّ في سيرتهم. فلو قال قائلٌ مثلاً: «إنّ فلاناً يظأُ أخته» لاستقبحَ هذا المقالُ وشنّعَ على هذا الفعل، لكنّ القائلَ لو استرسلَ وزاد: «هي أخته في الإسلام»، لبانَ للجميعُ فُبْحُ هذا الإجمالِ. والحقُّ أنّي آلمُ ممّا ينالني بل أتعدّبُ منه، وأشهرُ الليالي متألّمًا من ذلك، لكنّي لا أظهرُهُ للأعداءِ حتى لا يشمتوا بي. وقد أردُّ عليهم بقولٍ بيّنٍ ومؤلمٍ لكنّي لا أفحشُ فيه. وإجمالاً، فإنّي كارهٌ لمثل هذا إلا لدواعي الضرورة ممّا أطمعُ به أن أقمعَ أهلَ الضلالِ في النيْلِ منّي. أمّا فيما يخصُّ إخواني، فإنّ من اتّهمني زورًا بهذه التّهمة قد أبعدَ عن الصّواب، بل إنّي أدافع عنهم

وأخْرِسُ من نَقَلَ لي عنهم، لكن بقولٍ وَسِطٍ أدعوه فيه إلى مُلاحظة عُيوبه والاشتغال بها بدل التَّنْقِيلات التي يَتَحَمَّلُ وِزْرَهَا. كما عابني بعض المتعسِّفينَ بأنِّي أُبذِّرُ المَالَ وَأُضَيِّعُهُ، ولا حقَّ لهم في هذه التُّهْمَة أيضًا، بل إنِّي لا أُضَيِّعُ منه إلَّا ما كان ضروريًّا لحفظ ديني وحماية عِرْضِي وَصَوْنِ نَفْسِي عن التَّعَبِ والهِلاكِ.

لقد كنت مَسْكُونًا بالعدلِ وَحُبِّ أهله، وكنتُ كارهاً لِلجَوْرِ وأهله. كما نَفَرْتُ من الزُّهْوِ والحسد والكذب والخيانة. وأعتبرها آفاتٍ ضارَّة، وقد رفضْتُها بطبعي. هذه صورةٌ مِنِّي ومن نواقصي أَعْرِضُهَا على من أَعْرِفُ ومن لا أَعْرِفُ، فليس لديَّ شيءٌ أُخْفِيه. وقد كتبتُ عن أحوالي وتجاربي في المحبَّة، ولم أرَ ذلك من خَوَارِمِ المروءة، بل إنَّ ذلك هو عين المروءة.

\*\*\*



## هكذا تكلم الفتى ابن حزم

«إذا نام المرءُ خرجَ عن الدنيا، ونَسِيَ كُلَّ سُورٍ، وَكُلَّ حُزْنٍ. فلو رَبَّبَ نَفْسَهُ فِي يَقْظَتِهِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا لَسَعِدَ السَّعَادَةَ الثَّامَّةَ».

نِمْتُ كَمَا يَنَامُ النَّائِمُ فَرَأَيْتُ شَرِيْطَ حَيَاتِي أَمَامِي . كُنْتُ صَيَّادَ سَمَكٍ عَلَى بَحْرِ لَانْهَائِيَّةٍ لَهُ ، لَكِنِّي اخْتَرْتُ أَنْ أَمْشِي وَأَتَلَمَّسَ طَرِيقِي فِي سَاحِلِ الْأَمَانِ ، فَوَقَفْتُ أَصِيدُ السَّمَكِ فَجَمَعْتُ مِنْهُ قَدْرًا مَا يَلْزُمُنِي ، ثُمَّ أَكْمَلْتُ مَسِيرِي . وَبَعْدَمَا أَنْصَبَنِي الْمَشِيُّ وَصَلْتُ إِلَى صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ كَأَنَّهَا جَبَلٌ فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا وَأَوَيْتُ إِلَى جَوَارِهَا ، فَانْتَفَضْتُ وَنَطَقْتُ عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ كَمَا يَنْطِقُ الْأَحْيَاءُ ، وَقَالَتْ لِي : إِنَّكَ تُشْبِهُنِي . اسْتَغْرَبْتُ مِنَ الصَّخْرَةِ تُكَلِّمُنِي ، وَلَمْ أَدْرِ هَلْ كُنْتُ فِي الْمَنَامِ أَمْ فِي الْيَقْظَةِ أَمْ بَيْنَهُمَا . الْمَهَمُّ هُوَ أَنَّ الصَّخْرَةَ كَانَتْ تُكَلِّمُنِي وَكُنْتُ أَسْمَعُهَا كَمَا أَسْمَعُ الْأَحْيَاءَ يَنْطِقُونَ . كَانَ صَوْتًا لَذِيْدًا مَعَهُ بَحَّةٌ كَحَالِ مَنْ أَطْبَقَ عَنِ الْكَلَامِ وَصَامَ عَنْهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ، فَقَالَتْ لِي : السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْقَادِمُ مِنْ لَا أَيْنَ . أَنَا جَبَلُ الطُّورِ ، وَمَطْلَعُ النُّورِ .

فقلت لها: أوتكلمين؟

قالت: أولاً تسمعني؟

قلت: بلى، ولكنني أستفهم عن سرّ الكلام، مِنْ صَخْرٍ لَيْسَ مِنَ الْأَنَامِ.

قالت: لقد نمتُ طويلاً، لكنك أيقظتني من رَقْدَةِ أَهْلِ الْكَهْفِ.

قلت: أوتعرفينهم؟

قالت: وهل يخفى أمرهم عليّ، وقد ناموا في حِضْنِي عَشْرَاتِ السِّنِينَ.

فقلت: «أَيُّهَا الصَّخْرَةُ الْمَشْرِفَةُ، إِلَيْكَ آوَى مَنْ أَكَلَ».

فقالت: نعم، لقد شهدتُ انفلاقَ البحرِ لموسى، وشهدتُ قبل ذلك يَوْمَ إلقاءه في اليمِّ، فأويتهُ بين ماءٍ وشجرٍ وصخرٍ. ثم لَمَّا ضربني بعضاه، انفجرتُ منِّي اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا. كما رأيتُ الدَّابَّةَ التي تشربُ البحرَ الأخضر.

فقلت: من أنتِ يا سيّدي؟

قالت: أنا جسمٌ كلُّ جسمٍ، وعلى عرشي جلس الحاكم. أنا الأرضُ الكاملة التي عُبدَ فيها الحقُّ عبادةَ الكمال. ومنِّي تفجرتُ مياهُ الطاعات والمعارفِ اللدنيّة. فادفَعْ صخرةَ ذاتِكَ نحو صخرتي.

فقلت: كيف ذلك؟

قالت: انظرْ لذاتِكَ، فأنتِ صخرةٌ وجودك، وانظرْ إليك تَجِدُ

أَنَّ ثَقُوبَكَ مِثْلُ عَيْوُنِي: عَيْنَانِ، وَأُذُنَانِ وَمِنْخِرَانِ وَفَمٌ وَثِدْيَانِ  
وَسَبِيلَانِ وَسُرَّةٌ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْعَيْوُنِ أَلْفٌ مِنَ الْعِلْمِ  
وَالْمَعَارِفِ.

فقلت: هل أنا صاحبك؟

فقلت: أنت وارثُ صاحبِ بحرِ الحُبِّ (محمّد عليه الصلاة  
والسلام) على حُطَى صاحبِ الصَّخْرَةِ وِبحرِ الخطابِ (موسى عليه  
الصلاة والسلام)، فاستمِسِكْ بِهَا تُكَلِّمُكَ. فَمَا بَيْنَ الصَّخْرَةِ وَالْبَحْرِ  
يَكُونُ الْكَلَامُ.

فقلت: هل من آياتٍ ظاهرة؟

قلت: اسْمُكَ الْإِلَهِيُّ الْمَتَوَجِّهُ عَلَيْكَ هُوَ الْاسْمُ «الظاهر»،  
ومذهبُك ظاهري. لكن، احذِرْ أَنْ تَغْرَقَ فِي الْمَادِّيَّاتِ وَالظُّوَاهِرِ  
الْمَحْسُوسَةِ كَمَا حَدَثَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَاقْتَبِسْ مِنْ نَارِ الْجِبْلِ ضَوْءًا  
وَنورًا، وَامْسِرْ عَلَى هَدْيِهِ. ثُمَّ انْكَفَأْتُ عَلَى نَفْسِهَا وَانْقَطَعَ كَلَامُهَا  
وَعَادَتْ لِسُكُونِهَا الْمَطْبِقِ.

سِرْتُ عَلَى السَّاحِلِ حَتَّى رَأَيْتُ نَارًا عَلَى بُعْدٍ تَخْبُو ثُمَّ تَعُودُ.  
مَشَيْتُ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَيْهَا فَأَخَذْتُ عِودًا، وَلَحَوْتُ مِنْهُ سِوَاكًا  
اسْتَكْتُتُ بِهِ، فَسَرَى فِي رَيْقِ أَنْفَاسِي وَهَجٌّ مُشِعٌّ غَدَى الْعُودَ بِزَيْتِ  
الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ فَاقْتَبَسْتُ مِنْهُ نورًا أَضَاءَ طَرِيقِي. مَشَيْتُ حَتَّى  
أَدْرَكَنِي الصَّبَاحُ وَظَهَرَ لِي الْفَلَاحُ، وَأَصَابَنِي الْجُوعُ فَتَفَقَّدْتُ كَيْسِي  
فَلَمْ أَجِدْهُ. لَقَدْ نَسِيتُ، حَوْتِي عِنْدَ الصَّخْرَةِ. أَصَابَنِي الْجُوعُ وَالْبَرْدُ،  
فَأَفَقْتُ مِنْ مَشْهَدِي أَرْجُفُ وَأَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ

أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴿٤﴾.

بدأت أفكرُ في هذه الرؤيا العجيبة وأدركتُ كيف تمثَّلت لي التجربة الموسويَّة، وجرَّتُ في كيف يرثُ المرءُ نبيَّهُ من مشكاة نبي آخر. وفجأة، انقدح في باطني فهمٌ أدركتُ منه أن حِرْصِي على اتِّباعِ الصَّادقِ المصدوقِ في أدقِّ التفاصيلِ الظاهرة من خلال نصوصِ الشريعة العرَّاء هو سببُ هذه الرؤيا التي علِّمتُ منها مقامي من نبيِّ المحبَّة. وكرَّرتُ بلساني قوله «أُمرتُ أن أحكمَ بالظاهر والله يتولَّى السرائر». كنتُ إمامَ الظاهر بلا مُنازع. ما جعل الله للإنسان ظاهراً وباطناً إلا ليخلُو مع الله في باطنه، ويشاهده في ظاهره في صورِ أسبابه بعد أن رآه في باطنه وميَّزَهُ عن تلك الصور. هذه هي الخُلوةُ الحقيقيَّة مع الله التي يرجع إليها الإنسان في باطنه، لكنَّه لِفَرطِ جهله لا يُدرِكُ هذا، فيصنَعُ لنفسه خُلوةً ويَهْرُبُ من الخلق. فلو رأى وجهَ الحقِّ فيهم ما فرَّ منهم. وكيف يفرُّ ممَّا لا قيامَ له إلا به؟

كان نسيانُ الحوتِ ترميزاً وكنايةً عن نسيانِ مُقَابِلِ الظاهر، وهو الباطن. فقد هرب مَنِّي الحوتُ وعاد إلى باطنِ البحرِ حيث موطئه الأصلي، فَلأَقْنَعُ بالسَّلْطَعُونِ على السَّاحلِ أو بما يلفِظُهُ البَحْرُ من المَحَار. كنتُ أنا السَّلْطَعُونُ أمشي على ثمانٍ أتَقَهَّقُرُ وأُعطي الانطباعَ أَنِّي أتقدَّم. كنتُ مثل السَّلْطَعُونِ، وكلِّ سُلْطَةِ لا بدَّ لها من عَوْنٍ وأعوان، فلهذا مشى السلطعون على ثمانٍ حتى يَضِبُّ مَيِّدَ السُّلْطَةِ وتهالكَ ذاته في كلِّ اتِّجاه. هذا سرٌّ من ثلاثة أسرار في العالم: الجوهر والصُّورُ والاستِحالة. لقد قَبِلَ العالمُ



الصورة الوجودية بعد أن لم يكن، ثم استحال في صورٍ متعدّدة،  
تأسيًا بمن خلَقَ العالمَ لما اختارَ الظهورَ لعباده في صورة مختلفة.

لقد عشتُ حياتي مُحبِّبًا للنساء، فمن أين أتاني هذا الميلُ  
لهنّ؟ لا شكّ أنّه أمرٌ إلهي لا يناله إلاّ الوُراث على الحقيقة. فقد  
حبَّبَ الله النساءَ لسيدِّ الخلق، واختصّه بهذا السرِّ. أمّا موسى عليه  
السلام، فقد استأجرَ نفسه لِصهْرِهِ شعيب في مَهْرٍ امرأةٍ عَشْرَ سِنِينَ.  
كما أنّه خرجَ سَاعِيًا على أَهْلِهِ لِيُوقِدَ لَهُمْ نَارًا، فكان جزاءُ ذلك أن  
كَلَّمَهُ الْحَقُّ. فلولا أنّ للنساءِ قدرًا عند الإله لما كان سِرُّ عنايةِ  
الحقِّ بأصفيائه مُتَأَتِيًا من خدمة النساء. وانظرُ إلى إقبالِ الرجل  
على المرأة حين اجتماعهما على هَيْئَةِ السجود لتعلّم مقدارها. فهذا  
سِرٌّ من أسرار دُخُولِ الميم في الطاء فيتولّد بينهما السُرُّ، أي الولدُ  
الذي هو سِرُّ والديه (طسم). فالمرأة على هيئة طُهرِ الطاء  
وامتلائها، والميم على هيئة رجل، فإذا حَلَّ ماؤه في رِجَمِ الطاء  
تولّد السُّنُّ وهو الولد كدودةٍ تَدِبُّ على أربع كالأسنان (س).

انتابني حالٌ عجيب وطفِقتُ أَكَلُمُ نفسي من مَنْزِلِ (سورة)  
الشعراء، فقلت: يا ابنَ حزمِ ها قَدْ دَنَا أَجْلُكَ، فهل أنت مستعدٌّ  
لِللِّقَاءِ؟ جَرَدْتُ من ذاتي شخصًا مُمَكِّنًا يحدّثني، فاستشكَلَ عليّ  
الأمر، فلم أذِرْ مَنْ أَحْاطَب، ومَنْ أنا! كان كلُّ واحدٍ من  
المتحاورين يزعمُ أنّه أنا، وأنا بينهما لستُ أنا. لكنّي رضيتُ أن  
أُنشِطِرَ إلى هذا وذاك، وأسمَع من هذا وذاك، لعلّ في الانشطار  
بعضًا من حقيقتي.

قال لي الأوّل، ولعلّه يكون الثاني، إذ مَنْ نَعَتَهُ بالأوّل هو من

نَعَتَ الْآخَرَ بِالثَّانِي: كُلُّنَا سَوَاسِيَةٌ أَمَامَ الْمَوْتِ يَا ابْنَ حَزْمٍ.

فقلت له: إِلَى مَنْ تَوَجَّهَ الْكَلَامُ؟ هَلْ أَنَا أَنْتَ، وَأَنْتَ أَنَا؟  
وَاللَّهِ لَقَدْ تَعَدَّدْتُ حَتَّى ضِعْتُ بَيْنَكُمَا.

فقال: أَنَا بَعْضُ أَنْتَ، وَأَنْتَ بَعْضُ أَنَا، لَكِنْ أَجِبْنِي عَنْ  
سُؤَالِي، فَنَحْنُ سَوَاءٌ أَمَامَ الْمَوْتِ.

قلت، وَلَعَلَّهُ هُوَ الَّذِي قَالَ: نَعَمْ، نَحْنُ سَوَاءٌ أَمَامَ الْمَوْتِ.  
وَإِنِّي لَا أَخْشَى الْمَوْتَ يَا بَعْضُ ذَاتِي وَصِفَاتِي، لَكِنِّي أَتَحَسَّرُ عَلَى  
لِحَظَاتٍ عَشْتُهَا مَعَ مَنْ أُحِبُّ.

فقال: الْمَوْتُ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ فَرَضُ عَيْنٍ لِلْمُحِبِّينَ الْخُلَّصِ.  
فَهَلْ بَدَلْتَ نَفْسَكَ لَهُ؟

فقلت: نَعَمْ بَدَلْتُ نَفْسِي لَهُ، لَكِنِّي كَلَّفْتُهُ فِي حُبِّي أَكْثَرَ مِمَّا  
يُطِيقُ حَتَّى قَضَى وَهَلَكَ؟

فقال: لَا تُكَلِّفْ حَبِيبَكَ إِلَّا مِثْلَ مَا تَبَدَّلُ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ.

فقلت: قَدْ وَاللَّهِ كَلَّفْتُهُ فَوْقَ مَا يُطِيقُ، فَمَاتَ، وَلَعَلِّي أَلْحَقُ بِهِ  
قَرِيبًا. فَإِنِّي الْيَوْمَ فِي شَوْقٍ إِلَيْهِ.

فقال: مَنْ مَلَكَكَ نَفْسَهُ وَأَعْطَاكَ السِّيَادَةَ عَلَيْهِ، فَقَدْ بَدَلَ لَكَ  
كُلَّ شَيْءٍ، فَاحْكُمْ بِالْعَدْلِ وَلَا تُكَلِّفُهُ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا يُطِيقُ.

فقلت: قَدْ جُرْتُ عَلَيْهِ لَمَّا مَلَكَنِي نَفْسَهُ وَأَعْطَانِي السِّيَادَةَ  
عَلَيْهَا، فَلَمْ أَحْكَمْ بِعَدْلِ حَتَّى مَاتَ شَهِيدًا.

فقال: أَلَيْسَتْ لَكَ غَيْرَةٌ فِي أَنْ يَعِيشَ؟

فقلت: والله لم أَتَصَرَّفْ إِلَّا بغيره، لكن غيرتي أودت بحياته، ولم أَفْظَنْ إلى أَنَّ الغيرةَ قد تتعلَّقُ أيضًا بالمحافظة عليه.

فقال: «إذا ارتفعتِ الغيرة، فأيقنْ بِارتِفاعِ المَحَبَّةِ».

فقلت: فذاك الذي دفعني إلى أن أجورَ عليه وأكلفه من حُبِّي ما لا يُطِيق، لكنِّي صَيَّعْتُ الحَزْمَ بعدم الرَّحمةِ به، فهلك وتركني في كَمَدٍ.

فقال: يا ابنَ حزم، الغيرةُ خُلِقَ فاضل.

فقلت: ومِمَّ هي مرَكَّبَةٌ؟

فقال: هي مرَكَّبَةٌ من النَّجْدَةِ والعدْلِ.

فقلت: أمَّا النَّجْدَةُ والشَّجاعةُ، فقد عَلِمْتُ علاقتها بالغيرة لأنَّ من كانت فيه نجدة حدثت له عِزَّةٌ نَفْسٍ. ومن العِزَّةِ تحدثُ الأَنفَةُ من الاهْتِصَامِ. لكنِّي لم أَتَبَيَّنْ وَجَهَ علاقةِ العدلِ بها، فكيف ذلك؟

فقال: إنَّ مَنْ عدَلَ كَرِهَ أن يُتَعَدَّى إلى حُرْمَةٍ من يُحِبُّ أو حُرْمَةٍ غيره.. كما يكره أن يتعدَّى غيره إلى حُرْمِهِ.

تأمَّلْتُ كلامَ صاحبي، ولعلَّه بعضُ كلامي، بل إنَّه كذلك، وإن كان بالاعتبار والفرق غير ذلك، فعلمتُ أنَّ المَحَبَّةَ أفضلُ شيءٍ في الوجود، وأدركتُ أنَّ الله اجتبانني لما زرعَ في ذاتي الحبَّ، لكنَّه نزعَ منِّي مَنْ أَحَبَّ في مُقْتَبَلِ العُمُرِ وزهرة الصُّبا، فعشتُ عذابًا وحسرةً وتولَّدتُ فيَّ مشاكسةٌ صرفتها في مناظراتي ضدَّ الخصوم من كلِّ مِلَّةٍ. ونِجْلَةٌ.

تفكَّرتُ في سِرِّ تجلِّي منزل الشعراء عليّ، واختصاصي بفاتحته

النوارنية «طسم»، فأدركتُ أنّ الشعرَ لا يقوم إلا على المحبة والجمال. فلا محبة إلا للجميل في هذا الوجود. ومتى ما حصلت محبة قام داعي الشعر لتثيت اللقاء بين الأحبة. كنتُ شاعرًا مُجَبًّا للجمال، وقد زرع الله في ذاتي حُبَّ نَعْم. تملّكني إحساسٌ عجيب بأسبقيّة الشعر على النثر، وإلا فما سرُّ أن تُخصَّص للشعراء سورة؟ ثم أفرَد القرآنُ سورة للنثر هي سورة القصص. وللشعر علاقةٌ بالسَّماء الثالثة، سماءِ جمالِ سيّدنا يوسف عليه السلام الذي اهتبلتُ به نسوةٌ مضر. فما من شاعر وإلا وسرُّه مع النساء مفضوح. وقد نطقتُ امرأة العزيز من داخل القرآن بما يُحاكي الشعرَ وزناً حين قالت ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ﴾، وهي آيةٌ على وزن بحر البسيط، لكن لا يُشعرُ بذلك نظرًا إلى أنّ الانتقال بعدها يَتِمُّ على غير الوزن فلا يَفْطُنُ القارئُ أو السامع لذلك. وقد اعتذرتُ عن حُبِّها بِعِتَابٍ مَنْ لامها من نسوة المدينة، فلا بُدَّ في الحُبِّ من لَوْم. شعرُ المحققين، كما قال الفتى العربي المحبُّ في زمانٍ آخر، يَحْضُلُ بتجلُّ على الرُّوح يَبْرُزُ أثرُه كخاطرٍ يَرِدُ على القلب جَمْعًا قرآنيًا، ثم يُفْضَلُهُ البيانُ الفرقاني على اللسان لِيُلْقِيهِ سَمَاعًا لَوْلَا منظومًا... وذلك وَفْقَ مراتب الإنسان الوجودية روح - قلب - جسم، وَيَنْصَبُ في كُلِّ مرتبة بِوَضْفٍ بِحَسَبِ ما تَقْتَضِيهِ. فهو يَنْزِلُ من مَنبَعِهِ الإلهي رُوحًا، فتتلقاه القلوبُ خاطرًا، فَتَقُوذُهُ إلى الأسماع سَمَاعًا مَفْضَلًا. فكلّ قَصِيدٍ أو شِعْرِ لا بُدَّ أن يتوافرَ على رُوحٍ وَخَاطِرٍ وَسَمَاعٍ. والرُّوحُ تَجَلُّ إلهي، والخاطرُ خطاب، إما إلهي أو ملكي أو نفسي أو شيطاني، والسَمَاعُ يكون بالأسرار

والقلوب، ويكون بالعقول، ويكون بالطبع. وقد يُنتِج العلم والمعرفة وقد لا يُنتِجُهُمَا. هذه مرتبةُ الشُّعر عندنا، وهي مرتبةٌ لا تكونُ بهذا الشأن إلا إذا ارتبطتُ بأصلها النورانيِّ العُلويِّ وتعلَّقتُ بمحبوبها الإنسيِّ. هكذا أخبرتنا الفاتحةُ النورانيةُ (طسم) من سورة الشعراء. يا لها من فتاةٍ عرُوبَةٍ تَعشُقُ الأوزانَ العُلويةَ والألحانَ العجيبةَ. كما أخبرتني فاتحتي من منزلِ القصص عن قِصَّةِ النَّثْرِ، ذلك الفرعِ النَّابت من أصلِ الشعر، شجرةِ الجوهْرِ الثابت في منزل الشعراء. جَمَعَتَ بين نثرٍ وشعر، بين قِصَصِ القِصَاصِ والناثرين، وبين أنظامٍ وأوزانِ الشعراء والملحّنين. يا ابنَ حزم، «كلُّ أمرٍ لا يُؤنِّثُ لا يُعوَّلُ عليه»، فالمحبةُ زنادُ هذا الأمر. ومن لم يُحِبَّ فلا شأنَ له بنا، ولا يدخُلُ في حِمَانَا وحضراتنا، ولا يرتوي بماء أكبادنا، ونسماتِ قلوبنا. فها قد بلَّغنا وحدَّرتنا. ومن نَقَلَ عَنَّا بدونَ ذوقٍ لما نحن به نَبَّهْنَا، فإنما يَنْقُلُ على الحِكَايةِ، ولا شيءَ عليه، لكنَّهُ في صحراءِ التَّيهِ مَرَمِيٍّ، وعن محرابِ المحبِّين مَقْصِيٍّ. لا يُدركُ قِيَمَةَ هذا الشعرِ إلا من أَحَبَّ، ولا يُدركُ قِيَمَةَ الحُبِّ إلا من جادتِ نفسُهُ بنفسِهِ لمن يُحِبُّ.

كان منزلي هو منزل طسم، فكيف أكونُ مثل هذه الفاتحة النورانية التي فتحت في كياني طاقةً نورانيةً أفهَمْتَنِي أن أطرح نفسي في العبودية، وأتعلَّقَ بالربوبية، وأن أطيرَ في كُلِّ العوالم، وأسرِّي في المبادئ والغايات؟ مِنَ الطَّاءِ كان طُهْرِي وطُهْرٍ مَنْ أَحْبَبْتُ، وبالطاء كان طَرْبِي من رحمة رَبِّي، ومن الطَّاءِ وَطِئْتُ طِينَ آدَمِيَّتِي، فتولَّدتُ من طِينَتِهَا حوائِثِي. وبالسَّينِ كان سروري في وُصْلَةِ

حبيبي، وعنه لاح سنائي في فَلَكَ فؤادي، وبه دامت سعادتي في عزِّ سيادتي. وبالميم كان مَقامي في المحبَّة بقرب حبيبي، ومنه ذقتُ طعمَ موتي قبل موتي. الطاء شجرة طوبى، والسَّين سِدرة المنتهى، والميمُ عُصفور الشَّجرة والسُّدرة، الصَّادِحُ بَحْنِين العاشقين، وَأَنَاتِ المحبِّين، وزَفَرَاتِ المُوَلَّهين، وآهَاتِ المَبْهُوتين في مِحْرَابِ المحبَّة. الطاء للطائرِين، والسَّين للسَّائرين، والميم لكلِّ من مَشَى في الماشين. كنت ميمًا فمَشيتُ مع الرِّكْب، ثم احترقَ الكثير، ولم يبقَ إِلَّا كوكبَةٌ اجتمعتُ في جماعة من السائرين، ثم لَمَّا خَفَّتْ من رِكَائِبِهَا وتَخَلَّتْ عن أَحْمَالِهَا، وذَابَتْ مِيَاهُهَا، وَسَقَطَتْ كَثَائِفُهَا، اسْتَشْعَرَتْ قُدْرَةٌ على التَّحْلِيْق، فراشت أجنحتها بريش العناية وطارَتْ مع جُمْلَةِ الطائرِين. هكذا هي حياة الإنسان، مَشِيٌّ وَسَيْرٌ وَطَيْرَانٌ، وإن شئتَ قلتَ بدايةً ووسطًا ونهايةً. فالطاء للطائرِين، والسَّين للسَّائرين، والميم للماشين. ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. فهل فهمتَ معنى طاسين ميم أيها الباحث عن الحقيقة؟ السَّائر في ليلِ بَهِيم، انزِلْ هذا الفِنَاءَ وَتَقِيًّا في تلك الرُّبُوع، تَسْعُدْ إلى يوم الدين.

بَسَطْتُ كَفِّي لِرِيْمَةٍ فَأَسْرَتْ لِي بِأَنَّ حُطُوطَ يَدِي تُنْبِئُ عن قساوة قلبي، فَأَنْشَدْتُ مِنْ شِعْرِ القَوْمِ حَتَّى جَهَشْتُ بالبكاء وَأَجَبْتُهَا بحالي، فَعَرَّتْهَا دَهْشَةٌ وَتَلَبَّسَتْهَا حَيْرَةٌ، ولم تُعْرِفْ من تُصَدِّقَ أو مَا تُصَدِّقُ، كَفِّي بِقَسْوَةِ حُطُوطِهَا، أُمِّ عَيْنِي التي فاضتْ بِحُيُوطِ مائها. فقلتُ لها: من عَيْنِ قلبي سالتِ سَوَاقِي دُمُوعِي لأَحْبَابِي، وَسَرَى جَفَافٌ إلى ذاتي فتعرَّقتُ كَفِّي حَتَّى تَجَذَّبَ المَاءُ من أعماق طينتي،

وبرزت عُروُقُ يَدِي فَأَوْهَمْتِكِ بِجَفَافِ نَفْسِي وَجَفَاءِ قَلْبِي . وَيَعْلَمُ اللهُ  
 أَنهَا لَمَّا شَرِبَتْ مَاءَ أَرْضِي مِنْ تُرْبَتِهَا أَوْصَلَتْهُ إِلَى قَلْبِي فَتَعَدَّى  
 بِالْحَيَاةِ وَبَقِيَّتْ هِيَ فِي جَفَافٍ . أَلَا إِنَّ هَذَا مِنْ إِيْثَارِهَا وَكِرْمِهَا  
 وَتَضَحِّيَتِهَا . أَفَلَا تُبْصِرِينَ؟ ثُمَّ مَدَدْتُ لَهَا كَفِّي مَرَّةً أُخْرَى ، فَعَرَنُهَا  
 دَهْشَةً ، وَقَامَتْ بِهَا حَيْرَةٌ ، وَقَالَتْ : لَعَلَّكَ صَادِقٌ فِيمَا تَقُولُ ، وَإِنَّمَا  
 هِيَ عُروُقُ نَائِتَةٌ ، وَخُطُوطٌ غَائِرَةٌ ، وَلَعَلَّ الْقِسْوَةَ الَّتِي أَخْبَرْتُكَ عَنْهَا  
 قِسْمَةٌ أُخْرَى ، وَخُطُوطٌ عِمَارَةٌ نُورَانِيَّةٌ مُثَلَّى . ثُمَّ طَوَّقْتَنِي بِذِرَاعَيْهَا  
 وَارْتَمَتْ فِي أَحْضَانِي بِجَنَاحَيْهَا ، وَأَشْبَعْتَنِي بِلَا شِبَعٍ وَلَا رِوَاءٍ مِنْ  
 رَحِيقِ شَهْدِهَا . تَشْرَبْتُ هَذَا الرُّضَابَ مِنْ ذَاكَ الشَّعْرِ النَّدِيِّ فَتِهْتُ  
 طَرْبًا ، وَهَمْتُ فَرَحًا ، وَتَمَلَّكْنِي حَالُ الْإِتْحَادِ ، وَأَسْرَيْتُ بِجَوَارِحِي  
 فِي ذَاتِهَا ، فَعَرَجْنَا بِأَرْوَاحِنَا فِي مَقَامَاتِ الْحَبِّ ، وَكُنَّا كَمَنْ يَقْطَعُ  
 الْأَرْضِينَ وَالسَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاقٍ . أَصَابَنِي ذُهُولٌ وَصَبَابَةٌ ، وَعَرَنَنِي  
 وَخَشَّةٌ وَغُرْبَةٌ وَكَمَدٌ وَشَحَابَةٌ ، وَأَنْشَقَّ قَلْبِي وَأَنْفَطَرَ فُؤَادِي بِبُعْدِ  
 حَبِّي ، فَطَفِئْتُ أَنْشِدُ بَعْضَ شِعْرِي أَشْكُو لِلْمُشْفِقِينَ حَالِي ، أَبْكِي  
 عَلَى نَفْسِي وَأَسْتَفْهِمُ عَنْ سِرِّ إِعْرَاضِ مَنْ عَذَّبَنِي . وَكَيْفَ مَرَّ بِبَابِ  
 دَارِي وَمَا سَأَلَ عَنِّي . فَقَدْ جَاءَنِي الْمُخْبِرُ أَنَّهُ مَرَّ أَمْسٍ عَلَى بَابِ  
 دَارِي ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ سِرِّ هَذَا الْإِعْرَاضِ وَالصُّدُودِ ، وَمَا كَانَ ذَنْبِي  
 حَتَّى جَفَانِي ، وَمَا كَانَ إِثْمِي حَتَّى قَلَانِي؟ يَا لَيْتَ شِعْرِي ، هَلَّا  
 أَخْبَرَنِي عَنْ سِرِّ إِعْرَاضِهِ وَصُدُودِهِ ، وَكَيْفَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَنْتَرَّ  
 نَسِيمَ عِظْرِهِ أَمَامَ بَابِ دَارِي ثُمَّ يَفِرُّ بَعِيدًا عَنِ فِنَائِي؟ أَمَّا عَلِمَ أَنَّ  
 نَسَمَاتِ طَيْبِهِ لَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مَسَامٍ إِهَابِي نَفَحْتَنِي بِالْهُبُوبِ إِلَيْهِ ،  
 فَلَمَّا خَرَجْتُ عَدِمْتُ حَبِّي ، فَانْتَابَنِي وَجَدٌ عَظِيمٌ وَشَرَدَ فِكْرِي وَهَمْتُ

على وجهي حتى كذتْ أهلك. أو على تلك النَّسَمَاتِ الشَّدِيَّاتِ  
الطَّيِّبَاتِ الْآسِرَاتِ الَّتِي نَبَتَتْ فِي ذَاتِي. يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ  
أَيْهَا الْحَبِيبُ قَدْ مَرَرْتَ بِبَابِ دَارِي رَغْبَةً فِي وَصَالِي، لَكِنَّكَ  
أَعْرَضْتَ أَحْيَرًا أَيُّهَا الْجَائِرُ، فَكَيْفَ طَاوَعْتِكَ نَفْسَكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ  
عَلَى أَنْ تَصُدَّ عَنِّي، وَتَمْنَعَ عَنِّي كُلَّ وَصَالٍ؟ يَا لَيْتَ شِعْرِي، مَا  
الَّذِي جَنَيْتُهُ حَتَّى أَسْتَحِقَّ مِنْكَ هَذَا الصُّدُودَ وَالْجَفَاءَ؟ لَقَدْ تَفَطَّرَ قَلْبِي  
مِنْ بَعَادِكَ حَبِيبِي، فَهَلَّا، وَهَلَّا وَصَلْتَنِي، فَإِنِّي رَهِينٌ وَجِدٍ، أَشْكُو  
مِثْلَ مَا شَكُوْتُمْ. فَلَا تَتَعَلَّلْ بِأَنِّي خَالَفتُ أَوْامِرَ الْحَقِّ وَمَا امْتَنَلْتُ.

يَا سَيِّدِي وَيَا قُرَّةَ عَيْنِي، أَلْتِي بِذَيْلِ ثَوْبِكَ عَلَيَّ، وَتَقِيًّا فِي رِيَاضِ  
أُنْسِي وَلَا تَلُوْ عَلَى شَيْءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ أَرْحَمُ بِالْمُحِبِّينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ،  
وَأَشْفَقُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ رَاحِمٍ. مَا حَلَّتِ الْمَحَبَّةُ إِلَّا وَحَلَّتْ مَعَهَا  
الرَّحْمَةُ، وَمَا عُدِمَتْ مَحَبَّةٌ إِلَّا وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا قَسْوَةٌ وَغِلْظَةٌ. أَيْنَ  
الرُّوحِ مَنِّي؟ بَلْ أَيْنَ رُوحِ هَذَا الشُّعْرِ إِلَيَّ مَنِّي؟ «الرُّوحُ غَنِيْمَةٌ،  
وَالخَاطِرُ هِمَّةٌ سَلِيْمَةٌ، وَالسَّمْعُ حَالَةٌ كَرِيْمَةٌ». هَكَذَا جَاءَتْ الْأَخْبَارُ  
مِنْ بَعْدِي عَنِ حَالِ حُبِّي وَحَبِيبِي. قَدْ سَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ، وَسَمِعَ  
بِهَا الْعَارِفُونَ، وَدَوَّنَهَا الْقَوْمُ فِي كُتُبِهِمْ: سِيرَةُ ابْنِ حَزْمِ الْفَتَى  
الْمُحِبِّ، مَنْ طَوَّقَ نَفْسَهُ وَرَهْنَهَا مَعَ حَمَامَتِهِ الْمُطَوَّقَةِ. اغْنَمُوا هَذِهِ  
الرُّوحَ الْمُجَنِّحَةَ، وَاسْتَوْهَبُوا مِنْ هَذَا الْخَاطِرِ هِمَّتَهُ السَّلِيْمَةَ، ثُمَّ  
تَحَلَّفُوا عَلَيَّ طَبَقِ سَمَاعٍ بِحَالَةٍ كَرِيْمَةٍ، وَأَنْشُدُوا مَعِي: مَا لَنَا سِوَى  
هَذِهِ السَّاعَةِ الْكَرِيْمَةِ فِي سَفْحِ رَامَةٍ وَأَحْضَانِ رِيْمَةٍ.

أَسْرِجُوا لِيَالِي الْهَوَى بِمَعَاظِفِ الْمَحَبَّةِ، وَأَنْثُرُوا نَسَائِمَ التَّوَلُّهِ  
عَلَى الْعَالَمِينَ، فَوَاللَّهِ لَا تَحْلُو حَيَاةٌ وَلَا تَضْفُو إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ. أَيُّهَا



العَارِفُ اللَّيْبِ، الحُبُّ أَشْهَى إِلَيَّ مِمَّا تَقُولُ مِمَّا يَطِيبُ. هكذا  
تَكَلَّمْتُ حَمَامَتِي بَعْدِي وَصَدَحْتُ بِحَالِي فِي كُلِّ نَادٍ، وَتَكَلَّمْتُ الطَّائِرُ  
الغَرِيْدُ قَبْلَهَا عَنِّي، فَمَنْ أَكُونُ؟ أَنَا فِي لَيْلِ الْهَوَى يَقْظَانِ، وَفِي  
سَاعَةِ الْمَحَبَّةِ سَكْرَانِ، وَفِي مُنَاجَاةِ حَبِيْبِي غَدُوْتُ حَيْرَانَ. مَنْ يَقُولُ  
لِي، أَيْنَ أَنَا؟ بَلْ مَنْ أَنَا؟ أَنَا شَيْءٌ عَجِيبٌ لِمَنْ رَأَى، أَنَا الْمَحْبُ  
وَالْحَبِيبُ، أَنَا يَا سَيِّدِي فِي طُوقِ سِرِّ الْمَحَبَّةِ، وَطُورِ سَيْنِينَ مُعْنَى،  
وَطُعْمِ حَوْتِ يُونُسَ ابْنِ مَتَى. أَنَا فَاتِحَةُ الشَّعْرِ، وَسَمَاءُ الشُّعْرَاءِ.  
أَنَا بِشَارَةُ يَعْقُوبَ، وَفَتْنَةُ نِسَاءِ مِصْرَ. أَنَا الْجَمَالُ صُورَةَ، وَالْكَمَالُ  
سُورَةَ. أَنَا أَدْرَكْتُ أَنِّي لَا أَعِيشُ إِلَّا لِكَيْ أُحِبَّ، وَلَا أُحِبُّ إِلَّا  
لِكَيْ أَعِيشَ. فَهَلْ تَعْرِفُونَ مَنْ أَنَا؟

يَا قاصِدَ الْخَبْرِ، وَيَا طَالِبَ الْحَقِيقَةِ، انظُرْ فِي ذَاتِكَ تَعْرِفْنِي،  
أَنَا مِرَاةُ النَّظَرِ، وَفِي ذَاتِي انظُورِي مَا انْتَشَرَ. فِي رَجَبِ رَأِينَا عَجَبًا،  
وَأَسْرِينَا بِأَحْوَالِ الْهَوَى فِي مَقَامَاتِ الْحَبِّ عَلَى مُتَوْنِ النَّجَبَا، ثُمَّ  
عَرَجْنَا فِي سَمَاءِ الْعِشْقِ إِلَى ذِرْوَةِ الْإِتْحَادِ، وَلَمْ يَحُلْ شَعْبَانُ إِلَّا  
وَقَدْ جَادَ الْحَبِيبُ بِذَاتِهِ، وَمَلَكَنِي نَفْسَهُ وَفَاءَ بِحُبِّهِ، فَتَشَعَّبْتُ مِنْ ذَاتِي  
عُيُونُ فَوَارَةَ، وَذَرَفْتُ دُمُوعًا بِغَرَارَةَ. تَشَعَّبْتُ فِي شَعْبَانَ سَوَاقِي  
الْحُبِّ بَيْنَنَا، فَأَنْعَمَ بِهَا مِنْ حَيَاةٍ مَعَ نُعْمٍ وَنَعِيمِهَا. أَيُّهَا الْوَرْدُ  
الدَّلَالُ خُذْ مِنِّي هَذَا الْوَرْدَ الزُّلَالِ، وَصُنَّهُ عَنِ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا،  
الْمُورِيَّاتِ قَدْحًا.

مَنْ لَمْ يَذُقْ طُعْمَ الْمَحَبَّةِ فَهَوَ، وَاللَّهُ، مِنْ أَتَعَسَ خَلْقِ اللَّهِ،  
وَكَيفَ يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ جَهْلِ أَسْمَى مَا بِهِ تَتِمُّ الْمَعْرِفَةُ؟ لَا مَعْرِفَةَ إِلَّا  
بِمَحَبَّةٍ، وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا مَحَبَّةَ لَهُ. وَمَنْ لَمْ يَهْمَ فِي مَحْبُوبِهِ فَمَا

دَرَى شَيْئًا عَنِ الْحُبِّ. أَعْجَبُ لِقَوْمٍ يَعْجَبُونَ بِأَنَّ الْحَبِيبَ لَا يَقْوَى عَلَى الْكِتْمَانِ، فَتَرَاهُمْ يَنْتَقِدُونَ لِأَنَّهُ يَنْشُرُ بِحَالِهِ قَبْلَ كَلَامِهِ، وَبِأَعْطَافِهِ مَا فِي سِرِّ أَلْطَافِهِ حَاصِلَ حُبِّهِ مَعَ حَبِيبِهِ، فَتَرَاهُمْ يَتَعَجَّبُونَ وَيُزَمِّجُونَ وَيَتَعَالَمُونَ وَيَتَحَادَّثُونَ فِي الْمَحَبَّةِ بِلَا بَيِّنَاتٍ، وَلَوْ دَرَوْا نَسْمَةً مِمَّا فِي الْحُبِّ لَمَا عَذَلُوا هَذَا النَّاسِكَ الْمَحَبِّ الَّذِي لَمْ يَقْوَى عَلَى حَمْلِ ذَلِكَ الْحَالِ الثَّقِيلِ وَالْقَوْلِ الصَّقِيلِ، فَجَادَ بِهِ عَلَى الْخَلْقِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا أَنَّ هَذَا الْكَرَمَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِثْنَاءٍ، وَأَنَّهُ يَطْرُقُ كُلَّ الْأَبْوَابِ وَأَنَّهُ يَنْشُرُ عِبِيرَ الْمَحَبَّةِ عَلَى الْعَارِفِ وَالْجَاهِلِ، عَلَى الْمَحَبِّ وَالْمُبْغِضِ، عَلَى الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ، عَلَى مَنْ أَتَى وَمَنْ لَمْ يَأْتِ. كُلُّ حُبٍّ لَا يَكُونُ عَنْهُ وَجْدٌ، وَعَنْ ذَلِكَ الْوَجْدِ وَجُودٌ فَهُوَ نَفْرٌ خَاطِرٍ لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، وَلَا يُلْتَمَعُ إِلَيْهِ. إِنَّمَا حَدِيثُنَا عَنِ الْحُبِّ الَّذِي يُنْتِجُ الْوَجْدَ ثُمَّ الْوُجُودَ، أَيِ الْحَضُورِ فِي دَيْمُومَةِ الْمَحَبَّةِ بِلَا غَيْبُوبَةٍ، وَفِي كَيْنُونَةِ الْحَيَاةِ بِلَا صَيْرُورَةٍ. هَذِهِ حَضْرَةُ الْمَحَبِّينَ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْعَدَمَ وَالْغِيَابَ، بَلْ وَجْدٌ وَوَجُودٌ. وَمَنْ لَمْ يُحِبَّ حُبًّا وَجُودًا فَمَا أَحَبَّ مُطْلَقًا، وَلَا سَمَّ رَائِحَةَ شَرَابِ الْحُبِّ مِمَّنْ سَقَى.

أَيُّهَا الْمَحَبِّ، كَيْفَمَا كُنْتَ، وَمَنْ حَيْثُمَا أَتَيْتَ، تَعَالَ.. تَعَالَ إِلَيْنَا، دَعِ الْحُبَّ يَفْعَلُ بِكَ مَا شَاءَ، دَعُهُ يَقْلِبُ أَعْيَانَكَ، وَيُحِيلُكَ هَبَاءً يَنْسَمُهُ كُلُّ عَاشِقٍ فِي الْكُونِ. دَعِ الْحُبَّ يَذْرُؤْ نَسَمَاتِ عِشْقِكَ عَلَى الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ، وَالْعَارِفِ وَالْجَاهِلِ، دَعُهُ يَأْتِي، دَعُهُ، ثُمَّ دَعُهُ. فَهَمَّا فَعَلْتَ، وَهَمَّا أَتَيْتَ، وَهَمَّا افْتَرَفْتَ، فَسْتَرَى أَنَّ الْعَشْبَ يَنْبُتُ عَلَى رَوْثِ الدَّوَابِّ، وَلِتَعْلَمَ أَنَّ الْحُبَّ يُحِيلُ كُلَّ الْقَدَارَاتِ

والنَّجَاسَاتِ إِلَى الظَّهَارَةِ الْأَصْلِيَّةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى. اخْتَرِقَ بِالْحَبِّ  
أَيُّهَا الْعَاشِقُ، وَعُدَّ رَمَادًا بَيْنَ الْأَثَافِي وَالْأَحْجَارِ، لَا تُبَالٍ، فَمِنْ  
الرَّمَادِ تُوَلَّدُ شَرَارَةُ الْعِشْقِ. سِرُّ عَلَى الْأَرْضِ هُوَيْنًا، وَتَذَكَّرُ أَنَّكَ  
تَمْشِي عَلَى أَجْسَادِ الْعَاشِقِينَ قَبْلَكَ، فَأَرَوَاهُمْ لَا زَالَتْ تَسْكُنُ هَذَا  
الْكُونََ الْفَسِيحَ، وَقَلْبُهُمْ لَا زَالَتْ تَرْجُفُ بِحِكَايَاتِ حُبِّهِمْ،  
وَأَطْيَافُهُمْ مَا زَالَتْ تَهْمِسُ بِمَوَاجِيدِ أَسْرَارِهِمْ. فَلَا تُسْرِعْ، وَلْتَشُدُّ  
بِالْحَنِينِ إِلَى أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ، سَتَجِدُ الْحَبَّ عَلَى الطَّرِيقِ. وَمَهْمَا  
فَعَلْتَ وَمَهْمَا أَخْطَأْتَ وَأَذْنَبْتَ، فَنَحْنُ نَقْبَلُكَ فِي رُبُوعِنَا، تَعَالَى إِلَيْنَا،  
فَكُلُّ يَوْمٍ هُوَ يَوْمٌ لِقَائِكَ، وَكُلُّ حَضُورٍ هُوَ مَوْعِدٌ إِيَّانِكَ. لَيْسَ  
لِلْحَبِّ وَقْتُ سِوَى الْحَبِّ. أَعْرِفُ أَنَّ الطَّرِيقَ طَوِيلٌ أَمَامَكَ، فَقَدْ  
قَطَعْتَ صَحَارِي ذَاتِكَ، وَغُصَّتْ فِي بَحَارِ صِفَاتِكَ، وَسَلَكْتَ شُمَّ  
جِبَالِ أَفْعَالِكَ، لَكِنْ أَعْلَمُ بِأَنَّهَا هُنَا بَانْتَظَارِكَ. سَنُغْسِلُ جِسْمَكَ  
وَرُوحَكَ بِأَمْطَارِ الْمَحَبَّةِ وَنَوَى الْعِشْقِ حَتَّى تَفِيضَ مَاءٌ. سَتَتَجَمَّدُ حَتَّى  
تَصْبِحَ ثَلْجًا ثُمَّ تُدْفِنُكَ شَمْسُ الْمَحَبَّةِ فَتُذِيكُ مِنْ جَدِيدِ أَشْعَةِ غَزْلِهَا.  
تَعَالَى لَتَذُوبٍ مَعْنَا فِي نَفْسِ الْمَاءِ. هَلِ الشَّمْسُ هِيَ مِنْ أَذَابَتِ  
الثَّلْجَةِ، أَمْ أَنْ بِيَاضِ الثَّلْجَةِ هُوَ مِنْ أَسَالِ شِعَاعِ الشَّمْسِ؟ لَكَ أَنْ  
تَخْتَارَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ ثَلْجَةً الْعِشْقِ، أَوْ غَزْلًا رَقِيْقًا مِنْ شِعَاعِ شَمْسِ  
الْمَحَبَّةِ. لَكِنْ، انظُرْ إِلَى ذَلِكَ الْجَدُولِ الصَّغِيرِ الَّذِي ذَابَ مِنْ  
ثَلْجَتِكَ وَسَاحَ يَرُوي غَيْرَهُ، كَيْفَ صَوَّرَ الشَّمْسُ فِي مِرَاةِ مَائِكَ. فَمَنْ  
أَنْتَ؟ هَلِ أَنْتَ ابْنُ الْمَاءِ أَمْ ابْنُ الشَّمْسِ؟ تَعَالَى.. تَعَالَى.. مَهْمَا  
تَنَاءَتْ بِنَا الْمَسَافَاتِ، وَفَرَّقَتْنَا الْمَقَالَاتِ وَالْعِتَابَاتِ، سَنَبْقَى هُنَا  
نَنْتَظِرُكَ عَلَى الْأَبْوَابِ وَالْعَتَبَاتِ. سَنُسْرِجُ قِنْدِيلَ الْحُبِّ فِي لَيْلَةٍ

الريح الهوجاء من أجلك حتى تراه من بعيد، فتأتي لِتُسْرِجَ زَيْتَ مصباحك من مشكاة حُبْنًا وَتَسْتَضِيءَ فِي لَيْلٍ وَصَالِنَا. وَإِنْ شئتَ فَمُتْ هُنَاكَ.

مرحبًا بالموت بعد وَصَالِ المحبوب، إذ في الموتِ بعد الوصالِ نهاية الآلام، وبداية التَّعْمِ بحقيقة الإنعام. عشتُ دهرًا، وصرَّحتُ ولم أَكْتُمْ، ونَشَرْتُ أخباري في العالمين، ألا فاشهدوا، بأنَّ ابنَ حزم يُعَلِّنُ فِي المَلَأِ الأعلى وكلَّ آدميٍّ إلى يوم الدين، أنَّه من المحبِّين. فمن كان له حَقٌّ عليه من الأحبَّة فهو يَجُودُ بذاته له اليومَ على رؤوس كلِّ إنسيٍّ وجنيٍّ من المخلوقين. ألا فاشهدوا أتني أدينُ بدين الحبِّ، وأتني لا إيمانَ لي إلَّا لأنِّي أُحِبُّ. أفلا تركبونَ معي سفينةَ الحبِّ؟ ولتُلبُّوا بقولكم: لبيك وسعديك، أنا المحبُّ والحبيب، أنا شيءٌ عجيب لمن رآني، أنا أَسُّ الخبيرِ وعَيْنُ النَّظَرِ. أنا مَنْ تَوَلَّهَ بي المتولِّهونَ، وتلوَّنتُ لَمَّا بَرَّعَ لي المحبُّونَ. ألا فَاكْشِفْ حُسْنَكَ أَيُّهَا المحبُّ للعالمين، وَلِيْمْتُ صَبَابَةً وَوَجَدَا من كان حَقًّا من الخُلَصِ العاشقين. سَبَّحْتُ رَبِّي الوَدُودِ الذي زرع الوُدَّ الثابت في نفوس المحبِّين بلا حدود. فلا تَعْذِلُوا أَيُّهَا المنكرونَ، فوالله لَسْتُمْ فِي عَيْنِ الخَبَرِ، ولا عندكم سِرٌّ لما انتشر. مرحبًا يا مَلَاكَ الموت، فقد مِتُّ قبل هذا في حُبِّ حبيبي. لقد ذقتُ طعمَ الموت قبل أن تُطعِمَنِي إِيَّاهُ، فلا أَبالي اليومَ إن كنتَ تريدُ أن تأخذَ هذا الجَدَثَ البالي، وذاك السُّلُوَ الفَاني. «من مات فيه غرامًا عاش مرتقيًا، ما بين أهل الهوى في أرفع الدَّرَجِ». نعم، عشنا ودرجنا على ذكر الحبيب. ويكفي أن اسم حبي قد قُرِنَ

بالإيجاب، فلا أقولُ إلَّا نَعَم، ولم أعُدْ أعرفُ طَعْمَ لا. أي نَعَم،  
ها قد أتيتُ بعدَ حينٍ لَمَّا أبى جسدي أن يبقى مُعَلَّقًا في سجن  
طوقك. يا حمامتي. أقولُ لكِ الآن: نَعَم يا نَعَم. ها قد جئتُ  
إليكِ من سجن الدنيا، فمرحبًا بالنَّعيمِ في أحضانِ نَعَم. سأردُّها  
أمام العالمين، سِرُّهُوَيْنَا على الأرض، لا تُزْعِجِ النائمين إلَّا  
بحديثِ المحبِّين. انثُرْ على قبور القوم من عهد عاد وشمود زهورَ  
قولك «نَعَم». ليس في الوجودِ اليومَ «لا». قَطُّ ما قال الأحبَّةُ «لا»  
لسائلي فَضَّلِ المحبَّةَ، وأنا بدوري لا أعرفُ ماذا تعني هذه الكلمة  
سوى أنَّها علامةٌ على حبِّ مستحيل. لقد تعانقَ الألفُ واللام،  
وتعاكسا، فبقيا مَتَّصِلَيْنِ من جذورهما، وانفصلا من أعلاهما.  
عذابٌ أصابكما أيها الحبيبان، حتى صار لقاؤكما جوابًا عن كلِّ  
منع ونهي. أرثي لحالكما أيها العاشقان، أمَّا حبيبي، فقد جمع  
بين نونِ الحبيبةِ وميمِ المحبِّ، فأبَصَرَ بعينِ الحبِّ (ن ع م).  
سأردُّ هذا الاسمَ حتى أزعجَ كلَّ النائمين ليقوموا ليومِ الحشر،  
فقد استعجلتُ اللقاءَ، وصرتُ رحمةً، فلم يبقَ إلَّا أن أرى النعمةَ  
على الواجد والفاقد. لا تَحْشَوْا الموتَ أيها العشاق، إنَّما هي  
لحظةٌ اتَّحاد وفناء في الحبيب. لا تقلقوا، إنَّنا في أرضِ الميعادِ،  
فليكِ أو لِيَسْعُدْ من يَظُنُّونَ أنَّهم أحياء، وليقرأوا وصيتي لِمَنْ بعدي  
في طوقِ الحمامةِ، أنا طاسينُ الكمال. ها قد أهلَّ شهرَ الصيامِ في  
أفِقِنَا فأعلنتُ عزمي على الصيامِ والقيامِ لِجَبِّي، وطوَّقْتُ جيدي  
بطوقِ سرِّ حمامةِ المحبَّةِ. يا فاتحةَ كتابي، ويا قافيةَ شعري، ورؤاءِ  
قولي، أرى هلالَ الشكِّ في فَرَقِ شَعْرِكَ قُرْصًا مُشْعًا، فما كان

ذنبى حتى صرتَ ذنبى؟ ألا تخشى الله في محبتي؟ تصومُ عني  
وتشكُّ في محبتي وتتحكّم بجورٍ في قيادي، فوالله لا يجمُلُ  
بالمحبينِ فعَلُك هذا. أيها الجائر بلا رحمة، والقاتل بلا صدمة،  
يا مُعذّبي بلا شفقة، هَلَا تَأَلَّفْتَ قلبي بألْفَةٍ؟ فَاهَتْ حمامتي، لا  
أَلْفَةَ اليَوْمِ أيها المحبِّ، فقد اخترتَ أن تكونَ إلفًا، لكنك نسيتَ  
أنَّ الألفَ لا يتَّصلُ بغيره. فقلت لها، فَلاتَّصلُ أنا بمن أحب. فقالت،  
إن كان كذلك نَجَوْتُ وَنَجَوْتُ معك، وصرتَ إلفي بعد أن  
كنتَ أَلْفِي. أنا نُعمُ النَّعيمِ بعينه، فَلتَّصمُ إن شئتَ عن حُبِّي، وإلا  
فأفطرُ بوصلي قبل غروب شمسِ فطري. فقلت، أنا إن قدرَ الإلهُ  
مماتي لا ترى الشوقَ يَنْظُمُ الشَّعرَ بعدي. يا ليلةُ يُفَرِّقُ فيها كلُّ  
أمرٍ، أريدك ليلةً يُجمَعُ بها الأمرُ، إنها ليلةُ الألفَةِ والألفِ التي  
تعدُّ ألفَ شهر. فلا تَسرُدي خبرَ الدخان، وأنشِدي مَنْزِلَ الأقدارِ،  
فليلتُنا ليلةً جَمعَ عَلَيَّ، وليلتُنا ليلةً قَدَرِ بَهِيَّ. في ليلةٍ قدرنا تَنزَّلُ  
الأرواحُ بِالرَّوْحِ والإرواح. فيها يُلقَى الأمرُ العَلِيَّ والشَّانُ الإلهيَّ  
السَّنِيَّ سواء جاء به مَلَكٌ محمولٌ على نور، أو كان أمرًا غيرَ  
محمول بلا نور.

يا فاتحةَ كتابي، أنت مشهد نور الصخرة بطلوع نجم البحر،  
وإن شئتُ قلت، يا طُهرَ سناءِ مرآتي، وإن شئتُ قلت، يا طَعَمَ  
سعادةِ معرفتي، وإن شئتُ قلت، يا ظلَّ سَوَاقِي مَائِي، وإن شئتُ  
قلت، يا طربَ سريرةِ مِنسَاتِي، وإن شئتُ قلت، يا طِلْسَمَ حياتي  
ومماتي، لقد عَلِمْتُ أمرَ الإمامَةِ التي لا يَجْتَمِعُ أمرُ العَالَمِ إلا  
عليها، ولا تُضَبِّطُ المصالحَ إلا بها. أنا اليومَ الإمامَ الظاهرَ في

العاشقين، أَلِفُ المحبِّين، وإِلْفُ المحبوبين. فطوبى لمن كان مثلي  
 في نعيم مُقيم مع نُعم في الأولين والآخِرين. قد كساني الحُسْنُ  
 حُلَّةً حتى تَفَجَّرْتُ بِالشَّعْرِ مِنْ سَمَاءِ يُوسُفَ. يا نِسْوَةَ العالم،  
 انْدُبْنِي جَمِيعًا، فَمَا عَلَيكُمْ مِنْ حَرَجٍ. فقد حَلَّتِ النُّدْبَةُ على شَهْدَاءِ  
 المحبَّةِ والعِشْقِ، فَسَلَامٌ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ  
 حَيًّا. اقرأن وصيَّتي لكلَّ الشعراءِ والقُصَّاصِ من المحبِّين العاشقين  
 في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ  
 يَهيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، ثم اخْتِمَنَّ بتلاوة قوله ﴿وَلَا تَدْعُ  
 مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ  
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.





## بيان أدبي حول القداسة في اللغة

يرتبط هذا العمل الجديد بالعمل السابق لأنه يتحدث عن موضوع نهاية الدول. ففي رواية «ياسين قلب الخلافة» اشتغلت على المرحلة التي سبقت بقليل نهاية الدولة العثمانية، بينما أشتغل في هذه الرواية «طوق سرّ المحبة» على المرحلة التي سبقت نهاية الدولة الأموية، والتي أعقبها فتنة أدت إلى ظهور ممالك الطوائف.

مع هذا العمل الجديد نكون قد انتقلنا إلى النصف الثاني من هذا المشروع الأدبي الذي انطلق من سلسلة الأحرف المُفَرَّدة (ق، ن، ص) لنتقل إلى الأحرف الثنائية (حم، طس، طه، يس)، وها نحن نشرع اليوم في أول فاتحة من سلسلة الأحرف الثلاثية (طسم، ألم، ألر) مع رواية طوق سرّ المحبة، المخصصة للفاتحة النورانية (طسم). إذا كان النقاد يتحدثون

عن مفهوم التَّنَاص وهو اقتباسٌ وتضمينٌ نصوصٍ أخرى في النَّصِّ الإبداعي بالإحالة إليها أو من غير إحالة، فَإِنِّي أَفْضَلُ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنِ التَّعَالُقِ، وَأَعْنِي بِهِ أَوَّلًا تَعَالُقَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ فِيمَا بَيْنَهَا، فَكُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهَا يُفْضِي لِلْآخَرِ فِي عِلَاقَةِ دَائِرِيَّةٍ، وَالْكُلُّ مُنْتَزِمٌ فِي الدَّائِرَةِ الْقِرَائِيَّةِ وَالْوُجُودِيَّةِ نَفْسَهَا. وَقَدْ يُسَمَّى أَصْحَابُ النُّظَرِيَّاتِ الْأَدَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ ذَلِكَ تَنَاصًا دَاخِلِيًّا. وَمَجْمُوعُ الْفَوَاتِحِ النُّورَانِيَّةِ تُشَكِّلُ أَبْجَدِيَّةَ السَّرْدِ الْعِرْفَانِيِّ، أَوْ أَدَبِ رِوَايَةِ الشُّهُودِ وَالْوُجُودِ.

هذا المشروع الروائي سينتظم عند إتمامه، بحول الله، في أربع عَشْرَةَ رِوَايَةً تَسْتَمِدُّ مِنَ الْأَرْبَعِ عَشْرَةَ فَاتِحَةً نُورَانِيَّةً، وَهِيَ تُقَابِلُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ قَامَةً فِكْرِيَّةً وَرُوحِيَّةً، كَمَا تُقَابِلُ أَرْبَعَةَ عَشْرَةَ قِرْنًا مِنْ هَذِهِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. فَالْمَشْرُوعُ قِرَاءَةٌ إِبْدَاعِيَّةٌ أَدَبِيَّةٌ عِرْفَانِيَّةٌ فِي هَذَا التَّارِيخِ الَّذِي نَسْعَى إِلَى إِعَادَةِ كِتَابَتِهِ وَفَقِّ أَفُقٍ جَدِيدٍ، وَبَلْغَةِ الْبِهَاءِ الْعِرْفَانِيِّ، وَبِانْتِظَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لِلتَّأَكِيدِ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ، وَنَفْيِ دَعَاوِي الْإِنْقِطَاعِ وَالخُرُوجِ مِنَ التَّارِيخِ.

## القداسة واللغة:

لقد كان ضروريًا أن يؤدي الحديث عن «الكتابة بالنور» والفواتح النورانية في هذا المشروع الروائي إلى الحديث عن القداسة في اللغة، وها قد حان الوقت لطرح هذا الموضوع،

فما هو الجزء المقدّس في اللغة العربيّة؟

إنّ القرآن يستعمل ١٨٢٠ جذرًا لغويًا، والحديث النبوي يستعمل حوالي ٣٦٠٠ جذرٍ من ضمنها الجذور القرآنيّة. ثم إنّ عدد الجذور في العربيّة يقارب حوالي ٨٠,٠٠٠. فهل اللغة المقدّسة هي النسبة المستعملة من هذه الجذور في القرآن والحديث النبوي؟ إذا سلّمنا بهذا القول، فكيف نُفسّر قول الشافعي «ولسانُ العَرَبِ أَوْسَعُ الألسنة مذهبًا، وأكثرُها ألفاظًا، ولا نعلّمُهُ يحيطُ بجميعِ علمِهِ إنسانٌ غيرُ نبيٍّ، ولكنّه لا يذهبُ منه شيءٌ على عامّتها حتى لا يكونَ موجودًا فيها مَنْ يَعْرِفُهُ» (الرسالة، ص ٤٢). إنّ الإحاطة تقتضي عدمَ تجريد القداسة عن أيّ جزءٍ من اللغة. ثم إنّ معنى الإحاطة هو أنّ النبيّ يحيطُ بالكلّيّات الدلاليّة العامّة للغة المقدّسة *Semantic Primitives*، التي تبيّن مَعْجَمَتُها لغويًا عبر مختلف البنات الصرفيّة والتركيبيّة، ولا نقصد بذلك أنّه يعرف جميع ألفاظ اللغة، بل يعرف الأوزان الصرفيّة والصور التركيبيّة والدلالات الكلّيّة التي هي أشبه بالمفاتيح التي تُمكنُه من توليد أو فكّ شيفرة المعنى، حتى ولو لم يسبق أن طرّق سمعَه بعضُ ألفاظ اللغة المقدّسة، الغريبة أو النادرة أو المهملة. إنّهُ يملك المفاتيحَ، ولهذا يحيط باللسان، حتى ولو لم يسبق أن ظهرتْ كلُّ إمكاناتِ ما تفتحه المفاتيح عليه من ألفاظ ودلالات جديدة، لكنّه يستطيع دومًا أن يدرك المعاني والدلالات ويولّد فيها إلى ما لانهاية. وقد جاء في

معنى هذه الإحاطة عن نبي الإسلام الإخبار بأنه أُوتِيَ «جوامع الكلم»، وهي عبارة تفيد معنى الإحاطة الكلّية باللسان العربي المقدّس المبين.

بناء على ما تقدّم دَعَوْنَا نتساءل، لماذا يُصِرُّ بعض الناس على نَزْعِ القُدسيّة عن العربيّة؟ إِنَّ حُجَّتَهُم القويّة في ذلك أنّ العربيّة وُجِدَتْ قبل ظهور الإسلام ونزول القرآن. وهذه مقاربة تاريخيّة مُخَلَّة، لأنّ المقدّس لا قبضة للزمن عليه، كما أنّ أكثر كلام العربيّة وُجِدَ بعد الجاهليّة وصدر الإسلام، ثمّ إنّ القرآن المقدّس يحكي لنا كلام أمم تعتبر وثنيّة وكافرة، فهل نَنزِعُ عن القرآن قدسيّته لأجل هذا؟ ثانيًا، إنّ المقدّس مرتبط بالبنية الوجوديّة للغة في عمومها وليس فقط ببعض الألفاظ الاصطلاحية والمعاني الدينيّة الحاملة لها، ولهذا، فإنّ الإعجاز القرآني، وهو صورة من صور قداسة اللغة العربيّة، ليس في الدلالات والمعاني القرآنيّة فحسب، وإنّما في نظمه كذلك. فهل بعد هذا يستقيم القول بعدم قدسيّة اللغة العربيّة؟ ثمّ إذا افترضنا جزئيّة القداسة، بمعنى أنّ القدسيّة، مرتبطة بكلام مخصوص دون مجموع اللغة، فكيف يتحوّل الكلام نفسه في المجون والخلاعة والمدنّس مثلاً ليصبح له دلالة روحية قدسيّة كما يحدث في كثير من الأشعار التي يُرَدِّدُهَا الفقراء والسالكون في حَلَقِ السَّماع ولا يقفون عند صور معانيها الحسيّة، بل يرتفعون بها إلى معان روحية راقية. هناك إذن فهمٌ إحصائي ضيقٌ لمعنى القداسة

يُسْطَظِّهَا وَيَجْعَلُهَا فِي الْمَقُولِ لَا فِي أَصْلِ الْقَوْلِ وَمُصَدِّرِهِ. وَهَذَا  
مَشْكَلُ فِلْسَافِيٍّ وَلِغَوِيٍّ وَإِيمَانِيٍّ لَا يُمْكِنُ حَلُّهُ إِلَّا بِاعْتِبَارِ أَنَّ  
الْمَقْدَسَ هُوَ الْبِنْيَةُ الْكَلِمَةُ لِللُّغَةِ الْمَقْدَسَةِ، مِنْ حَيْثُ هِيَ وَعَاءٌ  
وَتَرْجُمَةٌ لِلْقَوْلِ الْقَدِيمِ الْأَقْدَسِ، وَبِهَذَا تُوصَفُ بِالْقَدْسِيَّةِ بِنِغْضِ  
النَّظَرِ عَنِ إِمْكَانِيَّاتِ الْقَوْلِ الشَّائِئَةِ فِيهَا وَالتِّي لَا تُؤَثِّرُ فِي  
قُدْسِيَّتِهَا. إِنَّ الْقَوْلَ بِالْقَدَاسَةِ لَا يَعْنِي بِنَاتًا نَفِيَّ التَّطَوُّرِ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ  
كَمَا يَعْتَقِدُ بَعْضُ خِصُومِ الْقَدَاسَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، بَلْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ  
ذَلِكَ، فَإِنَّا نَقُولُ بِأَنَّ أَغْلَبَ كَلَامِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ يُقَلِّ حَتَّى الْآنَ، وَلَمْ  
يُكْتَبْ بَعْدُ وَلَمْ يُدَوَّنْ أَصْلًا. إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ مَشْرُوعٌ لُغَةٌ مُسْتَقْبَلِيَّةٌ،  
وَهَذَا وَاحِدٌ مِنْ أَسْرَارِ قَدْسِيَّتِهَا الْمُرْتَبِطَةِ بِتَجَدُّدِ شُؤْنِ قُدْسِيَّةِ  
الْحَقِّ ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَ الْقَدَاسَةَ  
بِعْتِبَارِهَا تَجَدُّدًا فِي الْخَلْقِ، وَطُرُوءَ شُؤْنِ لُغَوِيَّةٍ جَدِيدَةٍ مُحْتَمَلَةٍ  
بِالنَّظَرِ إِلَى الْإِمْكَانَاتِ الَّتِي تُتِيحُهَا الْعَرَبِيَّةُ فِي تَوْلِيدِ مَا لَا يُتَنَاهَى  
مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالِدَّلَالَاتِ بِمَا يُتَنَاهَى مِنَ الْحُرُوفِ. إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ تَأْنَفُ  
مِنْ أَنْ تَكُونَ أَحْفُورَةً لُغَوِيَّةً تُودَعُ فِي مَتَاحِفِ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ، بَلْ  
هِيَ شَابَّةٌ عَرُوبَةٌ مُقْبِلَةٌ مُدْبِرَةٌ دَوْمًا فِي دُرُوبِ الْأَعْصُرِ وَالْقُرُونِ  
تُرْبِطُ الْأَجْيَالَ مِنْ دُونَ فَجْوةٍ أَوْ انْقِطَاعٍ. إِنَّ الْأَقْوَالَ الْحَادِثَةَ الَّتِي  
قَدْ تَنَاقَضَ الْقَدْسِيَّةُ ظَاهِرِيًّا وَعَرَضِيًّا لَا تَقُومُ حُجَّةً لِنَفِيِّ الْقَدْسِيَّةِ  
عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لِأَنَّ سَطْوَةَ الْقَوْلِ الْعَرَبِيِّ يَفْسَحُ ضَمْنَ دَائِرَةِ  
قَدَاسَتِهِ حَتَّى لِلْأَقْوَالِ الْمُنَاقِضَةِ لَهُ، وَذَلِكَ لِاتِّسَاعِ دَائِرَةِ إِحَاطَتِهِ  
وَاسْتِيْلَائِهِ حَتَّى عَلَى مَا يُنَاقِضُهُ. فَمِنْ وَسْعِهِ وَسِمَاحَتِهِ أَنْ يَفْسَحَ  
ضَمْنَ دَائِرَةِ الْإِنْتِمَاءِ إِلَيْهِ حَتَّى لِمَنْ يَرْفُضُ ذَلِكَ وَيُنَاقِضُهُ بِالْقَوْلِ.

ويكفي في العربية سَطْوَةٌ أَنْ محاولات نَقْضِ قَدْسِيَّتِهَا لَا يَتَأْتِي إِلَّا بِلِسَانِهَا. وكما قال أبو حَيَّان التَّوْحِيدِي فِي الْبَلَاغَةِ «كَفَى بِالْبَلَاغَةِ شَرْقًا أَنْتَ لَمْ تَسْتَطِعْ تَهْجِينَهَا إِلَّا بِالْبَلَاغَةِ، وَلَمْ تَهْتَدِ إِلَى الْكَلَامِ عَلَيْهَا إِلَّا بِقُوَّتِهَا» (الإمتاع والمؤانسة ٨٦/١)، وَلَعَلِّي أَقُولُ بِقَلِيلٍ مِنَ التَّحْوِيرِ، كَفَى بِالْعَرَبِيَّةِ شَرْقًا أَنْتَ لَمْ تَسْتَطِعْ تَهْجِينَهَا إِلَّا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَمْ تَهْتَدِ إِلَى الْكَلَامِ عَلَيْهَا إِلَّا بِقُوَّةِ لِسَانِهَا. وَهَذَا حَالٌ مَنْ يَدْعُو الْيَوْمَ إِلَى نَقْضِ قَدْسِيَّةِ اللُّغَةِ وَيَفْتَحُ مَلْفَاتِ اللُّهْجَاتِ الْمُحْكِيَّةِ أَوْ الْعَامِّيَّةِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى إِحْلَالِهَا مَحَلًّا الْعَرَبِيَّةَ فِي التَّعْلِيمِ وَغَيْرِهِ لِيَفُكَّ الْارْتِبَاطَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْمُقَدَّسِ. إِنَّهَا دَعْوَةٌ فَاشِلَةٌ، لِأَنَّ الْقَدْسِيَّةَ دَائِرَةٌ سَمَاحَةٌ وَاسِعَةٌ تَسْمَحُ حَتَّى لَمَّا يَنَاقِضُهَا أَنْ يَحْتَلَّ مَكَانًا فِي بَنِيَّتِهَا الْعَامَّةِ. فَالْقُرْآنُ يَحْكِي لَنَا أَقْوَالَ فِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ وَزُمَرًا أُخْرَى مِنَ الْقَبِيلِ نَفْسِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَتَرَدَّدُونَ لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ فِي ضَرُورَةِ التَّعَبُّدِ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَاعْتِبَارِهِ مُقَدَّسًا بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ كَوْنِهِ مَقُولًا مِنْ إِبْلِيسَ أَوْ فِرْعَوْنَ لِجَهَةِ حِكَايَتِهِ عَنْهُمَا، بَلْ لَجِهَةِ أَنَّ الْقَوْلَ الْقُرْآنِي لَمْ يَصِلْنَا مِنْ إِبْلِيسَ أَوْ فِرْعَوْنَ مَبَاشَرَةً وَإِنَّمَا نَزَلَ وَحْيًا. وَمَنْ حَيْثُ هَذِهِ الْخَصِيصَةُ، فَإِنَّ حِكَايَةَ مَا يُنَاقِضُ الْقَدْسِيَّةَ لَا تُكْرَهُ عَلَى الْقَدْسِيَّةِ بِالْبُطْلَانِ.

وَكُلَّ كَلَامٍ بِالْعَرَبِيَّةِ يُنَاقِضُ قَدْسِيَّتِهَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْحِكَايَةِ، لِأَنَّهُ تَصَرَّفُ مَنْ لَا يَمْلِكُ فِيمَا لَا يَمْلِكُ بِأَحْرَفٍ وَكَلِمَاتِ اللِّسَانِ الْمُقَدَّسِ الَّتِي أَسَّسَتْ لِلْقَدْسِيَّةِ قَبْلَ نُشُوءِ ذَلِكَ الْقَوْلِ الْحَادِثِ الْمُنَاقِضِ لِلْمُقَدَّسِ. إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ تُقَلُّ قَدْسِيَّتِهَا وَتُقَلُّ مَا

يناقضها، أي تحملُ قدسيَّتها وتحملُ ما يُناقضُ قدسيَّتها لِسِرِّ  
استيلائها على الحادث وارتباطها بالوجود، وهو سِرُّ الموجود،  
كلُّ موجود، فكيفَ ينفكُّ أيُّ موجودٍ عن سرِّه مهما ادَّعى  
استقلالَيْته؟

إنَّ تاريخَ الفكرِ الغربيِّ في زعمه التَّحرُّرَ من المقدَّسِ قد  
أفرغَ الكونَ من المعنى، وفَسَّحَ أمامَ الإنسانِ كُلَّ أَوْجِهٍ  
الاستغلالِ البَشِيعِ لأخيه الإنسانِ وللطبيعةِ ولباقي المخلوقاتِ،  
وقد أدَّى إفراغُ الكونِ من القُداسةِ والمعنى أن حدثتْ كوارثُ  
شنيعةٌ ضدَّ الكونِ والطبيعةِ. وبعد تجريد الكونِ من القُداسةِ  
انتقلَ إلى تجريدِ القدسيَّةِ عن الإنسانِ فتحوَّلَ إلى كائنٍ مُستعَبَدٍ  
مُستَلَبٍ لغرائزه البهيميَّةِ، وخالٍ من المعنى والعُمقِ. ولِدَرِّءِ هذه  
الكوارثِ، فإننا بدأنا نلاحظُ أنَّ المادِّيَّةَ الغربيَّةَ صارت تُضفي  
القُداسةَ حتى على ما مِنْ شأنه أن لا يقبلَ القُداسةَ، لكنَّها على  
الحقيقةِ قُداسةٌ موهومةٌ وزائفةٌ. فَظَهَرَتْ مَحْمِيَّاتٌ للحيوانِ  
والأشجارِ والنباتاتِ وحتى للإنسانِ لِمُحاولةِ إصلاحِ الكوارثِ  
والأعطابِ التي نتجت عن إفراغِ الحياةِ من قدسيَّتها، لكنَّ  
الخِلاصَ من هذه الكوارثِ أعمَقُ مِنْ هذه الحُلُولِ التَّرقيعيَّةِ. إنَّ  
القُداسةَ تعودُ دومًا مهما حاولنا التَّخَلُّصَ منها، وتُداوِمُ الحُضورَ  
مهما تكَلَّفنا في إقصائها. ألا نتحدَّثُ اليومَ في المجالِ الثقافيِّ  
مثلًا عن إقامةِ مَحْمِيَّاتٍ أو حُرْمِ ثقافيَّةِ (Sanctuaries of

(١) إسهامًا في خدمةِ العربيَّةِ، فقد حرصتُ دومًا على ضبطِ كلماتِ رواياتي وتشكيلها

(Culture) مثل المعابد في عمارتها، تجمع المكتبات العامة والوسائطيّة والمتاحف الفنّية والمعاهد الموسيقيّة والمعارض التشكيلية والمعالم الأثرية... في الفضاء الثقافي نفسه، لأنّ السّعي إلى تحطيم المقدّس وتجريد اللغة من القداسة أدى إلى نَقْضِ كلِّ ما يجعلُ من الإنسان إنساناً، فاستشعرَ الخطرَ من ذلك وأصبحَ يُطالبُ باستقطاعِ فضاءاتٍ للقداسة ليحمي ما بقي فيه من معنى وإنسانيّة وحُرْمَة.

إنّ قداسة اللغة العربيّة التي ندافع عنها هي دفاعٌ عن بذرة الروح المتبقّية في الإنسان، التي تملأ الكونَ محبّةً ومعرفةً ورحمةً؛ وهي تسمحُ لنا بالانفتاح والإبداع، ولا تعني أبداً الجمود والانغلاق في نصوصٍ أو عصورٍ بعينها، وأفهامٍ بذاتها، بل إنّنا نفتحُها على المغامرة الإبداعية بكلِّ معرفةٍ وحريةٍ<sup>(١)</sup>. إنّنا نريد من كلّ المبدعين أن يفتحوا البابَ لطاقتهم كي يقولوا بالقول العربي المبين تجاربَ الإنسان، ومعارفَ الحياة، وابتكاراتِ الشعوب، وأشياءَ الكون. ولا نقصدُ من القول بالقداسة تحنيطَ العربيّة في أساليبٍ مكرورة وتراكيبٍ مخصوصة.

فلماذا إذن هذا الحرص على نزع القدسيّة عن اللغة العربيّة الحاملة للقول القديم؟ لا شكّ أنّ هناك أسباباً فكريّة تكمنُ

---

رغم كلّ العناء الذي ألقاه في ذلك، والوقت الذي أخصّصه له، لكنّي أعتقد أنّ هذا أمر ضروري لتمكين شرائح واسعة من القراء من قراءة هذه النصوص العرفانية والاستمتاع ببيئاتها.



وراء هذا الحرص. إنَّ الكتابة بلغة مقدّسة امتيازٌ لا يحظى به كلُّ أحدٍ، بل هو أوّلاً قصدٌ ثم اعتقادٌ فتحقّقُ بالقداسة في أسمى مراتبها، إذ لا يتحقّقُ ذلك الامتياز إلا بالسعي إلى القداسة أوّلاً ثم الإيمان بها والاعتقاد الجازم بشأنها، وأخيراً التّحقّقُ الكامل بمقتضياتها، فيصبحُ المرءُ آتيةً لها ناطقاً إسمياً ورسماً بها، إذ القداسةُ تسعى دوماً للتوحد مع أنفاس الناطق بها، فينشأ من هذا التوحد الإبداعُ المتميّز الذي يفتقُ رتقَ معاني اللغة المتلاطمة الأمواج، ويسبكُ منها سبائك لا تخلقُ مع كُرورِ الزمن، ولا تُستهجنُ على كثرة الرّدّ في البيئات المختلفة. وهذا هو سرُّ الخلق اللغوي والإبداع الفني في اللغة المقدّسة ﴿تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

### القداسة والكونيّة:

إنَّ أدباً بهذه المواصفات هو الذي يُحقّقُ الأدبيّة العُليا، لأنّه استقلَّ عن الزمان والمكان، ولم يَعدُ لهما تأثيرٌ مباشرٌ عليه. كلّما كان تراثُ أمةٍ عريقاً، كان تراثها الثقافي والأدبي كبيراً، وكانت النصوص الكلاسيكيّة كثيرة. والنصوص الكلاسيكيّة هي تلك النصوص التي لا تخضع للتّقادم، أي أنّ الزمن لا يُؤثّرُ فيها. كما أنّها تحرّرت من خصوصيّة الأُمّة التي أنتجتها لتُصبح كونيّة، وانخلعت عليها مسحة من القداسة.

وهذا هو المدخلُ الأمثلُ لفهم معنى الكونيّة. أيُّ كونيّة

أعظم من أن تقرأ اليوم في القرن الواحد والعشرين أو فيما يأتي بعده، ما أبدعه أصحاب المعلقات والشعراء الصعاليك وغيرهم قبل ١٥ قرناً. ويزيد، وتفهم إبداعاتهم، مع أن بيئتك تُناقض بيئتهم تماماً، وزمنك غير زمنهم؟ فأنت إنسان مختلف عنهم تماماً لكنك تفهم نصوصهم، لأنك مرتبط في عمقك بالقداسة والكونية نفسها التي تربطك بالإنسان حينما كان. وبالمقابل أيها المبدع الأديب، ألا ترضى لنفسك أن تكون مقروءاً لأهل القرون الأولى أو القرون اللاحقة كما يقرأ لك أهل زمنك؟ هل تتخيل يوماً أيها الأديب أنك قد عشت من غير أن تكون قد قرأت للجاحظ والتوحيدي والغزالي والمتنبي وابن حزم وابن الخطيب وابن العربي والششتري؟ لا شك أنها فاجعة لا يدركها إلا من كابد تجربة المعنى. ولعل هذا المثال يوضح أسمى مراتب الكونية التي نشير إليها، لا الكونية الزائفة pseudo-universalisme التي تريد أن تربطك كهامشٍ إلى مَجْرَةٍ مَرَكِّزٍ حضاريٍّ يُحدِّدُ لك ذوقك وفهمك، واللغة التي ينبغي أن تكتب بها، وكيفية الكتابة ومواضيعها وجمالية الأدب والإبداع والفرن دون أن يستشيرك أو يطلب رأيك، بل ربّما لا يَفْظَن حتى لوجودك. لا تلتمس فهم القداسة من خارج لسان القداسة أيها المبدع، فليس لِفاقدِ رأيٍ في وَاجدٍ، وكيف للألسن التي فقدت قدسيّتها أن تُخبرك عن قدسيّة العربيّة نفيًا أو إيجابًا؟ وهذا حال مَنْ يستوردُ النظريّات الجاهزة والمفاهيم المُقوَّلبَة ليفهم بها أشياء لا يمكن أن تُفهم إلا إذا نطقَ من داخل

الْمِنْصَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَنْطِقَ مِنْهَا وَبِهَا. أَيُّهَا الْمَبْدَعُ الْمَسْتَتِيرُ،  
لَا تَسْتَوْهَبْ مِنْ فَاقِدٍ مَا أَنْتَ أَهْلٌ لِأَنْ تَجُودَ بِهِ عَلَيْهِ، فَكَمْ هُوَ  
مَخْرُومٌ مِنْ نَفَاسَةٍ مَا تَمْلِكُ. وَلَعَلَّكَ إِنْ فَسَّحْتَ لَهُ طَاقَةَ فِي  
حَائِطِ قَدَاسَةِ لِسَانِكَ أَنْ يَلْتَقِطَ شُعَاعًا مِنْ نُورٍ يَرْبِطُهُ بِالْقَدَاسَةِ  
بَعْدَ طُولِ غُرْبَةٍ وَفِطَامٍ، فَتُكْسِبَهُ سَعَادَةً أَبَدِيَّةً.

وإجمالاً، إِنَّ مِنْ مَكْرِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ بِمَنْ يَرْفُضُونَ  
قَدَاسَتَهُ، أَوْ يَدْعُونَ إِلَى نَزْعِهَا أَنَّهُ يَحْتَضِنُهُمْ وَيَسْمَحُ لَهُمْ بِالْتَعْبِيرِ  
بِكَرَمٍ حَتَّى عَمَّا يَرِيدُونَ بِهِ تَقْوِيضَهُ، لِأَنَّ سَطَوْتَهُ تَسْتُولِي حَتَّى  
عَلَى مَا يُنَاقِضُهَا، وَمِنْ هُنَا الْقُوَّةُ التَّحْرِيرِيَّةُ لِهَذَا اللِّسَانِ وَعَظَمَتُهُ  
الَّتِي لَا يَتَذَوَّقُهَا وَيُدْرِكُ سِرَّهَا إِلَّا مَنْ تَحَقَّقَ حَالًا وَمَقَالًا بِالْقَوْلِ  
الْقَدِيمِ، وَاسْتَشَعَرَ قِيَمَةَ الْكِتَابَةِ وَالتَّعْبِيرِ بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ  
الْمُبِينِ، بَلْ قَدْ يَتَّحِدُ مَعَهُ حَتَّى يَكُونَ وَإِيَّاهُ شَيْئًا وَاحِدًا.

إِنَّ الْقَوْلَ يُنْتِجُ الْوُجُودَ، وَإِنَّ الْكَلَامَ يُنْتِجُ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ،  
وَنَحْنُ إِذْ نَقُولُ ذَلِكَ، فَإِنَّا نُعْلِي مِنْ شَأْنِ اللُّغَةِ وَنُرَبِّئُ بِأَنْفُسِنَا  
مِنْ حَضْرَتِهَا فِي أَدَاءِ وَظِيْفَةِ التَّوَاصُلِ فَحَسْبُ. لَا يُمْكِنُ لِلْأَدِيبِ  
أَنْ يَرْضَى بِأَنْ تَحْوَلَ اللُّغَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى مَجْرَدِ أَدَاةٍ، إِنَّهَا أَسْمَى  
مِنْ أَنْ تُمْتَهَنَ فِي دَوْرِ اللُّغَةِ - الْأَدَاةِ. إِنَّ اللُّغَةَ لَا تَحْيَى إِلَّا  
بِحَيَاةِ الْإِبْدَاعِ، وَإِنَّ الْمَبْدَعِ الْحَقِيقِي هُوَ مَنْ يَدْرِكُ أَنَّهُ يَحْيَى  
وَيَتَنَفَّسُ بِاللُّغَةِ الَّتِي يَكْتُبُ بِهَا وَيَتَأَلَّمُ بِهَا وَيَفْرَحُ بِهَا، وَيَرْتَفِعُ  
وَيَنْخَفِضُ بِهَا. إِنَّهَا جَمَاعُ كِيَانِهِ، وَبِهَا قِوَامُهُ وَسِرُّ وُجُودِهِ  
وَمَصْدَرُ مَعْرِفَتِهِ، فَكَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَنْزِعَ عَنْهَا الْقَدَاسَةَ؟ إِنَّهُ إِنْ

ادّعى ذلك، فإنه في الحقيقة لا يَنْزِعُ القُداسةَ إلا عن نفسه. إنَّ القُداسةَ هي نَفْسُ الحياة، وكيف تستطيعُ أن تُحْيِيَ من دون نَفْسٍ؟ ويكفي دلالةً على هذا، أنَّ انقطاعَ النَّفْسِ الذي به تَنْنَفَسُ وَتَتَكَلَّمُ يَقْطَعُ عنك مادَّةَ الحياة والكلام معاً. إنَّ في هذا التَّلَازُمِ بين النَّفْسِ والنَّفْسِ، أو بين الحياة واللغة، أو بين الإنسان واللسان، ما يجعلنا ندعو المخالفين إلى إعادة رأيهم في القُداسة في اللغة، وإلا فَوَرَاءَ القَوْلِ بعدم القُداسةِ الإِعلاءُ من شأنِ العَدَمِ، والقَوْلُ بعدم قُدسيَّةِ الحياةِ والإنسانِ والوجودِ.

### أهميّة الأندلس في الرواية العرفانيّة:

هذه الرواية مخصّصةٌ مرّةً أخرى لقامة أندلسيّة كبيرة هو ابن حزم. قد يتساءل المتتبّع لهذا المشروع عن السبب وراء الحضور المستمير للأندلس في أعمال الروائيّة. والجواب عن هذا الأمر يحتاج إلى وقفة طويلة، لكنّي سأختصر الكلام على ذلك بعقد مقارنة بسيطة قد تُوصِلُ إلى المطلوب. إننا إذا تأملنا أسباب النهضة الأوروبيّة وجدناها اتَّخَذَت عَصْرَ اليونان وحدةً قياس ونقطة ارتكاز وعصرًا ذهبيًا بامتياز تأسست عليها معالم الحضارة الغربيّة. ويبرزُ أرسطو باعتباره أعلى ممثّل للحكمة في هذا النموذج، بينما يبدو الإسكندر المقدوني المقابل السياسي الذي رعى الحكمة وأهلها. وبناء عليه، ذأب الفكر الغربي على تمثّل هذا النموذج في الآداب والفلسفة والفنون كنقطة

ارتكاز للحضارة الغربية في أرقى مظاهرها. وإذا أردنا أن نَعْقِدَ مقارنةً مماثلة، فإنه لا مَنَاصَّ من القول بأنَّ الأندلسَ شكَّلَ هذا النموذج في الحضارة الإسلامية. ويعتبر ابن رشد الحكيم نظيرًا لأرسطو في هذا النموذج، ويمكن اعتبارُ الخليفةِ الموحدِي، أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، المحبَّ لكتب الحكماء والفلاسفة، المقابلَ السياسي الذي عمل بجانبه الحكيم ابن رشد مستشارًا خلفًا لحكيم آخر هو ابن طفيل، وقد امتدَّت الأمبراطوريَّة التي كان يحكمها في فضاء واسع جدًا. هذا الفضاء الحضاري شكَّل لحظة تاريخية فارقة فريدة من نوعها تأسست فيها علوم وفنون وآداب وحكمة وعرفان تفرَّدت عن غيرها من النماذج السابقة في الحضارة الإسلامية. كما أنَّ الأندلس شكَّلت نموذجًا حضاريًا راقياً للتسامح والعيش المشترك. وبعبارة أوجز، إنَّ الأندلس قد سمَّت بمعاني الحبِّ والمحبة إلى مرتبة لم تبلغها أيُّ حضارة أخرى. وقد ظهر اليوم تيار لدى المؤرِّخين والمثقفين الإسبان يعتبر أنَّ عناصر هذا النموذج الحضارية قد انطبعت في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الأبد، إلى درجة أنَّ أكاديميًا إسبانيًا بارزًا هو خوسي أنطونيو غونثالث ألكنتود عَنُونَ كتابًا له أصدره أخيرًا بـ «أسطورة الأندلس» (El Mito de Al Andalus)، يذكر فيه أنَّ «أسطورة الأندلس أسطورةٌ إيجابيةٌ لأنها تُحِيلُنَا على قيم وأخلاق وتعايش، وكلَّ هذا يستوجب منا التفكير المستقلَّ في هذه الأسطورة بعيدًا عن التأويلات السياسية الرخيصة». وتبعًا

للرؤية نفسها، فقد خصّصت مجموعة من أعمال الرواية إلى قامات فكرية وروحية تنتمي إلى هذا الفضاء الجغرافي والنموذج الحضاري، كانت مثلاً كونيّاً للمعرفة والحبّ. وينبغي التذكير هنا أنّ دستور المملكة المغربية لسنة ٢٠١١ قد أقرّ أنّ المكوّن الأندلسي رافدٌ من روافد الهوية المغربية الوطنية. وهي المرّة الأولى التي يتمّ فيها التّنصيب على هذا الأمر في دستور دولة من الدول، خلا دستور حكومة الأندلس في إسبانيا. إنّ النهضة التي نطمح إليها لا بدّ أن تستحضر قوّة هذا النموذج لإطلاق الطاقات الإبداعية التحريرية عبر استحضار تلك اللحظات والبناء عليها، والتأكيد على الاستمرارية الحضارية للعقل العربي المسلم. إنّ القطيعة لا تُنتج إلّا فكرًا منقطعًا عن مصادره، ولا يمكن التأسيس عليها لأنّها تأسس على عدم، ولا بدّ في كلّ حركة بناءٍ من مؤروثٍ يجبُ الانطلاقُ منه والبناءُ عليه والتجديدُ فيه، وتسجيلُ الاستمرارية والحوار معه. وكما نرفض القطيعة مع تراثنا في الماضي، فإنّنا نرفض أيضًا القطيعة عن الحاضر، بحيث إنّنا ندعو إلى الوصل مع إسبانيا والبرتغال وغيرهما لإعادة بناء ذاكرة إنسانية أندلسية مشتركة مبنية على الحوار والتعاون.

### معركة شانت ياقب:

وحيث إنني بصدد توضيح بعض اختياراتي الإبداعية، فلا

بأس من أن أُشير إلى أنّ هذه الرواية تبدأ مع ولادة ابن حزم، وهذا اختيار في حدّ ذاته له مبررات مهمّة، أبرزها أنّه بعد ثلاث سنوات من هذه الولادة، قاد المنصور بن أبي عامر جيشًا جرّارًا إلى موقعة عُرِفَتْ في كتب التاريخ بمعركة «شانت ياقب» في أقصى شمالي غرب إسبانيا سنة ٣٨٧ هـ، حيث يوجد أكبر مزار مسيحي يُؤمُّه المسيحيّون منذ العهد الأوّل للمسيحيّة، فعمد إلى هدم مدينة سانتياغو وكاتدرايتها العظيمة التي تضمّ بحسب الرواية المسيحيّة قبر شانت ياقب أو القديس يعقوب، أحد حواربي سيّدنا عيسى عليه السلام. لم يكن اختيار هذه الحادثة بداية لهذه الرواية بالصدفة، بل كان اختيارًا واعيًا، لأنّي أعتبر أنّ نتائج هذه المعركة كانت من بين الأسباب الحاسمة في ضياع الأندلس ونهاية الحضارة الإسلاميّة في هذه المنطقة، وبداية النكسة الحضاريّة. قد يكون المنصور بن أبي عامر كسبَ مجدًا كبيرًا على أوروبا آنذاك، لكن ترتّب عن هذه الهزيمة أن تجنّدت كلّ الممالك الأوروبيّة وحشدت كلّ طاقتها، وجيشت المتطوّعين لطرده المسلمين من الأندلس، فتأسّس نظامُ فرسان سانتياغو (أي فرسان شانت ياقب) في فترة لاحقة لطرده المسلمين، لاستعادة ما سلب من الكاتدرايّة وحماية الحجاج إلى هذا المزار الذي بُني بعد هدمه بسنوات قليلة. وبعد حوالي مائتين وأربعين سنة من هذه المعركة، دخل فرسان شانت ياقب يتقدّمون جيوش الممالك المسيحيّة إلى قرطبة حاضرة الأندلس في شوال من سنة ٦٣٣ هـ، وكان أوّل

عمل قاموا به هو استعادة الأجراس التي كان المنصور قد سلبها من كاتدرائية شانت ياقب واستخدمها ثريات في جامع قرطبة، فاستردّوها وألزموا الأسرى المسلمين بحملها على أكتافهم وإرجاعها إلى مكانها الأصلي على مسافة حوالي ٨٥٦ كلم من قرطبة إلى الكاتدرائية الجديدة التي بُنيت مكان الأولى. هذا الحدث لوحده يُلخّصُ مأساة الأندلس. لقد كان المنصور يسعى إلى عمل بطولي لتبرير حَجْرِهِ على الخلافة في أضعف حالاتها وتأسيس الدولة العامرية، فَهَدَمَ مدينة وكاتدرائية شانت ياقب أكبر محجّ مسيحي في العالم، لكنّه لم يُفكّر لحظة واحدة فيما قد يُولّده هذا الفعل من مشاعر الانتقام، وتقوية الشعور الديني عند الأمم الأوروبية. وأعتقد أنّه كان لهذه الحادثة دورٌ في خروج المسلمين من الأندلس. إنّ هدمَ هذا المركز الديني الكبير ترك انطباعًا بعدم إمكانية سيادة وتعايش دينين على الأرض نفسها، وهو انطباعٌ خاطئٌ بالنظر إلى التسامح الذي تعامل به المسلمون في الأندلس، لكنّ الحسابات الصّبيّقة، والحماسة الزائدة في لحظة من لحظات التاريخ قد تتحوّل إلى إخفاق كبير فيما بعد، مثلما تتحوّل رفرقة فراشة في الشرق الأقصى إلى إعصار في الغرب الأقصى، كما يقول الفيزيائيون، أو كما قال محمود درويش «أثر الفراشة لا يرى، أثر الفراشة لا يزول». وإنّي أذكرُ أنّي شاركتُ في تشرين الثاني / نوفمبر سنة ٢٠١٠ في ندوة دولية بعنوان: «كومبوستيلا - قرطبة: طريق للتفاهم والحوار». وفي



يوم افتتاح الندوة وصل فريق من المشاركين المتطوعين من جنسيّات وديانات مختلفة قطعوا مسافة ٨٥٦ كلم مشياً على الأقدام حتى يصلوا بين كومبوستيلا أو سانتياغو، وقرطبة. وكان الهدف من تلك الندوة إجراء مصالحة تاريخية حول قضية كوبوستيلا تحديداً التي أجبّت نار الكراهية التي نشأت في الأندلس، وأفضت في النهاية إلى إخراج المسلمين من هذه البلاد. إنّ اختيار هذه الحادثة منطلقاً لهذه الرواية لم يكن إذن بالصدفة كما ذكرت، وإنّما هو اختيار واعي بالحركات الكبرى التي تُحرّك التاريخ. وحيث إنّ ابن حزم عاصر هذه الفترة فإنّها شكّلت نقطة مفصليّة في تاريخ الأندلس. ولا شك أنّ المنصور بن أبي عامر المجاهد البطل لم يكن يخطر بباله هذه المآلات التي كان منطلقها تدمير مدينة وكاتدرائية كومبوستيلا، بالقدر نفسه الذي لم يُدرِك فيه عواقب الحجّر على خليفة أمويّ صبيّ هو هشام المؤيد وإضعاف صلاحياته، وتأسيس الدولة العامريّة التي كانت نواة ظهور ملوك الطوائف، فسرى الضعف في كلّ البلاد حتى قامت الممالك المسيحيّة بحمّلات استرداد اقتطعوا فيها أجزاء كبيرة كانت بيد المسلمين. ورغم عودة المغرب بقوة لِنَجْدَةِ الأندلس مع دولتي المرابطين ثم الموحدّين الذين أمّدوا في بقاء الأندلس تحت الحكم الإسلامي، فإنّ ذلك لم يمنع من استمرار الرّحف المسيحي بعد انهيار هذه الدول الكبرى حتى قضى نهائياً على آخر مملكة إسلاميّة سنة ١٤٩٢ بدخول الملكين الكاثوليكين، إيزابيلا وفرناندو إلى غرناطة، تتقدّمهم

رايةً نظام فرسان سانتياغو، فَرُفِعَتْ على أعلى برج في قصر  
 الحمراء، وصار ملوك إسبانيا ابتداءً من ١٤٩٣ إلى اليوم  
 يتقلّدون رئاسة نظام فرسان سانتياغو (حتى ولو أصبح هذا  
 الأمر اليوم بروتوكولياً)، نسبة إلى شانت ياقب الذي يرمز له  
 بالفارس «سانتياغو قاتل المسلمين»: Santiago Matamoros.  
 ولا زالت كثير من الأُسُر في إسبانيا وبلدان أخرى إلى اليوم  
 تحمل هذا الاسم العنصري «Matamoros قاتل المسلمين»  
 الذي ينبغي أن يخفي تماماً من لوائح تسجيل الحالة المدنيّة.  
 كما أنّ عاهل إسبانيا يَدَأُبُّ على توسيم كبار الشخصيات  
 المخلصة للعرش الإسباني بوسام فارس سانتياغو. لقد وَضَعَتْ  
 هذه الندوة الأصبَحَ على سبب إخفاق التعايش بين الديانتين  
 السماويتين على الأرض نفسها، وحاولت أن تتدارك أخطاء  
 الماضي بإجراء مصالحة وتنظيم رحلة لها رمزيّة كبيرة مشياً على  
 الأقدام من مركز روحي مسيحي هو سانتياغو، نحو مركز  
 روحي سابق للإسلام هو قرطبة التي كانت حاضرة الخلافة في  
 الأندلس، ولم تعد كذلك اليوم. وكنتُ قد اقترحتُ ضمن  
 توصيات الندوة أن تمتدَّ هذه المبادرة السلميّة بتنظيم مثل هذه  
 الرحلات إلى مراكزٍ روحيّة حيّة في بلاد الإسلام، وفعلاً  
 عُقِدَتْ ندوة أخرى في السنة الموالية، ومشى المشاركون إلى  
 أعلى قمّة جبل العَلَمِ بشمالي المغرب، حيث يرقُدُ الوليّ  
 الصالح المجاهد الشهيد مولاي عبد السلام بن مشيش.

والدليل على راهنية هذه القضية، واستمرار احتقان العلاقات بين المسلمين والكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا بسبب جامع قرطبة، هو لما استغلّت أسقفية قرطبة وجودَ قانونِ يَسَمَحُ بتسجيل ملكية المعابد بأثمنة رمزية، فقامت في تَكْتُمِ سَافِرٍ بتسجيل جامع قرطبة في ملكيتها بثمان رمزي هو ٣٠ يُورُو سنة ٢٠٠٦، بينما تُدِرُّ مداخل السياحة الثقافية إلى هذه المعلّمة الملايين من اليُورُو سنويًا. وسيصدر قرارًا بتحويل ملكية الجامع رسميًا إلى أسقفية الكنيسة الكاثوليكية في قرطبة سنة ٢٠١٦، ما لم يَتِمَّ التَّدخُلُ لمنع هذه السرقة الحضارية الموصوفة، سيّما وأنّ الجامع مسجّل في لائحة التراث الثقافي العالمي. وقد سارعت العديد من الجمعيات والهيئات المدنية الإسبانية لوقف انتقال هذه الملكية، وأرسلت تواقيع آلاف المواطنين والمثقفين والأكاديميين بهذا الشأن إلى حكومة الأندلس. وإنني بمناسبة صدور هذه الرواية أهيّبُ بمنظمة اليونسكو والإيسيسكو إلى التنسيق والعمل لوقف انتقال ملكية جامع قرطبة إلى الكنيسة، بموجب المبدأ الذي تَمَّ على أساسه تسجيلُ هذه المعلّمة تراثًا إنسانيًا عالميًا. ولا شكّ أنّ لجنة التراث العالمي والإسلامي مطالبان بالتدخّل العاجل عند مَنْ يَهْمُهُ الأمرُ إلى الطَّعْنِ في شرعية هذا التَّمَلُّكِ قبل أن يصبحَ ساري المفعول سنة ٢٠١٦، والذي بدأت إرهاباته الأولى تَتَضَحُّ بإقدام السلطات الكنسية على تغيير اسم الجامع من مسجد قرطبة إلى كاتدرائية قرطبة. كما أدعو إلى إعادة الاعتبار لهذه المعلّمة الحضارية وفتحها

أمام الجميع، ولا سيّما مسلمي إسبانيا الذين لهم الحقّ في ممارسة شعائرهم، على الوجه الذي يجعل من جامع قرطبة تراثًا إنسانيًا حيًّا ومفتوحًا يَنْبُضُ بِسِرِّ ما مِنْ أَجْله تَمَّ إنشاؤه منذ سنة ٩٢ للهجرة.

## لماذا ابن حزم الظاهري:

إنّ هذه الروايات في عمومها تحتفل دومًا بمن صنعوا تراثنا وتاريخنا وما زالوا أحياءً بيننا بفضل ما تركوه. وحيث إنّنا في مجال الأدب العربي، فهذه الروايات تحتفل أساسًا بمن فَتَقُوا أسرارَ اللسان العربي وَفَسَّحُوا فيه بالقول حتى قِيلَ عن ابن حزم بَطَلِ هذا العمل: «سيفُ الحجاجِ ولسانُ ابن حزم شقيقان»، ومن ألقابه «مَنْجِنِقُ العرب» و«منجنيق المغرب» لِقُوَّةِ لسانه الذي كان يَصُكُّ مُناوِئِهِ صَكًّا لا يُبْقِي عليهم ولا يَذَر. ولعلّ سائلًا يُسأل عن السبب في تخصيص رواية لعلم لم يُعرَف بالعرفان، بل على العكس من ذلك تمامًا، فهو إمام أئمة الظاهر، بينما مشروع الرواية العرفانية ذابَّ على اختيار قامات روحية عرفانية. والجواب عن هذا التساؤل هو أنّ ابن حزم ترك أثرًا واضحًا عند كثير من العارفين وعلى رأسهم محيي الدين ابن العربي، أحد أكبر أئمة العرفان الذي كان يميل إلى القول بالظاهر على الرّغم من عرفانيته المشهورة حتى نسبة الناس إلى ابن حزم، وقد ردّد على ذلك بقوله:

نَسَبُونِي إِلَى ابْنِ حَزْمٍ وَإِنِّي لَسْتُ مِمَّنْ يَقُولُ قَالَ ابْنُ حَزْمٍ  
 لَا وَلَا غَيْرُهُ فَإِنَّ مَقَالِي قَالَ نَصُّ الْكِتَابِ، ذَلِكَ عِلْمِي  
 أَوْ يَقُولُ الرَّسُولُ لَوْ أَجْمَعَ الْخَلْقَ لَقُ عَلَى مَا أَقُولُ، ذَلِكَ حُكْمِي  
 كَمَا أَنَّ يَعْقُوبَ الْمَنْصُورَ الْمُوَحَّدِي، أَكْبَرَ خُلَفَاءِ دَوْلَةِ  
 الْمُوَحَّدِينَ كَانَ يَمِيلُ إِلَى الْقَوْلِ بِالظَّاهِرِ وَيُجِلُّ ابْنَ حَزْمٍ، وَكَانَ  
 يُرِيدُ أَنْ يَحْمَلَ النَّاسَ عَلَى كِتَابِهِ وَمَذْهَبِهِ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ  
 فِي قَرْيَةٍ مِنْتَ لَيْشَمِ الصَّغِيرَةِ، وَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ «عَجَبًا لِهَذَا  
 الْمَوْضِعِ، يَخْرُجُ مِنْهُ مِثْلُ هَذَا الْعَالِمِ» ثُمَّ قَالَ: «كُلُّ الْعُلَمَاءِ  
 عِيَالٌ عَلَى ابْنِ حَزْمٍ».

إِنَّ أَيَّ حَضَارَةٍ كَيْفَمَا كَانَتْ لَا تَقُومُ عَلَى مُكَوَّنٍ فِكْرِي  
 بَعِينَهُ بَلْ تَتَأَزَّرُ فِيهَا مَكُونَاتٌ أُخْرَى فِي الْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ، لَكِنْ  
 تَبْقَى السُّمَّةُ الْأَبْرَزُ فِي اخْتِيَارِ هَذِهِ الْقَامَاتِ أَنَّهَا مُوسُوعِيَّةٌ فِي  
 عُمُومِهَا تَجْمَعُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، أَوْ لِنَقْلِ، بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ  
 وَالسَّلُوكِ. إِنَّ الظَّاهِرَ لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا إِذَا تَكَامَلَ مَعَ الْبَاطِنِ،  
 فَكُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا يُؤَسِّسُ هَوِيَّتَهُ فِي الْآخِرِ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ  
 وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾، وَقَدْ وَرَثَ ابْنُ حَزْمٍ مِنْ حَقِيقَةِ قَوْلِ الصَّادِقِ  
 ﴿أَمِرْتُ أَنْ أَحْكَمَ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ﴾، فَالْحَكْمُ فِي  
 الْمَعَامَلَاتِ يَكُونُ بِالظَّاهِرِ مَعَ الْخَلْقِ، وَبِاطْنِهِ لِلْحَقِّ.

إِنَّ احْتِفَالَ هَذِهِ الرِّوَايَةِ بِهَذِهِ الْقَامَاتِ هُوَ احْتِفَالٌ بِمَنْ صَنَعَ  
 تَارِيخَنَا، وَصَنَعَ لُغَةَ هَذَا التَّارِيخِ وَأَبْدَعَ فِيهَا إِبْدَاعًا أَسْرَ الْأَجْيَالِ  
 مِنَ النَّاسِ عَبَّرَ التَّارِيخَ وَمَا زَالَ. لَقَدْ احْتَفَلَتْ إِسْبَانِيَا فِي يُونِيُو

١٩٦٣ بابن حزم في الذكرى المئوية التاسعة لوفاته، ووضعت له نُصْبًا تَذْكَارِيًّا على باب إشبيلية غير بعيدٍ عن البيت الذي كان يسكنه في بلاطٍ مُغيث من مدينة قرطبة. وقد كُتِبَ على قاعدة النُصْب: «بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة أبي محمّد علي بن أحمد بن حزم، تُقدِّمُ قرطبةُ أصدقَ التحية لمن تعتبره ابنًا مِنْ أعظم أبنائها». وحيث إننا مُتَهَمُّونُ بالإحياء، فحريٌّ بنا أن نحتفل نحن كذلك بابن حزم بعد مرور ١٠٢٠ سنة على ولادته (٩٩٤ - ٢٠١٤) من خلال هذا العمل كما دأبتُ على ذلك في أعمالي السابقة التي خصّصتها لقمات كبرى مثل الغزالي وابن الخطيب وغيرهما.

إنّ رسالة ابن حزم التي ينبغي أن نستحضرها اليوم هي أنّه بقدر ما خاض من معارك فكرية شرسة، إلّا أنّه أقام مذهبه الفكري والسلوكي على شِرعَةِ الحُبِّ كما يتجلّى ذلك بكلّ وضوح من خلال كتابه الماتع «طوق الحمامة»، الذي أعلن فيه بكلّ صراحة وبلا مُواربة أو تَصَاوُن حُبِّه الإنساني في اعترافٍ ذاتي نادرٍ يَنْتَزِعُ مِنَّا الإعجابَ والإكبارَ والتقدير. وما أحوَجنا اليومَ إلى نشر الحُبِّ بين الناس وتعليمه لأبنائنا، وتربيتهم على محبة الخير للعالمين، حين نرى كلَّ الفظائع والدماء والقذارات التي يَرْجُسُ بها المشهَدُ العالمي التي تتناقَله الأخبار كلَّ يوم. إنّ رسالة نبيّ الإسلام إلى العالمين رسالة محبة ومعرفة، فلا حياةَ ولا عيشَ اليومَ إلّا بتربية الأجيال على شُرْبِ صَهْبَاءِ

معرفة الحبّ. وإن نحن لم نُبيِّن هذه الرسالة الحضاريّة  
السامية، فإننا نكون قد ضيّعنا ما لأجله عاش ومات ابن حزم  
ومن كان على شاكلته:

فلا عيشَ في الدُّنيا لمن عاشَ صاحبًا      ومن لم يمتْ سكرًا بها فاته الحزْمُ  
د. عبد الإله بن عرفة

الرباط، المغرب





## حِسَابُ الْجُمْلِ الْكَبِيرِ

الترتيب المغربي		الترتيب المشرقي		الترتيب النَّفْسِي	
1	ا	1	ا	1	ء
2	ب	2	ب	2	هـ
3	ج	3	ج	3	ع
4	د	4	د	4	ح
5	هـ	5	هـ	5	غ
6	و	6	و	6	خ
7	ز	7	ز	7	ق
8	ح	8	ح	8	ك
9	ط	9	ط	9	ج
10	ي	10	ي	10	ش

الترتيب المغربي		الترتيب المشرقي		الترتيب النفسي	
20	ك	20	ك	11	ي
30	ل	30	ل	12	ض
40	م	40	م	13	ل
50	ن	50	ن	14	ن
60	ص	60	س	15	ر
70	ع	70	ع	16	ط
80	ف	80	ف	17	د
90	ض	90	ص	18	ت
100	ق	100	ق	19	ز
200	ر	200	ر	20	س
300	س	300	ش	21	ص
400	ت	400	ت	22	ظ
500	ث	500	ث	23	ث
600	خ	600	خ	24	ذ
700	ذ	700	ذ	25	ف
800	ظ	800	ض	26	ب
900	غ	900	ظ	27	م
1000	ش	1000	غ	28	و

ملحوظة: عدد «طسم» ١٠٩ بالمشرقي الكبير، وهو عدد

الاسم الإلهي نفسه «الحكيم» المرتبط بالحكمة والحساب، وهو أيضًا عدد كلمة «العدد». وقد ذكر ابن العربي الحاتمي أنّ عدد التجليات ١٠٩ في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه. وأيضًا في الباب ١٠٩ من الفتوحات المكيّة تكلم على أهميّة الأعداد في المجال العرفاني، وعلاقتها بحروف الجُمَّل. فكلّ الأعداد منحصرة بين ١ و ٩ و ٠، والانتقال من مرتبة الآحاد إلى العشرات ثم المئات فالآلاف يتمّ بواسطة العشرة، أي بالصفير الأوسط في ١٠٩. وهذا العدد لا يتضمّن فقط كلّ الأعداد، وإنّما هو أيضًا مساو لمجموع أعداد الحروف الثمانية والعشرين، ولهذا كان عدد «طاسين ميم» بالمغربي الصغير ٢٨. وبناء عليه، فالعدد ١٠٩ أنسب الأعداد لتمثيل مجمل التجليات الوجوديّة الكميّة والكيفيّة. وعلاقة يبطل هذه الرواية، فإنّ عدد «ابن حزم» بإشباع الألف حركتين أيضًا ١٠٩، كما أنّ عدد اسمه بالصغير هو ٢٨ بإشباع الألف حركتين. وهو عدد «طاسين ميم» بالجُمَّل الصغير. فكانت أنسب فاتحة نورانيّة لابن حزم هي «طسم»، التي افتتحت سورتي الشعراء والقصص. وللسرّ العربي في الشعر والأدب الإلهي علاقة مع سورة الشعراء بأوزانها ونظّمها وألحانها، كما لسورة القصص علاقة بأسرار الكتابة والنثر. وابن حزم كان فارس النثر والشعر. فكلّ نثر وشعر مرجعه إلى الأعداد والحروف المطويّة في هذه الفاتحة النورانيّة «طسم» وعددها ١٠٩. فالشعر هو الجوهر الثابت والنثر هو الفرع النابت، ووراء هذه الإلماعات ما يُطوى ولا يُنشر.



## إصدارات للكاتب

- رواية طوق سرّ المحبّة، دار الآداب، بيروت، لبنان ٢٠١٥.
- رواية ياسين قلب الخلافة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٣.
- رواية جبل قاف حول سيرة ابن العربي الحاتمي، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، ٢٠١٣.
- رواية ابن الخطيب في روضة طه، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٢.
- رواية طواسين الغزالي، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١١.
- رواية الحواميم، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ٢٠١٠.

- رواية بلاد صاد، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.
- رواية بحر نون، دار الأمان، الرباط، المغرب، ٢٠٠٧.
- رواية جبل قاف، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢.

\* \* \*

- جماليّات السرد في الرواية العرفانيّة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٤.
- لماذا نفرح بالمصطفى، رابطة مجمع الصلاح، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب ٢٠١٣.
- الرواية العرفانيّة في تجربة عبد الإله بن عرفة، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب، ٢٠١٢.
- السماع الصوفي، الرابطة المحمّديّة للعلماء، الرباط، المغرب، ٢٠١٢.
- دراسة وتحقيق لكتاب: «الشهاب موعظة لأولي الألباب» لابن سيدبونة الخزاعي الأندلسي (٥٢٤ - ٦٢٤ هـ)، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥.
- كتاب حول علم الدلالة ونشأة المفاهيم في اللغات، (بالفرنسيّة)، دار المنشورات الجامعيّة، ليل، فرنسا، ١٩٩٧.

## فهرس المحتويات

٧	إهداء
١٥	كتاب الطاء
١٢٩	كتاب السين
٢٢١	كتاب الميم
٣٣٧	بيان أدبي حول القداسة في اللغة
٣٦١	حسابُ الجُمَّل الكبير
٣٦٥	إصدارات الكاتب
٣٦٧	فهرس المحتويات

أيها المحبّ، كيفما كنت، ومن حيثما أتيت، تعال.. تعال إلينا، دَعِ الحَبَّ يفعلْ بك ما شاء... وَيُحْيِلْكَ هَبَاءً يَتَسَمَّهُ كُلُّ عاشِقٍ فِي الكونِ. دَعِ الحَبَّ يَأْتِي، فمهما فعلتْ فستري أَنَّ العَشْبَ يَنْبُتُ على رَوْثِ الدَّوَابِّ. احْتَرِقِ بِالحَبِّ أَيُّهَا العاشِقُ، وَعَدَّ رَمَادًا بين الأَحْجارِ، لا تَبَالِ، فَمِنَ الرَّمَادِ تُوَلَّدُ شَرَارَةُ العَشِقِ. سِرِّ على الأَرْضِ هَوِيْنَا، وَتَذَكَّرْ أَنَّكَ تَمْشِي على أجسادِ العاشِقِينَ قَبْلَكَ، فَأرواحُهُمْ لا زالت تَسْكُنُ هذا الكونَ الفسِيحَ، وَقلوبُهُمْ لا زالت تَرَجُّفُ بحكاياتِ حُبِّهِمُ القَدِيمَةِ. فلا تُسرِّعْ، ستجدُ الحَبَّ على الطَّرِيقِ. ومهما أَخْطَأْتَ وَأَذْنَبْتَ، فنحن نَقْبُلُكَ فِي رُبوعِنا، تعالِ إلينا، فكلُّ يَوْمٍ هو يَوْمٌ لِقائِكَ، وَكُلُّ حُضُورٍ هو موعِدٌ إِيَّائِكَ. ليس للحَبِّ وَقْتٌ سِوَى الحَبِّ...

هذه الرواية تتحدث عن سيرة ابن حزم، وعن الفترة التاريخية المتقلبة التي عايش فيها سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وظهور ملوك الطوائف. لكن رسالة ابن حزم التي تركها لنا هي وصيته لكي نحكم الحَبَّ في حياتنا مهما يكن حجمُ المعاناة. لقد كان ابن حزم خصمًا فكريًا وسياسيًا صليباً لكثير من أهل عصره وغيرهم، لكنه ثبت على ما يعتقد، وفي الأخير رحل وهو يهمس لنا — في رقعة صادقة وصرحة نادرة — أَنَّ أسمى شيء هو الحَبِّ. كما تطرح هذه الرواية جذور الصراع الذي حصل بين المسلمين وأوروبا المسيحية حول هدم مدينة كومبوستيلا وكاتدرائيتها من قبل الدولة العامرية الناشئة على أنقاض الخلافة الأموية، وقضية مسجد قرطبة اليوم حين عمدت أسقفية قرطبة إلى الاستيلاء عليه وتغيير اسمه إلى "كاتدرائية قرطبة"، وتعمل من أجل تغيير هويته الحضارية والروحية التاريخية رغم كونه مسجلاً باعتباره مسجداً على لائحة التراث الثقافي العالمي.

ISBN: 978-9953-89-479-9



9 789953 894799

دار الآداب

هاتف: ٠١ / ٨٦١٦٣٣

٠١ / ٧٩٥١٣٥

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت